المناهل



13

المناهل



تصدرها
وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية
الرباط - المغرب

العدد الثالث عشر
السنة الخامسة

محرم 1399
دجنبر 1978

فهرس

عبد الملك المعتصم

بطل معركة وادي المخازن

عبد الله كنون

هو رابع أولاد السلطان السعدي محمد الشيخ الملقب بالمهدي ، واحد من ولي الملك منهم ، وكان هذا السلطان منجبا أرسى قواعد الدولة السعدية بعزيمته وأولاده الانجاد الذين كانوا يشدون عضده ويسعون فى نجاح أغراضه ، فأكبرهم وهو محمد الحران كان شجاعا شهما يتقدم للحروب ولم يفتح لابيه من البلاد الا ما فتح على يده كما يقول الافراني ، وعبد القادر كان وزيرا لابيه ، وهذان توفيا في حياة والدهما ، وعبد الله الغالب ، وصاحب الترجمة ، وأحمد المنصور المعروف بالذهبي ثلاثتهم ولوا الملك ، وعثمان ، وعبد المومن ، وعمر ، ولهم جميعا ذكر فى التاريخ.

وحكى العلامة المنجور انه كان يوما بمجلس السلطان محمد الشيخ هذا ، وقد حضر عنده أولاده الصناديد محمد الحران وعبد الله وعبد القادر فدخل الشيخ ابو عبد الله اليسيتني فلما نظر الى بنيه حواليه أنشد هذا البيت وهو من شعر الفرزدق :

فقلت عسى أن تبصريني كانما
بني حوالي ، الاسود الحوارد

فأعجب ذلك السلطان وأولاده .

ويكنى المترجم أبا مروان ، ويلقب بالغازي ، وهـو من الالقـاب التركية ، كما يلقب بالمعتصم بالله ، وهو من القاب الخلفاء ، وبه شهر ، ويعرف عند العامة بسيدي ملوك .

نشاتـــه وتكوينـــه

من الواضح الجلي أن البيئة التي نشأ فيها مترجمنا كانت بيئة عمل وجد واجتهاد لتوطيد أركان الدولة ومقاومة خصومها الداخليين وأعدائها الخارجيين ، وأن عميدها الذي هو محمد الشيخ كان قـدوة أبنائـه وأسوتهم فى النضال والسعي من أجل تحقيق الاهـداف العليا لقيـام دولتهم وبروز أسرتهم على مسرح التاريخ .

وأول هذه الاهداف هو توحيد الصفوف وجمع الكلمة لمكافحـة الاحتلال الاجنبي وتطهير الشواطىء المغربية من رجسه . فقـد كـان البرتغاليون وهم فى اوج عظمتهم ، اهتبلوا فترة الضعف الذي طرأ على الدولة المغربية فهاجموا مدن سبتة والقصر الصغير وأصيلا وطنجـة واحتلوها كما احتلوا حصن فونتى فى الجنوب وآسفي وازمور والجديدة ، واحتل الاسبان مدينة مليلية ، وكان القصد هو تطويق المغرب وايجـاد حزام للسلام فى الثغور المغربية نفسها يحمي الجزيرة الايبيرية من هجوم المسلمين ومحاولتهم العودة الى الفردوس المفقود .

ومع أن قيام الاشراف السعديين انما كان لدرء عادية العدو البرتغالي على الجنوب واقليم سوس بالخصوص ، فان نجاحهم فى طرده من حصن فونتى والضغط عليه حتى انسحب من آسفي وازمور ، فتح لهم بـاب الامل فى مد حركتهم الجهادية الى الشمال وهذا كان يقضي عليهم بمنازلة أواخر ملوك بني وطاس وتصفية دولتهم ، وكل ذلك تم على يد السلطـان محمد الشيخ المهدي الذي وحد المغرب تحت راية السعديين شمـالا وجنوبا ، وطرد البرتغاليين من أصيلا والقصر الصغير كما طردهم مـن

الثغور الجنوبية بحيث لم يبق بيدهم سوى طنجة وسبتة والجديدة . ففي هذه المدرسة تخرج عبد الملك ومنها درج ، وبأحداثها تمـــرس ، وعلى وقائعها ضبط أمر الملك وتدبير الدولة .. وأما الشؤون الادارية فقـــد باشرها وهو وال على اقليم تافيلالت من قبل والده وتكـــون التكويـــن المطلـــوب فيهـــا .

فقد كان والده لما استتب له ملك المغرب ، أمر أرفع أولاده عنـــه وأعزهم لديه وهو مولاي عبد الله على فاس كما في تاريخ الدولة السعدية المجهول المؤلف ، وأمر ولده مولاي عبد المومن على مكناس ، وامر ولده مولاي عبد الملك على سجلماسة وأصحبه أخاه مولاي أحمد ، ومن هنـــا نشأت الصلة المتينة وما طبعها من حسن التفاهم بين الاخوين عبد الملك المعتصم واحمد المنصور ، ثم زادها قوة اغترابهما في الجزائر أيام ملك اخيهما عبد الله الغالب ، كما سنبينه ، وكان ذلك الاغتراب فرصة ايضا لتكميل تكوينهما وفتح آفاق جديدة من المعرفة أمامهما ، ولا سيما بالنسبة لعبد الملك الذي تعلم التركية والايطالية اضافة الى الاسبانية التي ربمـــا كان قد تعلمها في المغرب ، وتعلم من ذلك ان مترجمنا ذا شخصية قوية صاغتها التجارب وصقلتها تقلبات الاحوال ، ولعل ما استفاده من سيرة والده ، خصوصا في حركتيه الدائبة وتصديه للغزاة الاجانب كان مـــن أعظم مقوماته الذاتية .

اغتـــرابـــــــــه

تغرب المترجم هو وأخوه أحمد بالجزائر أيام اخيهما عبد الله الغالب، وكأنه آنس من جانبه سوءا أو من ابنه محمد الذي كان خليفته على فاس ، كما كان هو خليفة لابيهم عليها ، وتقدم قول المؤرخ المجهول لدولتهم في عبد الله انه كان ارفع أولاد محمد الشيخ عنده وأعزهم لديه ومثل ذلـــك يقال في حق عبد الله بالنسبة لولده محمد الذي قدمـــه على اخوتـــه واستخلفه على فاس ولئن كان عبد الملك توجس خيفة من اخيه عبد الله وولده محمد ، فلأن استفادته من تصرفات والده كانت عامة ، وفي حالة الايجاب والسلب على السواء ، فهو قد رأى ما فعل والده باخيه أحمد الاعرج

الذي كان أكبر منه وأسبق الى الولاية ، فأزاحه عنها وتقبض عليه وبقـــي رهن الاعتقال الى أن قضى عليه محمد ابن أخيهما عبد الله حين اغتيـــل والدهم محمد الشيخ بيد الاتراك ، وكان عبد الملك واخوه احمـــد اذذاك بالجزائر لاجئين فلحق بهما اخوهما عبد المومن ، عند اغتيال محمد ابن اخيهم عبد القادر فيما يظهر ، وكان هذا قد تصدر في أيام عبد الله وهـو وال على مكناس وحسن تصرفه ومالت أشياخ القبائل اليه بحيث لم يكن لمحمد بن عبد الله والي فاس ظهور معه ، فلما رأى ذلك عبد الله الغالب خاف من مزاحمته أو مزاحمة ابنه على الملك فغدره وقتله ، وهكذا كان دم الاخوة عند السعديين هدرا ، فمن حق مترجمنا ان يخاف على نفسه بل من حصافته وأخذه بالحزم أن يفر الى الجزائر حيث يأمن غدر أخيه او ابن هذا الاخ الذي بدأت جرأته على الدماء تظهر منذ اول يـــوم مـــن ولايـــة أبيـــه .

وتظهر لنا شدة حذر عبد الملك من مراحل اغترابه ، فهو اولا لجا الى تلمسان ، ثم انتقل الى الجزائر ، ولما استدف أمر السلطنة لاخيـــه عبد الله وظهر منه ما ظهر ، لجا الى اسطنبول ومعه امه سحابة الرحمانية فاستقر في كنف السلطان العثماني مؤملا أن يمده بما يعينه على دخـــول المغرب وزحزحة أخيه عن العرش ، ولكن عبد الله كان على صلة حسنـــة بالعثمانيين وقد اصلح ما أفسده والده معهم ، فلم يجبه السلطان العثماني الى طلبه ، لكن لما بلغ عيث الاسبان بتونس أشده ، وفكر السلطان سليم الثاني في توجيه حملة عسكرية لفتحها وطرد الاسبان منها انتدب عبـــد الملك لمرافقة الحملة التي كان على رأسها الوزير سنان باشا ، قال المؤرخ المجهول لدولتهم : ((وذهب معه مولاي عبد الملك (بفركاطة) كانت عنده من ثمانية عشر مقذافا ، وكان معه بضعة وثلاثون رجلا فقـــط)) قال : ((ورأيت رجلين من القوم الذين كانوا مع مولاي عبد الملـــك في حلـــق الوادي احدهما كراوي من طريانة ، حومة بطالعة فاس البالي اسمه عبد الله ، والآخر مكناسي اسمه عبد الرحمن ، وحدثاني بحقيقة الخبر وكيف كان القتال في البر والبحر)) .

وبعد أن أشار المؤرخ المذكور الى النصر الحاسم الذي حققتـــه الحملة على الاسبان وبقايا الحفصيين الذين احتموا بهم ، ذكـــر تشوف السلطان الى أخبار الحملة وأنه كان آناء الليل وأطراف النهار يراقب البحر، وأن الغزاة الاتراك جهزوا ثلاثة مراكب بحرية لابلاغ خبر الفتح الى السلطان وقال : « عند ذلك جاء مولاي عبد الملك الى أصحابه الذين كانوا معه وقال لهم اخرجوا بهذه (الفركاطة) الى اصطنبول واذهبوا بكتابي الى امي بدار السلطان وادفعوه لها ان سبقتم المراكب الثلاثة وان سبقتكم فلا تدفعوه لها وأوصاهم على الحزم والعزم فساروا ليلا قبل سفر مراكب السلطان وجدوا الى ان وصلوا قبل هذه المراكب ودفعوا الكتاب الى أم مولاي عبد الملك فسارت مسرعة الى السلطان فوجدته على ظهر (السراية) يراقب البحر فدنت منه بالامر وبشرته بالفتح فقال لها ومن اين لك بهذا ؟ فدفعت له الكتاب فبقي متحيرا طول ليلته ومن الغد الى العصر وصل أحد المراكب الثلاثة فوجد الخبر كما انهته اليه أم مولاي عبد الملك وكان هذا سببا في انجاز طلبه السابق باصدار الامر الى والي الجزائر ليساعد مولاي عبد الملك على استرجاع ملك ابيه بالمغرب » ... الخ .

وكان فتح تونس في 25 جمادى الاولى عام 981 كما في تواريخهـــا وتواريخ الدولة العثمانية وذلك قبل وفاة عبد الله الغالب بنحو خمســـة أشهر ، لان وفاته كانت في آخر رمضان سنة 981 وقد لاحظ ذلك المؤرخ الناصري واستشكل ما ذكره المؤرخون من أن رحلة عبـــد الملـــك الى اصطنبول كانت بعد وفاة أخيه عبد الله وتولي ابنـــه محمد ، فان ذلـــك لا يصح الا على القول بأن فتح تونس كان عام 982 وهـــو ما في التاريـــخ المجهول المؤلف الذي يظهر ان الافراني اعتمد عليه في ذلك كما اعتمده في كون السلطان الذي استنجد به عبد الملك هو السلطان مراد وكل ذلك لا يصح وما ذكرناه بالاعتماد على المؤرخ المذكور مع تصحيح التاريخ واســـم السلطان بمراجعة التواريخ العامة هو الذي يحل استشكـــال صاحـــب الاستقصا ، على ان تمر روايات اخرى في كيفية استنجاد عبـــد الملـــك بالسلطان العثماني وقد اقتصرنا منها على الرواية الشهيرة .

دخوله الىآ لمغرب معززا بالجيش التركي

عادت السيدة سحابة الرحمانية أم عبد الملك الى الجزائر ، ومعها (فرمان) السلطان الى والي الجزائر يأمره بتجهيز فرقـــة من الجيـــش التركي لمساعدة عبد الملك على استرجاع ملك أبيه ، وهكذا ادت هـــذه السيدة مهمتها كما يجب وسجلت اسمها في تاريخ المغرب بشرف وكانت من أهم العوامل على نجاح قضية ابنها الذي أعطـــى المثـــل على انه في مستوى الاحداث الجسام التي تعيشها بلاده ، بحيويته وشهامته واستغلاله لجميع الظروف المواتية والفرص السانحة ، وقد حدثت بالمغـــرب في مدة غيابه احداث مهمة رجحت كفه ترشيحه وأهليته للملك ، وأعظمها موت اخيه عبد الله الغالب وتولية ابنه محمد الذي تلقب بالمتوكل وهو ابن أمة وكان متكبرا متعجرفا ومع ذلك فان أباه كان يقدمه حتى على أعمامه وجعله خليفته على فاس متجاوزا بذلك ما استقر عليه العرف في هذه الدولة من تقديم الاكبر سنا على من دونه كما كان الحال في دولة آل عثمان ولعل هذا مما حمل سلطانهم على مساعدة عبد الملك بالاضافة الى لجوئـــه اليهـــم وخدمته لدولتهم . وتقدم المترجم (بالفرمان) الى والي الجزائر فقال له : وأين المال لتجهيز الجيش ؟ فقال له اسلفني وعلي القضاء ، فبعث معـــه اربعة آلاف جندي واتفق معهم على أن يعطيهم عشرة آلاف لكل مرحلة . وفي التاريخ المجهول المؤلف ان تكلفة تجهيز الجيش بلغت خمسمائة ألف، يعني مثقالا ، وأن وزن المثقال يجيىء أربع أواق ونصفا من الذهـــب . وسار الجيش حتى بلغ ناحية فاس من غير ان يلقى في طريقه إي صعوبة وكان عبد الملك يراسل وجوه الدولة ورؤساء الجنود ، وكانت قلوبهم معه على ابن اخيه ، فلم يشعر هذا الا وقد أطبق عليه عمه مع الجيش التركي فخرج لمقابلته ، فمال معظم رؤساء جنوده الى عمه ووقعت الكرة عليه ، ففر الى مراكش ودخل عبد الملك فاس فبايعه اهلها واقام بها أياما ودع فيها جيش الترك بعدما وفى لهم بما وعدهم به واستصلح جنوده ثم نهض لملاحقة ابن اخيه الى مراكش وكان دخوله الى فاس في 7 ذي الحجـــة سنة 983 فهو اذن تاريخ ابتداء ملكه .

ولما سمع المتوكل بشخوص عمه الى مراكش تهيأ لمنازلته ولكنه انهزم ايضا وتبعه عمه احمد المنصور خليفة عبد الملك المعتصم ففر عنها الى سوس ودخلها أحمد نائبا عن أخيه وأخذ البيعة له على أهلها ثم لحق به عبد الملك واقام بها اياما ثم خرج في طلب ابن اخيه واستخلف اخاه احمد المنصور على فاس ، فلم يشعر الا وقد خالفه المتوكل على مراكش فدخلها باتفاق اهلها ، فعاد المعتصم وحاصره بها واستقدم اخاه احمد من فاس فاتاه بجيش منها وعندئذ فر المتوكل مرة أخرى الى سوس ومنها الى بادس ثم الى سبتة ثم أتى طنجة مستصرخا بملك البرتغال وكانت طنجة تابعة له .

الاحتماء بالاجانب

لم يكن الاحتماء بالاجانب ، وأعني غير المسلمين ، علامة صحة قط ، ومثال ملوك الطوائف ينبغي أن لا يغيب عن أذهاننا ، ولم تلاحظ هذه الظاهرة السيئة في المغرب قبل هذا العهد ، فالغالب اعطى بادس للاسبان احتماء بهم من الاتراك ، وابنه المتوكل هذا اتى بالبرتغال للمغرب ، والمامون بن المنصور سلم العرائش للاسبان مقابل نجدتهم له ، وكان الوطاسيون الذين قاتلهم السعديون في حالة شديدة من الاجهاد والضعف ومع ذلك لم يتطلع منهم احد الى مهادنة العدو ، فاحرى الى التسليم له أو الانتصار به على من يناوئهم . لهذا لقي عمل المتوكل استنكارا عاما من جميع طبقات الشعب ومالت قلوب الناس عنه وعزموا على مقاومته بكل قوة ..

وقد استحس هو هذا النفور والسخط فبعث برسالة الى اعيان المغرب من العلماء والاشراف والرؤساء ياخذ عليهم نقض بيعته ويقول انه ما استصرخ بالنصارى حتى عدم النصرة من المسلمين فاجابه العلماء برسالة شهيرة أبطلت كل حججه وفندت جميع دعاويه ، ومن جملة ما قالوا له ان جده الاكبر محمد القائم كان عهد لاولاده أن لا يلي الملك منهم ولا من اولادهم الا الاكبر فالاكبر ، وأن والده الغالب الفي ذلك وعهد اليه ، والآن عاد الحق لمن هو له وهو عمه عبد الملك اكبرهم بعد ابيه . وقالوا

له انما تلزمنا نصرتك لو اقمت بيننا ولكنك هربت واستعنت بالنصارى وقد قال النبي (ص) لرجل من المشركين عرض عليه نصرتـــه : انـــي لا استعين بمشرك وهكذا كانت الرسالة فى المستوى الذي لم يبق لـــه عذرا ولا اعفاه من مسؤوليته .

وكان المتوكل لما حل ببادس التي سلمها والده للاسبان طمـــع فى هؤلاء ان يعينوه على عمه ، وملك اسبانيا يومئذ هو فيليب الثاني ، فرفض هذا اعانته وضيق عليه فى مقامه ببادس فلم يجد بدا من الانتقـــال الى طنجة والتفاوض مع البرتغاليين فى الدخول معه الى المغرب لمحاربة عمه. وقد وجد طلبه هذا اذنا صاغية عند ملك البرتغال الشاب ضون سباستيان الذي تحتل قواته مدن سبتة وطنجة والجديدة ، طمعا فى اكتساح المغرب ومراغمة دولته التي اخرجته من عدة مواقع كان يحتلهـــا فى الجنـــوب والشمال. ولكن شرط عليه لمساعدته ان تكون السواحل للبرتغال وما وراءها للمتوكل فقبل وبدا بتسليم اصيلا التي استرجعت من عهد قريب لتكـــون مرفأ للاسطول البرتغالي ومنطلقا للجيش المحارب ، وانفصل سباستيـــان من الاشبونة فعرج على قادس ، ومنها الى طنجة ثم اصيلا فى عمارة بحرية هائلة ، وجيش يبلغ تعداده فى اقل تقدير 80 000 مقاتل منهـــم 20 000 اسباني مما امده به خاله فيليب الثاني ملك اسبانيا بعد ان نصحه بعـــدم اقتحام هذه المغامرة فلما لم يقبل نصحه لم يسعه الا معونته ، ومنهم 3000 الماني ومثلهم من الطليان و 4000 من جند البابا صاحب روما ومتطوعون من قدماء المحاربين الاسبان وغيرهم ، الى القوات البرتغالية التي هـــي العمدة ومعظم الجيش . وعلى حسب ما فى التاريخ المجهول المؤلف ان 20.000 منهم بقوا فى الاسطول لم ينزلوا الى البر ، ولعل ذلك كان من الاسباب التي جعلت عبد الملك يترك سباستيان يتقدم داخل البلاد حتى يحول بينه وبين اسطوله ، وكان مع هذا الجيش من العتاد الحربي مئتان من الانفاض اي المدافع و 1500 من الخيل وعدد كبير من الكراريط اي العربات ، وذلك بالاضافة الى نحو 300 رجل من اصحاب المتوكـل الذي كان يعتقد ان جيش عمه سينضم اليه عند اول مواجهة .

عبـــد الملـــك يستعـــــد

لم تستقر النوى بالملك عبد الملك في عاصمة مراكش حتى اتـــاه الخبر بتحركات ابن اخيه المخلوع ، وكان وقته مقسما بين توطيد اركان ملكه وإعادة تنظيم الجيش والنظر في مصالح الدولة ، وقد استفاد ممـــا رآه في البلاد التي زارها ولا سيما تركيا واقتبس منها كثيراً ، وقد لاحظ المؤرخون انه كان يتزيا بزي الاتراك ويجري مجراهم في غير ما شان من شؤونه ، واما الجيش فانه سلك به مسلكهم ورتبه على ترتيبهم ، وان شق ذلك على الناس وقوفا مع العوائد ، حتى تولى اخوه احمد المنصور فنهج به نهجا وسطا .

ومما اعتنى به على وجه خاص جهاز المخابرات ، وقد وسع نطاقه وجعله يعمل على نطاق دولي اعتبارا بكونه يتكلم عدة لغات كما قدمنـــا . وبذلك كان يتتبع خطوات ابن اخيه قدما بقدم ويحيط علما بكل ما يبرمه مع البرتغاليين عن طريق مخبريه وجواسيسه من البرتغاليين انفسهـــم ، وكانت تنقلات الغزاة واستراتيجيتهم الحربية تصله في وقتها وبدقة تامة، ومن ذلك ان تسليم اصيلا الى العدو كان يعلمه قبل حصوله ، وانـــه كان يتوقع احتلال العدو للعرائش حسبما جاء في المداولة التي جرت بيـــن المتوكل وسباستيان واركان جيشه . وكان راي المتوكل المبادرة بذلك قبل مواجهة الجيش المغربي ، لكن سباستيان خام عنه . يدلنا على ذلك الرسالة التي كتبها المعتصم لاخيه احمد في تلك الاثناء وقد جاء فيها :

« اما بعد فاعلم اني لا احب احدا بعد نفسي كمحبتي لك ورغبتي في انتقال هذا الامر بعدي اليك ، غير اني اعتاد منك التراخي في الامور ... الى ان يتطرق الى ما لا يتلافى جبره من الامور التي تكاد لولا لطـــف الله تذهب بهذا الملك ويبلغ العدو معها مراده ، من ذلك اهمالك امر الجنـــد الذي بالعرائش واغفالك له مع ما يترادف عليك في كل ساعة من تلقائه من استدعاء ما دعت الحاجة اليه من المؤونة والبارود والرصاص الـــذي لا يستقيم لهم امر في مقاومة العدو دون ذلك . وجعلت تقابل خطابهم بالاهمال وعدم المبالاة ، والآن ساعة يرد عليك كتابنا هذا قبل وضعه من يـــدك ،

ابعث اليهم مؤونة عشرة ايام بينما نصل ان شاء الله فيقع التدبير فيما يحتاجون اليه زائدا على ذلك ، مع ما عندكم هنالك من البارود والرصاص من غير عطلة ولا تراخ بحيث لا نقبل منك عذرا فى هذه المسالة ولا بد ولا بد . فقد بلغنا ان صاحب النصارى (يعني ابن اخيه) بقرب اصيلا فى خمس عشرة مائة من النصارى وتمنيت ان لو حركتك الهمة للاقتحام عليه فى مكانه بجيش يكسوه أردية الصغار ، ويرجع ساعة رؤيته الى عادته من الذل والفرار ، فانتبه من الغفلة وافتح عين الانتباه واليقظة فان الساعة لا تقتضي الا الحزم ، والتشمير عن ساعد الاجتهاد والعزم والسلام » .

فهذه رسالة لا تصدر الا من رجل دولة فى مستوى المسؤولية العظمى التي يتحملها . ودلالتها على حركية رجال مخابراته ونشاطهم مما لا نحتاج أن ننبه عليه .

ولم يبق لعبد الملك شغل الا الاعداد للمعركة القادمة والتعبئة العامة للجيش الذي سيواجه العدو وتامين حاجياته من عتاد حربي وتمرين وعلاج ووسائل نقل وغير ذلك ، وكان العنصر المغربي هو اساس الجيش يضاف اليه فرقة من مهاجرة الاندلس واخرى من مجندي الافرنج ويبلغ عدده 40.000 مقاتل فضلا عن المتطوعين من جميع طبقات الشعب وفيهم العلماء والفقهاء وحملة القرءان وأتباع الطرق الصوفية وغيرهم ، وكانت خيل المسلمين اكثر من خيل النصارى ولكن مدافعهم اقل .

وقبل توجه عبد الملك الى مقابلة الغزاة ، كتب الى سباستيان وقد بلغه عيث جيشه فى ضواحي أصيلا وشنه الغارات على القبائل المجاورة ، رسالة يقول فيها : « ان سطوتك قد ظهرت فى خروجك من ارضك وجوازك العدوة فان ثبت الي ان نقدم عليك فانت نصراني حقيقي ، وان انت رجعت الى بلادك مكتفيا بقتل بعض الرعية قبل أن يقاتلك امير مثلك فانت كلب ابن كلب » وقد استفزت هذه الرسالة سباستيان واستشار أصحابه فيها فقال له المتوكل الراي أن نزحف الى تطوان والعرائش والقصر ونتملكها وناخذ ما فيها من ذخيرة فنتقوى بها ، ووافقه اهل ديوان سيباستيان لكن هذا لم يعجبه راي الخائن واخذته نخوة الملك فثبت فى محطه وانطلت عليه حيلة عبد الملك .

وكتب عبد الملك الى اخيه احمد ان يخرج بجيش فاس ويتهيا للقتال ثم كتب الى سباستيان مرة اخرى بعد ما شخص من مراكش ووصل الى القصر الكبير بما مؤداه اني قطعت اليك ست عشرة مرحلة اما ترحل الي واحدة ؟ فرحل من معسكره بتاهدارت ونزل على وادي المخازن بمقربة من القصر الكبير حيث يربض جيش المعتصم .

البطـــــل فى الميـــــدان

وخدع سباستيان ثانية بكلام عبد الملك فما ان عبر جســـر الوادي لمنازلة الجيش المغربي حتى ارسل عبد الملك فرقة من الجيش فهدمت الجسر ولم يكن له مشرع غيره ، والتقت الفئتان وزحف عسكر المسلمين على عسكر النصارى واشتد القتال ، وبرز عبد الملك ممتطيا صهوة جواده وجال فى الميدان يحرض الجند ويقوي نفوسه فى حين انه لما به ، اذ كان المرض قد اشتد به وغلبه ومع ذلك فلم يزل يشير بيده الى المقاتلة ان يتقدموا ، وان يحذروا افواه المدافع ، وقدم اخاه احمد المنصور لادارة المعركة ولم يلبث ان توفي وهو على ظهر جواده فاخذه الحاجب رضوان الى المحفة وهو واضع سبابته على فمه كانه يوصي بكتم موته ، واستمرت المعركة بقيادة اخيه على اشدها والحاجب يتردد على اخيه مظهرا انه يلقي اليه اوامر الملك حتى هبت ريح النصر وانهزم العدو ، وولت فلوله مدبرة على اعقابها والمجاهدون يحكمون السيف فى رقابهم ومن لم يمت قتـــلا مات غرقا فى الوادي ، فانهم قصدوا الجسر للفرار فوجـــدوه مهدومـــا فصاروا يترامون فى اثباجه فلا ينجو منهم احد ، وممن مات غرقا ومثخنا بجراحه سباستيان ملك البرتغال ومحمد المتوكل ، غير المتوكل ، والوف من جند العدو فيهم كثير من كبرائه ، كما اسر منهم عدد كبير وقع فداؤهم بعد ذلك واخرج سباستيان ودفن فى مكان معين الى وقت الحاجة ، واما المتوكل فانه سلخ وحشي جلده تبنا جزاء خيانته وطيف به فى مراكش وغيرها من المدن وعرف من يومئذ بالمسلوخ .

وكان التقاء الجمعين ضحى يوم الاثنين منسلخ جمــادى الاولـــى عام 986 هـ ، موافق رابع غشت سنة 1578 . ودامت المعركة الى ما قبل العصر اي نحو 5 ساعات ، قال ابن القاضي :

« وكان مقدار زمان المقاتلة خمسا وأربعين درجة وقيـــل اثنيـــن وخمسين على ما حدثني به بعض الميقاتيين » فكانها مما وهب الله فيهـــا للمسلمين من الظفر بعدوهم فى هذه الفترة الوجيزة ، حرب ذرية ضربت الرقم القياسي فى سرعتها الخاطفة ونتيجتها الهائلة . واغرب ما وقع فيها هو موت ثلاثة ملوك : بطلها عبد الملك ملك المغـــرب وسباستيان ملـــك البرتغال والمسلوخ ملك المغرب باعتبار ما كان ، ولذلك تعرف عند الاجانب بمعركة الملوك الثلاثة .

المعركـــــة فى الميـــــزان

مما لا جدال فيه ان معركة وادي المخازن كانت معركـــة حاسمـــة بالنسبة الى المغرب والبرتغال معا ، وانها كانت ذات صبغة صليبية ، فأما بالنسبة الى المغرب فانه احرز بها كيانه وتفادى خطر احتلال الشواطىء التي كان حررها من قبل ، والاطباق عليه نتيجة لذلك من قبل البرتغـــال بحيث يصبح فى عداد المستعمرات الخاضعة لهذه الدولـــة العنصريـــة المتعصبة . وأما بالنسبة للبرتغال فانها كانت ضربة قاضية عليها دوليـــا وسياسيا ، اذ استحال مدها الى جزر ، ولم تلبث ان سقطت تحت سيطرة جارتها اسبانيا الى حين ، وكونها كانت ذات صبغة صليبية ظاهر من تحالف الدول النصرانية مع سباستيان اعتبارا من بابا روما فاسبانيا فايطاليـــا فالمانيا فضلا عن المتطوعين المسيحيين من شعوب اوربية اخـــرى . ولا غرابة في ذلك والعصر عصر تعصب وانتقام من المسلمين وحكمهم الذي يبسط جناحيه على معظم المعمور ، فان الروح الصليبية لم تنفك عـــن حروب الاوربيين والامريكيين حتىفى العصر الحديثالذي يصفونه كذبا وبهتانا بانه عصر المدنية والعرفان ، فبالامس القريب تحالفت دول اروبية كثيرة والولايات المتحدة على ضرب ثورة الريف التحررية ومساندة اسبانيا فى قتالها لمحمد بن عبد الكريم الخطابي . وقال بيدو وزير خارجية فرنســـا

بعد ذلك في تصريح له عن حركة القمع التي كانت قوات الاستعمار تسلطها على المقاومة الوطنية في المغرب : ((انني لن ادع الهلال ينتصر على الصليب)) . ! وهكذا كانت كل الحروب التي شنتها الدول المسيحية او التي كانت مسيحية على الشعوب الاسلامية طابعها الصليبية والانتقام من العرب والمسلمين .

انما نحن لا نبالغ في تقدير نتيجة المعركة من هذه الناحية لو كتب لها النجاح الى حد القول بان مصير المغرب كان هو التنصير وانه سيصبح اندلسا ثانية ، فان المغاربة لم يكونوا في دينهم على شفا ، ولم يكونوا من القلة بحيث يجوز ارغامهم على اعتناق المسيحية كما وقع في مملكة غرناطة عند الاكتساح ، فان المسلمين هناك لم يكونوا يتجاوزون عدد المليون الواحد ، ومع ذلك فقد هاجر اكثرهم الى ديار الاسلام ومن بقي منهم لم يتم تنصيره الا بعد اكثر من قرن من الزمن هذا اذا لم يقع رد فعل ضد الاستيلاء البرتغالي حتى لو سقطت الدولة المغربية ، فقد قاتل المغاربة تحت راية عدد من المجاهدين الابرار، الغزاة الاسبان والبرتغاليين من غير ان تكون هناك دولة تحميهم وتشد ظهرهم وذلك عند انهيار دولة بني مرين واثناء ضعف دولة بني وطاس .

وينتهي بنا الكلام على معركة وادي المخازن ، ولا ينتهي عن بطلها العظيم السلطان الغازي ابو مروان عبد الملك المعتصم بالله الذي يقول عنه المؤرخ الاسباني منويل على ما نقله المؤرخ الناصري من كلامه : ((كان امر هذا الرجل عجبا في الحزم والشجاعة حتى انه لما احس بانه لا محالة هالك بذل نفسه للقتال ليموت مجاهدا شهيدا)) .

والحقيقة ان عبد الملك عاش حياته كلها مجاهدا ، وانه استفاد من والده ما لم يستفده احد من اخوته ، فاحرى احفاد هذا الوالد الذي حقق امل الشعب فيه بطرد البرتغاليين من مدن وشواطىء كثيرة كانوا يحتلونها، ولو امتدت به الحياة لما ترك بيدهم اي موقع ، وعلى هذا عاهد المغاربة الاشراف السعديين لما القوا اليهم بالزمام ، ومع الاسف الشديد ان هذا

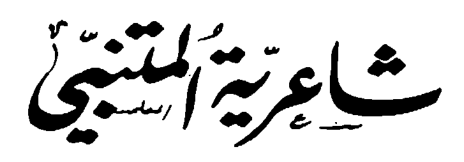
العهد لم يقع الوفاء به بعد محمد الشيخ المهدي الا من مترجمنا حتى بعد هذه المعركة الساحقة التي كان الواجب يقضي باستغلالها الى أبعد حد ، وذلك بتطويق بقية المدن الساحلية المحتلة من طرف البرتغال وهي طنجة وسبتة والجديدة وحصارها حتى تسقط باليد المغربية ، والفرصة فيها سانحة والظروف مواتية ، ففي مثل هذه الحال يقال : وامعتصماه ! ...

وفـــاة عبـــد الملـــك

مات عبد الملك فى ساحة القتال شهيدا مبرورا ، لم يعلق من الدنيا بشيء فكان مثالا للملك المكافح من أجل عزة بلاده وشرفها وحماية ملتـــه ودينه ، وقد شهد له بذلك العدو والصديق ، والمحب والمبغض فسلام عليه فى ملوك الاسلام الخالدين ، ورحمه الله وجازاه جزاء المحسنين . وكان عمره يوم وفاته نحو الخمسين سنة باعتبار أنه أكبر الاخوة بعد عبد الله الغالب ، وهكذا كانت ولادته كما فى الرخامة التي على قبره سنة 933 ه فاذا قدرنا أن ولادة عبد الملك كانت بعد عبد الله بثلاث سنـــوات كان عمره كما قلنا تقريبا .

طنجـــة

عبد الله كنـــون



شاعرية المتنبي

د. عبدالله الطيب

قال ابن الوردي :

ليس يخلو المرء من ضد وان   طلب العزلة فى رأس جبل

وصـــدق رحمـــه الله .

وكلما زاد حظ امرء من العظمة زاد عدد أضداده وكثر أعداؤه · وربما غلا قوم فى حبه وآخرون فى بغضه كل الغلو · وربما جاوز ذلك بذكراه زمان موته فبقى بعده جيلا أو جيلين أو أكثر · وقـد كان أبـو الطيب من عظماء الرجال فى زمانه وبقى ذكره بعده دهرا طويلا الى يومنا هذا · وقد كثر التعصب له وعليه طوال هذه القرون · وكلمة ابن رشيق القيرواني ((ثم جاء المتنبى فملأ الدنيا وشغل الناس)) ربما دلـت على نوع تبرم من جانب ابن رشيق بهذا الذى كان من كثرة مذاكرة شعـر ابى الطيب بالمغرب ، بعد اكثر من مائة عام من موته ، كما وصفها الثعالبى بعد نحو جيل من زمانه ، ببغداد ، اذ لم تكن مجالس الدرس اعمر بها من مجالس الانس ، كما قال ، وما اشك فى ان ابن رشيق انما

اخذ معنى عبارته من كلام الثعالبي . وكأن مذاكرة شعر ابى الطيـــب فى زمانه قد كادت تصرف عن مذاكرة أشعار غيره · فهذا الذى اسف له ابن رشيق وعناه على الارجح ، لما يقع معه من صيأع التحصيـــل . على ان عبارته تحتمل معنى الاعجاب · والله تعالى أعلم · هذا وقد ركد أمر الادب فى بلاد العربية دهرا طويلا ، الا من طبقات قليلة من اهل الفضل ومع هذا ظل ديوان المتنبى مقروءا متداولا وذكره حيا شديد الحيوية والخصومة حوله قائمة · ولم يستنكف علماء النحو ، منذ بعيد موتـــه ، وهم كانوا قلما يبالون بغير ما يصح به الاستشهاد من أقوال القدماء ، أن يجعلوا شعره موضع عنايتهم ، كما تدل عبارة الدرس التى أوردها الثعالبى · وقد شرحه ابن جنى وهو من معاصريه · وابو العلاء · وتعرض ابن سيده لمشكلة واملى ابن الشجرى فى أعرابه ، وكان ابن هشام وهو كبير متأخرى النحاة ، وسيبويه زمانه كما روى ابن خلدون ، يكثر اكثارا بينا من الاستشهاد بأبياته هذا ، وكان مديح الرسول صلى الله عليه وسلم ذروة الشعر عند اهل الفضل بعد أن ركدت سوق الادب · وكان فحول المداح كالبرعي والبوصيري شديدي النظر فى أبى الطيـب كثيرى الاخذ منه · ولما جاءت النهضة الحديثة ، كان مما صحبها اقبال على شعر أبى الطيب وعناية كبيرة بدرسه · وكثر التعصب له وعليه وفوضل بينه وبين المعرى وبينه وبين ابن الرومى ، كما كان يفاضل بينه وبين أبى تمام فى الزمان القديم · ولم يخل شوقى رحمه الله من ارب الى ان يزحزحه عن مكان الصدارة · وتجاوزت الخصومة الجانب الفنى من ابى الطيب الى شخصه ، فعدنا نسمع انه كان جبانا متسولامنافقا كذابا ساقط المروءة ظنين النسب لقيطا مجرما ··· ويقابل هذا الغلو فى بغضه الشخصى غلو فى حبه حتى لقد جعله قوم من الابطال واصحاب الدعوة المجاهدين وهلم جرا ·

وقد نتساءل لم هذا التعصب الشخصي لابي الطيب وعليـــه ؟ .. اننا لنقرا سينية البحترى ووصفه للربيع فى كلمته التى يقول فيها :

اتاك الربيع الطلق يختال ضاحكا   من البشر حتى كاد أن يتكلما

وغير هاتين من روائعه وجياده ، فلانخلط بين استحساننا لفنه وشعورنا ازاء شخصيته فى الاخبار التى رويت عنها وما عسى أن يتراءى لنا من ظلالها فى شعره .

شخصية بعيدة عنا فى قرنها الهجري الثالث فى أعماق العصر العباسي بعد شخصيات المتوكل والفتح وبغا وأبى سعيد وسائر رجالات ذلك الزمان .

وقد نحس جلال ابى تمام ونتهيبه . وقد كان له محبون واعداء وخصوم ومتعصبون عليه وله دهرا طويلا بعد وفاته وزوال قرنه ومع احساسنا بقوة شخصيته لا اجد انا نخلط بين ذلك وبين استحساننا لفنه فى بائيته المشهورة :

السيف اصدق أنباء من الكتب فى حده الحد بين الجد واللعب

ورائيته :

الحق ابلج والسيوف عوارى فحذار من اسد العرين حذار

وسواهما من قصائده الجياد . شخصيته الجليلة الجادة ذات بعد عنا كبعد شخصيات ابن ابى دؤاد وابى دلف والمعتصم والواثق والافشين وابن طوق وابن وهب وابن الزيات ، موغلة فى أعماق العصر العباسى .

وقد نحس قربا ما من ابن الرومى الينا ، وذلك لاننا نحس بعض العطف عليه والرحمة له ، لا لاننا نستشعر انطواء المسافة الزمنية الاجتماعية بيننا وبينه اذ من هذه الجهة ، شخصيته بعيدة جدا عنا ، لا نخلط بين استحساننا لروائعه الفنية وبين شعورنا ازاءها ، نعلم انها مثل شخصيات ابى الصقر والاخفش الصغير وابي القاسم الشطرنجي وعبيد الله بن سليمان موغلة فى اعماق العصر العباسى . وانما نحس عطفا على ابن الرومى وقربا انسانيا منه ونوعا من الاشراف المتعالى على شخصه الضعيف المسكين لان اشعاره ربما تحدث الينا فيها عن بعض الترابيات التى نعهد فى حياتنا اليومية مثل قوله :

ما انس لا انس خبازا مررت به يدحو الرقاقة وشك اللمح بالبصر

وقوله فى الموز « يدفعه البلع الى القلوب » وقولـــه :

ولم اتعلم قط من ذى سباحة — سوى الغوص والمضعوف غير مغالب
وأيسر اشفاقي من الماء انني — امر به فى الكوز مر المجانب
وذلك لو القيت فيه وصخرة — لوافيت منه القعر اول راسب

ومع ان ابن الرومى علل لنا سبب اشفاقه من الماء فى بيان واضــح ، ابـى بـعـض المـتنطعيـن الا ان يحـلـل شخصيتـه ويحاول أن يعثر فيها على ما يسمى « هيـدر وفوبيا » أى كراهيـة الماء ، كالذي يعترى من يصيبه داء الكلب ، وفى حالة ابن الرومي ما هو الا كلب يعض أساليب النقد الحديث الذى أحله بمقربة مـن هذا الـداء وهو منـه براء . فتأمـل .

هذا وفى شعر أبى الطيب قوة حيوية أحسبها هى سبـب خلطنا بين شعورنا نحو فنه وشعورنا نحو شخصيته ، فيفسد هذا الخلـط علينا موضوعيـة الـذوق ومرادنـا مـن موضوعيـة الـذوق قـدرتـه علـى مـعرفـة الجـودة الفنيـة وتمييزهـا . وللمرزوقى فى مقدمته لشرح حماسة ابى تمام الملمة جيدة بهذا المعنى وذلك حيث تعرض للمعيار الذى اعتمد عليه أبو تمام فى الاختيار الذى اختاره فزعم أنه الجودة لا الهوى ، وأن آية ذلك مباينة أساليب أكثر ما اختاره للمشهور من طبيعة أسلوبه هو ولعمرى أن التعرف على شخصيـة الشاعر واخباره كثيرا ما يعين على فهمه والفهم كثيرا ما يعين على التذوق . ولكن الالحاح على معرفة الشخصية والغلو فى تحليلها وتاويلها ربما صار حجابا يحول دون الفهم ويعترض سبيل الذوق السليـم . والامر ما قيل ان المعاصرة حجاب ، مع ان معرفة الشخصية لمعاصرها أكثر تهيؤا منها لغيره .

هل كان ابو الطيب شجاعا ؟ هل كان بخيلا ؟ هل كان انسانـا كامل المروءة ؟ هل كان وفيا ؟ هل كان صادقا فى محبة سيف الدولـة مثـلا ؟ هذه الاسئلة لا تغنى الاجابة عنها حدسا أو يقينا عن تـذوق

شعره نفسه ، بعد فهمه وحسن ادراك مقاصده (الشاعر) فيه · وفهم شعره وتذوقه هو المراد دون التصدى الكامل للاجابة عن هذه الاسئله وليس حق أبى الطيب علينا بان نقدم أمر فهم شعره وتذوقه علـــى ما سواه من أمره ، بأكبر او دون أى شاعر آخر من شعراء الحماســـة او مختارات البارودى مثـــلا ·

ليست القوة الحيوية التى فى ديوان ابى الطيب هى شخصيته ، الرجل الذى ولد سنة ثلاث وتوفى سنة أربع وخمسيـــن من القـــرن الرابع الهجرى · شخصيته قصية عنا ، فى أعماق العصر العباســـى ، بيننا وبينها البرزخ ، مع بدر بن عمار وابى العشائر وسيف الدولـــة وكافور ودلير وعضد الدولة ومعاصريهم . وصلتنا بعض أخبارهم جميعا ولكن اكثر امرهم نجهله ومجال درسه علم التاريخ ، فما اصبناه منه فى علم التاريخ لا ينبغي ان نقحمه على فن النقد اقحاما . الحيوية التي فى ديوان ابي الطيب هي شاعريته وجودة شعره . الشاعرية هي طبيعة ملكـــــة الشاعر وتصرفها حين ينبعث فيها ومنها الشعر وتقبل على عملـــه · وجودته هى صفة ذلك العمل حين تفرغ منه ونتلقاه نحن منه ·

القصيدة ، وهى ابرز ما برزت فيه شاعريـــة ابـــى الطيـــب ، والاراجيز والقطع تبع لها وفرع منها ، فـــن فـــذ ، انفرد به العـــرب الاولون ، ومنهم تلقيناه جيلا بعد جيل . وليست هي بصنف يصح ادخاله فى احد الاقسام الثلاثة او الخمسة التى عليها القسمة فى اشعار يونان ومن اتبعوا آثارهم ، اذ العرف الفنى لشعرى الذى أخـــذ به اليونان مختلف فى أصوله وخافياته وحضارتـــه وبداوته عـــن العرف الفنـــى الشعرى الذى اخذ به العرب · وحسبك من شواهد ذلـــك ان أصـــل اشتقاق الكلمة التى تدل على الشاعر عند اليونان من الصناعة والعمل واصلها عند العرب من الشعـــور اى المعرفـــة والادراك · ومعنـــى الشاعر عند العرب قريب من معنى النبى عند بنى اسرئيل ولذلك قال ابو عمرو بن العلاء ان شعراء العرب كانوا بمنزلة انبياء اسرائيل

فى بنى اسرائيل · وقد اجتمع فى القصيدة العربية اصناف من ضـــروب للبيان ، يكون منها الرمز ومنها الوصف الملحمى الطابـــع ومنها القـــول الدرامى الروح ، ومنها النفس الغنائى ومع ذلك جميعا طريقة من الايقاع الموسيقى والبنية الموسيقية روح الاداء · وكثيرا ما يكون الشاعـــــر العربى فى قصيدته هو الراوى الملحمى والمتغنى الوجدانى ، والمترنم الموسيقى ، والمؤلف المسرحى ، وبطل المسرحية وممثلها جميعا معا فى آن واحد ، كالراوى الملحمى يصف ويقص :

لعمرى لنعم الحى جـــر عليهـــم بما لا يواتيهم حصين بن ضمضـــم

وكان طوى كشحا على مستكنـــة فلا هو ابداهـــا ولم يتجمجـــــم

وقال ساضي حاجتـــي ثم اتقـــي عدوى بالف مـــن ورائـــي ملجـــم

فشد ولـــم يفـــزع بيوتـــا كثيرة لدى حيث القت رحلها أم قشعـــم

وقال أبـــو الطيـــب :

اتـــوك يجـــرون الحديـــد كانمـــا ســـروا بجياد ما لهـــن قوائـــم

خميس بشرق الارض والغرب زحفه وفى اذن الجـــوزاء منــــه زمـــازم

تجمـــع فيه كـــل لســـن وامـــة فما تفهم الحـــداث الا التراجـــم

فلله وقـــت ذوب الغش نـــاره فلم يبـــق الا صـــارم او ضبـــارم

تقطع ما لا يقطع الدرع والقنـــا وفر من الابطال مـــن لا يصـــادم

وكالمتغنى الوجداني يصدح بصوت العاطفة ذي الشجي العميق :

صحا القلب عن سلمى وقد كاد لا يسلو واقفر من سلمى التعانيق فالثقـــل

وقد كنت من سلمى سنين ثمانيـــا على صير امر ما يمر وما يحلـــو

وكنت اذا ما جئت ليلى بحاجـــة مضت واجمت حاجة الغد ما تخلو

وكل محب احـــدث النأى عنـــده سلو فؤاد غير حبك ما يسلـــو
تاوبنـــي ذكـــر الاحبـــة بعـــدما هجعت ودونى قلة الحزن فالرمـــل

وقال ابـــو الطيـــب :

سقاك وحيانا بـــك اللـــه انمـــا على العيس نور والخدور كمائمـــه
حبيب كان الحســـن كان يحبـــه فآثره او جار فى الحسن قاسمـــه
يبيت غبار الخيل ادنـــى ستـــوره وآخرها نشـــر الكبـــاء الملازمـــه
وما استغربت عينى فراقا رايته ولا علمتنى غير ما القلب عالمـــه
مشب الذى يبكى الشباب مشيبـــه فكيـــف توقيـــه وبانيـــه هادمـــه
وتكلمة العيش الصبا وعقبيـــــه وغائب لون العارضيـــن وقادمـــه

وكالمترنـــم الموسيقـــى :

اذا لقحت حرب عـــوان مضـــرة ضروس تهر الناس انيابها عصل
قضاعيـــة او اختهـــا مضـــرية يحرق فى حافاتها الحطب الجـــزل
تجدهم على ما خيلت هم ازاءها وان أفسد المال الجماعات والأزل

وقال ابـــو الطيـــب :

فقد مل ضوء الصبح مما تغيـــره ومل سواد الليل مـــما تزاحمـــه
ومل القنا ممـــا تـــدق صـــدوره ومل حديد الهند مما تلاطمـــــه
سحاب من العقبان يزحف تحتها سحاب اذا استسقت سقتها صوارمه

وكالمؤلف المسرحى وبطل المسرحية وممثلها جميعا مما يخطب ويحلل ويخاطب ويثير ويعظ :

يمينا لنعم السيدان وجدتما على كل حال من سحيل ومبرم
تداركتما عبسا وذبيان بعدما تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم
وما الحرب الا ما علمتم وذقتم وما هو منها بالحديث المرجم
متى تبعثوها تبعثوها ذميمة وتضر اذا ضريتموها فتضرم
ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله على قومه يستغن عنه ويذمم
سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولا لا ابا لك يسام
ومن لا يذد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم
رايت المانيا خبط عشواء من تصب تمته ومن تترك يعمر فيهرم

وقال ابو الطيب :

فدتك ملوك لم تسم مواضيها فانك ماضى الشفرتين صقيل
اذا كان بعض الناس سيفا لدولة ففى الناس بوقات لها وطبول
انا السابق الهادى الى ما اقوله اذ القول قبل القائلين مقول
اعادى على ما يوجب الحب للفتى واهدا والافكار فى تجول
وما لكلام الناس فى ما يريبنى اصول ولا للقائلية اصول
سوى وجع الحساد داو فانه اذا حل فى قلب فليس يحول
ولا تطمعن من حاسد فى مودة وان كنت تبديها له وتنيل

بطولة الشاعر عرف ومذهب من مذاهب القول كان يتمكن به ان يشرف على سامعيه من مكان عال فيسحر بالبيان وينطق بالحكمة ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان من الشعر لحكما وان من البيان لسحرا ، وقد كان أمر الشاعر فى الزمان القديم ربما شبه بأمر

النبي ، كالذي ذكرنا قبل من قول أبى عمرو بن العلاء آن شعراء العـــرب الاولين كانوا فيهم كأنبياء بنى اسرائيل وكالذى يروى من مقال عمـــر رضى الله عنه أن الشعر كان علم العرب ولم يكن لهم علم ســـواه . وكان امر النبوة ربما شبه بأمر الشعر . وقد فصل القـــرآن فى هـــذا الاشتباه حيث قال سبحانه وتعالى : «والشعراء يتبعهم الغـــاوون . الم تر أنهم فى كل واد يهيمون . وانهم يقولون ما لا يفعلون ، الا الذيـــن آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلمـــوا وسيعلم الذين ظلموا اى منقلب ينقلبون » .

وقد افتتح حسان رضى الله عنه بعض قصائده الاسلاميات الجيدة بالنسيب وجاء فيهن بنعت النساء وصفة الخمر وبطولة الشاعر وحكمته مثـــل قولـــه :

بنيت علـــى قطـــن اجـــم كانـــه فضلا اذا قعـــدت مداك رخـــام

نفـــح الحقيبـــة بوصفهـــا متنضـــد بلهـــاء غيـــر وشيكـــة الاقســـام

وهـــذا لا يخفى أنه وصف محاسن امـــرأة ، ومثـــل قولـــه :

كان خبيئـــة مـــن بيـــت راس يكـــون مزاجهـــا عســـل ومـــاء

اذا ما الاشربات ذكـــرن يومـــا فهن لطيـــب الـــراح الفـــداء

وهذا من قصيدته فى فتح مكـــة ، ومثـــل قولـــه :

ان جدى خطيب جابية الجولان عنـــد النعمان حين يقـــوم

وأبى فى سميحة القائل الفاصل حين التقت عليـــه الخصوم

رب حلـــم اضاعـــه عـــدم المال وجهـــل غطى عليه النعيم

وهذه الابيات من قصيدته فى أصحاب اللواء يوم احد يجيـــب بها ابـــن الزبعرى فى بعض ما اجابه به وهى التى مطلعهـــا :

منع النـوم بالعشـاء الهمـوم   وخيـال اذا تـغـور النجـوم

وقصيدة كعب بن زهير ، بانت سعاد ، طويلة مقدمة النسـب طويلـة
جد شاعرهـا برحلته على ناقة كما قال :

حرف ابوها اخـوها من مهجنـة   وعمهـا خالهـا قوداء شمليـل

قوية انفاس منذهب البطولة فيها . تامل قولـه :

تسعى الوشاة جنابيهـا وقولـهم   انك يا ابن ابي سلمى لمقتـول

فقلت خلـوا سبيلـى لا ابالكمـو   فكل ما قـدر الرحمن مفعـول

كل ابن انثى وان طالت سلامتـه   يوما على آلـة حـدباء محمـول

نبئت ان رسـول اللـه اوعدنـى   والعفو عند رسول الله مامـول

وقد اتيت رسول اللـه معتـذرا   والعذر عند رسـول الله مقبـول

مهلا هداك الـذى اعطاك نافلـة   القرآن فيها مواعيظ وتفصيـل

لا تأخذنى باقوال الوشـاة ولـم   اذنب وقـد كثـرت فى الاقاويـل

وما كان رسول الله صلى الله عايه وسلم ليهدر دمه ان لم يكن قـد
اذنب . وما انكر كعب ما نسب اليه بحجة كاذب ، ولكن ببطولـة شعـر
صادرة عن صدق فني يعلن عن توبة ويقبل على ايمان . وقد قبل النبي
صلى الله عنيه وسلم عذره ، وعفا عنه ، واستحسن شعره واجـزل
عطيته وخلع عليه بردته . وفى ذلك من اقراره على مذهب القصيدة الذى
سلك والرضا عنه ما لا يخفى ، وقد فطن الشيخ يوسف النبهانى رحمه
الله الى اهمية قصيدة كعب من حيث إنها نموذج فني يحتذى فى مـدح
الرسول صلى الله عليه وسلم ، فلم يجعلها ضمن اشعار الصحابة التى
افرد لها بابا فى مقدمة مجموعته ، ولكن وضعها فى اول قصائـد الـلام
فى صلب المجموعة نفسها وجاء بعدها مباشرة بلامية البوصيرى التـى
على بحرها ورويها .

هذا والنقاد مما يتعرضون لعقائد الشعراء فتكون لهم فى بعضها مطاعن · وربماخالط ذلك نوع من التحامل · حتى البوصيرى وهو امـــام من أهل السنة لم يسلم من طاعن عليه · ويروى عن الحسن بن رجاء انه زعم انه قد هم بقتل أبي تمام لما وجده تاركا للصلاة وأحس منه استخفافا بالدين فان صحت هذه الرواية وصح ما يروى من أنه وقــف اجـــلالا لقصيدة أبي تمام اللامية التي مدحه بها وفيها يقول :

لا تنكرى عطل الكريم من الغنـــى   فالسيــل حــرب للمكان العالـــى

وتنظري خبب الركـاب يحثهـــــا   محيى القريض الى مميت المـــال

فان ذلك يكون من غريب النفاق المؤسف ·

هذا وقد صلى أبو الطيب بطعن كثير فى امر عقيدته . والصقت به دعوى النبوة . وقالوا المتنبي فصار ذلك لقبا ميـــز بـــه ، وقيل انـــه كان قد ادعى النبوة فى صباه ، وزعم احد الرواة انه ساله عن ذلـــك فغالط وقال ان ذلك امر كان فى الحداثة . وأى عار عليه أن يكون اخطأ فى الحداثة ثم تاب من بعد ، فقد ادعى طليحة الاسدى النبوة وقتل رجلين من فرسان الصحابة وجلتهم وتمدح بذلك فقال :

فان تك أذواد اصبن ونســـــــوه   فلن يذهبوا فــرغا بقتــل حبــال

نصبت لهم صدر الحمالة انهـــــا   معـــاودة قيــل الكمـــاة نـــزال

عشية غادرت ابــن أقرم ثابتـــا   وعكاشة الغنمـــى عنـــد مجـــال

ثم اسلم وشهد الفتوح وأشركه عمر فى شورى أمرائهـــا وابلى البـــلاء الحسن الجميـــل ·

وقال ابن مطيع وهو يقاتل الى جنب ابن الزبيـــر :

انا الـــذى فـــررت يـــوم الحـــرة   والحـــر لا يفـــر الا مـــــــــرة

فاليوم اجـــزى كـــرة بفـــــرة   لا بأس بـــالكـــرة بعـــد الفـــرة

وقد هون ابو العلاء أمر هذ التهمة على ابن القارح بما يشعر انه حملها من باب ما تحومل به على ابى الطيب · وقيل أنها من النبوة بمعنى الارتفاع ، وزعم ابن جنى أن أبا الطيب ذكر انه انما لقب بذلك لقوله :

ما مقامي بارض نخلة الا كمقام المسيح بين اليهود
أنا في أمة تداركها الله غريب كصالح في ثمود

وكلا التاويلين غير بعيد من الصواب لانه ناطق بلسان الحال التى دعت الى هذا اللقب ·

ذلك بان أبا الطيب لم يشتغل من علوم الادب بغير الشعر . وقد ذكر انه كان من نقلة اللغة ويذاكر ابن جني في النحو ويتفق له النثر الجيد · ومع ذلك لم يذكر له من التصانيف شيء غير ديوانه · وقد تفرغ بذهنه وقلبه وعلمه وبراعته لتجويد أسلوب الشعر كل التفرغ . والتزم فيه مذهب عرف بطولة القصيدة القديم منذ صباه الى ان ادركته المنية· وقد قال ايام صباه :

اری اناسا ومحصولى على غنم ونكر جود ومحصولى على الكلم
ورب مال فقيرا من مروءته لم يثر منها كما اثرى من العدم
سيصحب النصل منى مثل مضربه وينجلى خبرى عن صمة الصمم
لقد تصبرت حتى لات مصطبر فالآن اقحم حتا لات مقتحم

وقد قال وهو شاب يمدح الرؤساء وينتظر الجوائز :

اطاعن خيلا من فوارسها الدهر وحيدا وما قولى كذا ومعى الصبر
واشجع منى كل يوم سلامتى وما ثبتت الا وفى نفسها امر
ذر النفس تاخذ وسعها قبل بينها فمفترق جاران دارهما العمر

ولا تحسبن المجد زقا وقينة | فما المجد الا السيف والفتكة البكر
وتضريب اعناق الملوك وان ترى | لك الهبوات السود والعسكر المجر
وتركك فى الدنيا دويا كانما | تداول سمع المرء انمله العشر
اذا الفضل لم يرفعك عن شكر ناقص | على هبة فالفضل فيمن له الشكر
ومن ينفق الساعات فى جمع ماله | مخافة فقر فالذى فعل الفقر
دعانى اليك العلم والحلم والحجى | وهذا الكلام النظم والنائل النثر
وما قلت من شعر كأن بيوته | اذا كتبت يبيض من نورها الحبر
كان المعانى فى فصاحة لفظها | نجوم الثريا او خلائقك الزهر
وجنبنى قرب السلاطين مقتها | وما يقتضيني من جماجمها النسر

وقال وهو شاعر سيف الدولة الناضج الكامل استواء ، التجارب والعقل :

يا اعدل الناس الا فى معاملتى | فيك الخصام وانت الخصم والحكم
اعيذها نظرات منك صادقة | ان تحسب الشحم فيمن شحمه ورم
وما انتفاع اخى الدنيا بناظره | اذا استوت عنده الانوار والظلم
انا الذى نظر الاعمى الى ادبى | واسمعت كلماتى من به صمم
انام ملء جفونى عن شواردها | ويسهر الخلق جراها ويختصم
وجاهل مده فى جهله ضحكى | حتى أتته يد فراسة وفم
اذا نظرت نيوب الليث بارزة | فلا تظنن ان الليث يتبسم
ومهجة مهجتى من هم صاحبها | ادركتها بجواد ظهره حرم
رجلاه فى الركض رجل واليدان يد | وفعله ما تريد الكف والقدم

ومرهف سرت بين الجحفلين بـه حتى ضربت وموج الموت يلتطم
فالخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم
صحبت فى الفلوات الوحش منفردا حتى تعجب مني القور والأكم
يا من يعز علينا ان نفارقهم وجداننا كل شيء بعدكم عدم
ما كان اخلقنا منكم بتكرمة لو ان امركمو من امرنا امم
ان كان سركمو ما قال حاسدنا فما لجرح اذا ارضاكمو الم
وبيننا لو رعيتم ذاك معرفة ان المعارف فى اهل النهى ذمم
كم تطلبون لنا عيبا فيعجزكم ويكره الله ما تاتون والكرم

ههنا بطولة شعر وشجاعة نادرة · وقد دل سيف الدولة على فضله وكرم معدنه بارتفاعه الى مستواها وصبره عليها وحلمه عن صاحبها · ومن العبث والفضول ان يبحث عن التجربة الشخصية فى نحو قول ابى الطيب ·

ومرهف سرت بين الجحفلين بـه حتى ضربت وموج الموت يلتطم
فالخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم

فقد سار بمرهف هو هذا الشعر النافذ النفيس بين جحفلى ضروب مستمعية فى مجلس سيف الدولة وفى مدينة حلب وفى آفاق العربية وضرب وموج الموت يلتطم وكل ما زعم انه عرفه فقد عرفه وذلك ان الذى نطق عنه وابان ، بطولة شاعر ، لا بسالة جندى فى معركة أو تدبير وزير او كاتب فى سياسة دولة · هذه البطولة الشعرية التى كانت تشرف من عل واثقة بنفسها معتدة جهيرة الصوت ساحرة البيان واضحة الافصاح بالراى القاطع ، هى التى انكرها خصوم ابى الطيب ، ونبزوه من اجلها بلقب المتنبى ، كالمطاردين له بشبح الدعوى التى نسبت اليه ايام صباه ، وكالمؤكدين الناس ، انه ما

زال فى هذا المذهب الذي الح عليه من طريقة القول ، متمسكا بتلك التنبؤة التى اقدم عليها ايام الصبا وحبس من اجلها وما انتبهوا وهم يكيدون له بهذا الكيد انهم وقعوا فى طائلة تشبيه الشعر بالنبوة ، الذى نهى عنه القرآن ٠

وكان فرعا من هذا الكيد محاولة الطعن فى عقيدة المتنبى ، او قل تعميق الطعن في عقيدة المتنبي بتتبع سقطاته وبعض اسفافاته نحو قوله :

يترشفن من فمى رشفات هن فيه احلى من التوحيد

وقوله :

لو كان صادف راس عازر سيفه فى يوم معركة لاعيا عيسى

او كان لج البحر مثل يمينه ما انشق حتى جاز فيه موسى

او كان للنيران ضوء جبينه عبدت فصار العالمون محوسا

وقوله :

تتقاصر الافهام عن ادراكه مثل الذى الافلاك فيه والدنى

هذا وقد مهد ابو تمام لابى الطيب سبيل استعادة بطولة الشاعر وشعره فى القصيدة بالرجعة التى رجعها الى اسلوب الجزالة والمواجهة الجهيرة والاشراف على السامع بالحكمة وسحر الجد فى أمر البيان وقد عاصر اخريات مجد الخلافة وشاهد احداثا جساما وسادة وكبراء عظاما وجيل أدباء رعوا حقه اولى جاه وشموخ ٠ وكان ذا ملكة ملحمية الابعاد ذات وقار وجلال وهيبة فى الاداء مع الذكاء الباهر والفكر الحضارى والحس الدقيق ٠ وتتلمذ له البحترى ونزل عن مقداره درجة أو درجات وكان صافي الاسلوب ، سلس النغم ، جزال جرس

الديباجة ، نديما للمتوكل والفتح بن خاقان ، آخر انفاس شعلة ملك الخلافة العضوض ، وكما قال ابن الاثير احسن سبك اللفظ على المعنى واراد ان يشعر فغنى · ولا يخفى ان ابن الاثير ههنا خس به عن مقدار الشعر مع طيب الثناء الذي اسبغه عليه . وسينيته هي اميرة شعره . وكانها هي مرثيته فى المتوكل والفتح وخاقان لا الرائية المعروفة:

محل على القاطول اخلق دائره وعادت صروف الدهر جيشا يغاوره

على حسن رونقها وما فيها من جيد مختار ·

وتتلمذ على مذهب ابى تمام ايضا ، على بن العباس الرومى · واعجب لابن رشيق كيف فضله على ابى تمام فى باب الغوص على المعانى ولميفطن لهذا من امره · وقد اصاب من عصر الخلافة انقاض بقايا واسمال ركايا · وكانت جسام احداث زمانه الفتن والهزائم المخزية وتقلص عهد الدولة القديم وهو القائل :

ذهب الذين تهزهم مداحهم هز الكماة عوالى المران

وبقى الذين بلغوا الاراب من اوشاب السوقة والكتاب

واطال المدح يغوص ويفرع ويفتن فلم يصب طائلا . وسمى اول نونيته :

اجنت لك الوجد اغصان وكثبان فيهن لونان تفاح ورمان

دار البطيخ ، اذ اكثر فيها من ذكر البقول ، وانصرف ممدوحه عنه وعنها لما خلص من نسيبها الى المدح فقال :

قالوا ابو الصقر من شيبان قلت لهم كلا لعمرى ولكن منهشيبان

ولهج ابن الرومى بالهجاء · وكان طويل النفس · وعلى براعة اطنابه جرس الجزالة عنده قليل ، ونفس البطولة ضئيل .

روى ابو الطيب شعر ابن الرومى · وتامله ودرس شعر ابـــى تمام وتاثر به · ونظر فى شعر البحترى وسائر اشعار المحدثين · واطال صحبة الندماء وكان يرى الا يقتدي الا بهم . وكان من نقلـــة اللغــــة وذا بصر بالنحو وواسع الاطلاع ·

بدا النظم فى الحداثة · ومنذ البداية أدرك وتيقــن أن لديه ملكــة بطولة لسان الشاعر والقصيدة القديم :

ان آكن معجبــا فعجـــب عجيـــب   لم يجد فوق نفسه مـــن مـــزيـــد

انا ترب النـــدى ورب القـــوافى   وسمام العدا وغيـــظ الحســـود

انـــا فى امـــة تـــداركهـــا اللـــه   غريـــب كصـــالـــح فى ثمـــود

ابو تمام بمواجهته الجهيرة ما كان الا تمهيدا واشارة الى اول

الطريق الذي كان عليه هو ان يقتحمه ويبلغ به الى إعلى ذروتـــه والى نهـــايـــة مداه :

لقد تصبرت حتـــى لات مصطبـــر   فالآن اقحم حتى لات مقتحــــم

لا تركن وجوه الخيل ساهمـــــة   والحرب اقوم من ساق على قدم

تحدث ابو منصور الثعالبى فى فصله القيم الذى خص به ابا الطيب فى الجزء الاول من كتابه يتيمة الدهر عن محاسن شعـــره حديثا وافيـــا أصاب فيه بلا ريب اهم ما يمكن أن يقال بمعرض الحديث عن شاعريـــه هذا الشاعر الفذ العظيم · بعض ما قاله عسى الا نقيم له الآن كبيـــر اعتبار لانه نطق فيه عن ذوق اهل زمانه ، ولا ملامة عليه فى ذلك ، اذ من سنة الناس ان يتغيروا فى مذاهب اذواقهم من عصر الى عصر واحيانا فى العصر الواحد مراراً . مثلا تنبيهه على حسن قول ابى الطيب :

فجاءت بنا انسان عيـــن زمانـــه   وخلت بياضا خلفهـــا ومآقيـــا

يمدح كافورا بسواد لونه على سبيل المغالطة محتجا بذلك لفضل السواد على البياض ·

ومثلا تنبيهه على ما سماه حشو اللوزينج ، يعنى انه حشو بالنسبة الى جملة سياق المعنى ، ولكنه لطيف حلو ، مثل حشو اللوزينج وهو ضرب من لذائذ طعام ذلك الزمان ، وهو كما فى قوله :

وتحتقر الدنيا احتقار مجرب   يرى كل ما فيها وحاشاك فانيا

وحشو اللوزينج هنا قوله وحاشاك . وهو قريب من الضرب الذي يسميه البديعيون الاحتراس وليس به ·

ومثلا تنبيهه على ما سماه المدح الموجه تشبيها له بالثوب الموجه ، وهو الذى كلا وجهيه حسن ، فى قوله :

نهبت من الاعمار ما لو حويته   لهنيئت الدنيا بانك خالد

فمدحه فى الشطر الاول بالشجاعة والظفر ومدحه فى الشطر الثانى بالمعروف ومنفعة الناس وانهم من حبه له يودون له الخلود ·

ومن امثلة افتنانه فى المدح :

اقبلتها غرر الجياد كانما   ايدى بنى عمران فى جبهاتها

وهو من حسن التخلص · ثم تخلص من مدح بنى عمران وهم رهط الممدوح الى ابي ايوب وهو الممدوح نفسه :

تلك النفوس الغالبات على العلى   والمجد يغلبها على شهواتها

سقيت منابتها التى سقت الورى   بندى ابى ايوب خير نباتها

وفى القصيدة يذكر فروسية الممدوح :

لو مر يركض فى سطــور كتابــة احصى بحــافــر مهره ميماتهــا

فاستحسن ابو منصور هذا التشبيه لانــه من جنس صناعــة الشاعر ، وفى القصيدة ، فى مدح ابى ايوب ، ايضا :

ذكر الانــام لنا فكــان قصيــدة كنت البديع الفــرد مــن ابياتهــا

وهو ايضا تشبيه من جنس صناعة الشاعر وقال ابو منصور انه البديع الفرد من ابيات هذه القصيدة ·

وامير البديع عنده فى شعر ابى الطيب قوله :

ازورهم وسواد الليل يشفع لــى وانثني وبياض الصبح يغرى بــي

لمكان الطباق والمقابلة الكاملة · ازورهم ـ وانثنــي ، وسواد الليــل ، وبياض الصبح · يشفع لى · يغرى بى · وكره الدكتور طه حسين رحمه الله قافية البيت لان الباء فى يغرى بي ليست فى كلمة واحدة مع ما قبلها· وما كان خافيا عليه أن هذا ليس بعيب عند اهل القوافي · ولكن يغلب على الظن انه انما اراد اظهار استسماجه لبعضما كان مــن طريقــة المشايخ فى تدريس علم البديع · والله تعالى اعلم ·

هذا ومما نبه عليه ابو منصور من محاسن شعره انه كان يجيــد الغزل بالبدويات ويحسن التصرف فى ضروب النسيب ويجيــد المــدح ويخاطب الممدوح مخاطبة المحبوب ويجيد التصرف فى سائر اغــراض الشعر ويحسن التقسيم والطباق والتجنيس وانواع البديع ويرسل المثل والمثلين فى البيت الواحد ويجيد ضرب الامثال ويأتى بالحكمــة ويجيــد التامل والموعظة وقد استشهد على جميع ما ذكره بشواهد مختارة من شعــره ·

وقد عرض لمساوىء شعره وزلاته ، واعتذر لذلك بانه من شواهد كمال المرء ان تعد معايبه · وانما ساق هذا الاعتذار اكيلا نظن بـــه التحامل وليظهر بمظهر الموضوعية ، كما نقول نحن الآن .ومما ذكره مـن مساوئه ما سماه « اساءة الادب بالادب » اى عن طريق الادب وبواسطة الادب ، والادب الاولى بمعنى الاخلاق والسلوك فى مخاطبة الرؤساء وسائر الناس . والثانية بمعنى صناعة الادب . وتك ان تجعـــل الاولـــى بهذا المعنى والثانية بمعنى الاخلاق · والذى قدمنا أجود · ومما استشهد به على اساءة الادب بالادب قوله فى رثاء اخت سيف الدولة :

وهل سمعت سلاما لى الم بهـــا فقـــد أطلت وما سلمت من كثـــب

واحسب ان مما جر الى اضطراب بعض الشراح فى تفسير معنى هذا البيت ما عجل به نقاد أبي الطيب والمتحاملون عليه من الطعن فيه وقولهم وما باله يسلم على حرم الملوك ؟ ولا يخفى ان ابا الطيب ههنا انما يريد ان يقول سقى تربتها الغيث ، بدليل قوله :

قد كان كل حجابدون رؤيتهـــا فما قنعت لها يا ارض بالحجـــب

وجعل ذلك تحية له منها على البعد اذ كان هو بالكوفـــة ، والتربـــة واخو مدفونتها ، وهو ممدوحة سيف الدولـــة ، كلاهمـــا كان بحلـــب فهذا قـــولـــه :

وهل سمعـــت سلاما لى الـــم بهـــا

يا ايتهـــا الارض البعيـــدة · ثـــم قال :

فقـــد اطلـــت ومـــا سلمـــت من كثـــب

اى فقد طال عهدى بالتسليم على ممدوحى سيف الدولة كما كنت افعل اذ انا بحلب · فهذا تسليمه من كثب · وقد نص على ان مثلهـــا لم يكن احد سوى محارمها يستطيع التسليم عليه بقوله : « قد كان كل

حجاب دون رؤيتها)) . ثم قال وكيف يبلغ سلامى القبور وموتاها وهأنذا بعيد عن الامير وهو وأنا كلانا حى يرزق ، وكلانا عن صاحبه غائب لا يبلغه سلامه :

وكيف يبلغ موتانا التى دفنت وقد يقصر عن احيائنا الغيب

وقد أرسل هذا مرسل المثل كما ترى

ثم قال فصرح بخطاب سيف الدولة :

يا احسن الصبر زر اولى القلوب بها وقل لصاحبه يا أنفع السحب

واكرم الناس لا مستثنينا احدا من الكرام سوى آبائك النجب

هذا وقد اختار أبو منصور قطعة صالحة من ميمية ابى الطيب

واحر قلباه ممن قلبه شبم ومن يحسمى وحالى عنده سقم

ثم عقب عليها بأنها على جودتها ربما دخل أكثرها فى باب اساءة الادب بالادب . وما منعت ((اساءة الادب بالادب)) هذه التي عدها أبو منصور فى المساوىء أن يعد الميمية مع عظم نصيبها منها ، أنها بلا شك من عيون شعره فتأمل .

قد كانت قصيدة المدح بعد زمان البحتري وذهاب رونق الخلافة ان هى الا قطعة من منظوم تطلب لان عرف حضارة العرب والمسلمين جرى بذلك وكانت الرغبة فيها مما يصاحبها بعض الاستصغار لشأنها والاحتقار لقدر صاحبها . وكانت صناعة التكسب بالشعر كثيرا ما تجر الى الحرمان والشقاء والحزن . روى أبو حيان التوحيدى خبر مشهد موجع من الاستجداء والمنع بين ممدوح ومادحه . كان الممدوح ابن العميد والمادح ابن نباته من كبار شعراء زمان معاصرة المتنبى .

وقال ابو الطيب المتنبى وكانه يشير الى بعض هذا فى الدالية التى نظمها ايام صباه :

ضاق صدرى وطال فى طلب الرزق قيامى وقل عنه قعودى

ابدا اقطع البلاد ونجمى فى نحوس وهمتى فى صعود

وقال حين ابتسمت لهالايام شيئا وصارت به الى بدر بن عمار يذكر بعض حال ماضيه ٠

ومهمه جبته على قدمى تعجز عنه العرامس الذلل

اى الابل الشداد المعودة المذللة :

بصارمى مرتد بمخبرتى مجتزىء بالظلام مشتمل

واختار الظلام ليخفي خروجه ونبه على هذا من امره أبو منصور

اذ ذكر انه كان يمتطى الليل جملا فى أسفاره وهربه

اذا صديق نكرت جانبه لم تعينى فى فراقه الحيل

فى سعة الخافقين مضطرب وفى بلاد من اختها بدل

وكان ابا الطيب قد اخذ من قول بشار :

اذا نكرتني بلدة او نكرتها خرجت مع البازى على سواد

وقال يذكر جوبه الآفاق يلتمس الرزق ـ رزق القصيدة العسير المنال ولا مطية له الا السير على قدميه :

كيف الرجاء من الخطوب تخلصا من بعد ما انشبن فى مخالبا

ونصبننى غرض الرماة تصيبنى محن احد من السيوف مضاربا

اظمتنى الدنيـا فلمـا جئتهـا مستمطرا مطـرت على مصائبهـا

وحبيت من خوص الركـاب ...

اى بدلا من خوص الركاب ، اى بدلا من مطايا الابل ، وكان الشعـراء يصفونها بانها خوص فيقولون ناقة خوصاء وابل خوص اى تنظر بمؤخر عينها ، قال المرقش :

رمتك ابنة البكرى عن فرع ضالـة وهن بنا خوص يخلـن نعائمـا

اى وركائبنا ينظرن من جانب وكأنهن فى الصحراء نعام ·

وحبيت من خوص الركـاب باسود من دارش فغدوت امشى راكبـا

اي كان نصيبي من المطايا بدلا من الابل مركوب اسود من جلـد غليـظ اسود يقال له دارش فغدوت أمشى راكباهذا النوع من المطايا ، امشى به على قدمى :

حال متى علم ابن منصور بها ...

وابن منصور هو على بن منصور الحاجب ، ممدوحه فى هذه القصيـدة

جاء الزمان الى منها تائبـا

وقد جاءه الزمان اليها منها تائبا ، يحمل فى يده دينارا واحدا ، جائزتـه على القصيدة ، من ابن منصور الذى علم الان بحاله ·

مع هذا عول ابو الطيب على ان يكسب عيشه بملكته الشاعريـة وان يك مسلكها الذي لا مفر منه هو قصيدة المدح ، وانف لنفسـه أن يكون فيها ذليلا منافقا كذوبا مع الذى صار ضروريا فى معدن شكلهـا ومضمونها من لباس الذل والنفاق والكذب والغلو والملق ، هكذا كانـت تقتضي طبيعة عرفها عند أهل العصر ولمن قبـل لما قال أبو تمـام فى احمـد بن المعتصـم :

اقدام عمـرو فى سماحـة حاتـم   فى حلم احنف فى ذكـاء ايـاس

اعترضه الكندى وهو فيلسوف ممن ينبغى له أن ينهى عن الغلو فـى الحق ونفاقه ، الامير فوق من ذكرت ، فالهم الله ابا تمـام فأفحمـه بجوابه المشهور :

لا تنكـروا ضربى له من دونـه   مثلا شرودا فى النـدى والبـاس

فالله قد ضـرب الاقـل لنـوره   مثلا مـن المشكـاة والنبـراس

ولله دره فى الذى صنع

ولمن بعد ، وقد صار أبو الطيب سيد شعراء وقته غير مدافع ، اعترضه الخصوم فى قوله وهو يباسط سيف الدولة :

ليـت انـا اذا ارتحلت لك الخيل وانا اذا نزلت الخيام

وهذا فى الملق غاية ، فقالوا جعل نفسه فوق الامير ، لان من يكـون فى الخيمة تحتها وهى فوقه والامير يعلو ولا يعلى عليه واحتاج ابو الطيب المسكين ان يدفع عن نفسه هذا الشر المستطير فقال :

لقد نسبوا الخيـام الـى عـلاء   ابيـت قبـولـه كـل الابـاء

وما سلمـت فـوقـك للثـريـا   ومـا سلمـت فوقـك للسمـاء

وقد اوحشت ارض الشام حتـى   سلبـت ربوعهـا ثـوب البهـاء

تنفـس ...

أى انت تتنفـس ،

... والعواصم منك عشر

اى والعواصم وهى حلب ومدن شمال الشام ، من المكان الذى صرت اليه على بعد عشر ليـال

فنعـرف طيب ذلك فى الهـواء

اى حين تتنفس وانت على هذا البعد نعلم انك قد تنفست لانا نعـرف طيب انفاسك حين نشم عرفها فى الهواء · وينبغى أن يكون طيب انفاس سيف الدولة على هذا الغلو ان تكون قد سافرت الى ابى الطيـب بسرعة الضـوء ·

لقد كان الطريق الذى دفعته اليه ملكته شاقا مثبطـا

ونفرت اعماق نفس ابى الطيب عن مذلة شعر المديح :

عش عزيزاً او مـت وانت كريـم بين طعن القنا وخفـق البنـود

لا كما قـد حييـت غيـر حميـد واذا مـت مـت غيـر فقيـد

فاطلب العز فى لظي وذر الذل ولو كان فى جنـان الخلـود

ولكن لا بد مما ليس منه ، وليستعن على دفعها عن نفسه بعزة بطولة الشعـر ·

وكانه نظر الى الغيب بشعوره الباطن ذى البصيرة الكاشفة مـن وراء الحجـاب ·

ولعلي مؤمل بعض مـا ابـلغ باللطف من عزيـز حميـد

لطف الله وحده هو الذى سيبلغه بعض ما يأمل · ولقد انكر ابو العـلاء على ابن القارح فى رسالة الغفران ان يكون ابو الطيب ملحدا ، وقال انه كان يتاله ، اى يؤمـن بالـه واحتـج لذلـك بشـىء مـن شعـره مثـل قوله : ولا قابلا الا لخالقه حكما

ومثـل قولـه :

ما اقدر الله ان يخزى خليقتـه ولا يصدق قوما فى الذى زعمـوا

ومما نظر به الى الغيب من وراء حجاب قـوله :

لا بقومى شرفت بل شرفـوا بـى وبنفسـى فخـرت لا بجـدودى

وبهم فخر كل من نطق الضـاد وعوذ الجانى وغـوث الطـريد

وقومه العرب ، فخروا به وفخر بهم ٠

هذا وقال فى الرائية التي مدح بها على بن أحمد الانطاكي :

دعانى اليك العلم والحلم والحجى وهذا الكلام النظم والنائل النثـــر

فدل على ان ملكة النظم نفسها تدفعه الى القول مع الرغبة فى الجائزة

وقال بعد ان نال الجوائز واغتنى واشتهـــر :

وبى ما يذود الشعر عنـــى اقلـــه ولكـــن قلبى يا ابنة القوم قلـــب

فدل على ان دافع الشعر ربما غلبه فصرفه الى قوله عما عســـى ان يكون اهـــم ٠

استشهاد ابى منصور الثعالبى بابيات «واحر قّباه ممن قلبـــه شبم » على انها من المحاسن ثم قوله من بعد انها مع ذلـــك فيهـــا اساءة الادب بالادب يدلنا على ان هذا الاصطلاح اريد به ذم الجسارة والبطولة الادبية التي يكافح بها الشاعر سامعيه ويشرف عليهـــم بروح الفحولة القديمة ذات الحكمة وسحر البيان ٠

وذكر الثعالبى عيبا آخر فى ابى الطيب نفسه يفهم ضمنا انه ايضا من عيوب شعره قال « وما زال فى برد صباه الى ان أخلق برد شبابه وتضاعفت عقود عمره يدور حب الرياسة فى راسه ، ويظهر ما يضمر من كامن وسواسه فى الخروج على السلطان والاستظهـــار بالشجعـــان والاستيلاء على بعض الاطراف ويستكثر من التصريح بذلك مثل قـــوله :

لقد تصبـــرت حتى لات مصطبـــر فالآن اقحـــم حتـــى لات مقتحـــم

لاتركن وجـــوه الخيـــل ساهمـــة والحرب اقوم من ساق على قدم

والطعن يحرقها والزجـــر يقلقهـــا حتى كان بها ضـــربا من اللمـــم

قد كللتها العوالى فهـــى كالحـــة كانما الصاب مذرور على اللجـــــم

بكل منصلـــت ما زال منتظـــرى حتى ادلت له من دولـــة الخـــدم

شيخ يرى الصلوات الخمس نافلة ويستحل دم الحجاج في الحـــرم

وقــولــه :

سأطلب حقي بالقنا ومشـــايـخ كأنهمو من طــول ماالتثموا مـــرد

ثقال اذا لاقوا خفاف اذا دعــوا كثير اذا شدوا قليل اذا عــدوا

وطعن كأن الطعن لا طعن عنـــده وضرب كأن النار من حره بـــرد

اذا شئت حفت بي على كل سابـــح رجال كأن الموت في فمها شهــد

وقــولــه :

ولا تحسبن المجــد زقا وقينــــة فما المجد الا السيف والفتكة البكر

وتضريب اعناق الملوك وان ترى لك الهبوات السود والعسكر المجر

وتركــك في الدنيـــا دويا كأنمـــا تداول سمع المرء انمله العشـــر

وقــولــه :

وان عمرت جعلت الحرب والـــدة والسمهـــرى اخا والمشرفي ابـــا

بكل اشعث يلقى الموت مبتسمـــا حتـــى كـــان لـــه في قتلـــه اربـــا

قح يكاد صهيـــل الخيـــل يقذفـــه عن سرجه مرحا بالغزو او طربا

فالموت اعذر لي والصبر اجمل بي والبر اوسع والدنيا لمن غلبـــــا

وكان كثيراً ما يتجشم اسفـــــــاراً بعيدة ابعد من آماله ... الى آخر ما

قاله ابو منصور وهذا الذى ذكره مما اتهم به ابو الطيب في حياته وبعـــد مماته ولصقت التهمة الى يومنا هذا به ، على ان الثعالبي ما وجـــد ما يستدل به على تمكن الرياسة من راس ابى الطيب غير اشعار قالها في الصبا والشباب الاول وغير الظن ان هذه الاشعار تظهر من نفسه كامن وسواسها بالخروج على السلطان والاستظهار بالشجعان .

وقد طلب ابو الطيب من كافور عملا او ضيعة وذلـــك قــوله :

فارم بـى ما اردت منـى فانـى اسد القلـب آدمـي الـرواء
وفـؤادى مـن الملـوك وان كا ن لسانـى يرى مـن الشعـراء

وقـولـه :

ابا المسك هل فى الكاس فضل اناله فانى اغنى منذ حيـن وتشـرب
وهبت على مقدار كفـى زماننـا ونفسي على مقدار كفيك تطلـب
اذا لم تنط بى ضيعة او ولايـة فجودك يكسونى وشغلك يسلـب

فزعموا ان كافورا قال ((يا قوم من ادعى النبوة بعد محمد صلى الله عليه وسلم كيف لا يدعى الملك بعد كافور)) ومن عجب الا يجد كافـور ان يك قد قال هذه المقالة ، او من تبرع بها فنسبها اليه ـ شيئا يستدل به على ان ابا الطيب كان يريد الملك ويحدث نفسه به ، غيـر خبر التنبؤ او الخروج او الوشاية الذي كان فى صباه ، وفى هذا الباب ليس قوله ((ففؤادى من الملوك)) بموضع تهمة اكثر من قوله ((فانى اسـد القلب)) انما هي صناعة بيان واسلوب شاعر .

وقد وجد ابو الطيب فى مصر الجمام والدعة . وكانه احب ان يقيم ويلحق به اهله وقد سال كافورا ان ينوط به صنيعة او ولاية ويكفيه بالود الذى استحقه عنده مزاحمة الادباء وهى الشغـل الذى يسلـب وتامل قولـه :

احن الى اهلى واهـوى لقاءهـم واين من المشتاق عنقاء مغـرب

وقـولـه :

اذا نلت منك الود فالمـال هيـن وكل الذى فـوق التراب تـراب
وما كنت لولا انـت الا مهاجـرا له كل يـوم بلـدة وصحـاب

ليث رحمه الله بضع عشرة سنة قبل لقائه سيف الدولة (337 هـ)

يتردد بين بلاد الشام ، يبيع ((الشعر في سوق الكساد)) احيانا كثيـرة ويرود المرعى الجديب ، ويصيد كما قال الثعالبي بين الكركي والعندليب وبقي بعد لقائه سيف الدولة أكثر من ذلك حتى وافته المنية (354 هـ) وهو شاعر الملوك يمدحهم ويأخذ جوائزهم وربما خافهم أو نبا مكانـه عندهم ففر ، وربما عرض أو هجا · وأين يكون جميع هذا من هـوس الراس بحب الرياسة والتصميـم على طلب الملك والخـروج على السلطان ؟ ·

هذه التهمة مثل ((اساءة الادب بالادب)) اريد بها عيب مذهب ابي الطيب في الشعر بعدما بهر وسار به ذكره في الافاق · وما استشهـد الثعالبي بأبيات ((تضريب أعنـاق الملـوك)) و ((وسأطلـب حقـي)) ((ولقد تصبرت)) ((وان عمرت)) الا وهو يستحسنها مع التهمة التي ساقها في شخص أبي الطيب · واذا جمعنا الانواع التي عدها هو محاسن شعره مثل الذي ذكره من غزله بالبدويات وتأمله وحكمته وأمثاله وافتنانه في سائر أغراض الشعر ومخاطبته الممدوح مخاطبة المحبوب ، وأضفنا الى ذلك عنصري تحديه اللذين سماهما اسـاءة الادب بالادب وحـب الرياسة والسلطان ، وانما هما نفس بطولة الشاعر القديـم الـذي كان يشبه أمره بامر النبوة ، اكتملت لدنيا صورة قصيدة المتنبي المتماسكة وحدة اللفظ والمعنى والايقاع والمواجهة الفنية وروح الصدق التي نال بها الشاعر القديم ما نال من المنزلة الرفيعة · ·

+ نسب أبو الطيب بالبدويات وانما صنع هذا ليدل به على ايـثاره بساطة الوضوح على غموض الكذب والنفاق · وقد فسر هذا المعنى أحسن تفسير في أبياتـه المشهـورة :

حسن الحضارة مجلوب بتطريـة وفي البداوة حسـن غير مجلوب

أفدى ظباء فلاة ما عـرفن بهـا مضغ الكلام ولاصبغ الحواجيـب

ولاخـرجـن من الحمـام مائلـة أوراكهن صقيـلات العراقيـب

حـب الصدق وعادته دفعاه الى التحدي . والحرب والطعن والضرب

والسيف والرمح لم يرد بها الخروج على السلطان وطلب الرياسة والملك على الارجح، ولكن أراد بها الكناية عن هذه المعركة الفكرية التي شبها واقدم على هيجائها بفروسية شعرية منقطعة النظير . والكناية من مذهبه وكان بأساليبها فى عصره وعند القدماء عالما ، وقد صرح ببعض ذلك فى قوله :

محب كنى بالبيض عن مرهفاته وبالحسن فى اجسامهن عن الصقل

وقد شبه نفسه بالسيف مرارا ، وبالرمح ، وبالسهم ، وبا جواد ، وقد زعم لنفسه الاتحاد بهن جميعا كما فى قوله :

أمط عنك تشبيهي بما وكانه فما أحد فوقى وما أحد مثلى

وذرتى واياه وطرفى وذابلى نكن واحدا يلقي الورى وانظرن فعلى

واياه يعود على السيف وقد ذكره من قبل وشبه به نفسه .
وشبه شعره بالمنجنيق فى قوله :

ولو ضربتكم منجنيقى واصلكم قوى لهدتكم فكيف ولا اصل

وعلى هذا ينبغى ان نفهم نحو قوله :

افكر فى معاقرة المنايا وقود الخيل مشرفة الهوادى

انه انما يفكر فى خوض معركة الفكر والشعر ، والدماء التى هدد بسفكها نما هى دماء الضفابيس والضعاف من منافسيه :

ارى المتشاعرين غروا بذمى ومنذا يجمد الداء العضالا

افي كل يوم تحت ضبني شويعر ضعيف يقاوينى قصير يطاول

وهل الداء العضال الا رسول الموت

افكر فى معاقرة المنايا وقود الخيل مشرفة الهوادى

زعيم للقنا الخطى عزمي بسفك دم الحواضر والبوادي

الى كم ذا التخلف والتوانى وكم هذا التمادى فى التمادى

وشغل النفس عن طلب المعالـى ببيع الشعر فى سـوق الكساد

وما شغله الشعر عن طلب المعالى الا لانه هو نفسه المعالـى
ولكن يا للاسف قد غلب عليـهالكساد ·

وما ماضى الشباب بمستـرد وما يـوم يمـر بمستـعـاد

متى لحظت بياض الشيب عينـي فقد وجدتـه منهـا فى السـواد

تامل دقـة هذا التأمـل ·

متى ما ازددت من بعد التناهـى فقد وقـع انتقاصى فى ازديـادى

وقال ابـو الطيـب :

ساطلب حقي بالقنـا ومشايـخ كأنهم من طول ما التثموا مـرد

ثقال اذا لاقوا خفاف اذا دعـوا قليل اذا عدوا كثيـر اذا شـدوا

وطعن كأن الطعن لاطعن عنـده وضرب كأن النار من حره بـرد

ولا تخاض المعارك الحربية بالشيوخ الا أن يلوا التدبير ولكن بالفتيـان
وما احسب ابا الطيب عنى الا المشايخ الذى غناهم الفرزدق حيـث
قال :

وهب القصائد لى النوابغ اذ مضوا وابو يزيد وذو القـروح وجـرول

وقال ابـو الطيـب :

وما الجمع بين الماء والنار فى يدى باصعب من ان اجمع الجد والفهما

ولكننـي مستنصـر بذبابـه ومرتكب فى كـل حـال به الغشما

اى المجازفة · والضمير فى ذبابه ، قالوا يعود الى السيـف المفهـوم
من سياق قوله . وليت شعري لماذا لا يعود الى الفهـم وهي اقـرب
أليس هو القائل :

اذا غامـرت فى شرف مـروم فـلا تقنـع بمـا دون النـجـوم

فطعم الموت فى امر حقير كطعم الموت فى أمر عظيم
يرى الجبناء ان العجز عقل وتلك خديعة الطبع اللئيم
وكل شجاعة فى المرء تغنى ولا مثل الشجاعة فى الحكيم
وكم من عائب قولا صحيحا وآفته من الفهم السقيم
ولكن تاخذ الاذان منه على قدر القرائح والعلوم

ام ليس هو القائل :

ما زلت اضحك ابلى كلما نظرت الى من اختضبت اخفافها بدم
اسيرها بين أصنام أشاهدها ولا أشاهد فيها عفة الصنم
حتى رجعت واقلامى قوائل لى المجد للسيف ليس المجد للقلم
اكتب بنا أبدا بعد الكتاب به فانما نحن للاسياف كالخدم
اسمعتنى ودوائى ما اشرت به فان غفلت فدائى قلة الفهم
من اقتضى بسوى الهندى حاجته اجاب كل سؤال عن هل بلم

وههنا سخرية مرة ، واذ السيف هو الفهم فالقلم اذن هو قلة الفهم وصاحبه عاجز :

توهم القوم ان العجز قربنا وفى التقرب ما يدعو الى التهم
ولم تزل قلة لانصاف قاطعة بين الرجال ولو كانوا ذوى رحم

اتهام صاحب القلم بالعجز هو قلة الانصاف ههنا ٠

وقد اشكل امر الكبرياء الفنية والتحدى فى شعر ابى الطيب على كثير من النقاد ٠ والافراط والغلو وصنوف من الاندفاع الارعن مما وقع فى كثير من شعره الاول وبعض شعره الاخر وعيب عليه وعد من سقطاته واسفافه انما كان من نفايات هذه الكبرياء الفنية وهذا التحدى ٠ واحسب ان البرقوقى قد فطن الى جانب من هذا المعنى حيث قال فى مقدمة

شرحه لديوانه « أن هذا الذى يعاب على ابى الطيب ويظن أنه يتخونه ويشينه هو على الحقيقة سر من اسرار شاعريته لان مرجعه الى التوليد الذي لا يؤتاه الا الشاعر المطلق » ثم يقول : « ومن هنا ترى المتنبي يأتى احيانا بالتعقيد المستكره واللفظ المتكلف ، وتراه يتعسف ويتخبط ويسف ، ومع ذلك لا ينفى مثل هذا من شعره ولا يحذفه ، وهو قادر على ان يغنى عنه وليس فى حاجة اليه ، ولكنه بعض طريقته التى انطبع عليها فلا يستطيع حين يجيئه الردىء ان يجعله جيدا ، وليس له الا أن يأخذه كما هو ، لانه هو الذى انبثق له عن الجيد » ا · ه وقال ابن الاثير فى الفصل الذى وازن به بين الشعراء الثلاثة ، أبى تمام ، والبحتري والمتنبي : وعلى حقيقة فانه خاتم الشعراء ، ومهما وصف به فهو فوق الوصف وفوق الاطراء · ولقد صدق فى قوله من أبيات يمدح بها سيف الدولة ·

لا تطلبن كريما بعد رؤيته ان الكرام بأسخاهم يدا ختموا

ولا تبال بشعر بعد شاعره قد أفسد القول حتى أحمد الصمم

ولو تأملت شعره بعين المعدلة البعيدة عن الهوى ، وعين المعرفة التى ما ضل صاحبها وما غوى وجدته اقساما خمسة : خمس فى الغاية التى انفرد بها دون غيره وخمس من جيد الشعر الذى يساويه فيه غيره وخمس من متوسط الشعر ، وخمس دون ذلك ، وخمس فى الغاية المتقهقرة التى لا يعبا بها ، وعدمها خير من وجودها ، ولو لم يقلها ابو الطيب لوقاه الله شرها ، فانها هى التى البسته لباس الملام ، وجعلت عرضه غرضا لسهام الاقوام ا· ه·

وفى أول حديثه عن ابى الطيب الذى منه هذه القطعة المتقدمة قال : « واما ابو الطيب فانه اراد ان يسلك مسلك ابى تمام فقصرت عنه خطاه ولم يعطه الشعر من قياده ما اعطاه » وهذا لا يستقيم مع قوله ان ابا الطيب انفرد بغاية لا يشاركه فيها غيره وانه فى الحقيقة خاتم الشعراء وفوق الوصف وفوق الاطراء وانه وحده الذى يثبت على محك الجودة ، كما قال عنه فى فصل آخر من كتابه المثل السائر · ولعل ابن

الاثير حسب المعدلة ان يجعل الخمس المتقهقـــر فى مقابلـــة الخمس الممتاز فيزيد أبو تمام بجيده على حمسه الجيد . ويتساويان فى المتوسط فما دونه . وهذا وهم . وحاصل قول ابن الاثير انه فضل أبا الطيب ، ولا ريب أن أبا تمام له فضيلة البداية · وقد بلغ أبو الطيب نهاية الشـــوط وبرز فلا يمكن أن يصح الزعم بأنه قد قصرت عن ابى تمام خطاه ولـــم يعطه الشعر من قياده ما أعطاه · أبو تمام ، انما كن يغير ويتجلسر على المعانى والاخيلة ، وكان حسبه ان يكون شاعر الخلافة كما كان الاخطل مع عبد الملك وجرير مع الحجاج · ولكن أبا الطيب تخطى التجاسر على المعاني والاخيلة ، وكان حسبه ان يكون شاعر الخلافة كما كان الاخطـــل التى كان امرها عند القدماء ربما اشتبه بأمر النبوة · لذلك لصق لقب المتنبي باسم ابي الطيب وشعره عند المتاخرين ، وقال احد معاصريـــه فى رثائـــه :

لا رعى الله سرب هـــذا الزمـــان اذ دهانا فى مثل ذلـــك اللســـان

لم يـــر النـــاس ثانـــى المتنبـــى اى ثان يـــرى لبكـــر الزمـــان

هـــو فى شعـــره نبـــى ولـــكـــن ظهـــرت معـــجزاتـــه فى البيـــان

ولعمرى لئن كان مقدار شعره الذى انفرد به لا يعدو الخمس كما ذكر ابن الاثير ، فذلك حسبه ، وله اسوة بخمس الهواء الذى نتنفسه وبه تكون الحياة ، وقد برز امرؤ القيس ببضع قصائد وعد طرفة من اصحاب المعلقات بواحدة · وثلاث زاحمن بعلقمة امرأ القيس ووضعته فى مصاف الفحـــول ·

هذا والحديث عن جوانب الجودة فى شعر ابى الطيب باب واسع لا تتسع له الكلمة القصيرة والمحاضـــرة المحـــدودة الزمن · وقديمـــا قيل فى أمر الشعراء انهم اربعـــة .

فشـــاعـــر يجـــرى ولا يجـــرى معـــه

شـــاعـــر ينشـــد وســـط المعمـــعـــة

وشـــاعـــر مـــن حقـه ان تسمـــعـــه
وشـــاعـــر لا تستـــحى ان تصفـــعـــه

ابو الطيب يجرى ولا يجرى معه · وعنده كل النغمات · حتـــى الفكاهة له منها نصيب وقد كان فحول شعراء العرب يتحاشونها الا ان يلموا بها فى الهجاء · وهل زاد فولستاف حين قال : ما الشرف ، كلمة ، على معنى بيتـــه :

وما عليك من الغدر انمـــا هو سبـــة

ولعله اخذ من هذاالاصل ·

وقريب منه قوله :

ولـــيـــس بيـــن هـلـــوك وحـــرة غـيـــر خـطـبـــه

ويعجبنـــى قـــوله :

لم نفتقد منك من مزن سوى لثق   ولا من البحر غير الريح والسفن
ولا من الليث الا قبـــح منظـــره   ومن سواه سوى ما ليس بالحسن

لما فيـــه من روح الدعـــابـــة

وكـــذلك قـــولـــه :

نيـــممنـــى وكيلـــك مادحـــا لـــى   وانشدنى من الشعـــر الفـــريبـــا
فآجـــرك الالـــه علـــى علـــيـــل   بعثـــت الى المسيـــح بـــه طبيـــا

وضحك كثير فى قولـــه لكافـــور :

لك الحيوان الراكـــب الخيل كلـــه   وان كان بالنيـــران غير موســـم

((ولكنه)) كما قال ((ضحك كالبكا)) ·

ولا يخلو ايضا من روح الضحك قوله :

مرت بنا بين سربيها فقلت لها　من اين جانس هذا الشادن العربا
فاستضحكت ثم قالت كالمغيث يرى　ليث الشرى وهو من عجل اذ انتسبا

وقوله :

لما اقمت بانطاكية اختلفت　اني بالخبر الركبان في حلبا
فسرت نحوك لا الوي على احد　احث راحلتى الفقر والادبا

وقوله :

حق الكواكب ان تزوك من عل　وتعودك الآساد من غاباتها
والجن من ستراتها والوحش من　فلواتها والطير من وكناتها
ذكر الانام لنا فكان قصيدة　كنت البديع الفرد من ابياتها
في الناس أمثلة تدور حياتها　كمماتها ومماتها كحياتها
هبت النكاح حذار نسل مثلها　حتى وفرت على النساء بناتها

ويضيع معنى هذه الابيات ان حمل على غير الفكاهة ·

ومما فيه الفكاهة مع الغزل قوله :

قالت وقد رات اصفراري من به　وتنهدت فأجبتها المتنهد
فمضت وقد صبغ الحياء بياضها　لوني كما صبغ اللجين العسجد

ومراده ببياضها لونها وهو لون بيض النعام الذي تخالطه صفرة كما في قول امرىء القيس : «كبكر المقاناة البياض بصفرة » وكما في قول ذي الرمة : « كانها فضة قد مسها ذهب » · وموضع الفكاهة انها لم تكن تتوقع جوابه السريع البديهة مع ان سؤالها يوحي به وكانه يتضمنه وهذا هو سبب خجلها · ومن ظن ان ابا الطيب قد اخطأ بجعله لون الخجل اصفر فانه لم يفطن لموضع الاشارة الى كلام القدماء وهذا مما تظرف به وجزء من اسلوب فكاهته هنا · وابيات الجرذ المستغير :

لقد أصبح الجرذ المستغير أسير المنايا صريع العطب
رماه الكناني والعامري وتلاه للوجه فعل العرب

كلا الرجلين اتلى قتله فايكما نال حر السلب
وايكما كان من خلفه فان به عضة فى الذنب

وابيات القاضى الذهبى :

لما نسبت فكنت ابنا لغير اب ثم امتحنت فلم ترجع الى ادب
سميت بالذهبى اليوم تسمية مشتقة من ذهاب العقل لا الذهب
ملقب بك ما لقبت ويك به يأيها اللقب الملقى على اللقب

من أمثلة فكاهته المعروفة ، وبعض الرواة حذفها فلم يثبتها فى ديوانه كانه قد انف له منها ٠

وقوله ملقب بك مما اضطرب فيه الشراح ، والمعنى انك انت ملقب بالذهبي لا لانك منسوب الى معدن الذهب النفيس ولكن من اجل ان عقلك قد ذهب لفقدانك الادب ٠

ثم ان لفظ الذهبى المشتق من الذهب المعروف قد صار الان ملقبا بك لدلالتك على معنى الذهاب

ولا يخفى ان فى الذهب معنى الذهاب من اجل انه ينفق فيذهب وههنا مكان فكاهة ذكية لمن تامله

هذا ويروى ان ابا الطيب قد اكب يوما اكبابا شديدا يبحث عن قطعة صغيرة من الذهب سقطت بين ثنايا البساط ثم اما بدا له منها جوينب تمثل بقول قيس بن الخطيم :

تبدت لنا كالشمس خلف غمامة بدا حاجب منها وضنت بحاجب

فزعموا ان هذا من شواهد حرصه وبخله ٠ وهو لو انصفوا على فكاهته ادل ٠

ومن شعره المليء بالمرح ارجوزتـــه اللاميـــة فى دشت الارزن مثلا قوله يصف الوعول :

لها لحـــى ســـود بـــلا سبـــال يصلحن للاضحـــاك لا الاجـــلال

لو سرحـــت فى عارضى مختـــال لعدهـــا مـــن شبـــكـــات المـــال

بين قضـــاة السوء والاطفـــال

وقد ذكر الضحك كما ترى · وكـــأن بعض مترجميـــه يزعمـــون انـــه لا يضحـــك ·

ومما اثبت فيـــه لنفســـه الضحك ايضا قـــولـــه :

بسيطة مهـــلا سقيـــت القطـــارا تركت عيـــون عبيـــدى حيـــارى

فظنـــوا النعـــام عليـــك النخيـــل وظنوا الصـــوار عليـــك المنـــارا

والصـــوار بقـــر الوحش

فامســـك صحبـــى بـــأكـــوارهـــم وقد قصد الضحك فيهم وجـــارا

وشاهد ضحكه انه جعل ينظر الى هذه الصورة المضحكة ·

اناس على ظهور الابل ممسكون بأكوارها يقهقهون ويهتزون من فـــرط الضحك ، والابل ماشية بهم ، عوابس على عادتها ·

كان ابو الطيب فى شعره يغترف من التجارب وينظر بالفكر ويتامل بعين البصيرة وينكشف له بعض حجاب الغيوب ، وثم اشياء من احسانه الكثير ينبغى التنبيه عليها ، لانها هى عنوان فحولة بيانه وبطولة شعره ·

هذه الاشياء ثلاثة : معرفته باحوال المجتمع والسياسة فى عصره ومعرفته بانفس البشرية وواقع الحياة المر ومعرفته بالمعانى الكونية الكبرى والمصيـــر ·

اما معرفته باحوال المجتمع والسياسة فى عصـــره فمن امثلتهـــا قوله يذكر امراء الطوائف وصغار امرهـــم

ودهر ناسه ناس صغار وان كانت لهم جثث ضخام
ارانب غير انهم ملوك مفتحة عيونهم نيام
باجسام يحر القتل فيها وما اقرانها الا الطعام
وخيل لا يخر لها طعين كان قنا فوارسها ثمام

وقوله يذكر ضيعة العرب وذهاب مادتهم الاولى وغلبة الانتهازيين على ملكهم :

احق عاف بدمعك الهمم احدث شيء عهداً بها القدم
وانما الناس بالملوك ولا تصلح عرب ملوكها عجم
لا ادب عندهم ولا حسب ولا عهود لهم ولا ذمم
بكل ارض وطئتها أمم ترعى بعبد كانها غنم
يستخشن الخز حين يلمسه وكان يبرى بظفره القلم

وقوله يذكر أمر انفراد سيف الدولة بجهاد العدو ويمدحه بذلك ويعرض بسواه

الهى الممالك عن فخر قفلت به شرب المدامة والاوتار والنغم
مقلداً فوق شكر الله ذا شطب لا تستدام بامضى منهما النعم

وقوله يذكر حراسته الثغور وغفلة دار الخلافة وغيرها عن ذلك واشتغال القوم بالفتن وانهماكهم على الملذات :

ليس الاك يا على همام سيفه دون عرضه مسلول
كيف لا يامن العراق ومصر وسراياك دونها والخيول
انت طول الحياة للروم غاز فمتى الوعد ان يكون القفول
وسوى الروم خلف ظهرك روم فعلى اى جانبيك تميل

قعد الناس كلهم عن مسا عيك وقامت بها القنا والنصول

ما الذى عنده تدار المنايا كالذى عنده تدار الشمول

وكتب اليه يمدح صنيعه وفيه معنى النبوءة والنذير بما أزف من خطر انهيار الدولة وغلبة العدو :

أرى المسلمين مع المشركين اما لعجز واما رهب

وانت مع الله فى جانب قليل الرقاد كثير التعب

كانك وحدك وحدته ودان البرية بابن واب

وأما معرفته بالنفس البشرية وواقع الحياة المر فمن أمثلته قوله :

لا يخدعنك من عدو دمعه وارحم شبابك من عدو ترحم

لا يسلم الشرف الرفيع من الاذى حتى يراق على جوانبه الدم

يؤذي القليل من اللئام بطبعه من لا يقل كما يقل ويلؤم

الظلم من شيم النفوس فان تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم

قوله : وارحم شبابك ، يخاطب نفسه وفيه معنى الرحمة لها ثم مع الشباب العاطفة وقلة التجربة . وقوله يؤذى القليل اضطرب فيه بعض الشراح ومعناه الواضح ان الاقلية اللئيمة تؤذي الاكثرية بمقدار قلتها ولؤمها ، اى كلما كانت الاقلية اللئيمة اقل عددا واذل والأم كان اذاها للاكثرية بالرغم من كثرتها اكثر واشد واوجع .

وقال ينصح بالحزم :

من الحلم ان تستعمل الجهل دونه اذا اتسعت فى الحلم طرق المظالم

وان ترد الماء الذى شطره دم فتسقى اذا لم يسق من يزاحم

ومن عرف الايام معرفتى بها وبالناس روى رمحه غير راحم

فليس بمرحوم اذا ظفروا به ولا فى الردى الجارى عليهم بآثم

وكثير من اهل الصرامة يعملون بمقتضى هذا التدبير .

وقال يامر بالحذر وتوطين النفس على بسالة الصبر :

هـون على بصر ما شق منظـره   فانمـا يقظات العيـن كالحـلـم
ولا تشك الى خلـق فتشمتــه   شكوى الجريح الى الغربان والرخم
غاض الوفاء فمـا تلقـاه فى عـدة   واعوز الصدق فى الاخبار والقسـم

وقال يذكر العشق وغلبة الراى فيه على الهـوى .

مما اضر باهـل العشـق انهـم   هووا وما عرفوا الدنيا وما فطنوا
تفنـى عيونهم دمعـا وانفسهـم   فى اثر كل قبيـح وجهـه حسـن

ثم تزول غمرة العشق ويكون بعدها الغضب والهجران :

تحملـوا حملتكـم كـل ناجيـة   فكل بيـن على اليـوم مـؤتمـن
ما فى هوادجكم عن مهجتـي عوض   ان مت شوقا ولا فيها لها ثمـن
ما كـل ما يتمنـى المرء يدركـه   تجرى الرياح بما لا تشتهى السفن
يا من نعيت على بعـد بمجلسـه   كل بما زعم الناعـوون مرتهـن
رايتكم لا يصون العرض جاركـم   ولا يـدر علـى مرعاكـم اللبـن
ففادر الهجـر ما بيني وبينكـم   يهماء تكذبفيهـا العيـن والاذن

ثم الصبر والسلـوان :

انني اصاحب حلمي وهو بي كـرم   ولا اصاحب حلمى وهو بى جبـن
سهرت بعد رحيلى وحشـة لكـم   ثم استمر مريري وارعـوى الوسن

وقال يصف اخلاق النساء واثر الحب على قلوبهن وقلوب الرجـال :

اذا غدرت حسناء اوفت بعهدهـا   فمن عهدها الا يـدوم لها عهـد

وان عشقت كانت اشد صبابـــة   وان فركت فاذهب فما فركها قصد
وان حقدت لم يبق فى قلبها رضا وان رضيت لم يبق فى قلبها حقــد
كذلـــك اخــلاق النســـاء وربمـــا   يضل بها الهادي ويخفى بها الرشد
ولكن حبا خامر القــلب فيالصبـــا   يزيد على مـــر الزمـــان ويشتـــد
وقال يذكر سوء الظن وينصح بحسن معاملة الصديق :
اذا ساء فعل المرء ساءت ظنـــونه   وصـــدق مـــا يعتاده من توهـــم
وعادى محبيه بقـــــول عداتـــــه   واصبح فى ليـــل مـــن الشك مظلم
اصادق نفس المرء من قبل جسمه   واعرفهـــا فى فعلـــه والتكلـــم
واحلم عن خلى واعلم انه متىاجزه حاما على الجهل يندم
وان بذل الانسان لى جود عـــابس   جزيت بجود التارك المتبســـــم
وقال يذكر المال وضرورة جمعه وتدبيره :
واتعب خلق الله من زاد همــــــه   وقصر عما تشتهـــى النفس وحده
فلا ينحلل فى المجـــد مالـــك كلـــه   فينحل مجد كـــان بالمـــال عقـــده
ودبره تدبير الذي المجد كفـــــــه   اذا حارب الاعداء والمـــال زنـــده
فلا مجد فى الدنيـــا لمـــن قل ماله   ولا مـــال فى الدنيا لمن قل مجـــده
وفى الناس من يرضى بميسور عيشه   ومركوبه رجلاه والثوب جـــلـــده
وهؤلاء هم اهل القناعة ٠ وربما شمل اكثر هم قوله :
ذو العقل يشقى فى النعيم بعقلـــه واخو الجهالة فى الشقـــاوة ينعـــم
وامثال ابى الطيب وحكمه المستفادة من معرفة طبائع الناس وتجارب الحياة كثيرة رائعة ، كقـــولـــه :

ومن نكد الدنيا على الحر ان يرى   عدوا له ما من صداقته بد

وكقوله :

يرى الجبناء ان العجز عقل   وتلك خديعة الطبع اللئيم

وكل شجاعة فى المرء تغنى   ولا مثل الشجاعة فى الحكيم

وكقوله :

اذا انت اكرمت الكريم ملكته   وان انت اكرمت اللئيم تمردا

ووضع الندى فى موضع السيف بالعلى

مضر كوضع السيف فى موضع الندى

وسبب حيوية المثل والحكمة عند ابى الطيب انها منتزعة من معرفته وتجاربه هو لا مجرد نظم بليغ لمعان اتفق عليها الناس . ومن اجل هذا باخت محاولة الحاتمى فى الذى ادعاه من ان ابا الطيب كان يترجم عن أرسطوطاليس وغيره من حكماء يونان .

ومعرفة ابى الطيب بالمعانى الكونية والمصير باب على قربه من الفلسفة لم يخرج به عن الشعر بل سما به الشعر فيه الى ذرى لا تستطاع وقد سلك المعري مسلكه فى كثير من اشعار سقط الزند واللزوميات فابدع واصاب واجاد . ولكن ههنا موضع المثل : « مرعى ولا كالسعدان »

فمن امثلة هذا الباب عند ابى الطيب قوله يتفكر فى حتمية الموت واثرها على البشرية وطبيعة العمران :

وقد فارق الناس الاحبة قبلنا   واعيا دواء الموت كل طبيب

سبقنا الى الدنيا فلو عاش اهلها   منعنا بها من جيئة وذهوب

تملكها الآتى تملك سالب   وفارقها الماضى فراق سليب

ولا فضل فيها للشجاعة والندى   وصبر الفتى لولا لقاء شعوب

واوفى حيـاة الغابرين لصاحــب   حياة امرىء خانته بعــد مشيــب

وشعوب هى الموت · وجعله ابو الطيب سبب الفضائل واصلها · واحتج المازنى رحمه الله على من انكر موضع الندى فى البيت بهذا المعنى وانه يحتاج الى ذكر الندى وان ابا الطيب لو مكنه الوزن لذكر مع الشجاعـــة الندى والصبر صفات اخرى واذن لا تضح مراده كل الوضوح · والحق ان البيت محكم لا يحتاج الى مزيد لان مرد الفضائل جميعــا الى هـــذه الصفات الثلاث التى ذكرها ابو الطيب ·

هذا ، ومن هذا الباب قوله يذكر كلفنا بالحياة واختلاف المساعـــى والارزاق :

ارى كلنا يبغى الحيــاة لنفســه   حريصا عليها مستهاما بها صبــا

فحب الجبان النفس اورده التقى   وحب الشجاع النفس اورده الحربا

ويختلف الرزقان والسعى واحــد   الى ان يرى احسان هذا لذا ذنبا

وقوله ياسى لماساة الحياة امام حتمية الموت :

وما الموت الا سارق دق شخصه   يصول بلا كف ويسعى بلا رجـــل

يرد ابو الشبل الخميس عن ابنــه   ويسلمــه عنــد الولادة للنمـــل

نبكي لموتانا على غيـــر رغبـــــة   تفوت من الدينا ولا موهب جـــزل

اذا ما تاملت الزمان وصرفـــــه   تيقنت ان الموت ضرب من القتل

هل الولد المحبـــوب الا تعلـــــة   وهل خلوة الحسنـــاء الا اذى البعل

وما الدهر اهل ان تــؤمل عنده   حياة وان يشتاق فيه الى النسل

وقوله يتفكر فى مصير الكون وغاية الانسان :

تخالف الناس حتى لا اتفاق لهــم   الا على شجب والخلف فى الشجب

الشجب هو الموت · اى اتفق الناس على ان الموت لا مفر منه ثـم اختلفوا فى امر الموت نفسـه ·

فقيـل تخلص نفس المرء سالمـة وقيل تشرك جسم المرء فى العطب

وهذه حكاية ساخرة لبعض اقوال الفلاسفة ، ثم يعلق عليهـا بقولـه :

ومن تفكـر فى الدنيـا ومهجتـه اقامة الفكربين بين العجـز والتعب

وهذه من ذراه الشعرية التى لا تستطاع ·

ومن قوله فى الحياة وما بعـد الموت :

يقول لى الطبيـب اكلـت شيئـا وداؤك فى شرابـك والطعـام

ومـا فى طبـه انـى جـواد اضر بجسمه طـول الجمـام

فان امرض فما مرض اصطبارى وان احمـم فما حـم اعتزامـى

وان اسلـم فمـا ابقـى ولكـن سلمت من الحمام الـى الحمـام

تمتـع مـن سهـاد أو رقـاد ولا تامل كـرى تحـت الرجـام

فان لثالـث الحاليـن معنـى سوى معنى انتبـاهـك والمنـام

وليس ههنا شك فى البعث ولكن انكار ان يكون الموت كالنوم والحيـاة كاليقظة ، الموت حالة ثالثة من أحوال الغيـب التي علمهـا عنـد الله سبحانه وتعالى ·

ومن قوله الذى يدنو من الفلسفة وياخذ من أساليبها ولكن جوهره شعر خالص قوله فى احدى مراثيـه :

نحن بنو الموتى فمـا بالنـا نعـاف ما لا بـد مـن شربـه

تبخـل ايدينـا بارواحنـا على زمـان هى مـن كسبـه

فـهـذه الارواح مـن جـوه وهـذه الاجسـام مـن ثوبـه

لو فكـر العاشـق فى منتهـى حسن الـذى يسبيـه لم يسبـه

لم ير قرن الشمس في شرقه فشكت الانفس في غربه
يموت راعي الضان في جهله موتة جالينوس في طبه
وربما زاد على عمره وزاد في الامن على سربه

قوله لم ير قرن الشمس معناه انه ما ظهرت الشمس من المشرق الا تيقنا ولم يخالجنا شك انها ستغيب في المغرب ، وكذلك الجمال ، اذ راينا اشراقه لزمنا ان نعلم انه سيغيب ٠

وكثيرا ما يمزج ابو الطيب تفكره في الموت والفناء واحوال الكون بانفاس من الشكوى ذات نغم حزين كما في قوله :

ومن لم يعشق الدنيا قديما ولكن لا سبيل الى الوصال
نصيبك فيحياتك من حبيب نصيبك في منامك من خيال
رماني الدهر بالارزاء حتى فؤادي في غشاء من نبال
فصرت اذا اصابتني سهام تكسرت النصال على النصال

وكما في قوله :

صحب الناس قبلنا ذا الزمانا وعناهم من امره ما عنانا
وتولوا بغصة كلهم منه وان سر بعضهم احيانا
ربما تحسن الصنيع لياليه ولكن تكدر الاحسانا
وكانا لم يرض فينا بريب الدهر حتى اعانه من اعانا
كلما انبت الزمان قناة ركب المرء في القناة سنانا
ومراد النفوس اصغر من ان نتعادى فيه وان نتفانى
غير ان الفتى يلاقي المنايا كالحات ولايلاقي الهوانا
ولو ان الحياة تبقى لحي لعددنا اضلنا الشجعانا

واذا لم يكن من الموت بد فمن العجز ان تكون جبانا
كل ما لم يكن من الصعب فى الانفس سهل فيها اذا هو كانا

هذه ذرة من ذرى ابى الطيب التى لا تستطاع ·

ولعل الحافظ الذهبى رحمه الله قد اصاب اذ قال ليس فى العالم احد اشعر منه ، اما مثله فقليل

وحسبه انه صنع من قصيدة المدح هذا الصرح الخالد العظيم ·
وتمت هذه المحاضرة بعون الله وحمده وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا

فاس — د. عبد الله الطيب

من ذيول معركة "وادي المخازن"

أمير سعدي
في خدمة البلاط الإسباني .

محمد العربي الخطابي

في الأدب الاسباني القديم مسرحية شعرية تسلط الاضواء على حياة أمير من الأسرة السعدية لعب أبوه دورا رئيسيا في معركة وادي المخازن .

والغريب في الامر ان أحداث هذه المسرحية تطابق ـ كما تثبت الوثائق ـ وقائع التاريخ وأشخاصه . وعنوان الكوميديا « مأساة الملك ضون سباستيان وتعميد أمير المغرب » (1) وهي من تأليف الشاعر الكوميدي لوبي دى بيكا (1562 — 1635) الذي يعد من أعمدة الادب المسرحي ورواده في أوربا .

(1 Tragedia del Rey Don Sebastian y Bautizo del principé de Marruecos.

ويحدثنا المستعرب الاسباني المعاصر ضون خيمي أولبير أسين Don Jaime Oliver Asin الذي اعتمدنا عليه أساسا في هذا العرض ـ أن العلامة والمستشرق الكبير ضون مارثيلينو مينينديث أي بيلايو
(Don Marcelino Menéndez y Pelayo)
نشر سنة 1898 هذه المسرحية ضمن مجموعة أخرى للشاعر لوبي دى بيكا بعنوان (El Fénix) وإذ تبين له أنها من أدب المناسبات حاول أن يتأكد من صحة الاحداث التي تشخصها وذلك بالرجوع الى الوثائق التاريخية فلم يعثر الا على معلومات ضئيلة في حوليات ليون دى بينيلو (2) حيث جاء ذكر « مولاي الشيخ بن مولاي محمد ملك فاس ومراكش الذي طرده ابن عمه مولاي عبد الملك (هكذا) ». وتشير هذه الحوليات الى تنصر مولاي الشيخ وتعميده في مدريد تحت اشراف الملك ضون فيلب وزوجته الاميرة ضونيا اسابيل ، كما تشير الى موته فى فلاند ؟ وهو فى خدمة الملك الاسباني .

هذا وقد وجد المستشرق منينديث اى بيلايو أيضا اشارة الى حياة الامير السعدي في ميلانو (ايطاليا) في مسرحية أخرى للوبي دى بيكا عنوانها « الشقاء في سبيل الشرف » (3) ، كما جمع معلومات عن المنازل التي

---

2) Los Anales de Leon de Pinelo.
3) La desdicha por la honra

سكنها الامير المغربي في مدريد معتمدا في ذلك على مؤلف لسيربانتيس .

وأمام هذه المعلومات الهزيلة والمشوبة بالخطأ التي لم تمكن مينيديث اى بيلايو من كشف الغطاء عن شخصيه بطل المسرحية المذكورة ، وبالتالي من تقدير قيمتها التاريخية ، أخذ المستعرب (أوليبيرأسين) على عاتقه مهمة البحث والاستقصاء ، مدفوعا بفضوله العلمي واطلاعه على التاريخ المغربي الاسباني ، محاولا بذلك الكشف عن حقيقة مولاي الشيخ وعن الظروف التاريخية التي أحاطت بحياته . وقد هداه البحث الطويل الجاد الى الحصول على معلومات قيمة موثوق بها عن حياة هذا الامير السعدي وما يتصل بها من أحداث وفي مقدمتها موقعة « وادي المخازن » والعلاقات السياسية بين المغرب واسبانيا في عهد الملكين أحمد المنصور السعدي وفيليب الثانى ملك اسبانيا والبرتغال ، وهكذا أصدر أسين سنة 1955 كتابا بعنوان « حياة ضون فليب الافريقي أمير فاس ومراكش ، 1566 — 1621 » (4) وطبع الكتاب تحت اشراف المجلس الاعلى للبحوث العلمية ، بعد أن نال جائزة " Raimundo Lulio " سنة 1948 .

وسأحاول أن أقدم للقاريء العربي خلاصة لاهم ما جاء في هذا الكتاب متحاشيا التعليق عليه بشيء يزيد عن

---

4) Vida de Don Felipe de Africa (1566-1621)

ايضاحات أو شروح تقتضيها طبيعة الترجمة . وأود أن أشير قبل ذلك الى أن الكتاب مشتمل على ستة فصول يهتم الاول منها بطفولة مولاي الشيخ خلال الحروب الاهلية في المغرب (1566 — 1578) .

ويتناول الفصل الثاني مقام مولاي الشيخ في البرتغال (1578 — 1598) بينما تتعرض الفصول الباقية الى ردة هذا الامير السعدي واعتناقه المسيحية وتعميده ثم تتحدث عن حياته في مدريد وميلانو . والكتاب مذيل ببعض الوثائق المتعلقة بمولاي الشيخ ومن بينها وصيته .

وقد رأيت في تلخيصي لكتاب أسين أن أقسم الموضوع الى قسمين ينشر القسم الاول منهما في هذا العدد من « المناهل » وفيه معلومات ، معظمها مستقي من مصارد برتغالية أو اسبانية دون اهمال للمراجع العربية ، تتناول بالتحليل المعارك التي وقعت بين السلطان المخلوع محمد المتوكل وعمه عبد الملك المعتصم الذي اعتلى العرش بمساعدة الاتراك العثمانيين ثم تنكر لهم رغبة في التحالف مع الاسبان . أما القسم الثاني ، الذي ينشر في عدد مقبل بحول الله ، فيختص بذكر حياة مولاي الشيخ في لشبونة أولا ثم في كارمونا وأندوخر ومدريد ثانيا كما يتعرض لأخريات حياته ووفاته في ايطاليا قريبا من ميلانو حيث كان في خدمة عاهل اسبانيا . وسأجاري المؤلف فيما أخذه على نفسه من مقارنة أحداث مسرحية

لوبي دى بيكا بالوقائع التاريخية الثابتة ، ولاسيما في القسم المتعلق بحياة اميرنا في أوربا .

ولا بد من الاشارة هنا الى أن مؤرخي الدولة السعدية المغاربة لم يشيروا بشيء ذي بال في مؤلفاتهم الى حياة الامير مولاي الشيخ ، وربما تعمدوا السكوت عن أخباره تحت ضغط الظروف الداخلية أو أن المعلومات الكافية لم تتوفر لديهم عن هذا الأمير نظرا لمقامه بعيدا عن المغرب مع أن وجوده في اسبانيا ، خاصة أيام فليب الثاني وأحمد المنصور السعدي ، أفسح المجال لكثير من المساومات السياسية والضغوط الدبلوماسية التي كان يمليها تضارب مصالح الاسبان والانجليز والعثمانيين وأطماع كل منهم في المغرب ، مع رغبة العاهل السعدي في حفظ التوازن ضمانا لعرشه ولمصالح بلاده .

القسم الاول

ـ طفولة مولاي الشيخ أثناء الحروب الاهلية في المغرب (1566 - 1578)

ولد مولاي الشيخ بن أبي عبد الله محمد المتوكل بن عبد الله الغالب سنة 1566 في مدينة مراكش . وقد اعتلى أبوه المتوكل عرش المغرب سنة 1574 ، وتولى جده عبد الله الغالب الحكم من 1557 الى 1574 . ولا نعرف عن أم مولاي

الشيخ شيئا يزيد عن كونها بنت عبد الكريم ابن تـودة قـائد أصيـلا .

ويحدثنا ذى شيراسكو (5) الايطالـي فـي كتابـه « مذكرات تاريخية عـن حيـاة أميـر المغـرب مـولاي الشيخ ،،، » المطبوع في تورينو (ايطاليا) سنة 1795 أن « مولاي الشيخ نشأ وتربي على هدى القرآن ، الا أنه ، بالرغم من ذلك ، كان يظهر كثيرا من العطف على الرقيق النصارى (عبيد البلاط) فكان يحب أن يتحدث اليهم حينما يتاح له ذلك خفية . وقد علم أبوه بالامر فخشى عليه من أن يهجر الدين الذي نشأ عليه فأمر بالباسه سروالا كان من عادة العبيد النصارى أن يلبسوه ، وقصده من ذلـك أن يتعرض لسخرية الحاشية فتتأذى نفسه فيتجنب محبة النصارى » ومن المرجح أن مولاي الشيخ كان يذكر مع مرور الزمن هذه الحادثة ويقصها علـى أصحابـه فـي فيجيبانو Vigévano بايطاليا حيث عـاش في أواخـر حياتـه وتـوفـى .

وقـد نقـل دي شيراسكـو هذه النادرة عـن الراهب مينوتي Minuti الذي رتل الطقوس الدينية على جثمان مـولاي الشيـخ .

---

5) Matteo Gianolio di Cherasco - Memorie Storiche intorno de la vida del Real Principe di Marocco Mulay Xeque... - Torino, 1795

6) Diego de Torres ; Relacion del origen y succeso de los xarifes.

وقد تبدو هذه الواقعة غريبة بعض الشيء ، اذ أننا لا نتصور لاول وهلة أن يكون بالبلاط المغربي تأثير نصراني ما ، ومع ذلك يمكن تصديق وقوع نوادر من هذا القبيل في البلاط السعدي اذا فكرنا في كثير من المرتدين المسيحيين الذين كانوا يعيشون هناك ، وربما لم يكن بعضهم قد نسى عقيدته الاولى (النصرانية) ، وكان فى البلاط أيضا عبيد مسيحيون بل واماء نصرانيات من أصل اسباني كن محظيات أو زوجات في بعض الاحيان للسلاطين السعديين . ولنذكر في هذا المقام أن ديغودى طوريس قد حدثنا في كتابه « الكلام عن نشأة الشرفاء وخلافتهم » أن عبد المومن تعلم من النصارى كثيرا من الفضائل كما تعلم الاسبانية قراءة وكتابة » ، وأن سانرومان يروى ـ ، ربما بشيء من المبالغة ـ في كتابه « حملة الملك ضون سباستيان وموته (7) » ان عبد الملك كان في عاداته نصرانيا أكثر منه مغربيا ، وان ذلك يرجع الى كثير من العوامل ومنها أن أحد عبيد أبيه ـ واسمه كاريو Carillo وهو من بيادوليد ـ قد علمه الديانة النصرانية وبعض طقوس الصلاة فكان ذلك منه فضولا لا أكثر من أي شيء آخر ، وانه ـ أي عبد الملك ـ كان يشرب الخمر ويأكل لحم الخنزير » .

***

7) Sanroman ; Jornada y Muerte del Rey Don Sebastian.

بويع السلطان محمد سنة 1574 بعد وفاة والده عبد الله الغالب . وكان عمر مولاي الشيخ ثمانية أعوام ، فكتب له أن يشهد وهو طفل أياما عصيبة . فقد كان عبد الملك ، شقيق السلطان المتوفى ، يتأهب لمحاربة ابن أخيه محمد للتربع على عرش المغرب مكانه بتأييد من علماء مراكش بينما كان علماء فاس يسندون محمدا المتوكل . وبهذا نشبت سنة 1575 حروب أهلية دامت أكثر من ثلاث سنين . وفي هذه الاعوام كان عميد الادب الاسباني ميكيل دى سربانطيس (1547 — 1616) أسيرا في الجزائر التي حل بها في وقت كان حديث الناس لا ينقطع عن مصير الجيوش التي جندها عبد الملك هناك لينقض بها على المغرب . وقد سجل هذا الكاتب الكبير بعض ما شهده أو سمعه من أحداث في مسرحية عرض فيها لذكر عبد الملك ووصفه شعرا بأنه جندي عظيم واسع الشهرة كريم الشمائل » وبأنه عالم يتقن التركية والاسبانية والايطالية والفرنسية ، ويتحلى بأطيب الصفات » (8) كما قال عنه بأنه يتناول طعامه وهو جالس الى المائدة وينام على سرير مرتفع كما يفعل النصارى .

وكان أحمد مصاحبا لشقيقه عبد المالك في جميع الحروب التي خاضها ، شأنه في ذلك شأن مولاي الشيخ ،

---

8) Miguel de Cervantes ; Banos de Argel, 1615

الامير الصغير ، الذي شهد الحروب مع أبيه محمد بالرغم من صغر سنه ، وكانوا يعتبرونه ولي عهد أبيه .

واذا كان النصر قد حالف عبد الملك في الحروب التي خاضها ضد ابن أخيه محمد ، فان هذا قد عرف الهزيمة تلو الهزيمة كما عرفها مناصروه البرتغاليون الذين مدوا له يد العون في وقت متأخر ، وكان الاتراك يؤازرون عبد الملك وأخاه أحمد منذ البداية . وكان آخر المعارك التي وقعت بين الطرفين المتقاتلين موقعة القصر الكبير (4 أغسطس 1578) وكان من نتائجها ضم البرتغال الى اسبانيا .

واذا كانت تفاصيل وقعة القصر الكبير مشهورة فان الاحداث التي سبقتها غير معروفة ولاسيما ما يتصل منها بدور الامير السعدي الصغير ومغزى مشاركته . ولهذا فان رواية هذه الاحداث أمر لا مناص منه لمن يريد أن يفهم ما يعنيه بالنسبة للاسبان مولاي الشيخ الذي يعتبر شخصية ذات شأن بالغ في التاريخ الوطني الاسباني ، وذلك بوصفه ابنا للسلطان محمد الذي أدت هزيمته بجانب الملك ضون سباستيان الى توحيد شبه جزيرة ايبيريا .

---

9) Chronique anonyme de la dynastie sa'dienne ; Georges S. Colin, Rabat 1934.

ولدراسة هذه الحقبة نتوفر على مصادر عربية ومسيحية . فالمصادر العربية ، أو على الاقل التي نعرفها منها ، تحتوي على معلومات ناقصة . وأهم مصدر عربي عن تاريخ الدولة السعدية ـ وأعني به « نزهة الحادى » لليفرني ـ لا يتحدث الا على وقعة الركن (1575) ووقعة القصر الكبير ، وهو لا يشير الا بصورة سريعة ومبهمة الى الاحداث التي تخللت المعركتين ، ولا يوجد في هذا المرجع أي ذكر لمولاي الشيخ . ونفس الشيء يمكن أن يقال عن « تاريخ الدولة السعدية » لمؤلف مجهول الذي نشره كولان COLIN وصدر ضمن مجموعة معهد الدراسات المغربية العليا (المجلد الثاني) ، وهذا المرجع لا يتعرض لذكر مولاي الشيخ . ذلكأ ن المؤرخين المغاربة الذين كانوا يعرفون ميول الامير السعدي نحو الملكية الاسبانية ويعرفون فوق ذلك اعتناقه للنصرانية كانوا يتحرجون ، كما هو طبيعي ، من ذكر أخبار مرتد من الاسرة الحاكمة ، بل انهم كانوا يرون في ذلك أمرا منكرا .

وعلى العكس من هذا كان المؤرخون المسيحيون ينظرون بعين العطف والرضا الى مولاي الشيخ فلم يتأخروا عن ذكر مساهمته في الحروب الاهلية بالمغرب . ومثال ذلك ما نجده في كتاب برتغالي نعتقد أنه عظيم الفائدة فيما يرجع لتاريخ المغرب . ويتحدث الكتاب عن أخبار الامير المغربي كما يروى بتوسع وقائع الحروب

التي خاضها السلطان محمد المتوكل »، وقد رجعنا الى هذا الكتاب وجعلنا منه وثيقة نعتمد عليها في روايتنا هذه . وعنوان الكتاب « تاريخ الملك ضون سباستيان » لبرناردو دى كروش (10) نشر لاول مرة في لشبونة سنة 1837 ، وتوجد منه طبعة حديثة . والواقع أن الكتاب لمؤلف مجهول بالرغم من نسبته الى برنارد دى كروش . ولا شك أن الذي كتبه كان على معرفة جيدة بالمغرب وبتاريخه وتقاليده وأنه استند الى معلومات شفاهية تلقاها من القائد الشهير عبد الكريم ابن تودة الذي يشير المؤلف الى محادثاته معه في غير ما مناسبة .

واستنادا الى هذا المرجع البرتغالي الهام نعرف أن السلطان محمدا المتوكل والد مولاي الشيخ لم يحكم المغرب في السلم الا ما يزيد قليلا عن سنة . ويخبرنا المؤلف المسلم المجهول . « لتاريخ الدولة السعدية » ـ الذي سبقت الاشارة اليه ـ ان محمدا المتوكل اعتلى الحكم برضا الجميع وأنه أحسن سياسة البلاد وكان رجلا طاهر الخلق لم يشرب خمرا ولم يأت فاحشة الزنا ، وانه

---

10) Chronica de Elrei D. Sebastian ; F. Berbardo de Cruz.

كان فاضلا ولم يؤخذ عليه الا تحالفه مع البرتغاليين [11] أما اليفرني ـ الذي استلهم مؤرخين عاشوا قبله ولم يكونوا بطبيعة الحال ينظرون بعين الرضا الى شخصية معادية للسلطان أحمد المنصور الذي كان متربعا على العرش حينما ألفوا تواريخهم ـ فانه قد وصف محمدا المتوكل بأنه متكبر لا يأبه بأحد ، وأنه يقسو على الرعية الا أنه وصفه بكونه فقيها عالما وكاتبا شاعرا مبرزا ، وأورد قصيدة من شعره . هذا ويقول ديغودي طوريس (DIEGO DE TORRES) في كتاب « الكلام عن نشأة الشرفاء وخلافتهم » ، وقد سبقت الاشارة اليه ، يقول ان السلطان المتوكل كان أسود وانه « حينما بويع سلطانا على تلك الممالك ارتأى أن يقتفي أثر والده وجده في الاستبداد ، فأمر بشنق اخوته كما أمر بقطع رأس شقيقه الاكبر بينما أودع في السجن أصغر اخوته سنا » وأضاف (دي طوريس) في آخر الكتاب الذي ألفه سنة 1575 ـ حسب استنتاجنا ـ أن « مولاي محمدا كان يبغضه قومه » .

* * *

---

11) واضح انني قد نقلت هذا الكلام وما يليه عن الترجمة الاسبانية لكتاب « تاريخ الدولة السعدية » ، ولم ارجع الى الاصل العربي الذي نشره كولان ، وقد اضطررت الى ذلك مدفوعا بضيق وقتي ورغبتي فى أن ينشر المقال فى هذا العدد من المناهل . فمعذرة للباحثين وذوي الاختصاص .

شهد الامير مولاي الشيخ وهو طفل صغير معركة الركن التي وقعت بالقرب من فاس سنة 1576 بين محمد المتوكل وعبد الملك الذي كان ملتجئا في عاصمة الخلافة العثمانية فارا من اضطهاد أخيه عبد الله الغالب ، ودخل المغرب قادما من تلمسان . وكان وجود مولاي الشيخ على رأس جيوش والده محمد عملا رمزيا اقتضته رغبة القبائل في أن يكون على رأسها أمير من الاسرة المالكة ، الا أن الذي قاد المعركة بالفعل هو الصدر الاعظم علي بن شقره ، وكان مع الامير الطفل أيضا عبد الكريم ابن تودة شقيق زوجة محمد المتوكل ، وكان عبد الكريم هذا زوجا لاحدى بنات الوزير ابن شقره . وكان من قواد المعركة أيضا ـ في صف المتوكل ـ القائد سيدي حمو بن حميدة خليفة السلطان في مكناس . ونذكر أن السلطان محمدا كان قد وضع ثقته في قائد من الموركسيين الغرناطيين يدعى الدغالي الا أنه قلب ظهر المجن وانضم أثناء المعركة الى معسكر عبد الملك في ألف من رجاله الجنود المشاة الاندلسيين ، وحينما علم السلطان محمد بذلك وقيل له خطأ بأن الوزير ابن شقرة قد خان أيضا وانضم الى صف عبد الملك ، فر ـ أي السلطان محمد ـ مع خمسة عشر ألف فارس كانوا في المؤخرة ، تاركا بقية الجيش تحت رحمة عدوه المنتصر . وهكذا دخل عبد الملك ظافرا الى مدينة فاس حيث بويع سلطانا وعين أخاه أحمد خليفة على ولاية سوس .

أما محمد فانه التحق على الفور بمراكش حيث أخذ في اعادة تنظيم جيشه . وأمر باطلاق سراح أخيه مولاي نصر الذي كان سجينا في سوس بعد ان أخذ منه عهدا بمساعدته في حربه ضد عبد الملك . وبعد شهور قليلة علم محمد المتوكل أن عمه عبد الملك قادم لمحاربته فترك حمو بن حميدة خليفة له في العاصمة وخرج في ثلاثين ألف فارس واثنى عشر راجلا للقاء جديد ضد عمه . وقاد محمد المتوكل الجيوش بنفسه ومعه شقيقه مولاي نصر وابنه مولاي الشيخ . ووقعت المعركة بالقرب من سلا في مكان يعرف بخندق الريحان . وقد جرح مولاي نصر في هذه المعركة بينما ولى محمد الادبار مع خمسين من رجاله فقط متجها نحو مراكش يتعقبه عمه أحمد . وتفيد رسالة وجهها حاكم طنجة ضون دوارتي دى مينيسيس (Don Duarte Meneses) الى ملك البرتغال ضون سباستيان (12) يخبره فيها أن المعركة وقعت في تاسع يوليو 1576 ، بينما يجعل لويس نيطو (LOUIS NIETO) تاريخ هذه المعركة في يوم 29 يونيو من نفس العام . ولا يذكر اليفرني أي تاريخ محدد للمعركة .

وقد تمكن محمد من الوصول الى مراكش حيث كان القائد ابن حميدة قد أخفى على السكان خبر هزيمة السلطان حتى لا يستبد الهلع بهم فأذاع في المدينة أن

(12) كان ثغر طنجة فى هذا الوقت تحت حكم البرتغال .

محمدا المتوكل قد انتصر . وكان هذا الاخير قد وصل الى شط نهر تنسيفت حيث تبادل المشورة مع القائد حمو واتفقا على مغادرة العاصمة حاملين معهما المال والحلي، وصحبهما نساء وخمسمائة رجل وسبعة أسارى من مجموع ستمائة لم يتمكنا من اطلاق سراحهم وتسليحهم . وقد خرج محمد ومن معه من أحد أبواب المدينة متجهين نحو الاطلس بينما دخل الامير أحمد من باب أخرى . وفي اليوم السادس عشر من شهر يوليو 1576 دخل السلطان عبد الملك مدينة مراكش كما جاء في كتاب « نشر المثاني » لمحمد بن الطيب القادري .

وقد اتجه محمد المتوكل في طريق الاطلس وهو يفكر فيما يمكن أن يحصل عليه من مؤازرة معنوية ومادية من رجال الزوايا المنتشرين في تلك المنطقة ، وكان هؤلاء الطرقيون قد بدأوا يحدثون خلال القرن السادس عشر اضطرابا دينيا ولاسيما بين أهل سوس ودرعة ، وكانوا يتمتعون بسلطة ونفوذ كبيرين يجتمع لهم الناس ويوقرونهم . وبفضل نفوذهم هذا تمكنوا من رفع الاسرة السعدية الى مقام الملك وخلعوا عليها مسحة من النفوذ الروحي والصوفي . وهم لاجل ذلك كانوا يرون أنه من حقهم أن يمارسوا نوعا من الوصاية على السلاطين وأن يبتوا في بعض المسائل الهامة كوراثة العرش . وكان أصحاب الزوايا ورجال الطرق يناصرون محمدا المتوكل

لما كانوا يرونه فيه ، ولا شك ، من صفات التدين وميل الى الطرق الصوفية ، وهي صفات لم تكن تظهر اذ ذاك على عبد الملك الذي كان متأثرا بأوربا ، وهو الملك الوحيد الذي كان يختم توقيعه بالحروف اللاتينية .

بدأ محمد المتوكل مسيرته عبر الجبال ليلا . ويحدثنا المصدر البرتغالي أن محمدا علم بأن أخاه مولاي نصر قد خانه وعاد الى مراكش حيث قرر أن ينتظر الفرصة لاعلان طاعته وبيعته لعبد الملك . فحزن محمد لذلك الا أنه واصل رحلته بالليل والنهار حتى وصل الى زاوية سيدي فارس الذي أحسن وفادته وقدم له العون وأكرمه . وبعد أيام رافقه سيدي فارس في رحلته وما زالا حتى وصلا الى زاوية سيدي محمد بوقادم حيث ترك السلطان أهله وماله في أمان وذهب متجها الى (سقطانة) حيث جمع ستة آلاف من رجال البربر راكبين وراجلين . وبذلك صمم العزم على أن يذهب لمحاصرة (تارودانت) حاضرة سوس ، وكان له في هذه المدينة ولد سجين حبسه أنصار عبد الملك ، وكان في نفس محمد شوق الى رؤية ابنه هذا وتخليصه من السجن ، فحاصر تارودانت الا ان قائدها تحصن داخل المدينة حتى يئس محمد المتوكل من فتحها وتخليص ابنه فرفع الحصار عنها وتوجه بجيشه الى درعة مهد الاسرة السعدية ، فحاصر (تنزولين) وفيها قائدها الشتوكي الذي

دافع بقوة عن البلدة ، الا أنه اضطر الى تسليمها حينما علم بخبر وصول القائد ابن كرمان (الذي يذكر تاريخ الدولة السعدية لمؤلف مجهول أنه كان قد انضم الى معسكر عبد الملك أثناء معركة الركن) فارا من عبد الملك بنية الرجوع تحت طاعة محمد المتوكل .

وفي هذه الاثناء أدرك عبد الملك خطورة الموقف الناتج عن استعادة محمد لقوته وخشى من قيام أهل سوس ودرعة ضده فكلف أخاه احمد ، خليفته في فاس ، بتنظيم الهجوم على المتوكل .

والتقى الفريقان في تارودانت وكان محمد قد جعل ابنه مولاي الشيخ على رأس الجيش بمساعدة القائد زكرياء خليفة السلطان في مراكش ، اما المتوكل نفسه فقد انطلق على رأس طائفة من جيشه لملاقاة القائد الغرناطي الدغالي الذي أوفده عبد الملك على رأس الف من المشاة لنجدة أحمد في قلعة تحصن بها في تارودانت ، ويبدو ان هذه الاحداث وقعت فى أواخر اكتوبر 1576 ، ولسنا نعرف المكان الذي التقى فيه محمد بالقائد الدغالي لان التاريخ البرتغالي سكت عن ذلك ، وقد تغلب القائد الغرناطي ، بالرغم من قلة عدد جنوده ، على محمد وقتل من رجاله الكثير فاضطر الى اصدار الامر لولده مولاي الشيخ برفع الحصار عن تارودانت والالتحاق به فامتثل .

وقد توالت الهزائم على محمد المتوكل بالرغم من مؤزارة بعض أصحاب الزوايا له وانتهى الامر بانتصار جيش عبد الملك وأخيه أحمد اللذين انتقما انتقاما شديدا من شيوخ الزوايا الذين ظاهروا المتوكل في حروبه ضد عميه ، ونذكر من هؤلاء الشيوخ سيدي محمد بوقادم المذكور في المرجع البرتغالي ، وقد أحرقت زاويته ليكون عبرة لغيره . (14)

* * *

أخذ محمد المتوكل ينسحب نحو شمال البلاد بعد الهزائم المتكررة التي لحقت به ، وبدأ يبحث لدى الاسبانيين والبرتغاليين عن دعم عسكري . وفي شهر ديسمبر 1577 وصل محمد المتوكل برفقة ابنه مولاي الشيخ الى حجرة بادس بغمارة حيث استقبلهما حاكمها الاسباني .

---

14) يعطي المؤلف بعض التفاصيل عن جملة المعارك التي خاضها محمد المتوكل لاستعادة ملكه ، مستندا في ذلك الى مراجع برتغالية ذكرنا اهمها وعلى مؤلفين مغاربة من امثال ابن عسكر واليفرني ، وقد رأيت أن أكتفي بالخلاصة التي أوردتها عن الحروب الاهلية السعدية التي سبقت وقعة وادي المخازن مبرزا على الخصوص الاحداث التي استند فيها (أسين) الى مراجع ووثائق مسيحية برتغالية او اسبانية والتي قد لا يوجد لها ذكر في المراجع العربية المعروفة ؛ وانبه الى أن القصد الاول من هذه الخلاصة هو كشف الغطاء عن شخصية الامير مولاي الشيخ (فليب الافريقي) كما تسميه المصادر الاوربية ، هذا الامير المرتد الذي لا تكاد المصادر العربية تذكر عنه شيئا .

وقد قام السلطان المنكوب بعدة مساع دبلوماسية تبين له اثناءها ان البرتغال هي الدولة الوحيدة التي يمكن أن يجد لديها سندا ، وصادف ان كان الملك الشاب ضون سباستيان يحلم بغزو المغرب فوجد الفرصة مواتية للتحالف مع المتوكل ليستعين به على تنفيذ مخططاته بمساعدة القبائل الموالية للسلطان السعدي ، ويرجع الفضل الاول في عقد هذا التحالف بين الملكين الى القائد عبد الكريم بن تودة صهر محمد المتوكل وعامله على القصر الكبير والعرائش وأصيلا وما اليها من الفحص وبلاد الهبط . وقد وجه هذا القائد في فبراير 1577 الى الملك سباستيان رسالة بوساطة البرتغالي بينطو لوبي (BENTO LOPE) الذي كان يسعى الى افتداء الاسرى المسيحيين وعرض ابن تودة على الملك البرتغالي مدينة العرائش . الا ان هذا الاخير لم يرد على رسالة ابن تودة بشيء ، وبعد مرور أشهر قليلة عرض ابن تودة مدينة أصيلا ـ حيث كان ملتجئا مع أسرته ـ على حاكم مدينة طنجة ضون دوارتي دي منيسيس (Don Duarte de Meneses) ولم يتردد هذا الاخير في قبول العرض فاحتل أصيلا في الايام الاولى من شهر يوليو 1577 . وبذلك أصبحت هذه المدينة نقطة الارتكاز في الهجوم الذي خططه ضون سباستيان ومحمد المتوكل على الاراضي المغربية الداخلية . واثر احتلال أصيلا توجه عزوز ، شقيق ابن تودة ، الى لشبونة حيث قابل ملك البرتغال .

وبينما كان محمد المتوكل يعقد الامل كله على البرتغال وضع عمه عبد الملك ثقته فى اسبانيا مؤملا ان يؤدي تحالفه معها الى قيام فليب الثاني بالسعي لدى ابن عمه ضون سباستيان واقناعه بالعدول عما عزم عليه ، وقد اجتهد السلطان عبد الملك في تفنيد مزاعم ضون سباستيان وما يدعيه لتسويغ عمله الحربي ضد المغرب . وكان الملك البرتغالي قد أبدى خلال مؤتمر «وادى لوبي» المنعقد في ديسمبر 1576 مخاوفه من أن يفتح عبد الملك للعثمانيين أبواب الثغور المغربية فتتعرض شبه جزيرة ايبيريا لهلع دائم ، وأن يقفل مضيق جبل طارق فيصبح الاتراك سادة الملاحة العالمية ، سيما وأن عبد الملك مدين لهؤلاء بتربعه على عرش المغرب ، وقد رد عبد الملك على هذه المزاعم بقوله انه يعتبر حماته السابقين (العثمانيين) أعداء له وهو لذلك يعرض على اسبانيا مشروع حلف دفاعي وهجومي يبرم بينه وبين فليب الثاني ، وذلك في حالة هجوم تركي على أحد الطرفين ، وقد حمل مشروع الحلف الاول الى اسبانيا لويس كابريطا (Luis Cabreta) عميل الملك فليب الثاني ، وذلك قبل عقد مؤتمر وادى لوبي الذي أشرنا اليه . وحينئذ رأى ملك اسبانيا ان يستطلع بشكل أفضل اخبار الحالة في المغرب فأوفد اليه الكابتان فرانسيسكو دي ثونيكا اى طابيا Francisco de Zuniga y Tapia) الذي كان من قبل أسيرا في المغرب . وقد بعث هذا مذكرة الى ملك اسبانيا حول وضع كل من

محمد المتوكل وعبد الملك (15) وفي ذلك الوقت كان لملك اسبانيا عيون في المغرب يبلغونه الاخبار . وكــان كاتب السلطان حجي المرين يبعث الى اسبانيا سرا بنسخ من الوثائق التي كانت تصدر عن البلاط الملكي في المغرب . وفي 16 ابريل 1577 ، أي قبل شهور مــن تسليــم أصيــلا للبرتغاليين ، عاد عبد الملك الى تأكيد مسألــة الحلــف فأوفد الى اسبانيا (Diego Morin) ديغو مرينومعه رسالة محررة باللغة الاسبانية موجهة الى فليب الثاني ومصحوبة بمشروع جديد للحلف الاسباني المغربــي ، وتحمـــل الوثيقتين توقيع عبد الملك نفسه ، وجوابا على ذلك حرر البلاط الاسباني ، في أوائل ماي 1577 ، وثيقة أخرى كــي يحملها كابريطا الى المغرب ، الا ان هــذه الوثيقــة لــم ترسل ومع ذلك فان عبد الملك لم ينقطع عن تبليغ ملــك اسبانيا كلمات الود والصداقة . ففي نوفمبر 1577 ، أي قبل أيام من لجوء محمد المتوكل الى صخرة بــادس ، بعـــث أندريا كاسباروا كورسو (Andrea Gasparo Corso) رسالة من القصر الملكي بمراكش موجهة الى ملك اسبانيا يقــول

---

15) قدم فرانثيشكو دى ثونيكا للسلطان عبد الملك خدمات جليلة فى الاعوام التي كان فيها هذا الاخير مبعدا فى الجزائر ، وكان بطلب من الملك الاسباني مؤازرته فى الوصول الى حكم المغرب ، وقد وردت الاشارة الى ذلك فى كتاب « تاريخ فليب الثاني » من تأليف كابريرا دى كوردوبــا . (Historia de Felipe II ; Cabrera de Cordoba)

فيها : « يمكنني أن أقسم بعقيدتنا المقدسة أن السلطان عبد الملك لا يشتاق الى شيء في العالم اشتياقه الى رؤية جلالتك ، والاجتماع بك في احدى بلادك الساحلية ، وهـذا دليل على أنه يضمر لك من الصداقة ما يضمر لملك البرتغال من العداوة » . وقد وصلت الرسالة الى البلاط الاسباني في الوقت الذي بلغته أخبار عن التجاء محمد المتوكل وابنه مولاي الشيخ الى حجرة بادس الخاضعة للحكم الاسباني . هذا وفي أواخر سنة 1578 ، أبلغ الشاعر القائد فرانثيسكو دي ألدانا(Francisco de Aldana)الى علم ملك اسبانيا تفاصيل الرحلة التي قام بها الى المغرب بقصد معاينة مدينة العرائش ، وكان قد قام بهذه الرحلة رفقة ديغودى طوريس مؤلف كتاب « الكلام عن أصل الشرفاء وخلافتهم » ، وكان يعد أكثر الناس اطلاعا على أحوال المغرب .

وقد وقف العاهل الاسباني على حقيقة الامور في المغرب ، ولو بشكل سطحي ، وتأكد من رسوخ قدم عبد الملك كما أدرك الصعوبات الكأداء التي قد تعترض حربا في الديار المغربية . وهذا يفسر موقفه الحذر من مشروعات ابن اخيه ملك البرتغال ضون سباستيان . وقد بذل ضون فليب قصارى جهده لاقناع ملك البرتغال بالعدول عن خطته الوهمية ، ولذلك فان مولاي احمد السعدي ، الذي خلف أخاه عبد الملك فيما بعد ، عرف

كيف يعترف بجميل فليب الثاني وان يلبي رغباته بعد كارثة « وادى المخازن » .

ونعود الى محمد المتوكل فنقول أن الملك فليب الثاني قد سمح له بالمقام في حجرة بادس مع عشرة من اصحابه فقط ، وكان منهم القائد حمو بن حميدة خليفته السابق في مكناس ، والقائد منصور النبيلي الذي انضم فيما بعد الى معسكر مولاي أحمد المنصور فعفا عنه ، والقائد زكريا خليفة السلطان السابق في مراكش ، وسيدي احمد ابن الشيخ بوقادم ، والمدعو علوج على . ويبدو أن العاهل الاسباني لم يسمح بدخول حجرة بادس الا لعشرة من أصحاب محمد المتوكل خوفا من ان يؤدى وجود جنوده في هذا المكان الى الطمع في السيطرة على تلك الجزيرة ، وكان عدد الجنود الذين بقوا أوفياء لمحمد المتوكل نحو خمسمائة .

وقد أوفد محمد المتوكل الى لشبونة أسيرا برتغاليا يدعى انطونيو دى كونها (Antonio de Cunha) سفيرا من قبله لدى ضون سباستيان ليشرح له مقاصد السلطان ومراميه ، وكان رد العاهل البرتغالى على ذلك أن ضرب لمحمد المتوكل موعدا للاجتماع به في صيف 1578 بمدينة طنجة .

وبعد مدة قليلة من وصول جواب ضون سباستيان ، توجه محمد المتوكل الى سبتة عن طريق البحر ، اما ابنه مولاي الشيخ فقد اتجه اليها برا على رأس رجاله ومروا قريبا من تطوان . وحينما التقى الاب بابنه وأنصاره حطوا رحالهم في بلدة الفنيدق (Castillejos) قريبا من سبتة ، وبقوا هناك الى أن وصل الى علمهم ان السلطان عبد الملك بعث من يتعقبهم من رجال الجيش فرحلوا عن الفنيدق ليكونوا قريبين من حماية المدفعية البرتغالية ، وبقوا هناك نحو أربعة أشهر محاطين بكل أنواع الاكرام والعناية من طرف حاكم سبتة الماركيز دى بياريال (El Marqués de Villa Real) وكان يزورهم من حين لآخر ممتثلا في ذلك أوامر العاهل البرتغالي .

وبعد ذلك انتقل محمد المتوكل الى مدينة طنجة بحرا ، بينما التحق به ابنه الشيخ وبقية الحاشية برا . وقد نصبوا خيامهم خارج أسوار المدينة وتولى حاكم طنجة ضون (دوارتي دي مينيسيس) العناية بشؤونهم .

وكان السلطان المخلوع – الذي لم يدخل قط مدينة طنجة – مقيما في خيمة تحيط به حاشيته ومعه جوق من أصحاب الآلة والطرب ، اما الامير مولاي الشيخ فكان يتردد على قصر الحاكم البرتغالي في طنجة ليلهو مع أبنائه الصغار . وفي تلك الاثناء وصل الى هذه المدينة القائد عبد الكريم ابن تودة لمرافقة محمد المتوكل بعد

ان رفض دعوة السلطان عبد الملك عرض عليـه فيهـا الانضمام اليه واعلان طاعته له .

وفي اليوم السادس من يوليو 1578 وصل الى طنجة الملك ضون سباستيان بنية تنفيذ خطته بعد ان عجز العاهـل الاسبـانـي عن اقناعه بالعدول عنها . وما ان علـم محمـد بوصول السفينة التي تقل ضون سباستيان الى شاطيء المدينة حتى بعث بابنه مولاي الشيخ لملاقاتـه فقابلـه الملك على ظهر السفينة ورحب به وأكرم وفادته وكـان عمر مولاي الشخ اثنى عشر عاما وعمر العاهل الاسباني ضعف ذلك .

وبعد مدة تم اللقاء بين السلطان السعدي المخلـوع والعاهل البرتغالي بحضور عبد الكريم ابن تودة وخمسة عشر رجلا من حاشية السلطان ، وجرت المقابلـة علـى ظهر السفينة ، وبعد تبادل كلمات المجاملة أكـد ضون سباستيان لمحمد المتوكل انه انما يرغب في تقديم العون له بدافع الواجب الذي يحرك الامراء النصـارى لمـؤازرة الملوك الذين أطيح بعروشهم ، وأنه يأمـل أن يتمكـن بتعاون مع المتوكل من طرد الاتراك العثمانيين من بلاد البربر ، وقد اطمأن السلطان المخلوع الـى مـا سمـع ورضيت به نفسه ، وودعه العاهل البرتغالي بكثير من مظاهر الاحترام والاجلال واللياقة ، ومـن الطريـف ان

نضيف الى هذه الرواية المنقولة عن المرجع البرتغالي الذي ذكرناه فحوى رسالة بعث بها الى ضون فليب ملك اسبانيا سفيره ضون خوان دى سيلبا (Don Juan de Silva) بتاريخ 13 يوليو 1578 . تقول الرسالة :

« في الساعة التاسعة صباحا جاء الشريف لمقابلة الملك في سفينته ، وقد خرج جلالته ـ يقصد ضون سباستيان ـ لمقابلة الزائر على السلم ، وكنت انا حاضرا فلاحظت ان الشريف لم يستصغر امام العاهل البرتغالي ، بل انه عانقه واحاط ذراعه بعنقه في شمم واباء كما لو كان هو الذي يقدم العون ولا يطلبه ، كما لاحظت أن الشريف لم يظهر عليه هوان بل انه كان واثقا من نفسه يحسب كلماته وخطواته ، وقد بقي مع العاهل البرتغالي على انفراد برهة من الزمن ،، »

وحينما حان وقت الذهاب الى اصيلا أبحرت السفينة الملكية وعلى ظهرها ضون سباستيان بينما استقل محمد سفينة القيادة التي كانت تحت امرة ديغو لوبيث دى سكيرا (Diego Lopez de Sequeira) اما مولاى الشيخ فقد رحل برا كعادته ومعه رجاله ممتطين خيولهم . ووصل ضون سباستيان الى أصيلا في اليوم الثامن والعشرين من يوليو .

وكان قد وقع الاتفاق بين ضون سباستيان ومحمد المتوكل على ايفاد مولاي الشيخ االى مازكان (البريجة) صحبة مارتين كوريا (Martin Correa) بقصد استمالة بعض المغاربة الموالين لمحمد المتوكل . وقد استقل الامير السعدي ومرافقه سفينة تحمل على ظهرها سبعمائة جندي ، وذلك يوم 25 يوليو . وكان أبوه محمد في وداعه ولم يلتقيا بعد ذلك قط .

وفي اليوم الثالث من شهر اغسطس 1578 غادر مولاي نصر معسكر السلطان عبد الملك بقصد العودة الى طاعة أخيه المتوكل وطلب العفو منه ، وفي اليوم التالي وقعت المعركة الشهيرة (وقعة الملوك الثلاثة أو وادى المخازن) ، وفيها مات ضون سباستيان وهو يحارب ، وتوفي عبد الملك بعد مرض أصابه كما مات محمد المتوكل غرقا وهو يحاول عبور النهر فرارا بنفسه ، كل ذلك حدث في أقل من ساعتين ، وفي رقعة من الارض محدودة . وقد توسع التاريخ البرتغالي الذي نستند اليه في الحديث عن موت محمد المتوكل كما لو كان المؤلف قد سمع ذلك مباشرة من فم عبد الكريم بن تودة . يقول مؤلف الكتاب : « بعد ان غادر محمد ساحة المعركة محاولا الفرار صحبة عدد من المغاربة ومعهم خوان كوتينهو (JUAN COTINHO) الذي أصبح يحمل فيما بعد لقب كوندى دى ردوندو (CONDE DE REDONDO) خرج للقائهم بعض الاعداء . فأشار

القائدان عبد الكريم وحمو على السلطـان المخلـوع ان يتابع السير في محاذاة الشط حتى يصل الى المعبر على أن يبقى القائدان في مكان المعركة قصد الهاء محاربي عبد الملك ، الا أن محمدا لم يملك الصبر حتى يصل الى المعبر فأقدم على عبور النهر في جهة خطيرة ، وكان تيار النهر ينساب بشدة ، وحينئذ تورط فرس محمد المتوكل فـي الوحل فألقى بالفارس في خضم النهر . وشهـد القائـدان المذكوران ما حدث الا أنهما لم يتمكنا من اتخاذ أي شيء، وغرق المتوكل على مرأى منهما ، أما هما فتمكنـا مـن الوصـول الى أصيلا ناجيين سالميـن ، وأبلغ أحـد خـدم محمد خبر غرقه الى احمد المنصور الـذي بويـع يـوم المعركة ، فبعث في طلب جثمان السلطان الغريق فأحضروه ملفوفا في حصيرة ، وسلخوا جلده وحشوه تبنا وطافوا به في أرجاء المملكة ، ومنذ ذلك الحين أطلق عليه المغاربـة لقب السلطان المسلوخ » .

* * *

كان عمر المتوكل حينما توفي ثلاثة وثلاثين عاما وعمر عبد الملك ستة وثلاثين . ويصفه مؤلف الكتاب البرتغالي بأنه كان « رجلا بدينا عريضا ذا لون بني ، وأنف كبير ، ولحية خفيفة عند الفكين كثة في الوسط . يقول عنه بعض المغاربة بأنه كان ضعيف الحماس سواء في معاقبة أتباعه أو في الهجوم على أعدائه ، ولا أدري ـ يقول مؤلف الكتاب

البرتغالي ـ ما هي حجتهم في ذلك ـ لان محمدا المتوكل كان يوجد دائما في وسط المعارك يحارب ويحمس رجاله ، وما يزال كذلك حتى ينكسر ، وبالرغم مما أصيب به من انهزامات كان دائما يعاود الكرة . والذي يظهر انه قد اشتهر بالجبن في معركته الاولى ضد الاتراك » .

بعد النكبة التي حلت بمحمد المتوكل لم يجد ولده مولاي الشيخ من ملاذ الا البرتغاليين ، ومن حسن حظه انه كان في مازكان صحبة (مارتين كوريا) في مأمن من ملاحقة أحمد المنصور ، السلطان الجديد . ولم يبق مولاي الشيخ في البريجة الا شهورا قليلة ، ومنها رحل الى لشبونة عن طريق البحر .

الرباط محمد العربي الخطابي

المسرح عند العرب والمغاربة

د. عباس الجراري

يجمع الدارسون ـ او يكادون ـ على أن المسرح فن أوربي ، وأن العرب لم يعرفوه الا فى عهد النهضة الحديثة ، بعد أن أتيح لهم ان يحتكوا بالغرب ويتاثروا بحضارته وثقافته .

ويعتبر هؤلاء الدارسون أن العرب اتصلوا لاول مرة بالمسرح فى أيام حملة نابليون على مصر ؛ ويعتمدون في ذلك على ما روى الجبرتي اثنـــاء تسجيله لاحداث هذه الفترة من ان بونابارت انشا بأزبكية القاهرة بناء عند المكان المعروف بباب الهواء ، أطلق عليه كما فى لغتهم « الكوميدي » ، وهو عبارة عن محل يجتمعون به كل عشر ليال ليلة واحدة ، يتفرجـــون على ملاعبب يلعبها جماعة منهم قصد التسلي بمقدار اربع ساعات ، ولا يدخل احد الا وبيده ورقة . كما يعتمدون على بعض الرسائل التي بعثها نابليون لكليبير نائبه فى القاهرة ، يخبره فيها بحرصه على ان يرسل له فرقـــة « الكوميدي فرانسيز » لتسلية الجيوش الفرنسية فى مصر ، ولتغييـــر عوائد هذه البلاد وآثارة عواطف السكان .

ويستمر أولئك الدارسون فيرون أن تاريخ المسرح العربي مرتبط بسنة 1848 ، وباسم مارون النقاش ، وهو اديب وتاجر من الشام كان كثير السفر الى اروبا بحكم إعماله التجارية ؛ وكان انشا فى هذه السنة - أثر عودته من احدى رحلاته الى أيطاليا - فرقة تمثيلية فى بيروت ، وترجم بتصرف الى العربية الدارجة مسرحيتي البخيل وطرطوف لموليير ، وقدم هذه الاخيرة بعنوان : الحسود . كما ألف مسرحيات أخرى ، متأثرا بمخزونه من التراث العربي ، ولا سيما فى مجال السير .

ولم يلبث هذا الحدث الادبي الفني ان انتقل صداه الى مصر ، فانشىء سنة 1868 مسرح الازبكية بالقاهرة ، ثم اسست فيها دار الاوبرا بعد ذلك بعام . ولم يكن هذا غريبا ، فقد كان اسماعيل - وهو الخديوي يومئذ - متطلعا الى الاخذ باسباب الحياة الاروبية العصرية ، وشغوفا بتحقيق الكثير من المظاهر الحضارية والثقافية .

وفى نفس هذه الفترة ، وبالضبط فى عام 1865 انشا ابو خليل احمد القباني حركة للتمثيل فى دمشق . وما ان حلت سنة 1870 حتى تكونت على يد يعقوب بن صنوع أول فرقة مصرية للتمثيل تلتها على مر السنين فرق كثيرة لعل اهمها فرقة جورج أبيض التي تأسست عام 1912 ، وكان قد أوفده الخديوي عباس الى فرنسا ليتعلم التمثيل .

ولم تكن مصر تقتصر فى نهضتها المسرحية على هذه الفرق المحلية، ولكنها فتحت الباب لاستقبال الفرق الاوربية،ولا سيما الايطالية والفرنسية والانجليزية ، وكذلك استقبال الفرق الشامية ، واهمها الفرقة التي قادها سليم النقاش عام 1876 ، وهو ابن اخي مارون النقاش وتلميذه فى الفن ، والتي قدمت فى القاهرة مسرحية اندروماك لراسين ، وكان قد ترجمها صديقه أديب اسحق الذي كان معه مسؤولا عن الفرقة .

وتعتبر هذه المسرحية من اهم ما قدم المسرح العربي من مترجمات كلاسية فى تلك المرحلة المبكرة ، ومثلها ايفيجيني لراسين ، والسيد

لكورني ، كما قدم مترجمات رومانسية في طليعتها هاملت وعطيل وروميو وجولييت لشكسبير ، وهرناني لفكتور هوجو .

وتجدر الاشارة الى اعتماد الفرق التمثيلية فى هذه الفترة على عنصر الغناء الذي تجلى خاصة فى الفرقة التي أسسها اسكندر فرح فى مصر سنة 1904 ، والتي كانت تضم من بين اعضائها البارزين الشيخ سلامة حجازي أحد اقطاب الطرب والغناء فى وقته .

اما بالنسبة للمغرب العربي فيؤرخ لاول حدث مسرحي سنة 1908 حين زارت فرقة سليمان القرداحي المصرية قطري تونس والجزائر . ولعلها لم تصل الى المغرب بسبب الظروف العصيبة التي كان يمر بها يومئذ والتي أفضت به الى عقد الحماية ، مع أن القرداحي أقام بتونس عامين ، وفيها توفى .

وقد شهد المغرب فى سنوات العشرين حركة مسرحية كبيرة بدات عام ثلاثة وعشرين حين قدمت فرقة المغني محمد عز الدين ـ وهو تلميذ جورج أبيض الذي أشرف على تكوين هذه الفرقة فى تونس ـ وقدمت فى الرباط ومدن اخرى مسرحيات كانت أبرزها رواية صلاح الدين لنجيب الحداد . وبلغ من تقدير السلطان المرحوم مولاي يوسف لهذا الحدث الفني ، وكان شاهد المسرحية فى القصر الملكي بالرباط ، أن انعم بوسام على رئيس الفرقة .

وفى سنة 1924 زارت المغرب فرقة مكونة من مشارقة وتونسيين ، كان من بين أعضائها عبد الرزاق كرباكة وعلياء وبهية الشامية ، ومثلت رواية صلاح الدين ومسرحيتي روميو وجولييت لشكسبير والطبيب المغصوب لموليير .

ولم يلبث المغاربة ان اخذوا فى تاسيس فرق وطنية ساعد فى بعضها فنانون وافدون كالخياط وحسن بنان ، وكانت تتكون فى الغالب من تلاميذ المدارس واعضاء الجمعيات الثقافية ، نذكر من ابرزها :

1 ـ جوق التمثيل الفاسي الذي كانت تشرف عليه جمعية قدماء ثانوية المولى ادريس . وقد قدم مسرحيات كتبها مؤلفون مغاربة من بينهم محمد بن الشيخ ومحمد القري ومحمد الزغاري والمهدي المنيعي وعبد الواحد الشاوي . وبلغ من عناية هذه الجمعية بالتأليف أنها دعت سنة 1928 الى مباراة لكتابة المسرحية ، فلم تصلها غير رواية واحدة هي التي ألف والدنا حفظه الله بعنوان : « الى الفضيلة » ؛ واستحقت بذلك جائزة الجمعية وقيمتها مائتان وخمسون فرنكـا حسبما تثبت الرسالة التي كتبت الجمعية للمؤلف ، مؤرخة فى فاتح جمادى الثانية سنة 1348 هـ .

2 ـ فرقة التمثيل العربي فى الرباط باشراف محمد اليزيدي .

3 ـ فرقة فى مراكش اسسها مصطفى الجزار سنة 1927 .

4 ـ جوق السعي والفضيلة فى الرباط من تأسيس عبد الله بن العباس الجراري عام 1928 ، وكان مكونا من بعض تلاميذ مدرسته الحرة ، وقدم محاورات وتمثيليات ، بعضها من تاليفه كرواية « الى الفضيلة » التي كان تقدم بها لمباراة جمعية قدماء تلاميذ المدرسة الادريسية بفـــاس .

5 ـ جـــوق التمثيـــل فى ســـــلا .

6 ـ فرقة من قدماء تلاميذ مدرسة ابناء الاعيان بالدار البيضاء .

7 ـ جمعية الهلال المؤسسة فى طنجة سنة 1923 ، والتي كان يراسها احمد ياسين ؛ قامت بنشاط فى مجال التمثيل اذ قدمت مسرحيات عربية ومترجمة . ولم يكن المسرح غريبا على هذه المدينة التي كانت يومئذ تعيش وضعية دولية اذ انشىء فيها سنـــة 1912 مســـرح سرفانتس ، وزارتها فرق اجنبية للتمثيل والغناء ، من بينها فرقة بديعة المصابني والمغنية نادرة .

8 ـ جمعية الطالب المغربي التي تأسست في تطوان برئاسة عبد الخالق الطريس على اثر الزيارة التي قامت بها الفنانة فاطمة رشدي وزوجها عزيز عيد لهذه المدينة سنة 1933 ، وكانت تقوم بنشاط مسرحي ، اذ مثلت رواية انتصار الحق لرئيس الجمعية .

ولم يلبث المسرح المغربي في اعقاب هذه المحاولات الرائدة ان دخل في مسيرة مليئة بالتجارب ، بحثا عن مسرح مغربي متطور قادر على التعبير عن الجماهير وقادر على مخاطبتها كذلك . وما زال مسرحيونا ـ كتابا ومخرجين وممثلين ـ يبذلون من أجل ذلك جهودا تكاد تكون في معظمها من قبل الهواية .

* * *

هذه حقائق ووقائع تمثل في راينا طلائع مرحلة حديثة من تاريخ المسرح العربي ، ولا تمثل كل هذا التاريخ او بداياته كما يذهب الدارسون الذين ينفون وجود انماط مسرحية عند العرب والمغاربة قبل الاتصال باروبا في عصر النهضة العربية الحديثة .

وهم يعززون هذا النفي بعدة حجج نستطيع تجميعها في العوامل الخمسة الآتية :

اولا : طبيعة العقلية العربية ، وهو الراي الذي ظهر به باحثون نظروا للعرب وللشعوب السامية عامة باعتبارها ميالة للتجريد والتغييب ، وانتهوا الى نتائج تعدت مجال ظاهرة عدم وجود فن معين الى الطعن في العرب ، وهي :

1 ـ ضعف القدرة الابداعية عند العرب

2 ـ عدم اكتمال الخلق الفني عندهم

3 ـ ميلهم الى الواقعية وانعدام الطاقة التخييلية

4 ـ عجزهم عن النظرة الشمولية للحياة والكون ، واكتفاؤهم بالجزئيات

5 ـ وقوفهم عند ملاحظة ظواهر الاشياء بسطحية وارتجال

6 ـ عدم وجود احساس ماساوي عندهم بالحياة

7 ـ اكتفاؤهم بالتعبير عن المواقف دون تصويرها .

ومن ثم اتخذ المناقضون لهذا الرأي موقف الدفاع ـ ليس من منطلق اثبات مسرح وهو مثبت بالفعل كما سنرى بعد فقرات ـ ولكن من منطلق الدفاع عن طبيعة العقلية العربية ، وهي فى غير حاجة الى دفاع . ولو فرضنا جدلا ان المسرح لم يكن معروفا عند العرب ، فليس فى ذلك ما يدعو الى اثارة اي طعن فيهم ، لان الفن ـ أى فن ـ انما ينشأ فى مجتمع ما بحكم ضرورة معينة أو حاجة تقتضي التوسل به فيظهر ويتبلور ويتأصل

ثانيا : مانع لغوي عند من راوا أن العرب لم يعرفوا التعبير المسرحي لانهم لم يوفقوا الى ايجاد لغة مناسبة له ، وأن لغتهم تعبر عن دلالات معينة ولا تصور التجارب ، مما يجعلها اميل الى الجمود منها الى التحرك . وهذا رأي تبطله حقيقتان :

1 ـ لغة المسرح الكلاسي الاوربي والفرنسي خاصة ، وهي لغة ارستقراطية لم تكن تفهمها الا طبقة معينة من الذين اتيحت لهم ثقافة عميقة .

2 ـ مطاوعة اللغة العربية فى قالبها المدرسي والعامي للتاليف المسرحي، سواء فى عصر النهضة المعترف بوجود مسرح فيه او قبل هذا العصر ، على حد ما سنبين بعد . بل ان مؤلفي المسرح ومترجميه فى اوائل النهضة لم يجدوا ادنى صعوبة تتصل بالجانب اللغوي الفني من شانها ان تعوقهم عن ادخال الشعر الى المسرح ترجمة

وتاليفا . ولهذا لا نستغرب اذا وجدنا حركة التاليف تكاد تواكـــب حركة الترجمة . فمن أولى المسرحيات المؤلفة شعـــراً تذكـــر «المروءة والوفاء» لخليل اليازجي (1876) وخمس مسرحيات لعبد الله البستاني (1889) هي : حرب الوردتين ، يوسف بـــن يعقوب ، بروتس أيام تروكن الظالم ، بروتس أيام يوليوس قيصر ، مقتل هيرودس لولديه . ومن اولى المسرحيات المترجمة شعرا نذكر «تسلية القلوب فى رواية ميروب» لفولتير ، وقد قام بترجمتهـــا محمد عفت سنة 1889 ، ومسرحية مكبث لشكسبير من ترجمتـــه ايضا . كذلك ترجم محمد عثمان جلال من ملاهي موليير الى الزجل : الشيخ متلوف ، النساء العالمات ، مدرسة الازواج ، مدرسة النساء، ونشرها فى كتاب بعنوان «الاربع روايات من نخب التياتـــرات» (1307 هـ) . ثم ترجم بعد ذلك الثقلاء لموليير ، واستر وافغانية واسكندر الاكبر من مآسي راسين .

ثالثـــا : مانع ديني علل به كثير من الدارسين ، انطلاقا من تحريم الاسلام للتصوير . وفى اعتقادي أن العلاقة جد بعيدة بين فني الرسم والتمثيل ، الا ان تكون كامنة فى التشخيص والتجسيم . ومع ذلك فقد عرف الرسم والتصوير ازدهاراً فى مختلف البلاد الاسلامية ، على الرغم من مواقـــف الفقهاء الذين كانوا يستندون الى بعض الاحاديث النبوية الشريفة كقوله عليه السلام : «ان الملائكة لا تدخل بيتا فيه الصور» و «ان الذيـــن يصنعون هذه الصور يعذبون يوم القيامة» .

رابعـــا : عدم ترجمة العرب للمسرح الاغريقي ، وهو راي اعتمـــد اصحابه على امرين :

1 ـ ان العرب لم يترجموا ادب اليونان وشعرهم ، فى الوقت الـــذي نقلوا فلسفتهم ، لاحساسهم بان ابداعهم فى الشعر والادب يفـــوق كـــل ابـــداع .

2 ـ حتى حين ترجموا بعض المؤلفات المتعلقة بالشعـــر لم يفهمـــوا المصطلحات على حقيقتها . فابن رشد في نقله لكتاب أرسطو عـــن ((فن الشعر)) ترجم الدراما بالشعر والكوميديا بالهجاء والتراجيديا بالمديـــح .

ويمكننا الرد على هذا الراي بجملة حقائق :

1 ـ أن المسرح عمل معقد ومتكامل لا يقوم على النص فحسب حتـــى تكون الترجمة كافية فى نقله .

2 ـ ان المسرح لا ينقل بالترجمة ، ولكن ينقل بالاحتكـــاك الحضاري والثقافي وما ينشأ عنه من تاثير . حقيقة إنه لم يتح للعـــرب فى جزيرتهم أن يتصلوا بالثقافة اليونانية والرومانية ، ولكن الشمـــال الافريقي بحكم احتكاكه مع التيارات الحضارية والثقافية التي كانت تعتمل فى حوض المتوسط أتيح له ان يعرف جوانب من هذه الثقافة، ومنهـــا المســـرح .

3 ـ انه فى الوقت الذي كان الاسلام ينتشر وينتقل الى حوض المتوسط، كانت الثقافة الاغريقية قد تقلصت ، ومعها تقلص المسرح ، ولم يتح له أن يظهر فى أروبا الا بعد فترة غير قصيرة وفى نطاق ضيق تمثل فى المسرح الديني LE THEATRE RELIGIEUX الذي كانـــت تشرف عليه الكنيسة ، وأن لم يلبث أن واجهـــه مســـرح آخـــر دنيـــــوي LE THEATRE PROFANE ثم ظهرت الاتباعية فى فرنسا فى القرن السابع عشر ، وبعدها فى انجلترا ظهرت الحركة الرومانسيـــــة .

4 ـ ان العرب لم يترفعوا عن التعرف على ادب الشعوب الاخرى بدليل ترجمتهم للانتاج الادبي الفارسي كالشاهنامة وجداى‌نامـــة . واذا كانوا لم يترجموا أدب اليونان فللسببين السالفين . ومـــع ذلـــك

فترجمتهم لكتاب أرسطو فى فن الشعر ـ على ما قد يكون فى نقل مصطلحاته من تحريف ـ دليل على أنهم كانوا مستعدين للنظـــر فى الادب اليوناني لو أتيح لهم أن يعرفوه .

خامســا : عامل سياسي يعلل به بعض الباحثين الذين يعتبرون أن المسرح يقوم على النقد والتوجيه ، وانه بهذه الصفة لا يمكنه أن يزدهر الا فى ظل انظمة ديموقراطية تشجع حرية الراي والتعبير ، فى حين أن النظم فى الدول العربية الاسلامية تعتمد على الحكم الفردي المصطبـــغ بالديـــن .

وقد تؤيد مثل هذا الرأى بعض الاحداث على حد ما وقع فى مصر على عهد الخديوي اسماعيل ، وكان حضر فى دار الاوبرا عرض مسرحية ((المظلوم)) التي قدمتها فرقة يوسف الخياط ، وهو أحد الوافدين مـــع سليم النقاش ، فظنها الخديوي تعريضا به ، فامر بطرد اعضاء الفرقة من مصـــــر .

ولكن هذا الراي ليس صحيحا الى الحد الذي يمكن ان يكون له تاثير فى ظهور المسرح او عدم ظهوره ، بدليل استمراره فى مصر وازدهاره على الرغم من ذلك . ويمكن مناقشته من زوايا متعددة :

1 ـ ان المسرح ليس كله نقدا ، وان كان فى نشاته عند الاغريق ومـــن ماثلهم قام على الصراع ، أى على عنصر يتعدى النقد فى التعبير . ولنا فى هذا رأي سوف نذكره بعد فترات متعلقا بالاسباب التـــي جعلت المغاربة فى العهد الاسلامي لا يحتفظون بالمسرح كما اخذوه عن القرطاجنيين والرومان .

2 ـ أن فى الانماط المسرحية التي عرفها العرب نقدا كثيرا يصل احيانا ـ وكما سنرى بعد ـ الى درجة مسرح سياسي جماهيري .

3 ـ إن الشعوب التي ازدهر فيها المسرح ، وخاصة اروبا في عصر نهضتها ، لم تكن تعيش في ظل أنظمة ديموقراطية ؛ وان الشعوب العربية في عهد انبعاثها واتصالها بالغرب واخذها بالفن المسرحي الاروبي كانت قد فقدت حريتها واستقلالها وعاشت تحت وطأة الاستعمار ، وانه لو كان الامر كما يزعم هذا الراي لتوقف المسرح ولما انطلق .

4 ـ انه لا يمكن اطلاق القول بأن نظام الحكم في الدول العربية الاسلامية كان يتسم خلال التاريخ بالفردية التي من شأنها ان تعوق ظاهرة ما ثقافية . ولعل أحدا لا يستطيع أن ينكر عهودا مشرقة عرفها العرب والمسلمون انطلاقا من الدين وأسس حكمه العادلة . ولعل احدا لا يستطيع أن ينكر كذلك انه حتى في أحلك الفترات ـ وما أكثرها ـ كان يوجد من يعبر عن رأيه ويجهر بالنقد ، بل كان يوجد من يتوسل ببعض فنون المسرح في هذا التعبير .

5 ـ أن تأثير انظمة الحكم لا ينحصر في فن معين دون غيره ، بل هو يتعداه الى كل المظاهر الحضارية والثقافية التي هي في حاجة أبدا الى جو من الحرية تتنفس فيه حتى تنمو وتزدهر . وما اعتقد أن المسلمين كانوا سيصلون الى اقامة حضارة وثقافة تشعان على العالم لو كان نظام الحكم قائما دوما عندهم على التسلط والكبت .

* * *

ثم ان هناك حقيقتين اود ان اطرحهما ـ قبل ان اعرض للانماط المسرحية التي عرفناها ـ لكي انفي من جهة ان يكون العرب في جزيرتهم قد عرفوا المسرح على الشكل الذي شاع عند الاغريق ، ولكي اثبت من جهة ثانية ان المسرح من حيث هو فن انساني ليس شرطا فيه ان يكون على هذا الشكل دون غيره .

الحقيقـــة الاولـــى :

أن المسرح اليوناني نشأ فى احضان طقوس دينية كانت غالبا مـــا تؤدى فى معابد ، ويتوسل فيها بالقص الاسطوري وترديـــد التراتيـــل والاناشيد وأداء الرقص القائم على حركات مضبوطة وأزياء خاصة يغلـــب فيها استعمال الاقنعة .

ومن هذه الزاوية يمكن ان ننظر الى البدايات التمثيلية ، وخاصـــة تلك التي نشات حول اسطورة الاه الخصب اليوناني ديونيسيوس . وشيئا فشيئا ، وبحكم ظروف حضارية وثقافية متطورة ، ولا سيما ظهور الملاحم ، انحدر هذا القصص الديني من عالم الاساطير المعتقدية الى مرحلة التأليف الفني ؛ وشيئا فشيئا كذلك بدأ التمثيل يخرج من المعابد وينسلـــخ من اطارهـــا .

وعلى الرغم من ان العرب احتكوا قبل الاسلام بمختلف الديانات ، ولا سيما اليهودية والنصرانية ، فانهم ظلوا فى أغلبهم وثنيين ، لم يقبلوا الانصهار فى هاتين الديانتين ، ربما لارتباط اليهودية بالميز العنصري ، والنصرانية بالمد الاستعماري الذي كان يهدد العرب وخاصة من بـــلاد الحبشـــــة .

على ان الوثنية العربية تمت باسلوب فطري قادر على الجمع بيـــن المتناقضات ، وكانت تقوم على تقديس مظاهر الكون والطبيعـــة ، وعلى اعتبار وجود الخير والشر ، وعلى الاعتقاد بالتالي فى الاه قادر قوي خالق لذلك كله . وهو الالاه الذي نجده فى مختلف الروايات التي تتحدث عـــن بلاد العرب فى الفترات الاولى للتاريخ .

ثم ان هذه الوثنية كانت تعيش فى ضمير الفرد العربي بشكل ذاتي ، وتداخل وجدانه بعفوية وتلقائية ، وهو يؤدي شعائرها وطقوسها دونمـــا حاجة الى كهنوت منظم يشرف على اداء هذه الشعائر والطقوس .

ومع ذلك فان هذه الوثنية لم تلبث أن فقدت مقوماتها مع توالـــي العصور ، واحتكاك العرب بالأديان ، ثم اعتناقهم للاسلام القائم على التوحيد وعلى العقل والحقيقـــة .

ولئن كان العرب لم يعرفوا الطقوس الدينية الشبيهة بما كان فى بلاد اليونان ، والتي من شأنها ان تجعل الناس يتجمعون فى جوقـــة معينـــة للترديد والانشاد على هيئة مضبوطة ، فانهم عرفوا ألوانا مختلفة من القص والحكى ، قائمة فى بعضها على الروح الاسطورية والبطولة الملحمية ، وآن لم تنشا عنها ملاحم شبيهة بما كان عند الاغريق ، لاسباب كثيرة ، ربما من اهمها أن العرب لم يكونوا يحلمون بالبطولات أو يتخيلونها ، ولكنهم كانوا يعيشونها ويخلقونها بما خاضوا من معارك وما حققوا فيها من انتصارات . وحين سجلوا هذه البطولات عرضوها فى نطاق الحـــدث والواقـــع ، وباسلوب القص التاريخي الذي يستلهم العبرة وليس روح المأساة .

واذا كان العرب فى جزيرتهم لم يعرفوا المسرح على الشكل الذي شاع عند الاغريق ، فانهم فى اقاليم اخرى كانوا على معرفة به ، وخاصة فى منطقة الشمال الافريقي ، بدءا من مصر التي ازدهر فيها نوع مـــن التمثيل نشأ حول أسطورة الاله الشهيد أوزوريس . فقد تحدث أحـــد الكهنة فى نقش يرجع تاريخه الى خمسة آلاف سنة قبل الميلاد عن عرض ايزيس وأوزوريس ، كما تحدث عنه وعن المسرح المصـــري المـــؤرخ هيرودوت فى السنة الخمسمائة قبل الميلاد .

وسيتجلى هذا الفن على اوسع نطاق فى بلدان المغرب العربي التي ارتبطت بالفينيقيين زهاء الف عام ، وتاثرت بمظاهرهم الحضارية والثقافية ، وهي مظاهر شرقية ، مصرية واغريقية فى الغالب ؛ فضلا عن ان هـــذه البلدان احتكت بعد ذلك بالرومان ، وكان الفن المسرحي موجودا فى كلا العهدين على حد ما سنرى بعد .

الحقيقـــة الثانيـــة :

أن المسرحية فى جوهر مفهومها لا تعدو كونهـــا قصـــة تحكيهـــا شخصيات فى حوار وحركة ؛ والحركة اهم خصائصها ، وهي التي تميزها عن غيرها من الالوان الفنية ، بل هي محور كل الخصائص الاخرى. وانطلاقا من هذا المدلول ، ومنذ الاغريق حتى المرحلة المعاصـــرة ، اصطلـــح المسرحيون على مقاييس كانت تتطور وتتجدد باستمـــرار ان لم نقـــل تتعرض للتبديل والتغيير ، الى حد اننا لو قارنا مسرحية يونانية واخرى معاصرة ، لكدنا ـ من شدة الاختلاف بينهما ـ نظن أنهما لا ينتسبان لفن واحد . ويكفينا لتوضيح هذه الحقيقة ان نشير الى التطورات الآتية :

1 ـ كان المسرح يقوم على عظمة الشخصيات ، بان يكونوا من الآلهة او انصافها ، او ملوك وابطال خارقي القوة والحول ، فجـــاء زعمـــاء الكلاسية الفرنسية وغضوا الطرف عن هذا الشرط .

2 ـ تحدث راسطو عن وحدتي الزمان والفعل ، فاضاف لها الايطاليون والفرنسيون وحدة المكان ، بل ان هؤلاء زادوا عليها وحدة الخطر : UNITE DE PERIL

3 ـ بعد ان كان الصراع فى المسرح اليوناني متجها ضد القضاء والقدر، حوله الكلاسيون الفرنسيون ، وخاصة كورني ، الى صراع بين الاهواء وقوى اخرى كالواجب والوطنية ، مما جعل العواطف والاهواء تحل مكان القدر والقضاء .

4 ـ بعض المسرحيين ـ كموليير ـ تحللوا تقريبا من كل القواعـــد ، والتفتوا الى المجتمع ليصوروا مشكلاته ، والى الشعب ليلتقطـــوا مناظرهم منه ؛ ونزلوا باللغة تبعا لذلك الى مستوى لهجة التخاطب ، وكادوا يتحللون من العقدة ، مكتفين بعرض بعض الصور الجذابة من الحيـــاة .

5 ـ ثار كتاب الحركة الرومانسية في القرن الثامن عشر امثال دوماس الاب وهيجو وفينيي على التقاليد المسرحية القديمة ، وخاصة على قانون الوحدات ، وعلى موضوعات التاريخ القديم ، وعلى ارستقراطية اللغة والشخصيات وعلى تصنع الاسلوب .

6 ـ وجاءت حركة اللا معقول في اعقاب الحرب العالمية يتزعمها بيكيت ويونسكو لتثور على المفاهيم وتتحرر من القواعد ، مكتفية بالحوار الداخلي النابع من رواسب الاعماق اللا واعية للشخصيات المعروضة، في انفصال عن بعضها ، ان لم تكن وهمية لا وجود لها الا في مخيلة المشاهدين .

7 ـ لم تلبث الحركة المسرحية في سنوات الستين ان تطلعـــت الى مسرح شعبي يلح على المضمون الاجتماعي السياسي ، ويبحث على الشكل الذي يكون قادرا على احتواء هذا المضمون .

واذا كان تطلع هذه الحركة قد انطلق متاثرا بمسرحيين كبريخـــت BRECHT وفيـــلار VILAR ، فانه سيتبلور عند بعض الكتاب الملتزمين كارمان غاتي ARMAND GATTI الذي تناول حـــرب فيتنام ونظام فرانكو الديكتاتوري . ومـــا عـــرض قضية صاكـــو وفانزيتي SACCO ET VANZETTI ببعيد عنا . ولعلنا نذكر كذلك الشاعر والكاتب المرتينيكي ايمـــي سيزيـــر AIME CESAIRE الذي ندد بالاستعمار في « ماساة الملك كريستوف » وبقتل الوزير الكونجولي لومومبا في « موسم بالكونغو » .

8 ـ ثم ان محاولات البحث عن دراما معاصرة جديدة بلغت حدا اصبـــح فيه المسرح احتفالا او حلقة مفتوحة ذات جو سريالي يختلط فيه الرقص بالاعمال السحرية والمشاهد الصدمية والحوار الحـــر ؛ ويكون فيه للاخراج دور رئيسي كما في مسرحية اكارا AKARA لرومان ونكارتن ROMAIN WEINGARTEN وقد أخرجها دانيال زسكـــي DANIEL ZESKI في استوديو شانزيليزي سنة 1967، ومسرحية مقبرة السيارات LE CIMETIERE DES VOITURES

للكاتب الاسباني الاصل فرناندو ارابـــل FERNANDO ARRABEL
وكان أخرجها في نفس السنة لمسرح الفنون فيكتـــور كارسيـــا
VICTOR GARCIA

* * *

اظن اننا بعد توضيح هاتين الحقيقتين ، نستطيع أن ننظر الى الانماط المسرحية التي عرفها العرب ، في رؤيا متفتحة لا تتقيد بشكل معيـــن ومحدد للمسرح ، لا سيما اذا عد هذا الشكل من التقليـــد المتجـــاوز ، ولا سيما كذلك ونحن واجدون في بعض تلك الانمـــاط ما يقربها مـــن المحاولات الحديثة التي تبحث عن فن درامي جديد .

وربما كانت من ابرزها وأكثرها شيوعا في مجموع البلاد العربيـــة الاسلامية حلقة القاص الشعبي الذي يحكي السير الشعبية العربية كعنترة والهلالية وسيف بن ذي يزن ، وقصص البطولات الاسلامية وخاصة مواقف سيدنا علي بن ابي طالب الذي غدا في ضمير الشعب رمز هذه البطولات ؛ كما يحكى المقامات التي كانت تجد اقبالا عند الجماهير بماكانت تعتمـــد عليه من نقد وتوجيـــه .

وقد كان القاص الشعبي من خلال ذلك كله يقدم في الحقيقة تمثيلية فردية أو مسرحية بممثل واحد ، يحكي ويتحاور مع نفسه ، ويغير صوته، وقد يغني ان اقتضى الحال ؛ وربما يتوسل بآلة يعزف هو عليها او يعزف غيره ، وهي في الغالب ربابة عند المشارقة وكمبري أو تعريجـــة عنـــد المغاربـــة .

اذا اضفنا هذه الظاهرة الى حقيقة اخرى ، وهي ان بعض البلـــدان العربية كانت تعرف تقاليد المسرح في مرحلة ما قبل الاسلام ، فاننا لن نستغرب اذا وجدنا هذه البلدان في العهد الاسلامي الاول تتوسل بالفـــن المسرحي في تبليغ الاسلام والتبشير بحضارته ، على حـــد ما يـــروي المؤرخون مرتبطا بفتح كاشغر سنة 96 هـ . فقد ذكـــر ابن الاثيـــر في

تاريخه (1) انه ((فى هذه السنة غزا قتيبة كاشغر ... فغنم وسبى ... واوغل حتى بلغ قريب الصين ، فكتب اليه ملك الصين ان ابعث الي رجلا شريفا يخبرني عنكم وعن دينكم ، فانتخب قتيبة عشرة لهم جمال والسن وباس وعقل وصلاح ، فامر لهم بعدة حسنة ومتاع حسن من الخز والوشى وغير ذلك وخيول حسنة ... فساروا وعليهم هبيرة ، فلما قدموا عليهم دعاهم ملك الصين فلبسوا ثيابا بيضا تحتها الغلائل وتطيبوا ولبسوا النعال والاردية ودخلوا عليه وعنده عظماء قومه ... فلما كان الغد دعاهم فلبسوا الوشى والعمائم والخز والمطارف وغدوا عليه ... فلما كان اليوم الثالث دعاهم فشدوا سلاحهم ولبسوا البيض والمغافر واخذوا السيوف والرماح والقسى وركبوا . فنظر اليهم ملك الصين فرأى امثال الجبال مقبلة ، فلما دنوا ركزوا رماحهم واقبلوا مشمرين فقيل لهم : ارجعوا . فركبوا خيولهم واخذوا رماحهم ودفعوا خيلهم كانهم يتطاردون ، فقال الملك لاصحابه : كيف ترونهم ؟ قالوا : ما راينا مثل هؤلاء . فلما امسى بعث اليهم ان ابعثوا الي زعيمكم ، فبعثوا اليه هبيرة بن مشمرج فقال له حين دخل عليه : ... لم صنعتم بزيكم الاول اليوم الاول والثاني والثالث ما صنعتم ؟ قال : اما زينا اليوم الاول فلباسنا في اهلنا ، واما اليوم الثاني فزينا اذا امنا امراءنا ، واما الثالث فزينا لعدونا . قال : ما احسن ما دبرتم دهركم ...))

ولعلنا لا نستغرب كذلك اذا وجدنا المسلمين يتوسلون بالفن المسرحي في التعبير عن اهم مشكل واجه دولة العروبة والاسلام ، وهو المتمثل فى الصراع السياسي من اجل الخلافة والحكم .

ففى الاقاليم التي تنتمي للاتجاه الشيعي ، كالعراق وما اليها ، كانت تنظم فى موضوع مقتل الحسين ـ وما زالت ولا سيما في كربلاء ـ تجمعات مسرحية شعبية تستغرق من فاتح محرم الى العاشر منه ، وهو اليوم الذي يمثل فيه مشهد مقتل الحسين ، او ما يعرف بـ : ((التعازي)).

(1) انظر ج 4 ص 135 ـ 136 (ط المنيرية ـ مصر 1375) .

وقبله تستعرض المراحل التي سبقت مقتله والتي تحكي قصة الصراع حول الخلافة منذ وفاة الرسول عليه السلام . ويقدم المشهد للجمهور من مكان مرتفع تلقى فيه مواعظ ومراثي تشيد بمناقب القتيل ، تتخللها ادوار غنائية بكائية وترديد نائح حزين .

ويروي (2) انه كان في زمن المهدي العباسي رجل صوفي ، وكان عاقلا عالما لا يترك اسلوبا ولا سبيلا للامر بالمعروف والنهي عن المنكر وتهذيب الاخلاق وتربية النفوس الا فعله . وكان يخرج كل يوم اثنين وخميس الى جهة بخارج بغداد فتجتمع عليه الخلائق من رجال ونساء وصبيان ، فيصعد تلا وينادي باعلى صوته : « ما فعل النبيون والمرسلون ؟ اليسوا في أعلى عليين ؟ » فيقولون : « نعم » ، فيقول : « هاتوا أبا بكر الصديق » فيتقدم رجل فيجلس بين يديه فيقول : « جزاك الله خيرا ابا بكر عن الرعية فقد عدلت وقمت بما فرض الله وخلفت محمدا صلى الله عليه وسلم فاحسنت الخلافة ووصلت حبل الدين بعد حل وتنازع وفرغت منه الى أوثق عروة واحسن ثقة وفعلت وفعلت ... » ويذكر ما قام به من جليل الاعمال ثم يقول : « اذهبوا به الى اعلى عليين » . ثم ينادي : « هاتوا عمر » فيتقدم رجل آخر فيقول : « جزاك الله خيرا أبا حفص عن الاسلام ، قد فتحت الفتوح ووسعت الفيء وسلكت سبيل الصالحين ، أذهبوا به الى اعلى عليين بحذاء أبي بكر » . ثم يقول : « هاتوا عثمان » فيتقدم رجل فيجلس بين يديه فيقول له : « خلطت في تلك السنين ولكن الله تعالى يقول : خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله ان يتوب عليهم ... اذهبوا به الى صاحبيه » . ثم يقول : « هاتوا علي بن أبي طالب» فيتقدم رجل فيقول له : « جزاك الله خيراً عن الامة أبا الحسن بسطت العدل وزهدت في الدنيا واعتزلت الفيء فلم تخمش فيه بناب ولا ظفر ، وانت ابو الذرية المباركة وزوج الزكية الطاهرة ، اذهبو به الى اعلى عليين » . ثم يقول : « هاتوا معاوية » فيجلس بين يديه رجل فيقول له :

---

(2) انظر كتاب صهاريج اللؤلؤ ، تاليف محمد توفيق البكري وشرح أحمد امين الشنقيطي وابى بكر محمد لطفي ص 258 ـ 259 (ط مصر 1906) .

« انت القاتل عمار بن ياسر وخزيمة بن ثابت ذا الشهادتين وحجر الكندي الذي اخلقت وجهه العبادة ، وأنت الذي جعل الخلافة ملكا واستأثر بالفيء واستبطر بالنعمة وانت أول من غير سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ونقض احكامه وفعل كذا وكذا » ويعدد اعماله ، ثم يقول : «اذهبوا به فاوقفوه مع الظلمة » ثم يقول : « هاتوا يزيد » فيجلس بين يديه رجل فيقول له : « يا باغي انت الذي قتلت اهل الحرة وابحت المدينة ثلاثة ايام وانتهكت حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم وآويت الملحدين وبؤت باللعنة على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم وتمثلت بشعر الجاهلية :

ليت اشياخي ببدر شهدوا جزع الخزرج من وقع الاسل

وقتلت حسينا وحملت بنات رسول الله صلى الله عليه وسلم سبايا على حقائب الابل ، اذهبوا به الى الدرك الاسفل من النار » . ولا يزال يذكر واليا بعد وال حتى يبلغ عمر بن عبد العزيز ، فيقول : « هاتوا عمر » فيجلس بين يديه رجل فيقول له : « جزاك الله خيرا عن الاسلام فقد احييت العدل بعد موته والنت القلوب القاسية وقام بك عمود الدين على ساق بعد شقاق ونفاق وابطلت اللعن على المنابر ، اذهبوا به فالحقوه بالصديقين » . ثم يذكر من كان بعده من الخلفاء الى أن يبلغ دولة بني العباس فيسكت فيقال له : « هذا ابو العباس السفاح أمير المومنين » فيقول : « فبلغ امرنا الى بني هاشم ارفعوا حساب هؤلاء جميعا واقذفوا بهم في النار » .

وفي مصر ، حيث التقاليد المسرحية عريقة ، ازدهر منذ العهد الفاطمي مسرح الظل المعروف بخيال الظل او ظل الخيال او خيال الستار (3) ؛ وهو المعروف عند الاتراك بقراقوز ومعناه ذو العين السوداء. ولعله انتقل في زمن مبكر الى بلاد العرب من الهند والصين عبر فارس ،

---

(3) انظر كتابنا « من وحي التراث » ص 102 و 114 الى 117 و 155 .

وربما عن طريق تركيا ، وان مال الظن الى اعتبار الاتراك تلاميذ للمصريين في هذا الفن ، استنادا الى ان فرقة مصرية لخيال الظل زارت تركيا سنة اثنتي عشرة وستمائة والف ، وكانت برئاسة الشاعر الزجال داوود العطار .

ومع ذلك ، ففي الاساطير التركية ان نشاة كراكوز ترجع الى حادث وقع في ايام السلطان اورهان عند منتصف القرن الرابع عشر الميلادي . فقد كان امر هذا السلطان ببناء جامع ، وكان يشرف على بنائه شخصان : احدهما بناء هو كراكوز ، والثاني حداد هو حاجي عيواظ . ولكن مرح هذين الرجلين وميلهما الى القص والحكي والتسلية حال دون انجاز العمال للبناء في الوقت المحدد . واصدر السلطان امره بقتل الرجلين ، ولكنه سرعان ما تملكه الندم والحزن على ذلك فلجا احد مسليه ، واسمه كوسترى ، الى وضع ستار في احدى غرف القصر ، واخذ من خلالها يعرض امام السلطان شخصية الرجلين المرحين بمغامراتهما المضحكة .

ويعتمد خيال الظل على ثلاثة عناصر ، هي : الصورة والضوء والسرد . وصفته ان اللاعبين « يتخذون له بيتا مربعا يقام بروافد من الخشب ويكسى بالخيش او نحوه من الجهات الثلاث ، ويسدل على الوجه الرابع ستر ابيض يشد من جهاته الاربع شدا محكما على الاخشاب ، وفيه يكون ظهور الشخوص . فاذا اظلم الليل دخل اللاعبون هذا البيت ويكونون خمسة في العادة ، منهم غلام يقلد النساء وآخر حسن الصوت للغناء ، فاذا ارادوا اللعب اشعلوا نارا قوامها القطن والزيت تكون بين ايدي اللاعبين ، اي بينهم وبين الشخوص ، ويحرك الشخص بعودين دقيقين من خشب الزان ، يمسك اللاعب كل واحد بيد فيحرك بهما الشخص على ما يريد . وتتخذ الشخوص من جلود البقر وهي في الغالب جلود تاتي من السودان، فيشترى بعضها لاعبو الخيال من التجار ويصورون منها ما يشاءون من الشخوص ثم يصبغونها بالاصباغ على ما تقتضيه الوان الوجوه والثياب واجسام الحيوان وجذوع الاشجار واوراقها واثمارها واحجار المباني

وغير ذلك ، بحيث اذا عرضت الصور امام ضوء النار المشتعلة ظهرت زاهية بهية لشفوف تلك الجلود » (4) .

وفى المصادر القديمة كبدائع الزهور لابن اياس (5) انه فى سنة خمس وخمسين وثمانمائة امر الظاهر جقمق بابطال اللعب بخيال الظل واحراق شخوصه ، وكتب على لاعبيه العهد بالا يعودوا اليه .

ويروي الابشيهي فى المستظرف (6) ابياتا ثلاثة فى تشبيه الدنيا بخيال الظل ، منسوبة لوجيه الدين ضياء بن عبد الكريم وهي :

رايت خيال الظل اعظم عبرة لمن كان فى علم الحقائق راقى
شخوصا واصواتا يخالف بعضها لبعض واشكالا بغير وفاق
تجيء وتمضي بابة بعد بابة وتفنى جميعا والمحرك باقي

وورد لصلاح الدين الصفدي قوله :

هويت خياليا حكى الغصن قده اذا ما انثنى هاجت عليه البلابل
اراق دم العشاق سيف جفونه ومن بعد ذا اضحى عليهم يخايل

ولعلنا نلاحظ فى آخر الابيات الثلاثة الاولى كلمة « البابة » وهو الاسم الذي كان يطلق على التمثيلية ، وتجمع على بابات ؛ كما نلاحظ عند الصفدي مصطلح الخيالي ، ويقصد به اللاعب الذي يحرك الشخوص ، وكذلك فعل يخايل الدال على عملية التحريك .

---

(4) خيال الظل واللعب والتماثيل المصورة عند العرب لاحمد تيمور ص 19 ـ 20 .
(5) ج 2 ص 33 .
(6) ج 2 ص 307 (ط الثانية ـ القاهرة 1953) .

وقد اشتهر من بين مؤلفي مسرح الظل الطبيب الشاعر محمد بن دانيال الموصلي المتوفى سنة عشر وسبعمائة للهجرة بعد ان خلف ثلاث تمثيليات :

1 ـ الامير وصال
2 ـ عجيب وغريب
3 ـ المتيم والضائع اليتيم

وهي مجموعة في مخطوط توجد منه نسخة في القاهرة واخرى في اسطنبول .

وتكاد تكون مسرحية ((حرب العجم)) او ((لعب المنار)) من اقدم ما وصلنا من نصوص خيال الظل ؛ وسميت كذلك لانها تتناول الحروب الصليبية ، ولان احداثها وقعت في الاسكندرية ؛ وترجع الى القرن السادس او السابع الهجري . وقد اخبر عنها وأورد جزءا منها الشاعر الزجال داود العطار ـ السالف الذكر ـ في مخطوطة ضمنها بعض ازجاله. وفيها تبرز شخصية احد المغاربة كان ذهب يبلغ المصريين رسالة يكشف لهم فيها عن خطر الصليبيين ويدعوهم الى ضرورة الاستعداد للمواجهة . يقول النص :

صيحوا على ميمون اخي   يجي ويزعق بالنفير
ذا المغربي ادى قد اتى   يا خل من اقصى البلاد
قد جا يخبر يا رجال   عن اللئام اهل العناد

صيحوا على ميمون اخي

يا عصبة الدين والصلاة   يا مسلمين ياهل الصيام
قوموا الى الفرض الذي   قد افرضو رب الانام

فمـن يبـادر يلتقـــــــى   له فى الجنـان أعلى مغـــام

مع الكـرام أهـل التقـــى   وينجبـر قلبـو الكسيـــر

صيحوا على ميمـون اخـــي

* * *

وكما كانت لبلاد المشرق تقاليد مسرحية عريقة ، فكذلك كانـت لاقطار المغرب العربي تقاليد نشأت بالاحتكاك المستمر مـع مختلـف التيارات الحضارية والثقافية التي أتيحت لها معايشتها ، ولا سيمـا في عهد القرطاجنيين والرومان . ولا تكاد توجد مدينة في هذه الاقطـار الا وتوجد بها اماكن للتمثيل مشهورة ، كمسرح تيمكاد ودقة وتيبازة ، الى حد قيل ان « عدد المسارح في افريقية يفوق عدد الملاعب » (7) .

وقد ذكر البكري (8) في وصفه لقرطاجنة ان اعجـب ما بها « دار الملعب وهم يسمونها الطياطر قد بنيت أقواسا على سواري وعليها مثلها ما أحاط بالدار وقد صور في حيطانها جميع الحيوان وصور أصحاب جميع الصناعات وجعلت فيه صور الرياح فجعل صورة الصبا وجهه مستبشر وصورة الدبور وجهه عابس ... وفيها قصر يعرف بالمعلقة مفرط العظم والعلو اقباء معقودة طبقات كثيرة مطل على البحر في غربيه قصر يعرف بالطياطر وهو الذي فيه دار الملعب المذكورة ، وهو كثير الابواب والتراويح وهو ايضا طبقات على كل باب صورة حيوان وصور جميع الصناع » .

ومن المؤكد ان المغاربة تأثروا بالقرطاجنيين ثم الرومان بعدهم ، ومارسوا فن التمثيل القائم على الاناشيد والحركات الراقصة التي تؤدى بها الطقوس والشعائر الدينية والتي ترمز الى التوسل بالآلهة .

---

(7) تاريخ افريقيا الشمالية لاندري جوليان ، ترجمة محمد مزالي والبشيـر بن سلامـة ص 242 (الدار التونسية للنشر 1969) .

(8) كتاب المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب (جزء من المسالك والممالك) ص 43 - 44 نشر دسلان (الجزائر 1857) .

وقد أزدهر فن التمثيل بصفة خاصة في منتصف القرن الاول على عهد اغسطس زوج كليوباترة الصغيرة بنت كليو باترة ملكة مصر المشهورة ، وهو المعروف ب ((يوبا الثاني)) وكانت له عناية بالفنـــون والآداب (9) واسس مدينة وليلي لتكون شبيهة بروما ، واتخذها عاصمة ثانية له بعد شرشـــال .

واشتهر من بين كتاب الدراما البربر ابو ليوس المولود حوالي سنة 125 وصاحب الابولوجيا APOLOGIE ، والازاهير LES FLORIDES وقصة المســـوخ LES METAMORPHOSES ، وكانت تعرف بالحمـــار الذهبي . وهي ((قصة كان رواها لوسيان في كتابه الحمار لتحول المدعو لوسيوس الى حمار يعود الى صورته الآدمية الاولى بعد مغامرات عديدة تتخللها اطوار جزئية)) (10) . وفي اعتراف للمؤلف ذكر انـــه ينظـــم ((القصائد في جميع الاغراض الملائمة لروح الملحمة أو فيض الوجـــدان لمرح الملهاة او جلال الماساة)) (11) .

واذا كان المغاربة لم يحتفظوا بهذه التقاليد المسرحيـــة في ظـــل الاسلام ، فذلك راجع الى ان هذا الدين جاء بثقافة جديدة ، وانهـــم لـــم يجدوا في نطاق ثقافته حاجة الى التعبير بالمسرح على الشكل الاغريقـي الروماني الذي عرفوه . اذ لا يخفى أن هذا المسرح كان يتوسل بـــه في اداء الطقوس والشعائر الدينية ، فضلا عن انه كان مرتبطـــا بالصـــراع ، ولا سيما في مواجهة القضاء والقدر ، والدين الاسلامي يحد من هـــذا الصراع ويحث على الطمانينة النفسية بالدعوة الى الايمان بالقدر خيـــره وشـــره .

ومع ذلك ، فقد بقيت لتلك التقاليد آثار غير قليلة تتجلى في الرقص الشعبي ، سواء منه الرقص البربري والبدوي او رقص الطوائف الطرقية.

---

(9) انظر بحثنا ((وجود المغرب الحضاري والثقافي في العصر الجاهلي)) مجلة المناهل العدد 8 السنة 4 مارس 1977 .

(10) تاريخ افريقيا الشمالية لجوليان ص 252 .

(11) نـــفس المصـــدر .

كما تتجلى هذه الآثار في الاستعداد الذي ظل عند المغاربة للعمل المسرحي ، والذي جعلهم يقتبسون « خيال الظل » ولا سيما في تونس والجزائر ، لما كان لهما من علاقة مع الدولة العثمانية . ويبدو أنه كان مزدهرا في القطر الجزائري حتى منتصف القرن الماضي ، حيث قررت سلطات الاحتلال منعه ، لما كان له من دور في توعية المواطنين ولعله كان معروفا بمغربنا الاقصى في فترة ما من التاريخ ، ولا سيما ايام السعديين الذين كانت لهم علاقات وطيدة مع الاتراك .

ولم يكتف المغاربة بالاقتباس ، ولكنهم ـ بحكم موروثهم التقليدي وما تولد عنه من استعداد ـ انشاوا في العهد الاسلامي فنونا متعددة تتوسل ببعض عناصر الدراما كالحوار والحكي والغناء والترديد والرقص والتمثيل القائم على الحركة والايماء وتلوين الصوت .

وتعتبر « الحلقة » في طليعة هذه الفنون ، يديرها أمام جمهور متحلق في شكل دائري ممثلون فرديون ، يروون المقامات ، ويقصون الحكايات الخرافية والسير الشعبية وقصص البطولة والانبياء ، وينشدون قصائد الملحون والمحاورات منها خاصة ، مازجين في ذلك بين السرد القصصي والانشاد الشعري والاداء الغنائي ، ومعتمدين على التشخيص بجميع ما يقتضيه من عناصر التمثيل .

وقد اشتهر من هذه الحلق نمط كان يطلق عليه « لفراجا » ، يلح على المقومات المسرحية ، وخاصة ما كان منه يقام في بعض المناسبات ، ولا سيما ليلة عاشوراء . وبلغ من انتشاره أن افتى فيه الفقهاء ، على حد ما كتب في رسالته محمد بن العربي الرشاى عاشور الرباطي الذي تولى قضاء الجماعة بمراكش في منتصف القرن الهجري الماضي . وهي رسالة في بدع عاشوراء وضعها (12) في « رد ما اشتهر بمراكش ليلة عاشوراء

---

(12) انظر الاعلام بمن حل بمراكش واغمات من الاعلام لعباس بن ابراهيم ج 5 ص من 301 الى 307 (الطبعة الاولى) .

من امور احدثوها وسموها الافراجة ... وكتشبه الرجال بالنساء وتشبه الرجال باليهود والنصارى ، وكالمحاكاة لاناس من قبيلة او من بلد او تجار، أو كاتخاذ الصور ، وضرب الرجال آلات اللهو من اجـــوالات ومزاميـــر وغيرها ... » وفي خاتمتها ذكر « ان الناس كانوا يصورون صورة قاتل الحسين ويلقونها فى النار » .

وشبيه باصحاب الحلقة والفراجة شعراء « ايمديازن » الجوالـــون الذين يتنقلون فى ربوع الاطلس ، منطلقين فى الغالب من قبيلـــة آيـــت احديدو ، تصحبهم جوقات من المرددين .

وفي نفس الاطار تذكر مجالس « آهال » الشعرية الفنية التي كانت تقام فى الصحراء تحت قبة خيمة كبيرة وباشراف سيدة نبيلة مثقفة تدير تباري الشعراء وتحاور الفنانين .

ويعد مهرجان « سلطان الطلبة » اضخم عرض فني عرفه المغاربـة فى العصور الحديثة ، وهو تقليد سنه المولى الرشيد فى منتصف القرن السابع عشر تكريما للعلماء والطلبة ، وتقديرا منه لموقفهم الوطنـــي فى مساندة السلطة الشرعية ، حيث أقام لهم حفلا (انزاهة) ظل تقليـــده ساريا الى الآن ، وان لم ينتظم فى السنوات الاخيرة . ويقضي تنظيـــم نزهة ربيعية تدوم زهاء اسبوع يتوج خلاله احد الطلبة سلطانا يكـــون الى جانبه وزراء وحاشية وحرس . وطوال هذا الاسبوع يعيش الاساتـــذة والطلبة ، بمشاركة جميع فئات المواطنين ، مهرجانات تقام فيها المآدب والحفلات الادبية والغنائية والتمثيلية . ويختم كل ذلك بمقابلة تجري بين الملك وسلطان الطلبة ، وتتم فى حفل هائل يستقبل فيه الطالب المتوج ، وهو راكب فرسه ، ملك البلاد الذي يحضر فى موكب عظيـــم على صهوة

جواد لزيارة الطلبة ومشاركتهم افراحهم . وتجري المقابلة في جو مـــن الفرح والمرح ، اذ تلقى من طرف بعض افراد حاشية سلطان الطلبة خطب هزلية تنتهي بنزول هذا الاخير عن فرسه والتقدم لتقبيل ركاب الملـــك وتقديم بعض المطالب التي يصدر امر مولوي بتنفيذها على الفور .

وقد عرفت بعض المدن المغربية ، ولا سيما مراكش وفاس والرباط، نوعا من التمثيل كان يقدم اثناء الاعياد الدينية والمواسم الشعبية ، وخاصة عاشوراء ؛ وهو المشهور ب ((البساط)) . وكانت تتم عروضه في الميادين العمومية وساحات القصور بدور المخزن ، بعد أن تكون الفرقة قد جالت عبر المدينة في موكب غناء ورقص .

وترجع بدايات هذا النمط من المسرح الى عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله ، ثم لم يلبث أن شهد ازدهارا في أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن آ ويبدو أنه استمر الى عهد المغفور له محمد الخامس ، وان كنا لم ندرك شيئا منه .

ويتضح من روايات الذين أتيح لهم أن يشاهدوا عروضه أنه كان يهدف الى التسلية والترويح ، والى الوعظ والتوجيه ، والى تبليغ المظالم، وانه كان يتوسل لتحقيق هذه الاهداف بتقديم تمثيليات كان يطلق على الواحدة منها ((الواقعة)) ، يعتمد في تأليفها واخراجها على جميع انماط الادب والفن الشعبيين ، من قص وغناء ورقص ، وعلى مختلف العناصر التمثيلية المعروفة يومئذ ، والقائمة في جملتها على التنكر والتقليد .

واشتهر من مؤدي ادواره شخوص ك : ((الشاط)) الذي يمثل الرجل الشجاع الأوي ، و ((الياهو)) الذي يقوم بدور المنافق المخادع وهو اليهودي ، و ((الغول)) الذي يرمز به الى عنصر الشر ، و ((احديدان)) الذي يضطلع بدور الذكي ، ويكون بمثابة البطل في الواقعة . ويطلق عليهم جميعا اسم ((بوهو)) او ((المسيح)) حسب الشائع في الجنوب أو الشمال ، وهو ما يرادف الممثل ، وربما خصوا به رئيس الفرقة .

ويعتبر ((سيد الكتفي)) من الانماط المسرحية المتاخرة في المغرب ، اذ شهد ازدهارا كبيرا في عهد المولى يوسف ؛ وكانت قد اسسته جماعة من محترفي الخرازة بمدينة الرباط ، يراسهم مقدم . وهو اشبه ما يكون بالبساط الا ان ممثليه يجتمعون في مكان غالبا ما يكون بيت المقدم او بيت

احدهم او احد اعيان المدينة . وقد يجتمعون فى قصر السلطان . ويبدا المشهد بدخولهم على المقدم والسلام عليه ليستمعوا منه الى وصايا يقرأون بعدها الفاتحة . ويأخذ المقدم بعد ذلك في انشاد قصائد غالبا ما تكون فى الهجاء ، ثم يدخلون فى شبه حضرة يتعالى فيها الانشاد والصياح، ويتطاير اللكم والبصاق ، وهم يهزون أكتافهم ويرددون : « آلولي سيد الكنفي » . والمقدم فى غمرة ذلك يحاول أن يتغلب على اصحابه ، ولكنهم فى آخر العرض ينتصرون عليه .

* * *

وبعد ، فاننا لا شك نستطيع ان نؤكد من خلال هذا البحث ان العرب فى الجزيرة لم يعرفوا المسرح على الشكل الارسطي الذي شاع عند الاغريق وأروبا فيما بعد ، ولكنهم فى اقاليم اخرى عرفوه ، وان لم يستمر، وخاصة فى المغرب ومصر .

كما نستطيع ان نؤكد ان العرب والمغاربة ابدعوا خلال التاريخ الوانا مختلفة ومتطورة من المسرح . وهو بذلك فن متاصل عندهم . وهذا ما جعلهم يقبلون عليه فى شكله الاروبي ابان النهضة الحديثة ، وجعلهم كذلك – وهم ينشئون فرقا عصرية للتمثيل – يقدمون الى جانب مسرحياتهم المؤلفة والمترجمة والمقتبسة نصوصا عربية اصيلة متمثلة فى السير الشعبية العربية المعروفة ، وكان التمثيل فيها غالبا ما يقوم على الانشاد والحكى ، وكانه استمرار للقاص الشعبي القديم . بل ان المسرحيات المترجمة نفسها كانت تقدم فى اسلوب لا يبتعد بها عن القص ، وكانت تشتمل احيانا على الغناء كما هو الحال مثلا بالنسبة لكثير من الروايات

التي قدمتها فرقة اسكندر فرح فى مصر ، والتي كان يقوم فيها الشيخ سلامة حجازي بدور الممثل الاول او البطل .

ولكن رجوع العرب المحدود الى هذه الانماط التراثية لم يكن من شانه ان يلفت النظر الى ما عندهم من تجربة مسرحية حتى يرجعـوا الى رصيدهم الغني فيها ويحتفلوا بما فيه ويبعثوه ويطوروه . ومن ثم استعاروا الدراما الغربية وتبنوا احكام المستعربين الذين قطعوا بقصور العرب عن انشـــاء التمثيـــل .

الربـــاط   عبـــاس الجراري

كتاب ابن عسكر وابن خميس في مشاهير مالقة

محمد الفاسي

لقد برع العرب شرقا وغربا في أدب التراجم ووضعوا في تاريخ المشاهير مؤلفات تزخر بها الخزانة العربية ومن أول هذه الكتب السيرة النبوية وعلى غرارها نسج المؤرخون فكانت التراجم الشخصية أي التي تعنى بشخص واحد وهي قليلة بالنسبة للتراجم الجماعية أي التي تختص بجماعة من الرجال اما أن تجمعهم رابطة الانتساب الى مدينة أو الى علم أو فن أو أي مذهب وهي التي يطلق عليها اسم الطبقات ، كطبقات المقرئين والمفسرين والشعراء والادباء والنحاة والاطباء وطبقات المالكية والشافعية والحنابلة والحنفية وغيرهم . أما تراجم المنتسبين الى بلد بعينه فحدث عن البحر ولا حرج

فلا تجد مدينة كبيرة أو صغيرة في الشرق أو الغـرب الا وجمعت تراجم مشاهيرها ويطلق عادة على هذه الكتب اسم التاريخ يقال تاريخ بغداد وتاريخ الشام ونحوهما . ومن هذه المؤلفات ما يختص بمدة معينـة كالقـرن أو القرنين وهي كذلك كثيرة ومنها بالمغرب مثلا كتاب نشر المثاني في تراجم أهل القرن الحـادي عشـر والثانـي للقادري . ومنها صفوة من انتشر في رجال القرن الحادي عشر ومنها نزهة الحادي في تراجم أهل القـرن الحـادي وكلهـا مطبوعـة .

وتحتوي هذه الكتب زيـادة علـى معرفـة أحـوال المترجمين وأخبارهم على معلومات في غاية الاهمية مـن حيث تاريخ الحضارة وخطط المدن والحالة الاجتماعيـة والاقتصادية ونجد فيها كذلك فوائد تاريخية محضة لا ترد في كتب التاريخ المختصة .

ولقد اخترت أن أحدثكم من هذه الكتب عن مؤلـف فريد وضع في القرن السابع الهجـري (الثالـث عشـر الميلادي) عن مشاهير مدينة مالقة وقد كانت أحد مراكز الاشعاع الثقافي في شرق الاندلس الجنوبي كمـا كـانت أحيانا قاعدة لخلافة بني حمود الادارسة وكذلك لبني هود الجذاميين من ملوك الطوائف .

ولهذا الكتاب مؤلفان وذلك أن واضعه الاول توفي قبل اتمامه فأتمه ابن أخته . ولا يعرف له عنوان خاص وانما يطلق عليه اسم تاريخ مالقة والنسخة الفريدة الموجودة منه بالمغرب تبتديء هكذا : « كتاب جمع فيه بعض أخبار فقهاء مالقة وأدبائهم (كذا) مما ابتدأ تأليفه الفقيه المتفنن محمد بن علي بن خضر بن هارون الغساني المشهور بابن عسكر وقد كمله ولد أخته محمد بن محمد بن علي بن خميس لما عاجلته منيته » . وبعد هذا التقديم مباشرة ورد : « منهم محمد بن عمثيل العاملي » .

ومعنى هذا أن هذه النسخة الفريدة التي وصلتنا هي تتميم ابن خميس أما الأصل الذي وضعه أولا ابن عسكر فلا يزال ضائعا . ومعنى هذا أيضا أن ابن عسكر كان وصل في كتابه الى المحمدين في حرف الميم فيكون أنجز الحروف الآتية حسب الترتيب المغربي : ا ـ ب ـ ت ـ ث ج ـ ح ـ خ ـ د ـ ذ ـ ر ـ ز ـ ط ـ ظ ـ ك ـ ل وأول الميم أي نحو النصف من التراجم وحيث أن باعتبار ما بقي لنا منها وهو اثنتان وستون ومائة ترجمة يكون مجموع الكتاب أكثر من ثلاثمائة ترجمة .

وقبل أن نصف الكتاب وما اشتمل عليه يحسن أن نتعرف على ترجمة مؤلفيه ابن عسكر وابن خميس .

ترجمة ابن عسكر: كان هذا المؤلف من علماء مالقة الاكابر وأدبائها اللامعين واسمه الكامل كما ورد في الترجمة الحافلة التي عقدها له ابن أخته مؤلف هذا التتميم الذي نحن بصدده هو محمد بن علي بن خضر بن هارون الغساني المشهور بابن عسكر . وقد ترجم له كثير من المؤرخين كابن الخطيب في الاحاطة والقاضي النباهي في المرقبة العليا وابن الأبار في تكملة الصلة وغيرهم . وكانت ولادته بقرية قريبة من مالقة سنة 584 . ودرس بمالقة آخذا عن شيوخها ومن جملتهم أبو الحجاج ابن الشيخ صاحب كتاب ألف باء المعروف والمطبوع قديما بالقاهرة كما أجازه محمد القرطبي وأبو علي الرندي وأبو الخطاب بن واجب وغيرهم وكلهم من مشاهير علماء الاندلس . وقد تصدر للتدريس وصار من كبار علماء مالقة وأخذ الطلبة من الاندلس وبلاد المغرب يرحلون اليه للاخذ عنه وعين نائبا لقاضي مالقة ثم عين استقلالا رجا من الامير أبي عبد الله بن نصر أن يعفيه من هذه المسؤولية فأبى عليه وكان ذلك سنة 630 ، فاضطر للرضوخ. قال ابن خميس : « وظهرت في أيامه الحقوق وسار من السيرة الحسنة ما لم يسرها أحد قبله » . وقد ألف كتبا في العلوم الاسلامية وغيرها وهي كما في التتميم « عجيبة متداولة بين أيدي الناس » نذكر منها « نزهة الناظر في مناقب عمار بن ياسر أهداه لبني سعيد أصحاب قلعة يحصب المشاهير وهم ينتسبون

لهذا الصحابي الجليل . ومن تآليفه « الجزء المختصر في السلو عن ذهاب البصر »

وكان ابن عسكر يقرض الشعر ويكتب نثرا غنيا رائعا وقد أورد له ابن خميس نماذج من شعره ونثره .

أما الكتاب الذي أذاع ذكره وعول عليه جل الذين ألفوا في رجالات الأندلس بعده فهو تاريخ مالقة الذي أدركته المنية سنة 636 وهو يحرره . وقد توفي عن سن تناهز الخمسين رحمه الله .

ترجمة ابن خميس : واذا كنا نعلم كل هذه التفاصيل وغيرها عن ابن عسكر فان ابن خميس الذي بتتميمه لكتابه حافظ لنا على ذكره لا نعرف عنه الا القليل وهو أنه كان يسمى أبا بكر محمد بن محمد بن خميس وأنه ابن أخت ابن عسكر .

ومن شيوخه الذين يروي عنهم في كتابه أبو عمرو بن سالم . ونعلم كذلك أن ابن خميس كان يعيش في النصف الاول من القرن السابع وآخر تاريخ ورد في تتميمه هو سنة وفاة أبي عبد الله محمد بن عيسى بن مع النصر المومناني وهي سنة 638 سنتين بعد وفاة خاله . ولا شك أنه عاش بعد ذلك ولكن لا نستطيع تحديد سنة انما باعتبار أن خاله توفي في السنة الحادية والخمسين من عمره يمكن أن نقدر أن ولادة ابن خميس كانت في حدود سنة 605 ويكون عمره عند تأليف تتميم تاريخ خاله نحو الثالثة والثلاثين .

وينبغي أن ننبه الى وجود مؤرخ مغربي آخر يدعي ابن خميس وهو محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن محمد بن علي بن أبي بكر بن خميس المتوفى سنة 750 وله تاريخ الجزيرة الخضراء وكان خطيب مسجدها الجامع كماله تاريخ مدينة سبتة وقد تولى كذلك الخطبة بجامعها. ويحمل كذلك هذا الاسم شاعر مشهور من أهل تلمسان .

كما يوجد ابن عسكر آخر من أهل المغرب له تأليف في التراجم أشرنا اليه من قبل هو « صفوة من انتشر في رجال القرن الحادي عشر » .

كتاب تاريخ مالقة

قدمنا أن هذا الكتاب ليس له اسم خاص وأنه لا يعرف الا باسم تاريخ مالقة أو تاريخ ابن عسكر وعمل ابن خميس يسمى التتميم . ولكن ابن الخطيب الذي ينقل عنه كثيرا في الاحاطة يسميه الاكمال والاعلام بمحاسن الاعلام من أهل مالقة الكرام . ونحن نعلم أن أبا العباس أصبغ ابن عباس المالقي المتوفى سنة 592 كان ألف كتابا في رجال مالقة اسمه الاعلام بمحاسن الاعلام فيكون الاكمال هذا ذيلا عليه ـ ثم ان ابن الخطيب نفسه يقول في الترجمة الوافية التي خص بها ابن عسكر ان هذا الكتاب يسمى كذلك مطلع الانوار ونزهة الانظار في ما احتوت عليه مالقة من الرؤساء والأعلام الاخيار وتقييد المناقب والآثار . وسماه للمرة الثالثة باسم آخر نزهة البصائر والابصار .

ومن عجب أن هذا الكتاب الذي نسب له ابن الخطيب ثلاثة أسماء لا يعرف بواحد منها مطلقـا .

والآن بعد هذه الايضاحات فما تحتوي عليه الصفحات الباقية من التتميم ؟ انها اثنتان وستون ومائة ترجمة 211 لعدد من الخلفاء والرؤساء والادباء والشعـراء والفقهـاء والثوار ممن كانوا من أهل مالقة وعـددهـم 104 ومن أهل مدن الاندلس والمغرب المستوطنين أو الواردين علـى مالقة وعددهم 107 ترجمـة .

وهذه التراجم مرتبة على حروف المعجم على الطريقة المغربية وقد قدمنا أن ما بقي لدينا يبتديء في وسط حرف الميم ـ وطريقة ابن خميس في كتابة هذه التراجم أن يذكر أولا الاسم كاملا ويذكر الكنية لاعتناء المغاربة بها كمـا يعتني المشارقة باللقب المنسوب للفظ الديـن كشمس الدين وبدر الدين وصلاح الدين ونحوها ثم ينبه على بلده أي يصرح بأنه من أهل مالقة ان كان منهم والا فـيـذكر البلد الذي جاء منه واذا كان يجهله يقول مثلا ورد علينا أو عبارة أخرى تشعر بأنه ليس من أهل مالقة .

ثم يأخذ في ذكر بعض أخباره وهو لا يطيل في هذا مع الاسـف لكن يأتى بالمهم ، واذا كـان المترجـم شـاعـرا أورد نماذج من شعره تستغرق بضع صفحـات أحيانـا

ويذكر في الاخير تاريخ وفاته ان كان يعرفه وأحيانا أخرى قليلة تاريخ ولادتـه .

ومن التراجم المفيدة في هذا الكتاب :

ـ ترجمة أبي عبد الله محمد بن حسن من محمد بن صاحب الصلاة الأنصاري ص. 42 من أهل مالقـة .

ـ ترجمة أبي عبد الله محمد بن عبد العزيز بن عبد الله ابن عياش ص. 64 كاتب المنصور الموحدي وكثيـر مـن رسائله الفريدة منشورة في كتاب « الرسائل الموحدية » من أهل مـراكش .

ـ ترجمة محمد بن عبيد بن حسين بن عيسى الكلبي ص. 7 وكذلك جماعة من فقهاء بيت بني حسون قضاة مالقة .

ـ ترجمة خاله مؤلف الاصل محمد بن علي بن خضر ابـن عسكر ص. 77 ـ 89 ، وقد أورد له نماذج متعددة مـن شعره فى عشر صفحات .

ـ ترجمة أبي عبد الله محمد بن غالب الـرصافي الشاعـر البلنسي المشهور دفين مالقة وقد أورد له كثيرا مـن شعره فى عشر صفحات كذلك ص 18 ـ 28 .

ـ ترجمة أبي الحسن مقدم من معافي صاحب التواشيـح ص. 95 الا أنه لم يورد له شيئا منها ـ وهو من أهل مالقة

ـ ترجمة أبي بحر صفوان بن ادريس المرسي نزيل مراكش وأقام بمالقة ص. 101 ،وهو من فحول شعراء المغرب والاندلس وقد وقع بتر أثناء ترجمته اذ تنقص هنا صفحتان كان فيهما تمام ترجمته وابتداء ترجمة شخص آخر لا نعرف اسمه .

ـ تراجم بعض بني عباد أصحاب اشبيلية ومن جملتهم المعتضد بن عباد 144 .

ـ ترجمة عبادة بن عبد الله ،،، بن ماء السماء وهو كذلك من أصحاب الموشحات المعروفين ولم يورد له كذلك شيئا منها ص. 145 .

ـ ترجمة عبد الاعلى بن موسى بن نصير وهو ولد الفاتح الكبير موسى بن بن نصير . وفي هذه الترجمة معلومات عن فتح القائد الشاب عبد الاعلى لمالقة التى كانت تدعى ريه .

ـ ترجمة عبد الله بن عبد الملك بن سعيد القائد مع الكلام على هذا البيت الشهير بنى سعيد أصحاب قلعة يحصب التي صارت تنسب اليهم وتسمى الآن عند الاسبان ALCALA LA REAL أي القلعة الملكية ـ ص. 122 .

ـ ترجمة عبد الله بن علي بن زنون وغيره من أفراد هذا البيت الذي كان له نفوذ كبير في مالقة أيام بني هود ـ ص. 124.

ـ ترجمة أبي الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكناني الرحالة الشهير ـ ص. 51 .

ـ ترجمة عبد الجبار بن المعتمد بن عباد الذي ثار على المرابطين بعد أسر أبيه ـ ص. 134 .

ـ ترجمة الامام أبي زيد عبد الرحمن بن عبد الله السهيلي دفين مراكش واحد رجالها السبعة وهو صاحب « الروض الآنف » رحمه الله ـ ص. 127 .

ـ ترجمة الشاعر الكاتب عبد الرحمن بن محمد بن يخلفتن الفزازي من أهل المغرب كاتب الامراء والخلفاء الموحدين ـ ص. 133 .

ـ ترجمة السيد عبد العزيز بن أمير المؤمنين أبي يعقوب يوسف الموحدي . ولفظة السيد في اصطلاح الموحدين معناها الامير ـ ص 133 .

ـ ترجمة علي بن حمود بن ميمون الادريسي الحمودي من أهل سبتة وهو مؤسس الدولة الحمودية بمالقة ص. 155 مع تراجم جماعة من بني حمود .

ـ ترجمة عمر بن حفصون بن عمر بن جعفر الثائر الاسباني على بني أمية وفي ترجمته معلومات عن هذه الثورة التي أقضت مضاجع خلفاء بني أمية حتى قضى عليها الخليفة الناصر لدين الله .

ـ ترجمة أبو الخطاب عمر بن حسن ابن دحية الكلبي السبتي المحدث الكبير وشيخ الملك الكامل هنا بالقاهرة وقد بنى له مدرسة الحديث الكاملية ص. 173 ،

ـ ترجمة أبي حفص عمر الهنتاتي القائد الموحدي الشهير وقد ولي مالقة ثم تونس وهو جد الملوك الحفصيين بتونس ـ ص. 173 .

ـ ترجمة أبي الفضل عياض بن محمد بن عياض اليحصبي السبتي وهو حفيد القاضي عياض ـ ص. 178 .

ـ ترجمة سليمان بن عمثيل بن يحيى بن أحمد بن داود العاملي مع الكلام على هذه الاسرة المالقية المجيدة بني عمثيل ، وفي الكتاب تراجم لأكابرهم ص. 190 .

ـ ترجمة أبي الحجاج يوسف بن محمد بن عبد الله بن يحيى البلوي المعروف بابن الشيخ وهو مؤلف كتاب ألف باء الشهير .

وهذه نماذج فقط من عناوين التراجم المحتوي عليها هذا المؤلف القيم والا ففي كل ترجمة من التراجم الاخرى فوائد جمة . ويؤسف لضياع قسمه الأول ، وعسى الايام أن توقفنا عليه اذ لا نزال في كل سنة نكتشف ذخائر جديدة في خزاناتنا بالمغرب مما كنا نعتبره مفقودا وحتى مما لم نكن نعلم بوجوده والمولى تعالى يوفقنا الى الصواب والسلام عليكم ورحمة الله .

الرباط　　　　　　　　محمد الفاسي

كتاب الإحاطة

لابن الخطيب

-2-

نشر : محمد عبد الله عنان
تعليق : محمد ابن تاويت

بعد انتهائنا من الجزء الاول نتصل بالجزء الثاني الذي ننبه على بعض الاخطاء ونأتي بما نستطيعه في تصحيحها وربما اقتصرنا على هذا . ففي هذا الجزء وقع من التصحيف والتحريف مما يتصل بالطباعة وغيرها ، كما وقعت أخطاء قليلة فى التعاليـــق .

وهكذا ففي الصفحة 15 سقط من الآية (وما) عند الله خير وأبقى الذين ءامنوا وعلى ربهم يتوكلون) أولها (وما) .

وفى 16 تصحف فى قوله « يرتد عنه حسيرا طرف الموالاة » هكذا « جسر أطرف الموالاة » وشكلت الراء فى جسر بالضم امعانا فيه كمـــا شكلت الراء فى « أطرف » بالضم ، كأنه اعتبر جمع طرف ، ولا معنى له ولا للجسر مضافا اليه .

وفى 17 تحرفت كلمة « أشيائه » بأشتاته فى « محكما فى أشيائه »
وفى 19 ورد البيـــت :

خليفة الله ساعد القدر علاك ما لاح فى الدجـــا قمـــر

مضمومة « خليفة » وهي منادى مضاف

وبعده تحرفت كلمة « أكفى » بكفى ، فى قوله « فأحسب واكفى » اى قال ، حسبي الله وكفى بالله حسيبا .

ثم تحرفت كلمة « وردا » بكلمة « أورد » فى وصف الاسد بذلك عند قوله « وهاج به الخدام اسدا وردا » ووضعت فاصلة بين الكلمتين هكذا « وهاج به الخدام أسدا ، ارود » .

وفى 20 ورد « كوكب الدجا » مصحفا ، هكذا « سرك الدجا » ، ثم جأت الكلمات فى المصاريع الآتية ، بعد قوله فأنشدته :

انعام ارضك تقهر الآسادا   وخصايص لله بث ضروبهـــا

فابغ المزيد من الالـــه بشكـــره

فتصحفت فى الطباعة كلمات (فأنشدته) بنقط الهاء ، و (تقهر) بضـــم التاء ، و (ضروبها) بنقط الباء نقطتين ، وتحرفت كلمة الاله بآلايه ، وبعد الابيات تصحفت كلمة « وداد » فى قوله : بأفضل ما عاد به سفير ، مـــن وداد أصيل ، وامداد موهوب بكلمة « واد » أصيل ...

وبعد ذلك جاء قوله « وطعمة مسوغة » هكذا « وطعمة مسوعـــة » بضم السين واهمال نقط الغين ولم يوضع قوله تعالى « له الحمد فى الاولى والآخرة » بين قوسيه اشارة لتضمينها ، ومثل هذا سيتكرر كثيرا فيمـــا بعد ، بحيث لو تتبعناه بالتنبيه لطال بذلك حبله ومل ذكره .

وفى 22 ورد « فنبذوه على سوء » وصوابه « سواء » كما فى القرآن « فانبذ اليهم على سواء » .

وفى 24 ورد « ليس لها من دون الله كاشفة » مهملا .

وفى 28 ورد « فاستأصلت النعمة العريضة » مشكولة بالضم تـــاء الكلمات الثلاث ، مع انها جميعا بالفتح ، ثم « ابتقت » صوابها « أبقت » .

وفى 31 تصحفت « وأياما » من مقامه برندة ، وهو من قبيل الطباعة، لا شك ، ذكرناه لمجرد التنبيه وسيتكرر كذلك نحوه كثيرا ، اضطررنا لاغفال بعضه .

وفى 38 ورد « طاويا بساط العدو بالجملة » وصوابه « بساط العذر»

وفى 40 تصحفت كلمة « قدار » بقذار ، مفتوحة القاف معجمة الذال، مع انها بالضم والاهمال ، علما لعاقر ناقة صالح .

وفى 51 ورد « وانفقت عليه الاموال ما ان مفاتحه لتنوء بالعصبة اولي القوة » فسقطت « من » بعد عليه هكذا : وانفقت عليه من الاموال ما ان مفاتحه ، ولم يوضع ما بعد « الاموال » بين القوسين ، اشارة الى تضمينه ، وهو من القرآن « وآتيناه من الكنوز ما ان مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة » .

وفى 55 تصحفت اليه فى قوله « اليه ينقادون » طباعة كذلك .

وفى 63 لم يجعل بين القوسين أيضا : اياك نعبد واياك نستعين ، وهذا لا عذر فيه لمعرفته من القرآن ضرورة .

وفى 73 ورد : انها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي فى الصدور ، وهو من القرآن ، سقطت الفاء قبلا ، ولم يجعل بين القوسين كذلك .

وفى 76 شكلت كلمة « متبر » من قوله تعالى « ان هؤلاء متبر ما فيهم فيه » بسكون التاء واهمال الباء ، والصواب فتحها وتشديد الباء بالفتح

وفى 97 سقطت كلمة محمد ، وهو حفيد عياض الذي كان قاضيا لعهد المامون الموحدي ، من قبل محمد بن يوسف النصري الاول .

وفى 99 تضمنت الاقواس الواو قبل قوله تعالى « اذا جاء نصر الله، واهمل « قل هو الله أحد » واتصلت الباء به مباشرة .

وفى التعليق 6 من هذه الصفحة جعل ابن الخطيب واهما فى ذكـــر تاريخ موقعة « الارك » وهو بعيد منه ، كما أن « الاركة » انما هو مـــن تحريف أو تصحيف الناسخ .

وفى 101 ورد المصراع « ومن شيم علوية الشيم » فالظاهـــر ان الكلمة الاخيرة محرفة عن « الشمم » يزيدها ظهورا ، كون الشيم ، وردت بعد بيت واحد،فى قوله «فخر الملوك الكريم الذات والشيم» فيكون بذلك لو صحت الاولى ، ايطاء ، بهذه الاخيرة ، وركاكة بتلك واضطراب واختلال ، اتى من وصف الشيء بنفسه ، حيث جعل للشيم شيم علوية ، وكان الاجدر بالعلوية ، ان تكون نعتا حقيقيا للاولى لا للثانية حيث جعل النعت سببيا، ولا معنى لذلـــك بالمـــرة .

ثم اتى مصراع ، هكذا : « كالغيث فى مجد وكالليث فى اجـــم » وهو لا يستقيم وزنا ، ولا يتضح معنى ، وكأن البيت كان :

مقامه فى كلا يومي ندى ووغى   كالغيث فى جوده والليث فىأجم

ثم شكلت كلمة « قليب » بضم القاف ، تصغير قلب ، مع أنه بفتحها بمعنى البئر ، وهو مقتبس من مدح بشار للوالي عمر بن العلاء المعروف

وفى 102 ورد فى معرض الحديث عن جد ابن أبي عامر « وكان له فى فتحها أثرا جميلا » بدل « أثر جميل » .

ثم جاء بيت فى مدح ابن أبي عامر ، مختلا هكذا :

برايك عبد المليك الذي له   حلا فتح قرطبة وانتها بهـــا

واستقامته متأتي بوضع نحو عن أو من ، قبل عبد ، واضافة فتح الى هاء الضمير ، مثلا ، أما عبد المليك ، فهو عبد الملك جد المنصور .

وفى الصفحة 104 زيادة عن تصحيف « تثمير » وجعل الهمزة قطعية بابنته ، حرفت كلمة « مهطعين » بمصطهرين .

وفى الصفحة 105 سقطت كلمة « كل » فى هذا المصراع : ومن شيمتي اني على كل طالب » فاختل الوزن بذلك . ثم ورد مصراع مكسور هكذا : رفعنا العلى بالعوالي سياسة ، ولا يستقيم الا بنحو « رفعنا المعالي ، أو العوالي » ، وهو ما نص المحقق على كونه موجودا فى نص آخر فكان الواجب اثباته وطرح ما عداه وينساق مع قوله « ما بنى عبد المليك وعامر » قبله مباشرة . وأرى أن « العوالي » مصحفة عن «المعالي»

وفى 109 ورد فى الحديث عن الرشيد بن المعتمد : وهو المحمول معه الى العدوة ثم الفتح ... وهو المقتول ... المحمل رأسه الى محله العدو ، ففى هذا اضطراب ، وتحريف ، فالرشيد لم يحمل الى العدوة ، بل حمل راسه الى محلة العدو اى المرابطين ، فراسه المحمول اذن لا « المحمل » الى المحلة .

وفى 111 ورد مصراع هكذا : « وما لمرتد الجراحة ما رايتم » ولا يستقيم وزنا ولا معنى ، وقد اثبت المحقق في التعليق ما ورد فى القلائد وهو « وما أثر » فكان عليه أن يثبت هذا ويتنكب غيره ، مبينا خطأه ، والا كان فى صنيعه مثل المستشرقين القاصرين فى العربية يخبطون خبط عشواء فيها ، ويثبتون ما لا وجه له ، لجهلهم ، لالنزاهتهم ، ولو حصل مثل ذلك فى لغتهم التي يحسنونها ، لما أثبتوا فيها ما أثبتوا فى غيرها . وقلدناهم عن تقليد أعمى ..

وفى 112 ورد : وتعرض له الحصري القرموني ، والكلمة الاخيرة ، محرفة عن القيرواني ، وهو الشاعر الذي تعرض للمعتمد بطنجة ، كما هو معروف . وعلق عليه برقم 5 انه وردت الكلمة فى الزيتونة محرفة ، بالقيرمواني — مع انها لم تحرف ألا بالميم — ثم قال : والقرموني نسبة الى مدينة قرمونة الواقعة شمال شرقي اشبيلية .

وفى 113 وردت أبيات ثلاثة محرفة مكسورة ، هكذا :

قل لمن جمع العلم   وما احصى صوابــه
كان فى الصرة شعر   انتظرنا جــوابــــه
قد أتينــاك فهـــلا   جلب الشعر جوابــه

وصـــوابهـــــا :

قل لمن قد جمع العلـــــــم وما احصى صوابه
كان فى الصرة شعر   فتنظرنا جوابــــه
قد أثبنـاك فهــلا   جلب الشعر ثوابــه

ثم جاء مصراع بيت بقطع همزة « أحزم » وصوابها الوصل .
وفى 116 ورد مصراع هكذا : « فاذا اكتحلت برق ثغــر باســـم »
وعلق على « رق » بانها فى الزيتونة « ببرق » مع أن هذا هو الصواب ، وكان عليه اثبات لا غيره ، وهو العالم العربي .

وفى 117 جاءت ابيات مصحفة محرفة جدا ، وهي بعد اصلاحها منا:

لم أنس والوت يدنيني ويقصينـــي   والموت كاد من الربان ياتينــــي
أبصرت هولا لو ان الدهر ابصـــره   لأبصر الدهر أمرا ليس بالــــدون
كم ليلة بت مطويا على حـــــرق   فى عسرة من عيون الدبر فى العين
قد كنت ضنا بنفس لا أجود بهـــا   فبعتها باضطرار بيع مغبــــون
فتلك أحسن ام امر ظللت بـــــه   فى ظل عزة سلطان وتمكيــــــن

ففى هذه نجد كلمة « انس » مضمومة السين ، ثم « كاد من الربان » تحرفت « كان المنى » فانخرم المعنى والوزن معا و « لأبصر الدهر أمرا »

تحرفت « ما خوف لامر » فحصل فى المصراع ما حصل فى سابقه ، من الاضطراب والكسر ، وفى البيت الثالث تحولت كلمة « ضنا » الى «ضانا» ولا يستقيم هكذا ، وفى الرابع شكلت « حرق » بفتح الحاء وسكون الراء، ولا يستقيم كذلك ، ثم كتبت « عسرة » عسر ، بفتح العين والسين وكسر الراء ، وسقوط التاء أخيرا ، وفى الخامس تصحف أمر ، بالواو .

وفى 119 جاء مصراع هكذا :

« نعم هو الحق فاجأني على قدر » والصواب تسهيل همزة « فاجاني » ، ليستقيم الوزن .

وفى 120 جاء مصراع ، بما جاء به مصراع ابن الخطيب السالف الذكر ، وهو لابن اللبانة ، أو ابن عبد الصمد ، فى رثاء المعتمد :

« مللك الملوك أسامع فأنادي » بضم كلمة ملك ، مع انه منادى مضاف ، كما تقدم فى خليفة الله . . .

وفى 125 ورد « فقيل لي عند باب البلد ، كيف أسمك فقلت محمد » هكذا بدون فواصل ولا نقط ولا علامة الاستفهام ، مع همزة القطع فى اسمك ، مع أنها وصل ، وكذلك تكرر فى الصفحة التالية « وانما اسمي » بالهمزة للقطع .

وفى 145 جاء « مجما ، محولا » (بكسير الجيم فى الاولى وفتح الواو مشددا فى الثانية) والصواب « معما مخولا » من العم والخال .

وفى 147 جاء بيتان هكذا :

قد نسبنا الى الكتابة يوما ثم جاءت خطة القضاء تليها

وبكل لم نطق للمجد الا منزلا نابيا وعيشا كريها

فالمصراع الثاني من البيت الاول ، مكسور الوزن ، كما جاء مكسورا في الجزء الاول ، مع اختلاف « وجاءت » بدل « ثم جـاءت » وكلاهما مكسورة ، وصوابه : « واتت خطة القضاء تليها » .

وكذلك المصراع الاول من الثاني ، الـذي علق عليه بأنـه ورد في ترجمة ابن عميرة « وبكل لم يبق للجهد الا » .

والاوفق : « وبكل لم نلق للحظ الا » كما أثبته الاستاذ بن شريفة في كتابـه عنـه .

وفي الصفحة 151 ورد من قصيـدة لمحمـد ابـن عيـاش :

وكفكت دمعا حين لا عين تذرف (فسقطت الفاء الثانية من « كفكفت ») .

اذ الهم يشقيه أو السر ينزف (والصواب « اذا الهم » بالالف ») . .

وان حلت السراء لم يتكلف (والصواب لا يتكلف

بنوهم واهلهم وثوب وارغف والصواب « واهلوهم » وسقطت فاء « راغـف »

ويسبيه بستان ويلهيه مخرف (بتشديـد الـراء ، والصواب التخفيف وتسكين الخاء)

ولا انا ممن همه جمعها فان ترات يثب بسعي لها وهو مرجف

(والصواب « يسعى » بالياء ، والغالب انه من الطباعة) .

وفي البيت الاخير صواب « مسحة » أن يكون « مسحتا » كما في بيت الفرزدق :

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع من المال الا مسحتا أو مجلف

وفي 152 ورد بيت هكذا :

واضبطه ضبط المحدث صحفه فيخرج في التوقيع انت المصحف

(بسكون الصاد والصواب تشديدها .

وآخـر :

ولما يئسنا منه تهنا ضرورة فلم تبق لي فيها عليه تشوف

(بتشديد نون تهنا ، وصوابه تهنا من التيه) وصواب فعل « تبق » بالياء للمضارعـة حيث الفاعل تشوف .

وفى 153 شكلت كلمة جدلية بالضم فى المصراع :
« على انها ان سلمت جدلية »

والصواب النصب على الحالية (وكثيرا ما نترك مثل هذه الملاحظات ونعتدها من توافه الطباعة وهفواتها . ولهذا نغضي أحيانا عن وضع الهمزة الخاطيء ، كما هي فى أبيات صفحة 151) ، وسقطت « لي » وضبط « يرثى » قبلها بضم الياء
فى هذا المصراع : يغض وبعض يرثي لي ثم يصدف
وكذلك ضم ياء « يرثى » فى البيت العاشر بالصفحة .

وتصحف فى مصراع آخر « رابه » برايته ، وهو :
وبعض بما قد رابه يتوقف .

ثم جاء بيت هكذا :

وبعضهم يلقي جوابه علي   مقتضى العقل الذي عنه يتوقف

وهو فى غاية الكسر ، وكأنه كان :

وبعضهم يلقي علي جوابه   على مقتضى العقل الذي يتوقف
على ما فيه من ابطاء وقلق وربما   على مقتضى العقل الذي عنه يوقف

ان جعلت « عن » بمعنى على كما فى قول الشاعر :

لاه ابن عمك لا افضلت فى حسب   عني ولا انت دياني فتخزوني

ثم المصراع :

« يسيء استماعا ثم يعد اجابة » وهو لا يستقيم الا بنحو « ثم يلقي » من المثل « أساء سمعا فأساء جابة »

ثم آخر :

« وحطوا الدنية من عليل وانصف » وهو بناء على ما قبله لا يستقيم الا بنحو « لحطوا الدنايا عن عليل وانصفوا »

ثـــم آخــــــــر :

« أما لهم من علة ارمت بهم » (بسكون الراء) ولا يستقيم الا بنحــو « ازمت » أي اشتدت بهم وعضتهم .

وفي الصفحة 154 ورد بيت هكذا :

اذا جاءنا بالسخف من نزو عقله اذا ما مثلناه أزهى واسخف

(ولا يستقيم وزنا الا بنحو « مثلنا منه » ويبقى بعد ذلك التفكــك بيــن المصراعين ، اللذين يعسر شعبهما .

ثم مصراع : وما جر ذا التسويف الا شبيتي (وصوابها شبيبتي) .

ثم سقطت الهمزة من « جاء » في المصراع :
اذ جـــاء يـــوم قلـــت هـــو الـــذي يلـــي

فانكسر بسقوطها وفيه ما فيه من غموض المعنى بهو ــ لعلها هذا ــ لا يتـــأول .

ثم أتى مصراع هكذا : اذا لاح شمس فالنفس تكسف ، وكأن أصله هكذا : « اذا لاح لي شمس فنفسي تكسف » .

وآخر : كأني لذاني المراقد منهم ، وهو منخرم وزنا ومعنـــى ولا يستقيم وزنه ومعناه الا بنحو « كأن لذاتي في المراقد منهم » وهذا أقرب الى ما في نسخة اخرى ذكرت في الهامش « كأن لذاتي » بالمعجمـــة تحريـــف .

ويبقى الغموض بعد ذلك مستحكما مع « ولم أودعهم والخض ريان ينسف» ولا يستقيم وزن هذا كذلك الا بنحو اسقاط الواو من أودعهم ، فيصير « ولم أدعهم » من الدعاء وكأن الصواب والخطب ريان يرشف .
ثم يأتي في منتهـــى السقم البيـــت :

« متى يقبل التقويم غير عطوفة وبي بعد حسا فالنار تشـــف »

ففى تقويمه تتحطم المحاولات

* * *

وبعده المصراع : ولو لم يكن الا ظهورة سره (وكأن أصله «ظهور لسره»)

وفى 155 المصراع : وانت على الملوك احق واعطف (وصوابه «أحنى»..)

ثم المصراع الوارد : فليس لنا الا أن نحط رقابنا (ولا يستقيم الا باسقاط « أن » وحذفها جائز كما فى المثل « تسمع بالمعيدي خير من أن تـــــراه »

وجاء بيتان هكذا :

قالت صفية اذ مـــررت بهـــــا	افلا تنـــزل ساعـــة ترنـــــاح
فأجبتها لولا الرقيب لكان لــــــي	ما تبتغي بعـد الغـــــدو رواح

وقد وضعت « اذ مررت » بين حاصرتين ، وعلق عليهـــا بأنـــه فى الزيتونة (عندما مرت) وهو لا يستقيم مع وزن الشعر ، فلزم التصويب.. هكذا علق ، ولا أدري كيف استقام الوزن بمجرد ذلك التصويـــب اللازم ، مـــع أنـــه لا يستقـــيم بـــه الـــوزن الا بزيـــادة « ألا » ، هكـــذا : « قالت صفية اذ مررت بها ألا » والمصراع بعـــده لا يتـــزن الا بنحـــو « فانزل بساحة دارنا ترتاح » . وفى المصراع الاخير وجدنـــا نـــون تبتغين قد حذف لغير موجب ، فربما كان الفعل مسندا الى المتكلمين أو انه هكذا « ما تبتغين من الغدو رواح » .

وفى 156 تحرفت « رباح » برياح فى أول بيت فيها ، وتحرفـــت « وجه » فى البيت الرابع ، بوجوه ، وفى السابع شكل « تبل » بكســـر الباء ولا يبدو له وجه مطلقا .

وفى 157 شكل الفعل « تجلى » بفتح التاء وتشديد اللام ، والصواب

السكون فالتخفيف . وفي الثالث سقطت « قـد » من المصراع وتصحفت نشواتها بنشوانها ، فالصواب فيه :

واذا امرؤ قد قال في نشواتها .

وجاء البيت العاشر هكذا :

كم الهوى حرب بعض وبعض ضاق ذرعا بالغرام وبرحا

ولا يتزن الا بنحو :

كم للهوى من حرب بعض بعضه قد ضاق ذرعا بالغرام وبرحا

وتبقى قضية المعنى على غموض فيها ...

ثم المصراع :

الحب خمر العارفين وقد ضفت حتما على من ذاقها أن يشطحا

(تحرفت الكلمة الاخيرة في المصراع الاول ، وصوابها « قضت »)

وياتي بيت هكذا :

واهزأ بهم فمتى يقل نصحاؤهم اهج فقل حتى الاقي مفلحا

(شكلت « اهج » بكسر الهاء وسكون الجيم ، ولا يتزن بذلك البيت ، ولا يبدو له معنى ، فالكلمة محرفة ولعلها « أفلح » والتحريف بالشكل كثير في القصيدة ، منه ما ورد اول الكلمة في البيت قبله ، حيث شكلت كلمة « كبر » فعل أمر ، بضم الراء ، وفيما بعد فتحت همزة « انهم » وصوابها الكسر ، على أن ما بعد ذلك لا يناسب .

وفي 158 جاء بيت هكذا :

ابني سليم قد نجا مجنونكم مجنون ليلى العارفين به قد محا

والبيت هكذا غير متزن ولا متضح المعنى تماما كما نرى .

ولا يستقيم ، الا بحذف « به » من المصراع الثاني ، ولعل كلمة « العارفين » محرفة عن « العامرية » وهو المتبادر لنا ، وانتهت القصيدة بيت هكذا : فافرح وطب وابهج وقل ما شئت ما أملح الفقراء ياما أملحا
وصوابه :

فافرح وطب وابهج وقل ما شئت يا ما أملح الفقراء يا ما املحا

وفى 160 تصحفت اول وثالث أبيات بها هكذا :

قد هجرت النساء دهرا فلم أبلغ آذاني صفاتهن الذيمة

أو يبقى لنا قصر العقل والدين اذا عدت المثالب قيمة

(والاول سقيم وصواب الثاني :

أو يبقى لنا قص العقل والدين اذا عدت المثالب قيمة

ثم صوبنا ثاني اثنين هكذا :

فلو قد وفوا كنا أسارى حقوقهم نراوح ما بين النسيئة والنقد

وفى 161 ورد بيت هكذا :

قالوا أبو البركات جم ماؤه ففدا أبو البركات لا أبا البركات

(بكسر باء البركات الاولى) شكل « جم » فعلا ماضيا ، مع أنه اسم خبره ماؤه ، ولا يستقيم المصراع الثاني الا باسقاط « أبا » منه بعد ابدال « أبو » بأبا هكذا : « ففدا أبا البركات لا البركات » . . .

وفى آخرها اتى بيت هكذا :

زعم الذين عقولهم قدرها ان عرضت للبيع غير ثمين

ولعلهـــــا :

زعم الذين عقولهم في قدرها ان عرضت للبيع غير ثمين

(بتشديـــد راء عرضـــت) .

وفى 162 اصلحنا ثالث الابيات الاولى ، باسقاط الباء من المصراع « اني مصارع قيس المجنون » أما أولها فلا يستقيم مصراعه الاخير بحال

وفى الابيات الاربعة تصلح « على » بلا ضمير لها ، وتسكـــن تـــاء « عمدت » ثم « يبس » بدل بيس و « يبست » بدل تيبس ، « وسرى » بدل سرت و « بالخسار » بدل الخسار .

وبآخرها جاء بيت هكذا :

ويرعى أذمة رفقي كمـــــا يتفنى الصديق الصـــدوق

ولعلـــه كـــان :

ويرعى أذمة رفقي كمـــــا تغنى الصديق بها للصديق

على ما فيه من مخالفة في وجـــه الشبـــه وأقـــرب منـــه نحـــو : « يراعي الصديق ذمام الصديق » وربما كانت « كما » في آخر المصراع الاول محرفة عن « بما » ثم « يتفنى » عن « يوقى » بالتشديد ؟

وفى 163 ورد من القصيدة :

او ابن متى تلقاه تلقه والصواب حذف الالف هكذا « او ابن متى تلقه تلقه

وفى البيت الاخير منها شكلت كلمة « البلفيق » بسكون الـــلام ، والصواب فتحها مشددة ، زيادة على كونها بذلك لا يستقيم لها وزنا

ثم اتى بيت هكذا :

وأين الخير من زماني واهله ‏ ‏ ‏ ‏ علي انني للشر أو سابـــق

(ولا يستقيم وزن المصراع الاول ولعله الخيار)

وبعده آخر هكذا :

نعم أسلم أن القوم اذ زهدوا ‏ ‏ ‏ ‏ زادا وأعلى الناس طرا فضل تركهم

وصوابـــــه :

نعم اسلم أن القوم اذ زهدوا ‏ ‏ ‏ ‏ زادوا على الناس طرا فضل تركهم

وفي 164 وردت ابيات هكذا :

لقد ذم بعض الخمر قوم لانهـا ‏ ‏ ‏ ‏ تكر على دين الفتى بفســـــاد

وقالوا تسلي وهو عارية لهـــا ‏ ‏ ‏ ‏ والا فلم ياتوا لذاك بشـــــــاد

وصلة ونور وحسنـــاء طفلـــة ‏ ‏ ‏ ‏ ومرأى به للطريف سيـــر جـــواد

وهل يداوى من مرارتها التـــي ‏ ‏ ‏ ‏ اواخرهـــا مقرونـــة بمهـــــاد

ومن حسن حال الشاربين يقيونها ‏ ‏ ‏ ‏ بالرغم مـــن بـــرق وســـــاد

مجانين في الاوهام قد ضل سعيهم ‏ ‏ ‏ ‏ يخففون بيعا بحســـن غـــــواد

ففي البيت الاول شكل « تكر » بضم التاء وكسر الراء ، والصواب فتح الاولى وضـــم الثانية

ولعل صواب المصراع الثاني من البيت الثاني :

والا فلم ياتو لذاك باشهاد

والبيت الثالث فى غاية الكسر والاعتياص ، وعلق على « نور » بأنه فى ج «نوار» ويمكن اقامة المصراع الثاني بنحو «ومرأى به للطرف سير جواد»

أما البيت الرابع ، فيستقيم بنحو :

وكيف يداوي من مرارتها التي   أواخرها مقرونة بمبـــاد

أو : « وهل يتداوى من مرارتهـــا التـــي »

بضم الياء وفتح القاف وتشديد الياء ، وجعلت « من » بين حاصرتيـــن والاقـــرب أن يكـــون :

«من حسن حال الشارب أن يقيئها   على الرغم من بذل لمال وامداد»

وأخيرا المصراع الاخير ، لا وزن له ولا معنى ، ولا اصلاح يرجى له

وفى 165 جاء مصراع هكذا : « زعموا أن فى الجبال قوما » وعلى هذه علق بأنه فى النفح « رجالا » وكان أحق هذه الاثبات وتلك الطرح

ثم جاء « ما رأينا فيها سوى الافاعي » وصوابه : « ما رأينا بها خلاف الافاعي » وهو ما فى النفح وأهمله المحقق الكريم

ثم : وسباعا يخترون بالليل عدوا لا تسلني عنهم بتلـــك الفيـــال ، والصواب : وسباع يجرون .... لا تسلني عنهم بتلك الليالي

ثم سقط « أنا » من : ولو أنا كنا .. ثم « ليس تلقى الرجال غيـــر الرجال » وهو فى النفح : ليس يلقى الرجال غير الرجال وهذا أوضـــح وأسلـــم .

وبعد هذه الابيات ، جاء مصراع هكذا : « فموردهم انسى المصدر » وصوابه « فموردهـــم انس المصدر »

وفى 166 وردت أبيات هكذا :

عـــدوى بأول فـــدى مأثـــم وان جئت بالاثم لـــم يعـــذر
وانت تـــرى تمحيص مـــن يعـــدل بين المســـيء وبين البـــر

وعـــدوا من اكبـــار آثامنـــا فكانوا أضـــر مـــن الفاتـــر
اعارني القوم ثـــوب التقـــى واني ممـــا أعارونـــي بـــري
فمن كان يكذب حال الرضـــى يصـــدق في غضـــب يفتـــر
بلى سوف تلقى لدى الحالتيـــن يحكم النـــفس هوى الفـــر
فيا رب ابق علينـــا عقولنـــا نبيـــع بهـــا وبها نشتـــري

فالمصراع الاول لا يستقيم وزنا ولا معنى ، والبيت بعده كذلـــك ، وعلق بأنه في الزيتونة « يعادل بين المسيء وابار » وهو صواب بلا همزة المسيء وبهذا يستقيم المصراع الثاني ويبقى المصراع الاول من هـــذا البيت مختلا في وزنه ومعناه ويتزن بنحو « وأنت تراه بتمحيص من » أو « وأني تراه . . . وكلاهما غير بين . أما صواب المصراع الاول من البيت الثالث : « وعدوا من أكبر آثامنا » . وصواب المصراع الاخير من الرابع : « واني مما أعاروا برى » . وصواب المصراع الثاني مـــن الخـــامس : « ويصدق في غضب يفتر » . والثاني من البيت السادس لا يستقيم لا وزنا ولا معنى ، وصواب السابع « فيا رب أبق عقولا لنا » .

وفي 167 ورد بيت هكذا :

ياسي التوبة من حبـــه طلوعه شمسا من المغـــرب

وصواب الشطرة الاولى : أياسني التوبة من حبـــه .

وتحذف ياء النداء من البيت قبله ليتزن بذلك

وفي 172 ورد مصراع هكذا : « تجري على السن المربوط بالقدر » وصوابه « تجري على السنن المربوط بالقدر »

وفى 175 ورد بيت هكذا :

ولما انقضى احدى وخمسون حجة　　　كأني منها بعد ركب أحلـــم

(وصوابـــه : بعد كربـــي أحلـــم)

وفيها : واحدب تحســـب فى ظهره　　　جابه فى نهر عائمـــة
واحدب بلا تنوين ، والصواب تنوينه لضرورة الوزن ، وصواب المصراع الاخيـــر : خابية فى نهـــر عائمـــة

وبعده البيت : أجبتك لا أني لما رمته اهل ... فتحرفت « لا اني » فيه بلأني ، فانكسر البيت وفسد معناه على الضد .

وفى 178 جاء بيت هكذا :

هام الفؤاد فى بنت النبع والنشم　　　زورا تزرى بعطف البان والصنم

وصواب الشطرة الاخيرة « زوراء » هكذا بالهمزة الممدودة الصائتـــة ، وليست مسهلة كما فى الزيتونة . ولعل « الصنم » محرف عن « العنم »

وفى 183 تصحفت كلمة « يوسي » بيوس ، كما شددت يا طيب فى البيت الرابع ، وصوابها « طيب » بكسر الطاء وسكون الياء ، وبها يتزن .

وفى 185 تحرف « ففسح » فى قوله « ففسح له المدى » بفسمح .

وفى 186 تصفحت كلمة « الأرسال » بالارسال ، مكسورة الهمزة ؛ « ويجيش » بيحيش ، مضمومة ياء المضارعة ، « وآويتها من حرمكم » بأتيتها من حرمكم ، بضم الحاء وفتح الراء ، و « فنائكم » ببنايكم ، « وفى معرس » بمعرسا ، وسقطت « ودارا » بعد « كنفا » .

وفى 188 ورد فى المصراع الاخير من الابيات الاربعة ، ضبط كلمة « المقدم » بتسهيل الدال ، وهو بتشديدها مقابلا بالتالي ، ومن اصطلاح المناطقة ، فى جزئي القضية « جزآهما مقدم وتالي » . وفيها « لم يبق للدهر علي جوار » والصواب « علي جوارا » . . .

وفى 189 جاء فى السطر الاول « وأوحال حال بيني وبين مسور » والصواب « اوحال بيني وبين مسور » ثم الابيات :

لله اى قصيدة اهديت لـو	يهدي المعارض نحو غاية قصدها
لابن الخطيب بها محاسن جمة	يلقى الخطيب فهاهة فى عدها
سر البلاغة عنه اودع حافظا	قد صانه حتى فشا من عندها
فى غير عقد نفثته بسحرها	فلذا أتى سلسا منظم عقدها

ففى البيت الاول حرفت كلمة « يهدي » بيهتدي ، وفى البيت الثاني تحرف مصراعه الثاني هكذا « قارعت عنه الخطوب ففلت من حدها » وبصرف النظر عن المعنى ، لا أدري كيف يستقيم الوزن بهذا ، وتصحف فعل « فشا » فى الثالث بفعل « نسي » كما تصحف « نفثته » مشددة الفاء فى البيت الرابع ، « بنفثنه » بالنون والتسهيل . وكذلك سهلت كلمة « منظم » فى المصراع الاخير منه ، مع أن الظاء مشددة .

وفى 190 وردت بعد الاولى خمسة أبيات لم يسلم واحد منها ، تصحيفا أو تحريفا أو سقطا لكلمات منها أو زيادة فيها ، وهي مصححة هكذا :

حتى دفعت بها لأبعد غاية	باعا تقصر فى البلوغ لحدها
حدان من نظم ونثران من	يلقاهما يرجع بذلة عبدها
أولى يدا بيضاء موليها فما	لي قدرة حتى أقوم بحمدها
ورفضت تكذيب المنى متشيعا	لعلي مرآها بصادق وعدها

فبذلت شعري رافعا من قدرها وهززت عطفي رافلا في بردها

وفي 201 تصحفت « خصة » في السطر الاخير بخمة .

وفي الصفحة 204 وردت أبيات من قصيدة ثلاثة ، وهي مصححة هكذا :

وفيها لقيت الموت أحمر والعدا بزرقة أسنان الرماح وحدة
وبيني وبين العذل فيها منازل تنسيه أيام الفجار ومؤته
ولما اقتسمنا خطتين فحامل فجار بلا أجر وحامل برة

ففي الاول تصحف « بزرقة » « مزرقة » بفتحتين بينهما شدة ثم ضم وفي الثاني « الفجار » مكسورة الفاء مفتوحة الجيم ، بالفجار ، جمع فاجر، وفي الثالث فتحت خاء خطيتنا ثم ضمت راء فجار ، مع أنه مكسورها ، علما للفجرة ، كما أن برة علم للمبرة ، وقد اجتمعا في البيت الذي اشار اليه البيت الاخير ، وهو :

انا اقتسمنا خطتينا بيننا فحملت برة واحتملت فجار

وفي 205 جاءت الابيات المصححة من نفس المصدر

فلاردم من نقب المعاول آمن ولا هدم الا منك شيد بقوة
فمم تقول الاسقطسات منك أو علام مزاج ركبت أو طبيعة
وأسهل ما ألقى من العذل انني احب أقلي ذكرها وفضيحتي
واوج حظوظي اليوم منها حضيضها بالامس وسل حر الجفون الغزيرة
وأوجز أمري أن دهري كله كما شاءت الحسناء يوم الهزيمة
سقام بلا برء ضلال بلا هدى اوام بلا ري دم لا بقيمة

ولا عتب فالايام ليس لها رضـــا وأن ترض منها الصبر فهو تعنتي

ففي الاول تحرف « نقب » بنقيب ، و « الا منك » بالاك ، و « شيد » بكسر الشين ، بشيد ، مشددة الياء . وفي الثاني تصحف الاسقطسات بالاسفطسات . وفي الثالث « اقلي » بتشديد اللام ، بأفلي . وفي الرابع، شكل اوج بفتح الواو ، وشكل « سل » بضم السين وفتح اللام مشـــددا وكلمة « حر » بفتح الحاء والراء مخففة . وفي الخامس كسرت همـــزة « أن » . وفي السادس ، شكلت « هدى » بفتح الهاء وسكـــون الدال . وفي البيت السابع ، تحرف « تعنتي » ببغيتي ، ولا شك أن ذلك ممـــا كسرت به أوزان الابيات ، زيادة عن تغيير معانيها وتحريفها .

وفي 206 شكلت كلمة « تقطع » بتسهيل الطاء ، مع أنها مشددة ، هكذا « تقطع بيننا » وهو اقتباس من القرآن « لقد تقطع بينكم » .

وفي الصفحة 207 وردت ابيات عديدة من قصيدة اخرى ، اصلحناها، كمـــا يلـــي :

تبدت لعيني من جمالـك لمحـــة أبادت فؤادي من سناها بلفعـــة
ملامي بن عذري استبن وجدي استعر سماعي أعن حالي ابن قائلي اصمت
فمن شاهدي سخط ومن قائلي رضا وتلوين احوالي وتمكيـن رتبتـــي
وفي موقفي والدار أقوت رسومها تقرب اشواقي تبعـد حسرتـــي
معاني امارات مغانـــي تذكـــــر مباني بدايات مثانـــي تلفـــــت
وبث غرام والحبيب بحضـــــرة ورد سلام والرقيـب بغفلـــــة
ومنبت مسك من شقيق ابن منذر على سوسن غض بجنـــة وجنـــة
سل السلسبيل العذب عن طعم ريقه ونكهته يخلرك عن علم خبـــــرة

ففي الاول تصحفت « تبدت » بتبدب . وفي الثاني « بــن » بأن . ووجدى بجدى ، مشدد الدال ، وقطعت همزة « اصمت » . وفي الثالث « قائلي » بقاتلي . وفي الرابع ، « تقرب » بفتح الاول والثاني وضم الثالث مشددا ، يتقرب مضارع قرب ، وكذلك الامر في « تبعد » . وفي الخامس « تلفت » بتلت . وفي السادس ، مصدر بث بأمر منه ، وضـم غـرام وهو مضاف اليه ، وكذلك الامر في رد . وفي السابع « جنة وجنــة » بجنة مضموم الجيم ثم وجنة بفتحها وتشديد النون . وفي الثامن شددت لام « سل » مع انه امر من سأل بالتسهيل .

وفي الصفحة 208 وردت أبيات أخرى صححت هكذا :

فمـا أم بو هالــك بتنوفـــة	أقيم لها خلف الحلاب فــدرت
بكت كلما راحت عليها وانهـــا	اذا ذكرته آخر الليل حنـــت
اهون ما القاه الا مـــن القلـــى	هوى ونوى نيل الرضا منك بغيتي
وللعين لما سوئلت كيف أخبـرت	وللنفس لما وطنت كيـف دلـــت
الى مستوى ما فوقه فيه مستوى	فلما توائقنـا ثبــت وزلـــت
مؤكدة بالنــذر أيــام عهـــده	فلما توافقنا شددت وحلـــت

ففي البيت الاول تصحف « هالك » و « بو » قبله . وفي الثانــي فتحت همزة « انها » وهي مكسور . وفي الثالث شكلت « القلى » بفتــح القاف . وفي الرابع عجم دال « دلت » . وفي الخامس سقطت « فيه » . وفي السادس تحرف المصراع الاخير هكذا : « توافينا اشتددت » وانكسر الوزن بالاخير .

وفي 209 وردت الابيات التي صححناها بما يلي :

ازور اعتمارا ارضها بتنســـك	واقصد حجا بيتهـا بتحلـــة
ولولا خفاء الرمز من لا ولن ولـــم	تجدها لشملي مسلكـا بتشتـت

وتنبيء آصال الربيع عن الربـــا واشجاره أن قد تجلـــت فجلـــت
له كل غير فى تجليه مظهــــــر ولا غير الا ما محت كف غيـــرة
اراه بقلب القلب واللغــز كامنـــا وفى الزجر والفال الصحيح الادلة
وفى نفثات السحر فى العقد التي تطوع لها كل الطبـــاع الابيــــــة

ففى الاول تصحفت كلمة « حج » وهي مفعول لاجله ، اوحـــال . وفى الثاني سقطت « من » . وفى الثالث كسرت همـــزة (أن) . وفى الرابع تصحف « تجليه » بنجلية ، وانكسر الوزن بذلك . وفى الخامس ؛ تصحف « بقلب » بفعل « يقلب » مشدد اللام ، فانكسر بذلك وزن البيت. وفى السادس ، شكلت كلمة « العقد » القرآنية ، بالفتح ثم السكون ، وفعل « تطوع » بضم التاء وفتح الطاء وتشديد الواو ، وصوابها فتح التاء وضم الطاء وتسكين الواو ميتا ، من طاع يطوع ...

وفى 211 وردت الابيات التي صححناها هكذا :

المت فحطت رحلها ثم لم يكـــن سوى وقفة التوديع حتى استقلت
فلو سمحت لي بالتفات وحل من مهاوي الهوى والهون جد تفلتــي
أراه معي حسا ووهما وانـــــــه مناط الثريا من مـــدارك رؤيتـــي
فتهأحتمل واقطع أصل واعل استفل ومر امتثل واملل أمل وارم أثبت

ففي الاول شكلت « المت » بكسر اللام وتخفيف الميم ، وشكلت « وقفة » بضم التاء . وفى الثاني ، شكلت « حل » بسكون الحـــاء . وفى الثالث فتحت همزة « انه » . وفى الرابع ، جعل « اعل » امرا من اعلى ، فقطعت الهمزة ، وكسر اللام ، مع انه من « علا » ، يعلو . وبذلك انكسر وزن البيت ، ثم قطعت همزة « أملل » ، بجعله امـــرا من امـــل الرباعي ، مع انه من مل الثلاثي .

وفى 212 وردت الابيات المصححة بما يلي :

فحصنت انظار الجنيد جنيدها   بترك فلي من رغبة ريح رهبة
وكسرت عن رجل ابن ادهم ادهما   وانقذته من اسر حب الاسرة
فها انا اذ امسي واصبح بينهم   مبلغ نفسي منهم ما تمنت
وها انا ذا قد قمت يقدمني الرجا   ويحجم بي الخوف الذيخامر العقلا

ففى الاول تحرف « الجنيد » بالجند ، وشكل « فلي » بضم الفاء وتشديد اللام . وفى الثاني شكل « رجل » بالفتح . وفى الثالث جعل « مبلغ » مرفوعا . وفى الرابع ـ وليس منها ـ حرفت « قت » بنمت ، وكتب أول المصراع الثاني « ويحجمني » وعلق بأنه فى النفح « يحجم بي» فكأن الصواب اثبات هذا وطرح ما عداه لان أحجم لازم غير متعد .

وفى 213 صحح البيتان :

ولي عثرات لست آمل ان هوت   بنفسي الا استقيل وان أصلي
اورثونا المجد حتى اننا   نرتضي الموت ولا نزدحم

ففى الاول فتحت همزة « ان » ثم حرف « أستقيل » باستقل ، مشدد اللام ، وشكل اخيرا « أصلى » بتشديد اللام من الصلاة . وفى البيت الاخير ـ من أبيات اخرى ـ فتحت همزة « اننا » وهي بعد « حتى » الابتدائية ، فحقها الكسر لانها فى الابتداء .

وفى الصفحة 214 شكل « جناحا » فى أول بيت من ثلاثة ، بكسر الجيم ، والصواب الفتح .

ثم جاء شطر هكذا : « وانف القذى عنه واثر الدهر منبته » ، والصواب جعل الهمزتين وصلا ، وتسكين ثاء « اثر » لا كسرها ، وقبل السطر السابع عشر سقطت كلمة « مقلد » قبل كلمة « قيد » وجعل فى التالي « المشذالي » بالذال المعجمة ، خطأ .

وفي 215 جاء في السطر الرابع « تلز صحته » بضم التاء ، والصواب تلز بفتح التاء ، فاعله « صحته » وبعده ، ورد أبو عمر ، وصوابه أبو عمرو، وتصحفت ، في الطباعة قاف « فقال » . وفي السطر الثامن ، تحـرف « أنصفتما » ، بأنصفهما ، وشكل « المثل » بالضم وهو بالفتح في الحرفين، وزيدت « على » أول السطر التالي خطأ طباعيا ، وسقط « عمـرو » في نهاية السطر التالي ، هكذا « وهذا مثال عمرو » .

وفي الصفحة 216 ، جاء في نهاية السطر الثالث منها « لا مجاز ولا سؤال » والصواب هكذا « لا مجاز ، فلا سؤال » . وفي السطر قبـل الاخير ورد « في نصها الى دليل الحكمة » وعلق عليه بانه في النفح « في نصبها دليلا على الحكمة » فوجب اثبات هذا لا غيره .

وفي 217 جاء في السطر الثالث « ما معنى » والصواب « من معنى » جار ومجرور ، ثم جاء في نهاية السطر الرابع « وذلك بعد » وصوابه « ان ذلك بعد » (هو مقول القول لابي زيد السابق ذكره) . وفي أول الـذي يليه « أن ينتظر من يسلم » والصواب أن ينتظر بقدر ما يسلـم . وفي السطر السابع ذكر « ملح الفقيه » والصواب ملح الفقه ، فالواجب اثباته لا غيره . ثم جاء البيت العروضي :

وغررتني وزعمت أنـك لابن في الصيف تأمـر

بدون تدوير فيه ، وبتحريف الكلمة الاخيرة ، بفعل تأمر ، مع أنه فاعـل جيء به للنسب من التمر ، مثل لابن من اللبـن .

وبعد هذا في نهاية السطر التالي وأول الذي يليه جاء « كما يحكى عن الشافعي أنه لما صلى في رمضان بالخليفة » ... والنص في نفـح الطيب عن الاحاطة « كما حكى عمن صلى بالخليفة » .. فلا ندري ، هل هذا من تصرف المقري ، تحاميا للايقاع في حق الشافعي ، أم هو الاصل. وهذا ليس من قبيل الاخطاء ، وانما نبهنا عليه للاختلاف ، ولعـل ما في النفح هو الصحيح ، لان الشافعي لم يكن له اتصال بالخلفاء العباسيين ، فنسبة الواقعة اليه تشنيع مختلق . وفيه بدل « وقرأ الآية » ـ أوائـل السطر الاخير ـ « فصحف الآيات » ، فلا ندري أهو تصرف من المقري ،

ام هو الاصل كذلك ، وهو الصواب ، لان التصحيف لم يقع فى آية واحدة، بل فى آيات عديدة ، من سور مختلفة .

وفى 218 جاء اول السطر « وعدها اياه تقية لكم » والصواب فى التصحيف هكذا « وعدها اباه ، تقية الله » ، وفى نهاية الذي يليه الصواب تصحيفه هكذا : « يعنيه » . . وفى اول السطر الرابع تصحف « الشرطيتين » بالشريعتين . وفى أوائل الذي يليه ، تحرف « تستلزمان» بيستلزمان . . وفى السابع ورد « باطلاق لفظه لو وان » والصواب هكذا : « باطلاق لفظ لو وان » بكسر الهمزة ، لا بفتحها ، وفى العاشر ، الصواب « انتفاء تكرر الوسط » لا انتفاء أمر تكرار الوسط . وفى السطر قبل الاخير ، سقط لفظ « من » قبل الوسط . وفى نهايته جاء « لما قاله » ، والصواب « غير ماقاله » . وفى السطر الاخير ، سقط « قد » بين الوار وبين اجبت ، هكذا « وقد اجبت » .

وفى الصفحة 221 سقط قبل السطر الاخير « منه » فى قوله « وقع فى نفسي منه شيء » .

وفى 222 صححنا كلمة « وبال » و « قيل » بفتح اللام من أبيات الرازي الشهيرة ، وهما فى البيتين :

وأرواحنا فى وحشة من جسومنا	وحاصل دنيانا اذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طوال عمرنا	سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

وفى 223 وضع بين خاصرتين (وهي اصول وفصول) وعلق على ذلك بأنه تصويب من النفح ، مع انه فيه (وهي اصول وفصول وفصول أول اصوله) .

وفى 225 ورد « كيف اسمك فقلت محمد » موضوعة همزة القطع على الالف اسمك ، ثم وصل الكلمات بعدها ، بدون فصلها بالعلامات

المختلفة . وفي نهاية الصفحة منها شكل « شم » بتشديد الميم ، والصواب تسكينها وهي فعل أمر من شام يشيم وليست من شم .

وفي 236 ورد « عسى لحظة منك لي في غد » بنصب لحظة ، والصواب رفعها !!! .

وفي 237 « انظر الى جمال الشمس عند طلوعها » والصواب ترك « الى » .

وبعده : « وانظر اليها عند الغروب كئيبة » ولا يستقيم الا بنحو « لكنها عند . . . »

وفي 240 سقطت « اقتدارا » بعد الناس في أواخر السطر الحادي عشر .

وفي 241 سقط في السطر الثاني « في هذه السنين » بعد المحسنين، ثم « وصونا وصمتا » هد سمتا . وفي الرابع « وانحط » بدل وان خط . وفي الخامس « فرغ » بدل شرع . وفي أول السادس « صدف اسماعه » لا « صدق اسماعة » .

وفي 243 جاءت أبيات هكذا :

سلا كل مشتاق واكثر وجده   وعند النوى وجدي وفي ساكن هوى

وصواب هذا :

سلا كل مشتاق واقصر وجده   وعند النوى وجدي وفي ساكن اللوى

بانوا فمن كان باكيا يبك   هذى ركاب الشرى بلا شك

والصواب فيه :

« بانوا فمن كان باكيا يبك   هذي ركاب السرى بلا شك »

(السرى) بالسين المضمومة .

ثم جاء بيت هكذا :

من النوى قبل لم ازل حذراً   هذا النوى جل من مالك الملك

والصواب حذف « من » الاخيرة ليتزن .

وفي 245 جاء آخر هكذا :

قالت ألم تكن أرض الله واسعة   حتى يهاجر عبد مؤمن فيها

والصواب حذف النون من فعل « تكن » ، ثم جاء بيت آخر هكذا :

قد كان عيبي من قبل في غيب   فمذ بدا شيبي بدا عيبي

والصواب حذف « من » فيه ، ليستقيم الوزن . وجاء بيت لم يذكر تالبه وهو هذا :

« انما أصل محنتي حب دنيا   هي ليلى ولي بها وجد قيس »

ثم جاء بيتان :

قفا نفسا فالخطب فيها يهون   ولا تعجلا ان الحديث شجون

علمنا الذي قد كان من صرف دهرنا   ولسنا على علم بما سيكون

وشكل « نفسا » بفتح أوله وتسكين ثانيه ، والصواب كسره وتشديده ، ثم وضعت (على) بين حاصرتين ، وعلق عليها بقوله « أضفنا هذه الكلمة لاستقامة الوزن والمعنى » .. وفي الزيتونة (ولا نعلموا بذا الذي سيكون) كذا قال ، ولعله « ولم تعلما هذا الذي سيكون » . ومن النثر فيه « قد فل الدهر شباته » فتحرفت هذه بكلمة « سباته » وتصحف « ابرامها » بايرامها في » متولي نقضها وابرامها » .

وفي الصفحة 246 في نفس القصيدة ، أبيات مليئة تصحيفا وتحريفا، أصلحنا الثلاثة الاولى هكذا :

واذ بابنا مثوى الغوادي ونحونا ...

فنغض من ذاك السرور مهنأ   وكدر من ذاك النعيم معين

(بالبناء للمجهول الفعلان وكلمة مهنأ بالتشديد (

وبنا عن الاوطان بين ضرورة

(بنا ماض من بان مسندا للمتكلمين)

ثم اصلحنا الخامس والسابع والتاسع ، كالآتي :

تريد الليالي أن تهين مكانـــــا   رويدك ان الحر ليس يهــــون

فمن عادة الايــام ذل كرامهـــا   ولكن سبيل الصابرين مبيـــن

(بتخفيف لكن ، وليست مشددة)

وما غض منا مخبر غير أنـــه   تضاعف ايمـــان وزاد يقيـــن

وسقط بعـــده البيـــت :

وقفنا على فضل الاله ظنونـــا   وفى فضل ربي ما تخيب ظنـــون

وكذلك كلمة « واسبل » فى السطر الاول من الثلاثة الاخيرة مـــن الصفحة ، حيث ورد فيه « وسبل عنقفته » وشددت الباء فى « سبل »

وفى الصفحة 247 أول السطر « واراه بالازعاج الحثيـــث » بدل « وربما أدبره بالانزعاج الحثيث » بضم الثاء ، وهي مكسورة صفة للازعاج. وفى السطر الثالث « وحظه التهديد » بدل (التهريب) وبعده ورد « دار الميت ويسل عن » ، صوابه « ويسأل » وبعده الكيت والكيت بفتح الاول ، والصواب فيه (بالكسر) واليكت الثانية (بالفتح) . ويقول علي بما فى البيت ، أين رعاء (بالراء لا بالدال) الثاغية ... وقد كانت لهذا الرجل

حال واى حال (لا حالان حال) . وفى السطر الثامن سقطت « ما » بين الى وخلف فى قوله « تشرئب الى ما خلف الكلل » . وفى العاشر والحادي عشر « وزن بالارطال وكيل بالاقداح » (بدل ووزنت الارطال وكيلـــت الاقداح) . وفى الثاني عشر سقطت « الى » بين تهدي والارواح فى قوله « وتهدى الى الارواح شذا » .. وزيد فى الثالث عشر « ازعاجها على » مقحمة بين فى والابدان ، اذ الصواب « يفعل فى الابدان فعلا عجيبا » . وسقط من نهايةِ الثالث عشر « السباب » . وتحرفت كلمة « يشرف » أول الرابع عشر ، بكلمة « يشرب » فالعبارة بيـــن السطريـــن هكـــذا « والمشرف بالسباب يشرف » .

تطـــوان **محمد ابن تاويـــت**

فاس
حاضرة الفكر في القارة الافريقية

عبد العزيز بنعبد الله

منذ اثني عشر قرنا بدأت فاس تعمق فى أحشاء الشمال الافريقي جذورها الرائدة حيث أثلت المملكة الادريسية دعامتها العمرانية ومعالمها الاقتصادية وقوام بنيتها الفكرية فتناثرت أبعادها من الشمال الى أقصى الجنوب ومن الشرق الى المحيط فى فترات تبلورت خلالها كمنطلق رصين لحضارة وصلت الشرق بالغرب وافريقيا بأوربا .

ان فاسا أول حاضرة عرفها المغرب الكبير بعد القيروان كتحفة معمارية شرقية غربية تواكبت فيها الاصالة العربية مع الاثالة الامازيغية فى ظل الاسلام وريادة سليل الرسول الفاتح الاكبر المولى ادريس .

نعم ان المولى ادريس الاول هو الذي اسس مدينة فاس بين سنتي 172 و 174 هـ وقد أبرز ذلك أقرب المؤرخين لذلك العصر أبو بكر الرازي المتوفى عام 344 هـ / 955 م وسانده ابن فضل الله العمري فى (مسالكه) عن ابن سعيد المغربي قاصدا (عدوة الاندلس) بينما اسست (عدوة القرويين) حسب (ابن الابار) نقلا عن (أبي الحسن النوفلي) عام 187 هـ / 802 م على يد المولى ادريس الثاني وهي

روايات تتضافر لا سيما وقد عثر على نقود ادريسية ضـــرب منها عـــام 189 هـ / 804 م بفاس درهم لا يزال محفوظا فى المكتبة الوطنية بباريس كما يوجد درهم ادريسي آخر مسكوك بفاس فى متحــف (كاركــوف) بروسيا يحمل تاريخ 185 هـ / 801 م ، وقد أشار الحســـن بن محمد الوزان المعروف بليون الافريقي فى جغرافيته العامة الى عام 185 هـ / 801 م كسنة محتملة لاقامة هذه الحاضرة ، وقد سار المؤرخون على هذا النسق فلاحظ القلقشندي (1) ان فاسا مدينتان احداهما بناها المولى ادريس بن عبد الله وتعرف بعدوة الاندلس والاخرى بنيت بعده وتعرف بعدوة القرويين ، وقد هاجرت الى فاس من الاندلسـيين الربضيين الذين اجلاهم الحكم بن هشام عن قرطبة عائلات أوصلها عبد الملك الوراق الى أربعة آلاف ، ودوزي (فى تاريخ مسلمي الاندلس ج 1 ص 301 عام 1932) الى ثمانية آلاف وحطها الى ثمانمائة فقط المؤرخ الفرنسـي (هنـــري طيراس) (2) انتجاعا للتوازن مع عدد الاسر النازحة من القيروان وهـــو ثلاثمائة اسرة كان منها العملة والتجار ومـن الاندلسييـــن الفلاحـــون والمزارعون ومن كليهما اشتات من رجالات الفكر والمعرفة ، ثم جـــاءت جامعة القرويين كأقدم جامعة فى العالم لا تزال قائمة لحد الآن أسست عام 245 هـ فكان لها ضلع قوي فى نشر الفكر الاسلامي بافريقيا كما كانت مهبط رواد المعرفة من كافة أنحاء القارة حيث أصبح العلماء الافارقـــة يفاخرون زملاءهم بأنهم خريجو (جامعة القرويين) وقد توالت الخطابات والمراسلات والزيارات واستصدار الاجازات العلمية بين علماء فـــاس وتلامذتهم الافارقة الذين اتخذوا من العاصمة الادريسية قبلتهم الفكرية .

وقد أقيمت جامعة القرويين على يد ام البنين فاطمـــة الفهريـــة القيروانية فكان هندامها المعماري صورة لوحدة الاتجـــاه توازت فيـــه البلاطات مع القبلة على غرار مسجد الشرفاء بفاس وجامع ابن طولون فى القاهرة وجامعة بعلبك ودمشق فى الشام ، ويظهر أن جامعة القروييـــن التي استقطبت طلبة افريقيا لم تخل منذ البداية من بعض الطلبة الغربيين

---

(1) (صبح الاعشى ج 5 ص 154)
(2) (تاريخ المغرب ج 1 ص 118)

وأن كان ذلك لم يتأكد بالنسبة للبعض مثل جيربير Gerbert الـذي عين على رأس الكنيسة باسم البابا سيلفستر الثاني Sylvestre II عام 999 م / 390 هـ وادخل الارقام العربية الى اوربا ناقلا صورها العددية من فاس وهي الارقام التي سادت العالم اليوم باسم الارقام العربية أو الغبارية .

وللمرة الاولى فى عهد المولى ادريس الثاني برز فى تاريخ القارة الافريقية مسار من المغرب الى الصحراء وما وراءها من بلاد التكرور والسودان نحو خط الاستواء بعد أن التفت حول سليل النبوة الذي دخل الى المغرب فريدا وحيدا رفقة مولاه راشد – قبائل امازيغ من أوربة أصحاب كسيلة وجراوة حماة الكاهنة وكتامة دعاة الفاطميين وصنهاجة المرابطين ومصمودة الموحدين ولم يكن لذلك نظير من قبل فى تاريخ الانسانية كما أبرزه ابن خلدون باندهاش واعجاب .

وقد أصبح المولى عبد الله بن المولى ادريس الثاني ملكا لاغمات ونفيس وبلاد مصمودة ولمطة أي الاطلس الغربي والاطلس الصغير وهو الذي أسس مدينة (تامدلت) قرب منجم فضي بين وادي درعة وايجلي بسوس (3) ، وهي مناطق عجز الرومان عن بلوغها رغم ما عبأوه من عدة لبسط نفوذهم وهنالك بدأ تاريخ المغرب الحقيقي – كما يقول كوتيي – وانفتحت مشارف الصحراء تلقائيا فى وجه سلائل ادريسية كالمولى سليمان الذي استقر بتوات وأسس قصر آيت أوشن فى تيمى حيث يوجد قبره (4) ، وقد أكد النسابون أن ليحيى بن المولى عبد الله الكامل أخي المولى ادريس الفاتح عقبا كثيرا بالسودان منهم فرق فى (برنو) و (هوصة) و (بولان) و (فزان) و (تنبكتو) (5) وبذلك ارتبطت منذ البداية أواصر هذه السلالة من خط الاستواء الى البحر المتوسط على

---

(3) (البكري ص 163 / البربر والمخزن – روبير مونطاني ص 58 طبعة 1930)

(4) القبطان مارتان صاحب كتاب (أربعة قرون من التاريخ المغربي) وكتاب (الواحات الصحراوية) الذي نشر عام 1908 بالجزائر .

(5) الدرر البهية ج 2 ص 200

ان بني ادريس لم ينتشروا فى القارة الافريقية والاندلس فحسب بل وحتى فى الشرق حيث أسس محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن ادريس دولة الادارسة فى (صبيا) و (عسير) باليمن وأصله من فاس وقد توفي عام 1341 هـ / 1923 م (6) .

ومنذ القرن الثالث الهجري سدت طريق القوافل التي كانت تصل مملكة غانة بمصر وأصبحت الوشائج موصولة بين السودان والشرق عن طريق سجلماسة التي كانت فى طليعة المراكز التجارية فى أقطار الاسلام وأمسى المغرب - حسب ابن حوقل - ممرا للقوافل المتنقلة بين الصحراء وبغداد والبصرة وعزز الصنهاجيون هذه الوصلة من غدامس بطرابلس الغرب الى المحيط الاطلسي ومن الجنوب الى تخوم السينغال والنيجر حيث تكونت على يد المرابطين أول دولة افريقية امتدت من الاندلس الى الجزائر الى السودان الغربي ، وقد انطلقت كتائب المنصور من فاس الى النيجر بقيادة الباشا (جودر) حيث استقر بتنبكتو حاضرة مالي عام 1000 هـ / 1591 م وبعد ذلك بأقل من قرن انطلقت (حركات) المولى اسماعيل نحو الاقاليم الخصبة من السودان فتجاوزت الحدود التي وصلها المنصور ثم عقبتها كتائب المولى عبد الله بين سنتي 1147 هـ / 1734 م و 1149 هـ / 1736 م وظل السودان تحت حماية فاس الى أن استولى عليه العالم الصوفي سيدي عمر الفوتي مؤسس مملكة السود (7)، والفوتي هذا تلميذ لسيدي الغالي بوطالب الفاسي تنازل بايعاز منه عن العرش لمواصلة الجهاد ضد الاستعمار الفرنسي وكان له بفاس شيوخ آخرون انقاد لتوجيهاتهم الروحية فى حركته الجهادية ، وكان حصن داي بأسفل الاطلس هو المركز الذي يتجمع فيه تجار فاس والبصرة وسجلماسة (8) .

وأمست فاس ملتقى لشتى المذاهب السنية حيث عرفت مذهبي الاوزاعي وابي حنيفة قبل أن يستقر فيها مذهب امام دار الهجرة وكان

---

(6) الاعلام للزركلي ج 7 ص 196 / ملوك العرب ج 1 ص 198 / تاريخ (سينا لنعوم شقير) ص 666

(7) (هسبريس ص 11 عام 1930)

(8) (المغرب للبكري ص 154 / افريقيا الشمالية للادريسي ص 49)

الاوزاعي امام أهل زمانه ـ كما يقول مالك ـ قد انتشر مذهبه فى الشام نحو مائتي سنة (خطط الشام لمحمد كرد علي) وكذلك فى الاندلس قبل الامويين (مدارك عياض ج 1 ص 66) وظهرت النظريات الحنفية بافريقية وفاس الى القرن الرابع وكذلك الفقه الشافعي على يد أبي جيدة الفاسي المتوفى حوالي 360 هـ (السلوة ج 3 ص 93) ، ولكن المذهب المالكي تركز وحده نظرا لمساندة الادارسة الذين لم ينسوا لمالك معاضدته بيعة العلويين فى الشرق مما حدا المولى ادريس الاول الى اسناد القضاء لأحد تلامذة مالك وسفيان الثوري وهو محمد بن سعيد القيسي (9) وواصل المرابطون والموحدون دعم الرباط الوثيق بين حضارات افريقيا والاندلس والشرق فوسع الاولون جامعة القرويين وعزز الآخرون (العقيدة الاشعرية) التي اتسعت شبكتها لتعم جزءا كبيرا من القارة .
وقد عرفت فاس ظاهرة جديدة فى العهد المريني عززت هجرة الطلبة الافارقة الى المغرب وهي بناء اربع عشرة مدرسة ـ هي عبارة عن أحياء جامعية ودور للطلبة وما زال الكثير منها قائما الى الآن ومفضل العذري صاحب الشرطة والحسبة بفاس هو أول من سن سنة بناء هذه المدارس(10) وقام ضدها محمد الآبلي شيخ ابن خلدون وابن بابا السوداني بدعوى تسببها فى القضاء على ملكة العلم (11) والظاهر أن مقصودهم هو المدرسة فى مفهومها العادي لا دار الطالب ، وتساوقت هذه العوامل لاضفاء طابع خاص على حاضرة فاس تبلورت مجاليه ومعالمه فى معطيات جعلت منها منطلقا للفكر لا فى افريقيا وحدها بل فى دار الاسلام الى ما وراء جبال (البرانس) شمالي الاندلس ، فقد أكد المراكشي وهو الذي عاش بالعراق (المعجب ص 221) أنه لا يظن فى الدنيا مدينة كفاس (12) . ولاحظ ابن سعيد المغربي أنه لم ير فى الشرق والغرب ما يشبه رونق الاندلس فى مياهها وأشجارها الا مدينة فاس بالمغرب الاقصى ومدينة دمشق بالشام

---

(9) (الجذوة ص 13)
(10) (جذوة الاقتباس ص 220)
(11) (نيل الابتهاج ص 246)
(12) « فانها حاضرة المغرب وموضع العلم منه اجتمع فيها علم القيروان وعلم قرطبة رحل من هذه وهذه من كان فيهما من العلماء والفضلاء من كل طبقة فرارا من الفتنة فنزل أكثرهم مدينة فاس الى أن قال : «وما زلت اسمع المشائخ يدعونها بغداد المغرب»

ولم ير ما يشبهها فى حسن المباني والتشييد والتضييع الا ما شيد فى مراكش فى دولة بني عبد المومن (13) ، ووصف ابن خلدون فاسا بأنها « حاضرة ملك بني مرين وكرسي سلطانهم حيث مقر الهدى ورياض المعارف نضلة الندى وفضاء الاسرار الربانية فسيح المدى » (14) ووصف ابو راس محمد بن احمد المعسكري الجزائري فى كتابه (فتح الاله ومنته في التحدث بفضل ربي ومنته) النهضة العلمية بفاس فى القرن الثالث عشر ملاحظا انها « قبة الاسلام وخزانة الخزائن » (مخطوط فى خع 2263 ك) .

وخلص الشيخ محمد بن جعفر الكتاني من تحليلاته للتراث الفكري بفاس انها « غربال العلم » (15) .

ووصف (باديا لبليش) وهو باي العباسي مدينة فاس بأنها « أثينة افريقيا » تشبيها لها بعاصمة الفكر اليوناني (16) .

وقد الف دلفان كتابا نشر بوهران عام 1889 م / 1307 هـ وهو « فاس وجامعتها والتعليم الاسلامي العالمي » .

وصف فيها فاسا أيضا بأنها (اثينة افريقيا) وان جامع القرويين أول مدرسة فى العالم (ص 81) ، وكانت توجد بجانبها مائتا مدرسة حسب مارمول ، وقد صنفت كتب لابراز مركزية فاس بالنسبة للحضارة الاسلامية (17) .

وكتب شارمس فى كتابه (سفارة فى المغرب)

---

(13) لاحظ المقري (النفح ج 2 ص 124) أن حضرة مراكش بغداد المغرب
(14) (التاريخ م 1 ص 11)
(15) (السلوة ج 1 ص 74)
(16) (رحلة لافريقيا وآسيا من 1803 الى 1807 م)
(17) (فاس آخر مركز للحضارة الاسلامية ــ مجلة باريس يبراير ومارس 1904)
كتاب (فاس العاصمة الفنية للاسلام) بقلم مادراس وماسلو ــ الدار البيضاء ، طبعة بول بورى 1948 (161 ص) . D. Madras et B. Maslow
(18) Ambassade au Maroc

مؤكدا أن فاسا هي المدينة المقدسة الاولى بعد مكة نظرا لاصلها وللدور المجيد الذي قامت به في تاريخ الاسلام ، ثم لاحظ أنها كانت حقا العاصمة الفكرية والمعنوية للغرب الاسلامي (ص 255) ومعاهدها ومدارسها قد ظلت مدة طويلة أولى مدارس العالم وفيها تبلور ما يسمى بالحضارة العربية التي انبثقت من المغرب لتشع على أوربا (ص 298) . وهذا الاشعاع قد تحقق يوم كانت فاس ومراكش ترسلان أشعتهما الوهاجة على قرطبة واشبيلية وغرناطة طوال ثلاثة قرون واستمرت الوصلة مع أوربا كلها عن طريق التبادل الاقتصادي . وحاول (لوتورنو) (19) الكشف عن سر هذه العبقرية فذكر أن شخصية الفاسي مكونة أصالة من عدة أجناس حيث أمد العربي حضارة فاس بنبله والاندلسي بوقته والقيرواني بحذقه ومهارته واليهودي بحيلته والبربري بصلابته وصموده.

والواقع أن السر الحقيقي يكمن خارج هذه المقتضيات وهو السر الذي جعل المغرب يحتفظ في ظل فاس طوال اثني عشر قرنا باستقلاله الكامل بينما خضعت مختلف أجزاء العالم الاسلامي لشتى أنواع الاستعمار، وقد اعترف بهذه الحقيقة مؤرخون غربيون لاحظوا أن مملكة فاس ظلت موئل التراث الحضاري العربي والفكر الاسلامي دون أية شائبة لانها البلد الوحيد الذي لم يخضع للفرس ولا للماليك ولا للعثمانيين وانحصر الاستعمار الايبيري في جيوب ساحلية منه أدت انتفاضة تحريرها الى معركة وادي المخازن عام 986 هـ / 1578 م التي أوقف المغرب بانتصاره فيها لأواء الاستعمار البرتغالي في آسيا والخليج العربي كما اندرجت البرتغال من جرائها طوال نيف وستين سنة ضمن المملكة الاسبانية وتركز نفوذ سلطان فاس المنصور السعدي في أوربا وافريقيا حيث خاطبت وده دول الغرب ، وخاض غمار الدسائس الاوربية حتى اقترحت عليه انجلترا احتلالا مشتركا للهند كدومنيون Dominion انجليزي مغربي ، وجاهد المنصور من جهة أخرى لنشر الاسلام في أقصى جنوب القارة الافريقية فهذه (تنبكتو) حاضرة (مالي) التي تأسست عام 494 هـ / 1100 م كانت تؤدي لفاس علاوة قدرها ستون قنطارا من التبر أي الذهب

---

(19) في كتابه عن فاس (ص 205)

غير المسبوك فأصبح المنصور السعدي بذلك أعظم أمير فى العالم من حيث رصيده من العملة الذهبية (20) . على أن ملك مالي فى العهد المريني وهو (منسا موسى بن أبي بكر) كان قد وجه وفدا الى أبي الحسن المريني من كبار مالي لتأدية طاعته (21) . وآل سكية قد بايعوا المنصور السعدي فى نهاية الالف الهجرية (22) ، وتغازى بالسودان من ممالك سكية قد خضعت لمحمد الشيخ المهدي والد المنصور السعدي (23) وورد ذكرها فى رسالة المولى اسماعيل الى ولده المامون خليفته بالصحراء (24) بأنها « محسوبة من جملة درعة ومعدودة من عمالتها وكل من يتصرف فى درعة كان يتصرف فيها » .

وقد بايع أبو العلاء ادريس أمير (برنو) (25) المنصور السعدي حيث وصل وفد البيعة الى فاس عام 990 هـ / 1582 م فنزل بمخيم عسكره برأس الماء واستنجد أمير (برنو) طالبا المدد بالعساكر والبنادق والمدافع لمحاربة كفار السودان ، وكان قد طلب المدد من الخليفة العثماني مراد فأحاله على أمير فاس حيث حرر نص البيعة أبو فارس عبد العزيز الفشتالي وحملها الرسول الى (برنو) لتوقيعها ثم نقلها مارا بتيكورارين حيث توفي فحملت الى المنصور بفاس (26) وبذلك انتظمت ممالك السودان – كما يقول الناصري – فى سلك طاعة المنصور السعدي ما بين المحيط الى بلاد برنو المتاخمة لبلاد النوبة قرب صعيد مصر (27)؛ كما قام المولى اسماعيل عام 1089 هـ / 1678 م بجولة الى حدود

---

(20) (دوكاستر – س. أ. – انجلترا ج 2 – 1594) / (مناهل الصفا – ج 2 ص 79 يخص منها مدينة فاس الجزء الثالث (ص 113 – 118) من (يومية رحلة الى تنبكتو وجني) – روني كاييي – باريس 1830 .

(21) (الاستقصا ج 2 ص 74)

(22) (مناهل الصفا – مختصر الجزء الثاني ص 84 / الاستقصا ج 3 ص 53)

(23) (مناهل الصفا – مختصر الجزء الثاني ص 55)

(24) (نشرت عام 1967 مع مجموعة رسائل ص 58)

(25) Bornou مملكة افريقية فى منطقة السودان جنوبي غرب بحيرة التشاد

(26) (الاستقصا ج 3 ص 49)

(27) (الاستقصا ج 3 ص 58)

السنغال (28) . وورد فى الكتاب الاصفر الذي نشرته الحكومة الفرنسية حول الشؤون المغربية (1906 ـ 1907) انه فى عام 1905 أوفد سلطان فاس الى (أدرار) خليفته مولاي عبد الله لمطالبة الفرنسيين بالجلاء عن المنطقة وفى يوليوز من نفس السنة أعلن الخليفة السلطاني مولاي ادريس ازاء تعنت الفرنسيين الجهاد لاسترجاع البلاد الى حدودها الطبيعية بنهر السنغال ، وقد وجه السلطان مولاي عبد الله رسالة ضمنها تعليماته المولوية الى « عمال أقاليم الجنوب المغربي الى نهر السينغال » وكانت ثلاث قوافل تتجه كل عام حوالي 1277 هـ / 1860 م من فاس الى السودان تقدر قيمة حمولتها بثلاثة الى أربعة ملايين (29) . أما فى السودان الشرقي جنوبي جنوبي مصر فقد لاحظت شخصيا خلال رحلة الى النيل الازرق جنوبي الخرطوم وجود جزيرة يحمل سكانها اسم المغاربة وهي قبائل متعددة لا تختلف عن السودانيين فى العادات وفيما تنتحله من فلاحة وتجارة وتربية سوائم الا انها تحتفظ فى قلب السودان بطابعها المغربي كبياض البشرة ونعومة الشعر وخواص اللهجة المغربية وهذا الشبه فى اللهجة والخط والعوائد يكاد يكون عاما بين المغرب والسودان الغربي الذي كان عبر العصور ممرا للقوافل المغربية ومهبطا للتراث الفقهي أو الصوفي التجاني المنطلق من فاس .

وهكذا ظل السودان الغربي وما والاه الى خط الاستواء خاضعا لفاس طوال أربعة قرون تحت اشراف باشوات بلغ عددهم بالتوالي واحدا وعشرين من عام 1021 هـ / 1612 م الى 1071 هـ / 1660 م و 188 من عام 1071 هـ / 1660 م الى عام 1164 هـ / 1750 م واستعيض عن لقب باشا بلقب الكاهية الذي بقي مشرفا على المنطقة باسم سلطان فاس الى دخول الفرنسيين عام 1311 هـ / 1893 م على عهد جلالة الحسن الاول وعندما هدد الفرنسيون (تنبكتو) وصل وفد سوداني الى عاصمة المولى ادريس للاستنجاد بملك المغرب ، كما وقع بعد ذلك عند غزو فرنسا لتوات

---

(28) وصفها الزياني فى الترجمان المعرب ـ ترجمة هوداس الوثائق المغربية م 9 ص 76 (1906) / الاعلام للمراكشي ج 6 ص 436 (خ)
(المغرب بين 1631 و 1812 ص 31 للمؤرخ الفرنسي (فومي) Fummey
(29) (مجلة صراء المغرب عدد 4 ص 9 / وصف تاريخ المغرب ـ كدار ج 1 ص 218

وتيد كلت مما اكد أن فاسا ظلت عبر القرون الوجهة الروحية للمسلمين فى معظم الاقطار الافريقية من السودان الغربي الى السودان الشرقي .

وقد لاحظ المؤرخ (دولاشابيل) De la chapelle أن جيوش فاس انتقلت من وادان عام 1665 م (1076 هـ) الى ادرار عام 1678 م (1089 هـ) الى تاكانت عام 1680 م / 1091 هـ الى شنقيط والسودان عام 1730 م / 1143 هـ وتيشيت عام 1789 م / 1204 هـ .

وكانت قبائل (دغوغ) تمتد من وادي سبو بمنطقة فاس الى وادي درعة وجبل فشتالة بدمنات وبلغ تأثير الحركة العلمية بفاس على طول هذه المنطقة مبلغا حدا اليوسي الى القول فى حديثه عن الرجراجيين (30) بأن حفظ القرءان و (مدونة شحنون) الفقهية كان من نصيب 6760 رجلا و 500 امرأة منهم ، وقد شاهدت فى (تافراوت) قبور عشرين فتاة من هذا الطراز ، وطائفة (الالوفا) Alofas التي كانت تنشر الاسلام فى افريقيا الغربية قد درس الكثير من أفرادها بجامعة القرويين بفاس (31) . وقد سبق علماء الاسلام جوابي الآفاق الغربيين الى الكشف عن مجاهل افريقيا منذ ما قبل القرن السابع الهجري حيث رحل (ابن فاطمة) الجغرافي الى جنوب مراكش فغرقت سفينته عند (الراس الابيض) بعد أن توغل فى كشف الساحل الافريقي الغربي الى أبعد مما كان معروفا عند الغربيين آنذاك (32) ، كما قام الشريف الادريسي السبتي بالكشف عن منابع النيل فى جنوب افريقيا (33) .

وقد انطلق من فاس الذي هو المركز العالمي للتجانية دعاة من مقدمي الطريقة منذ منتصف القرن الماضي أسسوا مدارس لنشر العقيدة

---

(30) (المعسول ج 4 ص 9)

(31) 1 – (افريقيا الغربية) بقلم ايست D.J. East (لندن 1844)
2 – الاسلام والمسيحية والسلالة الزنجية بقلم بليدن E.W. Blyden (لندن ص 18 و 202)
3 – الاسلام فى السودان الغربية المركزية – مجلة البعثات م 1 ص 644 (1912)

(32) (الكشف عن افريقيا فى العصور الوسطى) – بقلم دو لارونسيير De la Roncière (م. 1 ص 23 و 48)

(33) (حضارة العرب – كوستاف لوبون – الطبعة الفرنسية ص 507)

الاسلامية وجماعات للجهاد وتحرير افريقيا من الوثنية والاستعمار الى ما وراء الحدود الاستوائية معا فكان شيوخ الطريقة المرتبطون من حيث السند والتوجيه الروحي بفاس يسلحون المريدين بالسيف لمحاربة المستعمر وبالسبحة لمحاربة النفس والشيطان .

والزوايا التجانية المنطلقة من فاس تعد بالآلاف فى التشاد ونيجيريا ومالي والسودان والسينغال وفى (داكار) وحدها ما يناهز المائة زاوية وكل مريديها لا يدخرون الجهد لتحقيق أمنية غالية وهي التوجه الى مكة والمدينة للحج والزيارة وطرق حاضرة فاس فى الذهاب والاياب وقد اتصلت بمئات العلماء الافذاذ من هؤلاء ممن يرجع الفضل اليهم فى دعم الفكر الاسلامي ولغة القرءان فى الربوع الافريقية ، وقد تحدث الامير شكيب أرسلان فى (حاضر العالم الاسلامي) عن قوة انتشار الفكر الصوفي والدعوة الاسلامية بافريقيا عن طريق كل من التجانية والقادرية ، والحاج عمر الفوتي من الزعماء التجانيين عالم تجلت ضلاعته فى كتابه (الرماح) ولد قرب بودور Podor عام 1212 هـ / 1797 م وبعد عودته من الحج عام 1249 هـ / 1833 م نشط فى نشر تعاليم التجانية التي وضعت قواعدها بفاس وقد بلغ فى دعوته عام 1257 هـ / 1841 م جبال (فوتا جالون) واستشهد فى غزواته عام 1282 هـ / 1865 م (34) .

وولده ابراهيم السوداني الفوتي (وقيل من قرابته) قد سكن مراكش وكان بيته منتدى للوزراء والعلماء زاهدا عابدا على مشرب ابن عربي الحاتمي يحفظ فتوحاته (35) ومن علماء السودان الذين نهلوا من ينابيع العلم وقد اقتبس من التجانية بفاس ابن سنة محمد بن محمد العمري الفلاني الذي عمر مائة وخمسين سنة وتوفي عام 1186 هـ / 1772 م (36) . وقد توارد على فاس أوائل القرن الحادي عشر الهجري علماء ورحالون من الحجاز وفلسطين ومصر والشام والعراق والهند بالاضافة الى الفئات التي توالت على المغرب منذ عهد الموحدين

---

(34) لوشاتوليي Le Chatelier فى كتابه (الاسلام فى افريقيا الغربية) ـ باريس 1899 (ص 167) .

(35) (الاعلام للمراكشي ج 1 ص 191 ـ طبعة 1975)

(36) (الاعلام للمراكشي ج 5 ص 82)

كما انطلقت من فاس افواج من رجالات الفكر نحو الشرق تعزيزا لسندها العلمي وتوثيقا لاصالة التراث الاسلامي المشترك .

وقد افاض الناصري في الاستقصا (ج 4 ص 64) في وصف أبعاد الهجرة من فاس الى السودان وتونس ومصر والشام خلال سنتين فقط (ما بين 1143 هـ / 1145 هـ) ، كما بسطنا القول في بحث مستفيض حول (رسل الفكر الاسلامي) بين هذه المناطق شرقا وغربا وجنوبا نشر منذ عقدين من السنين في كتابنا « معطيات الحضارة المغربية » ومن هذه النماذج :

فاتح بن عثمان الاسمر التكروري الذي عاش بمراكش (695 هـ / 1295 م) (37) .

وابو اسحاق الساحلي المعروف بالطويجن الذي لقي سلطان مالي مسنا موسى في موسم الحج بعرفة فصحبه الى بلاده وبنى له قبة بها على الشكل المغربي من الترخيمات الكلسية والاصباغ المشبعة .وقد وصف ذلك كل من ابن خلدون وصاحب الاستقصا (38) وقد توفي بتنبكتو عام 747 هـ / 1346 م .

وأمير المؤمنين في الفرائض والحساب ابراهيم المصمودي المتوفى بفاس عام 912 او 913 هـ (39) قد تتلمذ له ابراهيم الزواوي فقيه كنو من السودان (40) .

وعثمان السوداني شيخ ادريس بن محمد بن احمد المنجرة الفاسي وكان كوري اللسان توفي حوالي 1110 هـ / 1698 م (41) .

---

(37) خطط المقريزي / الاعلام للمراكشي ج 8 ص 9 (خ)
(38) (ج 2 ص ص 74) / النفح ج 2 ص 393
(39) درة الحجال ص 107 / السلوة ج 2 ص 4
(40) (الدرة ص 111)
(41) (الاعلام للمراكشي ج 6 ص 396 (خ))

واقيت عمر بن محمد قاضي تنبكتو الذي توفـــي بمراكش عـــام 1003 هـ / 1594 م (42) .

واحمد بن احمد بابا التكروري الصنهاجي السوداني (1036 هـ / 1627 م) الذي اقتبس من علماء جامعة القرويين ما اهله لان يصبح من كبار ائمـــة افريقيـــا .

واحمد بن الامين السوداني المهندس تلميذ السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن فى علم الهندسة وقد ختم على اميـــر المؤمنـــين كتـــاب (اقليدس) فى الرياضيات (43) .

ومحمد السوداني المقرىء العشري الذي توفي بمراكش (1308 هـ/ 1890 م) (44) .

واحمد بن محمد بن امحمد الكاملي الضرير المـــراكشي الدرعـــي الرحالة (المتوفى عام 1315 هـ / 1897 م) والذي استقر بأرض (غب) بين (سانيكان) و (تنبكتو) وكانت له صلة وثيقة بسيدي عمر الفوتـــي ابان مقاتلته (بمبارة) وهي قبيلة سودانية دعاها سيدي عمر الى الاسلام وقد استوطن (تندوف) من 1299 هـ الى 1309 هـ وكان يحفظ صحيح البخاري ومسلم بأسانيدها (45) .

واغرب ما يذكر ان رجلا ايرانيا ابن ملولة تولى قضـــاء فاس هـــو الفارسي الاصل (400 هـ / 1009 م) وكان ممـــن ورد على الملـــوك الادارســـة (46) .

ومن الاعلام الذين وثقوا الصلات عبر افريقيا بين شقيهـــا الغربـــي والشرقي محمد بن عمر بن ملك المعافري الاسكندراني المولود بفـــاس

---

(42) (فتح الشكور فى معرفة اعيان علماء التكرور) لمحمد بن ابي بكر الصديق بن عبد الله ابن محمد الولاتـــي
(43) الاعلام للمراكشي ج 2 ص 409 (طبعة 1974)
(44) (الاعلام للمراكشي ج 6 ص 123)
(45) (الاعلام للمراكشي ج 2 ص 429 (طبعة 1974)
(46) (الكناشة لابن سودة)

عام 548 هـ وهو استاذ الرحالة ابن رشيد السبتي صاحب (ملء العيبة) ، وابراهيم بن محمد بن فارس بن شاكلة الكانمي الدكراني من (كانم) بلد تلي صعيد مصر سكن مراكش وتوفى عام 608 هـ / 1211 (47) ومحمد بن عيسى بن عثمان بن علي الحميري الفاسي (48) ، ويحيى بن موسى الرهوني الحافظ الاديب المنطقي الذي تولى التدريس فى المنصورة والخانقاه الشيخونية بالقاهرة (49) توفي عام 774 هـ / 1372 م .

وابن المعلم يعقوب بن عبد الرحمن بن اظوال اليشفري الذي تولى قضاء الجماعة بفاس وتازة حج واقام بدمشق ثم القاهرة والاسكندرية توفي فى طريق العودة (877 هـ / 1472 م (50) .

وموسى بن محمد بن ابي الفتح محمد بن أحمد الفاسي الحنبلي ولد ببلاد (كلبرجا) من الهند وقدم مكة بعد 830 هـ / 426 م وله أزيد من عشر سنين وعاد الى الهند بعد الخمسين (51) .

والفاسي تقي الدين محمد بن احمد بن علي المكي المالكي (52) (832 هـ / 1428 م) .

ومحمد بن أبي بكر بن احمد الفاسي المصري (53) .

ومحمد بن عمران الشريف الكركسي الفاسي شيخ المالكية والشافعية فى الديار المصرية والشامية (54) .

---

(47) (صبح الاعشى ج 5 ص 280)
(48) الدرر الكامنة ج 4 ص 246
(49) (درة الحجال ص 490)
(50) الضوء اللامع ج 10 ص 285 (طبعة القاهرة 1355 هـ)
(51) الضوء اللامع ج 10 ص 189 (طبعة القاهرة 1355)
(52) تاريخ بروكلمان ج 2 ص 173 / كشف الظنون ج 2 ص 1150 وهو صاحب « العقد الثمين فى تاريخ البلد الامين » الموجود منه الثلث الثالث وهو الاخير صور من مكتبة فيض الله 1482 دار الكتب المصرية 378 تاريخ (اربعة اجزاء) / نسخة ثالثة بالازهر تاريخ (709) 10665 (الجزء الثاني) كتب عام 872 هـ .
(53) الضوء اللامع ج 7 ص 154
(54) الديباج لابن فرحون (ص 286) .

والمحدث الفقيه التاودي بن سودة شيخ مرتضى الزبيــــدي شارح القاموس وقد تتلمذ هذا أيضا للشيخ الطيب الشركي الفاسي الذي أضاف الى قاموس الفيروزاباذي مجموعة أصيلة من التراث اللغوي تدل على مدى تغلغل لغة القرءان فى اثالتها وعراقتها بالمغرب الاقصى وخاصة بفاس .

وعبد الرحمن سقين الفاسي الذي اخذ الحديث عن القلقشنـــدي وزكرياء الانصاري والسخاوي بمصر وابن فهد بمكة (55) .

وادريس العراقي الفاسي الذي كان له فضل على محدثي مصـــر حيث استدرك احاديث كثيرة على الجامع الكبير للسيوطي تنيـــف على الخمسة ءالاف وكان احفظ من ابن حجر العسقلانـــي شارح صحيـــح البخـــــاري (56) .

وقد افاض المقري فى اطلاع علماء مصر على غزارة المادة العلميـة عند علماء فاس خاصة منهم أبا زيد عبد الرحمن الفاسي وذلك عندمـــا سألوه عن زملائهم من أعلام المغرب ووالده الشيخ عبد القادر الفاسي هو الذي تتلمذ له غالب فقهاء افريقية ، وقد قامت على أكتاف الفنان عبـــد الكريم الفاسي (57) نهضة فى صناعة الخزف بمصر فى القرن الماضـــي حيث كان يصنع الواح القاشاني لتغطية جدران العمائر وتوجد الآن نماذج منها فى دار الآثار العربية بالقاهرة .

ومن جهة أخرى سادت النظريات الفاسية فى التصوف فى القارة الافريقية وتجاوزتها الى الشرقين الادنى والاوسط بظهور طريقة أبـــي الحسن الشاذلي دفين الاسكندرية واحمد البدوي الفاسي دفين طنطـــا وكذلك علي بن ميمون الفاسي بالشام كما أسس أبو محمد صالح دفيـــن أسفي سلسلة منازل فى طريق الحجيج عبر افريقيا كعامل أساســـي فى طريقته الصوفية واصبح (دلائل الخيرات) ورد الافارقة منـــذ القـــرن

---

(55) السلـــوة ج 2 ص 160 .

(56) السلـــوة ج 1 ص 142 .

(57) (كما لاحظ ذلك تيمور فى كتابه حول التصوير عند العرب) .

التاسع الهجري حيث انتشر فى انحاء العالم الاسلامي بصورة لم يسبق لها نظير ، وقد كان لقطب الدين القسطلاني بمدرسة الحديث بالقاهـــره كبير اعتناء بأصحاب أبى محمد صالح الوافدين على مصر .

وحتى الجالية اليهودية بفاس نابها من هذه الفورة العلمية حظ كبير فأصبح أعلامها مرجع الفكر العبري فى العالم ، وقد انحدر يهود فاس منذ عهد المولى ادريس الثاني من القيروان ومصر وبابل وفارس بل انحدر الى المغرب فلول ممن انهزموا فى وقعة خيبر عام 7 هـ / 628 م كما ازدهرت بالعاصمة الادريسية حركة فكرية تلمودية فى عهد المرابطين والموحدين وقد استوطن موسى بن ميمون صاحب (دليل الحائرين) بفاس حيث كان يسكن بدار المجانة واصبحت فاس كما يقول البكري (58) (أكثر بـــلاد المغرب يهودا يختلفون منها الى جميع الآفاق) وقد استعمل يهود فاس اللغة العربية فى كتاباتهم ومحاوراتهم منذ القرن الثالث الهجري ضاربين بذلك مثلا رائدا لزملائهم فى افريقيا والشرق .

وأمسى كتاب (سيبويه) فى النحو منطلقا لتجديد النحو العبـــري بفاس منذ القرن الرابع كما يقول (ماسينيون) (59) ودعا آنذاك الحبـــر الفاسي (دونش ابن لبرات) وكذلك داود بن ابراهيم الفاسي صاحـــب قاموس (اجرون) (عربي ـ انجليزي) الى فكرة جريئة هـــي تعريـــب العبرية أي وجوب العناية بالعربية والاستعانة بها فى فهـم مصطلحـــات (العهد القديم) وضرب ابن لبرات مثلا لذلك بنحو مائتي كلمة عبرية ما كان لاحبار التلمود أن يستكنهوا معانيها لولا رجوعهم الى العربية ولا يخفى ما كان لهذه الحركة من أثر فى مراكز التلمود بمختلف أنحاء القارة الافريقية التي اصبحت تدين للعاصمة الادريسية .

وقد تزايد هذا التكتل عند ما وضع اسحاق بن يعقـــوب الكوهـــن الملقب بالفاسي (المولود عام 404 هـ / 1013 م) فى قلعـــة ابن احمد

---

(58) (المسالك والممالك ص 115)

(59) (مجموعة البحوث والمحاضرات ـ مؤتمر مجمع اللغة العربية ص 218 (1959ـ1960)

قرب فاس وتوفي بالوسينة قرب غرناطة عام 497 هـ / 1103 م شرحا للتلمود (60) في عشرين مجلدا يعتبر من أهم كتب التشريع وله أيضا 320 فتوى ليهود افريقيا وآسيا محررة كلها بالعربية وهو الذي أسس بالوسينة عام 482 هـ / 1089 م معهدا للدروس العليا التلمودية كان الطلاب يؤمونه من كل جهات العالم .

وقد اتسع في فاس طوال خمسة القرون التالية نطاق الدراسات التلمودية (حسبما رواه مؤلف Yahas Fes عام 914 هـ / 1508 م وظل يهود فاس يدرسون العربية ويكتبون بها حيث انتهى الفيلسوف (يهود ابن نسيم ابن مالكا عام 767 هـ / 1365 م (موافق 5125 من السنة العبرية) من تأليف كتابه (أنس الغريب) (61) وكذلك شيخ التعاليم بفاس (خلوف المغيلي) الذي نزل عنده أبو عبد الله الآبلي العبدري شيخ ابن خلدون قبل ان يرحل الى ابن البناء بمراكش (62) .

وقد اضطلعت فاس بدورها القيادي كنقطة ارتكاز وارتباط لا بين أجزاء القارة الافريقية والشرق بل ايضا مع أوربا والمتوسط حيث ظل القيروانيون والاندلسيون منذ العصور الاولى على صلة بقطريهما كما كانت الجالية اليهودية تعقد صفقات مع يهود افريقيا الشمالية وحتى اسبانيا وتنص وثائق أوربية منذ القرن العاشر الهجري (أي العصر السعدي) على وجود روابط تجارية بين فاس وعدة مناطق أوربية حيث استقر تجار غربيون في دار كبرى بفاس كانت تسمى الديوانة وقد اشار الى ذلك كل من الحسن بن محمد الوزان (ليون الافريقي) ومارمول ودييكو دي طوريس Diego de Torres أسس السعديون « ديوانة » أخرى بفاس الجديد قرب القصر الملكي حسبما أكده الرحالة البرتغالي فاركاس (63) .

---

(60) التلمود هو مدونة تقاليد الاحبار في شرح قانون موسى وفيه (المشنا) وهي مدونة العادات الشفوية والجمارة) وهي شرحها .

(61) (هسبريس – ص 402 عام 1952) .

(62) (طبقات الشعراني ج 2 ص 215)

(63) (مصادر اوربية لتاريخ المغرب Sébastien de Vargas – البرتغال 3

وكانت فاس تجلب من البرتغال الجلود والقمح والحبوب بواسطة سماسرة يعينهم ملك البرتغال واحيانا عن طريق تجار خصوصيين ويبيعون للانجليز السكر وملح البارود والزرابي والذهب والنحاس والصمغ والجلود واللوز والتمر وربما الافراس احيانا في مقابل الجوخ والمنسوجات والطرابيش والشواشي والمرمر والحلي والاحجار الكريمة والاسلحة والعتاد والمواد الاولية الصالحة للصناعة الحربية كالحديد والقصدير والرصاص والكبريت وكان البندقيون (هم ...) أهل البندقية (Venise) يحملون الى ميناء باديس بغمارة بضائع شتى عوض أخرى يصدرونها الى تونس وحتى الاسكندرية وبيروت بل كان البندقيون يسطون الى فاس وسلا ايضا للقيام بنفس الصفقات ، وقد فسح ظهور الملوك العلويين المجال لتطور جديد في نطاق التجارة العالمية حيث برز في الميدان تجار آخرون مثل الفرنسيين والانجليز والهولنديين وتضاعفت خلال القرن الماضي مع تطور المواصلات البحرية المبادلات بين كل من أوربا والقارة الافريقية وكانت فاس ميناء على نهر سبو تصعد اليه المراكب المتوسطة من المحيط بفضل صبيبه القوي وقد تحدث عن هذه المرسى كثير من المؤرخين والرحالين الغربيين .

وهكذا استطاع المغرب اداء رسالته الخالدة على الوجه الاكمل منذ ان كان الاسطول الموحدي أول أسطول في البحر الابيض المتوسط (64) استنجد به صلاح الدين الايوبي لمحاربة القطع الصليبية في سواحل الشام ، وقد شكل الموحدون مليشية بحرية لمحاربة القرصنة تعزيزا للتجارة الدولية كما لقنوا أوربا – حسب أندري جوليان وماس لاطري – مقتضيات القانون التجاري الدولي الذي عززه سيدي محمد بن عبد الله – حسب (كاييي) Caillé في كتاب أفرده لذلك حيث سبق العاهل المغربي أوربا الى وضع أسس الفقه الاممي في العلاقات بين الدول واستنجدت به الولايات المتحدة التي كان أول من اعترف بها وكذلك السويد والدنمارك بحماية اسطولها من القرصنة في المتوسط والمحيط ،

(64) اندري جوليان – تاريخ افريقيا الشمالية

وكانت فاس آنذاك المركز الصناعي الافريقي الاول بفضل معاملها التي بلغت 400 رحي لصنع الورق و 11 معملا لصنع الزجاج بالاضافة الى مصانع السكر فى الجنوب وكانت تمد أوربا الغربية بالورق الفاسي والسبتي والشطبي بينما كانت عاصمة بغداد سامراء (سر من رأى) تمد أوربا الشرقية ».

وقد تغنى شعراء افريقيا والشرق بأمجاد فاس واعلامها ومعالمها فهذا شيخ الاسلام أبو اسحاق ابراهيم بن عبد القادر الرياحي التونسي (1266 هـ / 1850 م) تلميذ سيدي برادة حرازم الفاسي صاحب (جواهر المعاني) قد عبر عن حنينه الى فاس ورجالها فقال :

صاح اركب العزم لا تخلد الى اليأس
واصحب أخا العزم ذا وجد الى فاس

واشرح متون صباباتي لجيرتها
وحي حيا بهم قد كان ايناسي

واقر السلام على تلك المعاهد من
جيران تلفظه ناس الى ناس

وقل لهم ذلك المضنى وحقكم
باق على العهد ذو وجد بكم راس

ووصفها كذلك ابن النحوي أبو الفضل يوسف بن محمد بن يوسف التوزري الذي دخل كلا من سجلماسة وفاس وتوفي بقلعة بني حماد عام (513 هـ / 1119 م) :

يا فاس منك جميع الحسن مسترق
وساكنوك أهنيهم بما رزقوا

هذا نسيمك أم روح لراحتنا
وماؤك السلسل الصافي أم الورق

ارض تخللت الانهار داخلها
حتى المجالس والاسواق والطرق

تلك عجالة مقتضبة عن فاس ودورها الريادي كعاصمة للفكر فى افريقيا وحاضرة فى طليعة حواضر العالم الاسلامي دعمت تراث العروبة والاسلام .

الرباط **عبد العزيز بنعبد الله**

حَربُ تطوان
في الأدب الاسباني

محمد الخطيب

ليست حرب تطوان كما يدعوها المغاربة أو حرب افريقيا كما يسميها الاسبانيون بالحدث المجهول من لدن الرأي العام المغربي . كما ان أبعادها وتأثيراتها فى العلاقات المغربية الاسبانية بالامر المجهول خصوصا بالنسبة للنخبة من الرجال فى البلدين . اذ ان اسبابها واعتباراتها الحقيقية وكذا تأثيراتها فى العقلية وفى أذهان الناس لا تزال منظورا اليها تاريخيا بنظرة خاصة .

وقد كانت منعطفا فى تاريخ علاقات البلدين ، وكانت تحولا مروعا وبداية انطلاقة جديدة فى نوعية الارتباطات .

ولست هنا بصدد البحث فى ذلك من الوجهة السياسية ولا حتى من الناحية الحربية ، فلذلك مكان آخر غير هذا، وانما القصد

من هذا البحث شرح بعض جوانب الناحية العاطفية بالنسبة للرأي العام الاسبانى اذ ذاك ، وتلك ناحية قد تكون مجهولة من بعض المهتمين بشؤون تاريخ تلك الحرب .

والادب لا يعدو ان يكون اما استلهاما أو استنتاجا أو هما معا ، وذلك ما يصبغ عليه معنى العاطفية . ولعل الناحية التى نقصد من وراء هذا البحث هى جمعه بين المظهرين . فهو استنتاج على اعتباره يمثل بعض الجوانب الواقعية ، وهو استلهام لما تغذى به من روح ولما كان يتدرع به من اندفاع .

على أن العاطفة حسبما نعتقد هى التى كانت تتحكم فى الرؤيا التى كانت مجموعة من أدباء اسبانيا وكتابها فتنظر من خلالها فى تلك الحرب وتصدر عنها فى أقوالها وكتاباتها ، فى قريضها وزجلها ونثرها .

ونستطيع أن نحكم هنا بأن جو السياسة العامة فى اسبانيا على ذلك العهد سواء فيما كان يتعلق بالاحداث الداخلية أو ما يمس التطلعات الخارجية قد كان جوا مشحونا بالمتناقضات

اذ فى الوقت الذي كانت الدعاية للحرب ضد المغرب قائمة على وجوب العمل من جديد فى افريقيا من أجل استرجاع اسبانيا لمكانتها المفقودة ومحاولة تعويض ما كانت قد ضيعته من المكاسب فى أميركا أو ما كانت على وشك اضاعة ما تبقى منه وهو قليل ، كانت الوضعية الداخلية فيها وضعية عسيرة

كان المسؤولون عن سياسة اسبانيا اذ ذاك يدركـــون ان العمل شاق وعسير وان طاقة مجابهة الحالة والموقف محدودة . ومع ذلك فقد جازفوا بخوض غمار المعركة ولا قصد لهـــم فى الحقيقة ولا هم سوى اشغال الرأى العام كسبا للوقت وزيادة فى المغامرة . وذلك أوج المتناقضات .

اذ بدل الانصراف لمحاولة الترميم بطرق واقعية وتحجيم الموقف وتكييفه حسب الواقع ، كان الهم الوحيد للمسؤولين هو البحث عن كيفية التخلص من عبء الضغوط الداخلية واقناع الرأي العام وحتى الملكة نفسها بأن رسالة اسابيل الاولى لاتزال قائمة ، وانها أي الملكة مدعوة لمتابعة محاولة تنفيذ الوصية ، واستئناف العمل الذي قام به شارل الخامس وفليب الثانى .

ولهذه الدعوة جندت عددا كبيرا من الكتاب والصحافيين ، وعددا غير قليل من الشعراء لتركيز الدعوة فى اذهان النـــاس واذكاء جذوة الحماس لاشعال نار الحرب ، وسخرت عددا كبيرا من الاقلام للزيادة فى تفجير الحماس الشعبى والهاب العواطف الساذجة عند ذوي الميولات الرومانسية .

فحرب تطوان كانت الغاية الاولى منها محاولة كسب الوقت واشغال الرأي العام عن نفسه حتى يركز كل اهتماماته فى قضية كان المسؤولون فى اسبانيا يدركون سلفا أنها قضية مخســورة رغم تكاليفها وما ترهق به خزينة الدولة من مصاريف كانت فى أحوج ما يكـون لتوفيرها .

وليس المقصود من هذا البحث ان نتناول أساليب العمل من الوجهة السياسية ولا من الناحية العسكرية حسبما أشرنا لذلك .. وانما القصد الوحيد ان نعالج الناحية العاطفية التى زادت فى اذكاء الحماس المصطنع عند من كان يعلم بحقيقة الامـر ودوافعه ، واستغلال ذلك بالنسبة للرأي العام الساذج .

فحرب تطوان كانت قمة التظاهرة المصطنعة فيما كتبـه الكتاب عنها وما جادت به القرائح المدفوعة للقيام بذلك . وان من يصف تلك الاندفاعات بكونها كانت فكرة رومانسية لا يعدو أن يحاول بقوله ذاك التخفيف من حدة السذاجة التى كانت مظهرا لانفعالات الناس ومظهرا أيضا لاقوال من شارك بنثره وقريضه فى طريق تلك المحاولة .

ولهذه الغاية قصد الكاتب الاسبانى مارتين دي اسكاليرا عندما وصف تلك الحرب بكونها كانت « أوج تاليه الرومانسية الاسبانية » .

ونفس السنيور فيكراس يقول عنها فى كتابه « ذكريـات مأوية لحرب رومانسية » أنها كانت « بفيض الاجتماعات الادبية والاكاديمية ، وبندواتها الشعرية وبكل قريض يعبر عن كـل الاحاسيس مهما كانت تافهة ، وكذا بما كان يعقد من مجالـس الشعر واثارة مشاعر الحب ، مظهرا للازدهار الشعري من أعلى مراتبه الاكاديمية الى أضعف مستوياته الشعبية » .

ثم هو يقول فى نفس الموضوع :

« ان تفجير الحرب الافريقية ، والصفة الدينية الصليبية التى أعطيت لها بايقاظ خيالات حرب الاسترجاع ، وذكر تصرفات الملوك الكاثوليكيين وشارل الخامس وفليب الثانى وصبغ تلك الملاحم بصبغة البطولة قد ساعد بشكل فعال فى تدفق الانتاج الشعري الذي يثيره ذكر تلك الموضوعات » .

ويقول :

« ان ما وقع فى الفنيدق وتطوان وواد راس وما اتبع ذلك من ذكر اسماء مثل اودونيل وبريم وراس مور ومحجرة بازا قد قدمت به الرومانسية الاسبانية فيضا من الانتاج الشعري للقرن التاسع عشر » .

وهاتان شهادتان على لسان من لهم خبرة بشؤون تلك الحرب ولهم كامل الاطلاع على كل ابعادها .

وفعلا فان حرب تطوان قد احتلت فى الشعر والادب الاسبانى للقرن التاسع عشر مركزا كبيرا وملأتحيزا غير قليل. سواء بالنسبة للادب الخاص على لسان الشعراء والادباء أو فيما كانت العامة تلوكه من زجل . وكل منهما كان متأثرا بالنزعة المصطنعة والدعاية التى احيطت بالموضوع .

كان الانتاج الادبى فى تلك الفترة انتاجا مكثفا ، وقد أطر كله فى اطار الدعاية للحملة ضد المغرب تاطيرا تعاطف معه كثير

من الكتاب والشعراء وتجاوب معهم فى ذلك عدد كبير منأصحاب الشعر العامـــى .

وهذا الامتزاج فى التعبير عن مختلـــف الاحاسيـــس والاندفاعات قد جعل درجات الانتاج متفاوتة سواء من ناحيـة القول أو فى اطار التعبير عن العاطفة والرؤيا ، الا أن جميع ما قيل قد كان منصبا على تمجيد الدعوة لحرب صليبية ضد المغرب. فالقصائد التى أنشدت سواء قبل اعلان الحرب أو خلالها كانت تتعمد تمجيد الملاحم على اعتبارها قائمة ضد المسلمين واحياء النعرة الدينية ضدهم . حتى أصبح الجو النفسى محمومـــا فى اسبانيا كلها بما قيل وما سمع عن الغايات والدوافع منتلك الحرب فكان الفرد لا يدخل بيتا أو يلج مقهى أو منتدى أو يجتمع الى أحد من الناس أو يقرأ ما يكتب الا وكلمة المغرب وكلمة الحرب ضد العدو الغاشم وضد الكافر الجسور هى نبرة ما يسمع وكلمة ما يقـــرأ .

لكنا نؤكد مرة أخرى على القول بأن مستوى الانتاج مـــن الناحية الادبية كان متفاوتا رغم وفرته ، وكان غالبه من نـــوع الانتاج المتوسط الذي ينم على عدم عمق الفكرة بـــل وحتـــى بالنسبة لدرجة الاقتناع .

ويحدثنا مؤرخو تلك الفترة ان المتسولين بين الناس كانوا يحترفون الغناء والعزف فى الشارع مهنة للتعيش ، فكانت جميع أزجالهم وأهازيجهم تضرب على وتيرة واحدة هى تمجيد الحرب بالمغرب سعيا للزيادة فى اثارة حمية الناس .

وتلك على ما نعتقد كانت وسيلة أخرى من وسائل العمل الادعائى .

وفى الكتيب الذي ألفه فى هذا الموضوع مانويل شبابس والذي خصصه لدراسة هذه الظاهرة قال : « ان الهوس الشعبى وافتتان الرجل فى اشبيلية بهذا النوع من الشعر كان أكثر من اهتمامه بشعر المثقفين وكان هذا الشعر أكثر خصوبة من ناحية الانتاج من غيره ، فلم يكن يوجد رجل أعمى يحمل قيثارة ، ولم تكن هناك خادمة لا تردد بصوت مرتفع القطعة التى مطلعها :

عند قاعدة أرض بليونش

كانت مغربية تنوح

....

ان الازجال الشعبية كانت على العموم مطبوعة بطابع الارتجال . وذلك بخلاف قصائد الشعراء التى كان يتغنى بها فى الاوساط الخاصة . لكنه كان شعرا متكلفا رغم تميزه بعدم الارتجال .

وقد وجد عدد من الشعراء الذين تعاطوا هذا النوع من القريض نذكر منهم خوسى امادو دي لوس ريوس ، وخواكين خوسى ثرببنو ، والدوق دي ريفاس ، وما نويل فرنانديث اكونثاليس ، والماركيس دى مولينس ، ومانويل طمايو ، وفنتورا دي لافيكا .

هؤلاء وغيرهم كانوا زيادة على ما يضعونه من اشعار ، يأتلفون فى ندوات أدبية ينشدون فيها هذا النوع من الشعـــر ، ويؤلفون دواوين مشتركة .

وقد قام الماركيس دي مولينس بتقديم ديوان من هذا النوع من الشعر للملكة اسابيل الثانية وزوجها الملك فرانسيسكو دي آسيس ، وكان قد تعاون على وضعه مع مجموعة ممن ذكرناهم من الشعراء .

والاشارة لهذا الديوان مثبتة فى جل المراجع التاريخية التـــى كتبت عن هذا النوع من الشعر ، لكنى لم استطع العثور عليه .

ويقول السنيور فيكراس ان انتشار ذلك الديوان كان محدودا

وبمناسبة نهاية الحرب نظمت الاكاديمية الاسبانية مسابقة شعرية بين عدد كبير من الشعراء خصصت لها عددا من الجوائز نالت أولاها وهى الميدالية الذهبية قصيدة الشاعر ثربينيد التى كان مطلعهـــا :

هناك حيث يلتقى الاطلس الذي يغلى مرجاله

بالخليج الفنيقى المزبـــد

عبر القناة الضيقة العاصفة

تلاطم رمال اسبانيا أمواج البحر العكرة

من جهة والرمال الافريقية من جهة أخرى .

وقد نقد هذه القصيدة نقدا مرا فى سبع مقالات نشرهـــا الشاعر الاسبانى الماركيس دي مولنس فى مجلة « موسيـــو أونفرسال » سنة 1860 .

وهذه القصيدة موجودة ضمن مجموعة القصائد التى شارك بها أصحابها فى المسابقة فى ديوان خاص قامت الاكاديميـــة الاسبانية بطبعه وتوزيعه . ويشتمل ذلك الديوان على القصائـــد التى منحت جوائز الاكاديمية والتى لم يكن من حظها نيل أيـــة جائـــزة .

واذا علمنا ان ملكى اسبانيا نفسهما قاما بتسليم الجوائز لاصحابها فى حفلة خاصة أقيمت خصيصا لهذا الغرض يوم 30 مايو سنة 1860 بقاعة الاكاديمية أدركنا مقدار اهتمام الدولـــة بتشجيع هذا النوع من الانتـــاج .

وهذه الجزئية تدلنا على العناية الخاصة التى كانت الحكومة توليها هذا الموضوع بالتعاون مع كل المحافل الادبية والعلميـــة وما ترعى به هذا النشاط .

ورغم ذلك فلم يبرز بين الشعراء على وفرتهم ومن الشعر على كثرته ما يضمن التفوق فى هذا الموضوع .

على ان الانتاج الادبى لم يكن كله شعــرا ، بــل كان هناك أدب صحفى برز بشكل ملموس ، كان يــقــرؤه خاصة الناس وعامتهم فى مختلف الصحف والمجلات .

وعلى رأس هؤلاء كاتبان كان لهما المقام الاول فى هذا المجال هما بدور انطونيو دي الاركون وكاسبار نونييث دي آرسى .

هذان الصحافيان الكبيران كانا من الذين رافقوا الحملــة الاسبانية وكانا يمدان الصحافة بمراسلاتهما فى الموضوع .

ولم يكن الكاتبان والشاعران المذكوران هما وحدهما اللذان رافقا تلك الحملة ، بل ان مجموعة أخرى من الصحافيين والمراسلين قد قاموا بذلك وشاركوا بكتاباتهم عنها مثل كارلوص نفــــاروا اروديريكيش مراسل جريدة « لا ايبوكا » وخايمى بليدما مراسل « لاس نوفيداديس » وايمليو لافويننتى الكانتــرا ، وادواردو ميراس خمينث ، وخواكيس مولا ، وسانتتش دي آركو ، وغيرهم من الصحافيــين .

وحيث اننا نعالج الموضوع من ناحيته الادبية فقط ، نجد ان حظ الاركون ونوييث دي آرسى كان أوفر من غيره وابرز . ولهذا نكتفى اليوم بكلمة لابد منها عنهما، وذلك أولا لانمراسلاتهماتلكلا تزال تحتل المقام الاول كانتاج أدبى فى الموضوع وكمرجــــع تاريخى لاحداث تلك الحـــرب .

فيوميات الاركون « يوميات شاهد عيان لحرب افريقيا » لا تزال تعتبر مرجعا أوليا لاحداث تلك الملحمة ، خاصة وأنهـا كانت صادرة عن شاهد عيان وبقلم سيال .

فقد رافق الاركون الحملة الاسبانية ضد المغرب وعـاش أحداثها وعاين أمرها بالمشاهدة والحضور . وقد كشف عـن أهدافها وشرح الاطوار التى مرت بها وضمنها رؤيته الخاصـة للاحداث ودوافعها مع تفسير لها . فهى احاطة مدققة مكتوبـة بوجهة نظر اسبانية .

انها مذكرات عن أحداث تلك الحرب ، وهى فى نفس الوقت تحمل انطباعات خاصة تعكس رؤيته وتبين عن مشاعره .

وكان الاركون يصدر فى كتاباته عن حرب تطوان عن عاملين لابد من اعتبارهما فى اطار تحليل تلك المراسلات .
فهو من ناحية السن لم يكن يتجاوز سن السادسة والعشرين وتلك مرحلة بالنسبة للتكوين الادبى والفكري تعتبر مرحلـة المراهقـة .

اما العامل الثانى فقد كان راجعا لمولده ونشأته . فهو من مواليد سنة 1833 . وقد ازداد فى قرية غواديش من عمالة غرناطة بل فى قلب جبالها الشاهقة بسييرا نيفادا .

وهو يحدثنا عن تلك النشأة فى مقدمة « يومياته » ، تلـك المقدمة التى أهداها الى الجنرال روس دي الانو قائد الجيـش

الاسبانى الثالث فى تلك الحملة التى رافقه فيها كمتطوع وكانت له مكانة خاصة عند قائد ذلك الجيش نظرا لصداقته معه .

فقد جاء فى تلك المقدمة :

« لقد تحركت مشاعر الرغبة منى فى التعرف على المغرب منذ عدة أعوام . فأنا من مواليد سييرا نيفادا التى تشاهد من قممها العالية شواطىء المغرب . وقد ولدت بمدينة لا تزال تحتفظ بآثار الاحتلال العربى لها . وقد كانت من أواخر حصون العرب خلال القرن الخامس عشر ، وكانت بعد ذلك منبت الثورة المورسكية غرضعت لبان تقاليدها وتاريخها ، وسمعت من أقاصيص تلك السلالة ما أغرقت اسبانيا بطوفانها ، فتخلت عنها تاركة فى جبالها وسهولها ما لم تقو على محوه من آثار الكثلكة . لقد صرفت شبابى كله بين انقاض المساجد والقلاع ، وتلذذت فى أحلام فتوتى بأنغام الالحان المغربية وأشعارها النيرة ولربما كان ذلك تحت سقف آووا اليه بآخر ملذاتهم . فكنت والحالة هذه وأنا أغادر أرض الوالدين القى على العالم بنظرتى الشاعرية المتأثرة ، فأحس اننى مدعو لافريقيا القريبة ، مطالب باجتياز البحر الابيض المتوسط كى المس حقيقة الماضى فوق أرض تلك القارة الجميلة .

وفقرات هذه المقدمة تكشف لنا عن نفسية الاركون وعن دوافع مصاحبته لتلك الحملة والتحاقه بالجيش الثالث ؛ متطلعا للزحف معها على أرض المغرب .

وفى جميع يومياته تلمس هذه الروح وهذا المعنى الذي أبرز به مكنون طبعه وبعد تأثره بالوسط الذي ولد ونشأ فيه . فالتحنان الى معرفة أرض المغرب هو الذي شده للقيام بتلك المشاركة الى جانب الدوافع الاخرى التى كان يعلمها حق العلم ويحسها كامل الاحساس .

والحنين الذي نقصده والذي عبر عنه فى يومياته بوضوح أمر لا نزال حتى اليوم نحسه فى الطبع الاندلسى خاصة منه الغرناطى وذلك شعور متبادل وحنين مشترك بين المغاربة والاندلسيين . فهو من أثر معايشة دامت ثمانية قرون ومن أثر حضارة لاتزال معالمها تثير فى كل نفس عربية اسبانية الحنين المتكاثر اليها .

اذ بالرغم مما تتميز به الروح الغرناطية خاصة من الشعور بالتعصب الدينى الذي يستشعره كل زائر لغرناطة ، فان ذلك الشعور لا يخلو من حنين للماضى ومن بعد تأثر بما أقامه عهد المسلمين وخلفه من آثار .

تلك هى الظروف التى جعلت الاركون يندفع فى مغامرته ويستغل حوادث سنة 1859 فيقوم بمرافقة جيوش الحملة الاسبانية على ارض المغرب ، سعياو راء تحقيق حلم من أحلامه.

نحن نعلم الكثير عن الدوافع والاسباب المباشرة وغير المباشرة لقيام تلك الحرب ، ونعلم غير قليل عن الغاية منها مما جعل الحكومة الاسبانية تلقى فيها بجميع وزنها العسكري . الا أن

الامر هنا يتعلق برجل سيق بجانب ذلك مع تيار العاطفة متأثرا مثل غيره بجو الحملة وجو الدعاية لها .

كان الاركون متأثرا شديد الاثر بالنزعة الرومانسيـــــة ويتأكد ذلك من قوله فى مقدمة يومياته .

« انها ليست مجرد تاريخ معارك وانما هى مذكرات» ويقول عن نفسه انه « ليس مؤرخا بل مجرد واصف » ويخاطب القارىء بقوله : « واما التاريخ السري لتلك الحرب فأنت أعلم به منى أيها القارىء » .

وأروي هذه الفقرات للتأكيد على القول بأننا عندما ننعت الاركون بالاطلاع على المستور من دوافع تلك الحرب وأغراضها، فاننا نصدر فى ذلك لا عن تكهن بل استنتاجا من أقواله نفسها .

ثم هو يزيد على ذلك فيقول :

« لنكن جديين ولا أقول واقعيين ، لكونى كنت دوما واقعيا. فهذه اليوميات ليست سيرة كاملة لما تحقق من اعمال الحقيقة الناصعة أن هذا الكتاب ليس تاريخا للحرب الراهنة ، كما انه ليس صفحة للاعلان بكل دقة عن الاحداث المهمة التى تعرضت لها ، وانما هو مجرد مذكرات تطبع احساسى الخاص حسبما يدل على ذلك عنوانها وقد أشرت مرارا الى أن ما جاء فيها يمكن استصلاحه دليلا لكتابات أخرى تكون أكثر واقعية صادرة عن تمعن فيما وقع من حرب بين اسبانيا والمغرب » .

فاليوميات أيضا بشهادة مؤلفها انطباعات خاصة وصورة لاحساساته مع تصوير احساسات الجيوش التى خاضت غمار تلك الحرب . وقد حاول ترجمتها فى تلك اليوميات .

يقول السنيور مارتين آروي فى محاضرة قام بالقائها بقاعة الاتنيو بمدريد سنة 1896 « أن تلك اليوميات تعتبر فنوغرافا سعى به صاحبه لاطلاع الرأي العام على حقيقة ما كان يستشعره الجيش الاسبانى فى تلك الحرب » .

ويقول الاركون عن محتويات تلك اليوميات مخاطبا القارىء بقوله : « عليك أيها القارىء أن تصبر اذا ما لمست المزج فيها بين التافه الزهيد والايحاء الشعري ، وبين ما هو شخصى فيها وما هو عام ، وبين ما هو مسرحى وما هو خطير فيها ، وبين الوضيع منها والعظيم » .

ولذا فان السنيور فيكراس فى كتابه « ذكريات مأوية عن حرب رومانسية يقول عنها : « انها زيادة على اعتبارها يوميات لعمليات حربية تعتبر نداء باطنيا لاداء عمل مهم فى مغرب سنة 1860 . هى صورة حية لتطوان ذلك العهد وفيها تخطى الشاعر اعتبارات كونه جنديا » .

لهذا فان قراءة تلك اليوميات على ما نعتقد أمر ملزم لكل مؤرخ لتلك الحرب . فهى مصدر مهم لتاريخ تلك الفترة وقسم كبير منها . ثم انها تفسير للعديد من المواقف الغامضة وبعض

الحالات سواء بالنسبة للجيوش المغربية أو الجيوش الاسبانية زيادة على ما يخص واقع الحاله داخل تطوان وبين سكانها على عهد الاحتلال الاسبانى اذ ذاك .

واذا كان فى كتاب الاستاذ داود الذي هو عبارة عن مجموعة من الوثائق التاريخية عن تلك الحرب ما يصور جانبها بالنسبة للمغاربة وحسب رأيهم فيها ، فان يوميات الاركون كشفت عن رؤية الجانب الاسبانى اليها . فهى ليست مجرد وصف للتحركات العسكرية والعمليات الحربية ، بل هى الى جانب ذلك كشف مفيد عن الاندفاعات الاسبانية ووصف ممتع لمن يريد الاحاطة بالرأي الاسبانى فيها .

يبقى علينا بعد هذا أن نشير الى جانب ذي أهميـــة فى الموضوع ، موضوع تلك اليوميات . فمراسلات الاركون كانت فى الظاهر وصفا لما شاهده من الاحداث وحضره من المعارك ، لكن أقواله وتكهناته كانت تعتمد الى حد كبير على اطلاع عميق لحقيقة الوجهة السياسية والعسكرية لتلك الحرب . ذلك لمـا كانت له من الارتباطات وكان له من اتصال وثيق وصداقة مـع الجنرال روس دي أولانو . فهو بهذا الاعتبار كان يصدر الرأي عن دراية بأمر المصير النهائى لتلك الحرب سواء من الوجهـة العسكرية أو الناحية السياسية .

وهذا الاعتبار يضفى أهمية خاصة على تلك اليوميـات ويحلها محل المرجع الذيلا غنى عنه لمن يريد البحثفى ماجريات

الامور لتلك الملحمة وعن دوافعها الداخلية بالنسبة لاسبانيا وظروفها الخارجية بالنسبة للقضية كلها .

فحقيقة تلك الحرب وأسبابها والدافع لاعلانها من طرف اسبانيا قد كانت خافية عن الكثيرين من الاسبانيين الذين كانوا يرون فى تلك الحملة سببا لاحتواء الكثير من الاراضى المغربية وخاصة طنجة .

تحتوي يوميات الاركون على ستين فصلا أو مراسلة وعلى ملحق من أربعة فصول ومقدمة طويلة أهدى فيها الكاتب مذكراته للجنرال روس دي أولانو .

وكتبت بعض فصولها من سبتة وأخرى فوق صهوة الجواد الذي كان يركبه خلال المعارك وكتب قسما مهما منها من قلب تطوان فى مكان معروف بساحة الوسعة فى قلب المدينة بجانب المركز الذي تحتله الآن الجمعية الخيرية الاسلامية .

وبعد هذا العرض الموجز قد يتساءل القارىء عن سبب تصنيف تلك المذكرات ضمن الادبيات الاسبانية التى كتبت عن حرب تطوان .

ومن حق القارىء أن يطرح هذا السؤال .

فتصنيف تلك اليوميات واعطاؤها هذه الصفة راجع للاسلوب الذي كتبت به . والفقرات القليلة التى ضمنها هذا

العرض المختصر دليل على ما فى الاسلوب من روعة وترصيص القول للمحتوى الذي أراد الكاتب التعبير عنه . فهى نموذج من نماذج البلاغة الاسبانيـــة .

ثم ان المؤرخ نفسه يعتبر كذلك بالنظر الى مقامه بين من كانوا على عهده يتعاطون أسباب الكتابة .

وقد لا يكون فى تلك اليوميات وأسلوبها ما يرضى مشاعر القارىء المغربى نظرا لتمجيد العدوان وتبرير الظلم وايحـــــاء الشعور بالغطرسة ، لكنها رغم ذلك تبين عن أسلوب خـــلاق فى وصف الاحداث والتعبير عن الشعور الدفين الذي كان يحســـه خلالها خاصة بعد الدخول لتطوان واحتلالها .

اما الكاتب الثانى الذي كان لكتاباته المقام المرموق من بين ما كان ينشر ويذاع ، وما أصبح به مرجعا حقيقيا بالقــــراءة والاطلاع على ما كتبه فهو كما قلنا نونييث دي آرسى الذي رافق الحملة الاسبانية منذ نوفمبر سنة 1859 وكان تابعا للجيـــش للثانـــى .

وكان وصوله لارض المغرب فى ديسمبر من السنة نفسها فشاهد المعارك الاولى التى جرت عند أبواب سبتة كما حضر ملاحم الغزو التى وصلت الى تطوان . فحضر فى اسمير ورأس الطرق (كابو نيكرو) وشاهد انزال الجيوش بمرتيل وحضـــر

معركة تطوان واحتلال المدينة كما وقف أيضا على القسم الاول من مفاوضـــات الصلـــح .

ثم عاد الى مدريد قبل نشوب معركة واد راس .

وكان قد عاد اليها أيضا بيرو انطونيو دى الاركـــــون

وكلاهما يعلل تلك العودة الباكرة بكونها كانت أمرا ملزما للقيام من قلب أسبانيا بمعركة السلام .

كتاب نوييث دي آرسى يحمل اسم « ذكريات حـــــرب افريقيا » وهى أيضا مراسلات جديرة بالاهتمام لمحتوياتهـــا التاريخية مكتوبة بوجهة نظره الاسبانية وباسلوب رصين وبلاغة كاتب موهوب .

ونحن اذا ما حاولنا أن نقارن بين اسلوبى المذكرات وأسلوب اليوميات ، نجد ان كلا منها يمثل مزاجا خاصا وطبيعة مختلفة . وخصوصية المزاج واختلاف الطبيعة عند الكاتبين راجـــــع لاختلاف طبيعة نشأتهما وطبيعة الجو الذي تأثر به كل واحـــد منهما .

فالاركون كما سبق القول عنه أندلسى غرناطى احتـــــوى طبيعة تفكيره وطبيعة شعوره انتماؤه لارض شاهـــــدت أوج الحضارة الاسلامية العربية . فهو يكتب تحت تأثير تلك الطبيعة . بينما نوييت دي آرسى قشتالى من سلامنقة يميل بطبعه الـــى الواقعية فى القول وحتى فى وصفه وخياله .

ويقول عنهما مننديث بلايو ان الاول يمثل الرومانسية الاندلسية سيرا مع طبيعته الاصلية فهو مرتبط أبدا بطبعه الغرناطى بينما الثانى يصدر فى قوله وكتاباته عن طبعه السلامنقى .

وان عودتهما الباكرة من ميدان الحرب فى المغرب الى اسبانيا كانت برغبة منهما لخوض معركة السلام التى كانا يعتقدان بوجوب القيام بحملتها داخل اسبانيا نفسها .

وهما بذلك قد أثبتا هويتهما الصحافية وشعورهما بما يلزم أن يعطى الاسبقية فى كتاباتهما نظرا لعودة النزاع السياسى داخل اسبانيا واحتداده من جديد بين احزابها .

وعن ذلك يقول نوبيث دي آرسى فى مذكراته :

« ان دفاعى الوفى المخلص عن السلام قد اعتبر من لدن البعض جنحة . لكن .. ماذا يهم ذلك ؟ فهم اذا ما اتهمونى بهذا فان الامهات اللواتى عانقن أبناءهن والزوجات اللواتى شاهدن رجوع ازواجهن والدموع التى وقع توفيرها والدماء التى حقنت كل ذلك يبرؤنى ويبرر حسن نيتى »

هذه نظرة عجلى القيتها فى هذا البحث رغم ما اعتقده من وجوب التفرغ بما هو أدق وأعمق لهذا الموضوع وما يحتاج اليه من العناية .

وان المراجع لذلك على ما اعتقد متوفرة ، والمكتبة الاسبانية زاخرة بهـــا .

وانى على اعتقاد بكونى لم أقم بغير مجهود متواضع آمل أن تغفر لى العودة اليه بتوسع ، زلة الاختصار فى هذا البحث. فالى فرصة أخرى أرجو ان شاء الله أن تكون قريبة .

تطوان محمد الخطيب

دور الطرق الصوفية
في المحافظة على التراث الموسيقي العربي

د. عبدالهادي التازي

لست فى هذا العرض بصدد الحديث عن اقتباس العرب لاصول الموسيقى ممن كانوا يجاورونهم من الفرس او الروم الذين اخذوها بدورهم من الهنود والصينيين ...

فقد كان من الطبيعي جدا لامة حية كالامة العربية ان تاخذ كما تعطي وأن تتاثر كما تؤثر ...

ولا شك أن الذين درسوا أو قراوا عن تاريخ العرب كانوا يجدون أنفسهم امام شواهد ناطقة على تطلع العرب وتتبعهم لكل ما يجري من حواليهم ، ان فى العلم او السياسة أو الفن أو العادة ، ومن هنا نجد ان المؤلفين العرب سواء في المشرق والمغرب لم يشعروا بمركب وهم يتحدثون عن أعلام فى الموسيقى العربية استمدوا من هذه المدرسة أو تلك ، كما أنهم لم يشعروا بعقدة وهم يحافظون على الاسماء الغير العربية للايقاعات والآلات التي كانوا يستعملونها ، وفى مقابلة ذلك فانهم لم

يترددوا ايضا في التحدث عما اكتشفوه هم ، او ما أدخلوه على الفن مما كان عاملا قويا في اثراء الموسيقى لدى الاطراف الاخرى وجعلها اقرب الى مخاطبة النفس ... وهي الظاهرة التي تؤكد من ناحية الامانة التي لازمتهم وهم ينسبون الطبوع لمخترعيها ، وتترجم من ناحية أخرى عن مدى الثقة بالنفس التي كانوا يتمتعون بها .

واذا كان التراث الموسيقي في المشرق قد تاثر بعد انهيار الدولة العباسية بطائفة من العوامل التي كان في ابرزها اختلاطه بالعجم ... فقد كان لبلاد المغرب وضع آخر يختلف في بعض الملامح عن الوضع هناك ..

لم يفكر العرب عند فتحهم الاندلس في الاستغناء عما الفوه من منازل وذكريات ، حتى لرأيناهم يجلبون الاشجار من الشام ويتوامون بين المدن والديار فضلا عن الاحتفاظ بما عرف في بلاط بني أمية من اعواد ومزاهر ...ومن جهة اخرى فان (هجرة الادمغة) لم تكن وليدة هذه الازمان فقد عرفنا عنها منذ التاريخ المبكر ، وهكذا فلسبب او آخر وجدنا زرياب في القيروان التي لم يلبث لسبب او آخر ايضا ان غادرها الى الاندلس حيث وجد ما كان اليه يصبو .

وقد كان للتشجيع الذي لقيه زرياب أثره دون شك على ابتكار الطريقة الجديدة التي طبعت الموسيقى المغربية بالطابع الذي ميزها منذ ذلك الحين عما كان معروفا بالمشرق .

فقد كان الغناء يقتصر على انشاد قطعة شعرية صغيرة من طرف احد المغنين يتلوه احيانا آخر يقوم بنفس الدور وهكذا دواليك لكنه أصبح في الاندلس يعتمد على التسلسل والاتصال اى ان الموسيقى اكتسبت مدرسة جديدة تختلف عنها في المشرق .

ومن هنا انطلقت اجواق القواعد الاندلسية في التنافس فيما بينها على نحو ما نراه اليوم بين المدن المغربية ... ومن هنا سمعنا مدرسة

اشبيلية ومدرسة غرناطية مثلا . كما نسمع اليوم عن جوق هذه المدينة او تلـــــك .

وعندما ابتدات الهجرة الى شمال افريقيا منذ احتلال فيرنانـــدو الثالث لقرطبة راينا افواجا من اهل الاندلس تهاجر ديارها على نحو مـــا راينا بعد احتلال اشبيلية وبلنسية ، واخيرا غرناطة حيث شاهدنا مئات آلاف الاسر الاندلسية سواء فى المغرب الاوسط او الادني او الاقصى .

وهكذا اندمجت تلك الاسر بما فيها المسلمون واليهود فى أقطـار الشمال الافريقي فاحتفظ المهاجرون لتونس بـ ((مالوفهـــم)) فكانـــت المدرسة التونسية المعروفة بالمألوف ، وتكونت بالجزائر مدرسة أخرى حملت اسم ((الفرناطي)) بينما وجدنا المغرب الاقصى ـ بحكم العـــدد الضخم الذي استوعبه من المهاجرين ـ يستقطب المجموعات التي تتوفر على اصول ما يسمى بالآلة وعلى الغرناطي أيضا .

وقد تضاعف الاهتمام بهذا التراث الجميل ... الذي رحل ـ كما راينا ـ من دجلة والفرات تحت تاثيرات فارسية رومية ، وبعد أن أخـــذ ميزانة العربية الاصيلة ليتطور فى الجزيرة الاندلسية ويعود اثرهـــا الى ديار المغرب لتزدهر افنانه واوزانه وتتدرج موشحاته وازجاله .

الا أن كل ذلك الاهتمام ظل طول الزمن مقتصراً على التلقين والحفظ من جيل الى جيل دون أن يخلف له إثراً مكتوبا سوى ما عرفناه مما كـــان يشيد بالموسيقى كفن ، عن أمثال القاضي ابراهيم الفيجيجي 920=1514 الذي قال فى اواخر دولة بني وطاس من عينيته الطويلة :

ومن لم يحركه الربيــع وزهـــره ولا العود حين تعتريه الاصابــع

ولم يتاثر بالسمـــاع ونحـــوه ولم يلتمسه الصقراذ هو دافـــع

فذلك مختل المزاح حقيقـــــة ولا شك فيه للحمار طبائـــع ! (1)

---

(1) ع. التازي : الصقور فى الحياة المغربية بحث قدم لمؤتمر الصداقة الدولي للبيزرة ، أبو ظبـــي 1396 ـ 1374 .

وسوى ما عرفناه عن امثال الشيخ عبد الواحد الونشريسي (955 = 1548) الذي جمع في قصيد له معروف بعض الاصول والانغام وسوى ما وصلنا من اخبار عن بعض الموسيقيين المغاربة من أمثال الحاج علال البطلة الذي استنبط طبع (الاستهلال) أوائل العهد السعدي (981 = 1573) .

وقد تميزت ايام المنصور الذهبي (986 – 1578 = 1012 – 1603) وهي قمة العهد السعدي بوفرة الحديث عن أصل الموسيقى ، لكن الحديث عن الاهتمام بها عرف غايته البعيدة بعد ظهور الدولة العلوية حيث قرانا آثارا جليلة لابي زيد الفاسي (1096 = 1685) والبوعصامي (1139 = 1727) وسمعنا ممن كانوا يعيشون ، من الاجانب أنفسهم ، في بلاط السلطان المولى عبد الله (1167 = 1784) عن وصف دقيق للجوقة التي كانت تتوفر على سائر ادوات الموسيقى كما قرانا عن نوع الواردات الى المغرب والتي كان منها أنواع آلات الطرب (2) بمناسبة السفارة الثانية لجوهن روسيل John Rossell الى المغرب عام 1729 .

ولم يكن غريبا ان تظهر بفاس أيام السلطان سيدي محمد بن عبد الله (1200 = 1786) مجموعة للشيخ محمد الحايك التي اهتمت ب «بالطبوع الاربعة والعشرين (المستعملة) في هذا الزمان بهذا المغرب الاقصى باضافة طبع الصيكة .. كما اهتمت باحدى عشرة نوبة بما يضاف اليها مما يستعمل في زمانه » هذه المجموعة التي قال عنها العلامة العارف الواصل ابو اسحاق ابراهيم التادلي في كتابه أغاني السقا ومعاني الموسيقى (1302 = 1885) « أنها أحسن ما رأى في كتب الموسيقى ... كان

---

(2) Marcus Perg 1974 p. 66
Le cout d'une Ambassade Anglaise au Maroc au XVIII siècle, Université de Nice Décembre 1975 p. 79

يستعين صاحبها الحايك بارقام الغباري زيادة في البيان فكانت بذلـــك مرجعا للموسيقيين يترافعون اليها عند النزاع » على حد تعبير التادلي (3).

والواقع ان الشيخ التادلي في اشادته بهذا الكتاب ، انما كان يرد الاعتبار للشيخ الحايك الذي كان ابو حامد البطاوري ومن سار على دربه يرى « في بيان من استنبط تلك الطبوع وفي وجه تسميتها بتلك الاسماء كلاما لا يصدر الا من الحاكة » على حد تعبير البطاوري أثناء الفصل الذي خصصه للموسيقى من شرحه لارجوزة ابن الونان سنة 1300 = 1883(4)

---

(3) يعتبر الشيخ التادلي من ألمع الشخصيات العلمية بالرباط والمغرب قاطبة ، وقد قضى في مدينة فاس زهاء الخمس عشرة سنة في الاخذ على علمائها والاتصال برجالاتها ... وقد زاد في معرفته وتجاربه الرحلة الطويلة التي قام بها في بلاد المشرق حيث كان ضيفا في اسطامبول على السلطان عبد الحميد الذي أولاه من تقديره واكباره .
له مؤلفات عدة تتسم بالموضوعية من جهة والاستطرادات الملذة المفرحة من جهة اخرى كان منها رسالة (اغاني السقا) التي فرغ من تاليفها يوم 7 رجب 1307 ـ 27 يبراير 1890 ، وهي محفوظة في الخزانة العامة بالرباط تحت رقم 3285 / د .
وقد برز الشيخ التادلي في هذا الكتاب الذي كان حصيلة تجربة عملية وعلمية طويلة ابتداها في الرباط منذ ناهز البلوغ وانهاها في فاس ، وهو يحتوي على مقدمة وعدد من الابواب والفصول والتنبيهات وخاتمة ، ضمن المقدمة حديثا عن مركز الموسيقى ، وخصص الباب الاول لتعريفها والثاني لموضوعها والثالث لواضعها والرابع للنوبة الاولى طبع الحسين .. والخامس للثانية طبع الاصبهان ... والسادس للثالثة : طبع الماية والسابع للرابعة : رصد الذيل ، وهنا ادرج خمسة من الفصول كان الاول في ترتيب أوقات الموسيقى ثم فصل في قدر الحركة والسكون وثالث في حد الموسيقى ورابع في بعض منافعها وخامسها في احسن آلات الطرب ... وعاد للباب الثامن في النوبة الخامسة . طبع الاستهلال .. ثم التاسع في السادس : طبع الرصد (الراست) ... والعاشر في السابعة : غريبة الحسين والحادي عشر في الثامنة : طبـع الحجازي الكبير ... والثاني عشر في التاسعة : طبع الحجازي المشرقي .. والثالث عشر في العاشرة : عراق العجم .. والرابع عشر في الحادية عشرة : طبع العشاق .. وتخلص بعد هذا للخاتمة التي ضمنها طائفة من الفصول عن الصوت الحسن ، واصل الغناء ، وأخبار المغنيين ، وما قيل في العود ، وما قيل في البارد الغناء وفي حكم الغنـاء وسماعه ، وفيمن غلب فيه وفي جواز السماع وفيمن شدد فيه .. وهنا يذكر بعض التنبيهات التي يختمها بالاستشهاد ببعض ما اورده الشيخ الحايك ورأى المذاهب الاربعة في الموضوع ... وقد ظهر في كتابه ، على انه علم من اعلام الفن الذين عملوا باخلاص على احياء ما كان يهدده الاندثار من الطبوع . توفي التادلي سنة 1311 ـ 1894.

(4) كان الشيخ البطاوري من اعيان علماء الرباط وهو من الزم الطلبة بابي اسحاق التادلي فهو خريج مدرسته ، وقد الف كتابه ـ قبل شيخه التادلي .

على ان نقد البطاوري انما كان ينصب كما سمعنا على بعض التسميات والتاويلات وليس على المجموع من حيث انه مجموع .

* * *

واذا ما حاولنا ان نبحث عن هوية هؤلاء الذين كانوا وراء الحفاظ على الموسيقى في كل زمان ومكان فسنجد ان للمتصوفة على العموم دورا بارزا في الموضوع ... وقد تساءلت لماذا كان موقف بعض الفقهاء مناهضا للموسيقى ؟ وسرعان ما كنت اجد السر الذي يكمن وراء موقف هؤلاء واولئك من هذا الامر ... فان حاسة الفقيه تختلف تماما عن حاسة المتصوف ، فان الاول مشدود بحكم وصفه ، الى ظواهر النصوص لا يتعداها بينما نجد ان للثاني ارتباطا آخر بمفاهيم بعيدة العمق تختصر طريقه الى الاهداف التي تتقصدها تلك النصوص ، ولعل من الطريف ان نقف قليلا امام حالة من تلك الاحوال التي يتجلى فيها الفرق بين لغة الفقهاء ولغة المتصوفة ... كل الناس كما نعلم ، وعلى راسهم الفقهاء يشيدون بالشخص تكون علاقاته الاجتماعية مع الاخرين على ما يرام ... لكن بعض اقطاب الصوفية كان يرى في ذلك مشغلة عن الله ، لنتمعن النظر في توسل احد اقطابهم وهو الشيخ سيدي عبد السلام بن مشيش دفين جبل العلم قبيلة بن عروس (اقليم تطوان) .

اللهم ان قوما سالوك ان تسخر لهم خلقك فسخرت لهم خلقك فرضوا منك بذلك ، اللهم واني اسالك اعوجاج الخلق علي حتى لا يكون ملجاي الا اليك !!

انه عالم آخر يرى ما لا نرى وربما كان محقا فيما كان يرى ، فان تهذيب النفس وصفاء الروح هدف اسمى من اهداف الشرع .

وان المرء ليشعر بمتعة فكرية زائدة وهو يسمع عن صراع بين قوم يريدون ان يوصدوا امامك الوصول الى الله الا عن طريق الباب الذي يقفون عند مصراعه ، وبين قوم آخرين يرون ان الله يسمو عن ان يكون له بواب !!

وبالرغم من عدم تمكننا من الوقوف على مخطوطة الشيخ البطاوري : ((نصرة السنة)) التي اشار لها فى شرحه الشمقمقية والتي خصها ـ فيما يبدو ـ للحديث عن موقف الدين من الموسيقى فانه يمكن ان نستشف موقفه من هذه الابيات التي نقلها من أرجوزة شهاب الدين محمد بن اسماعيل فى سفينته : (5)

ثم ابن حزم وهو حبر عارف	قد جوزت فى قوله المعازف
وعنده قد حلت الاوتار	والدف والطبول والمزمار
كذلك الأرغن والربابة	والناي والموصول والشبابة
ولا جناح فى (الجناح) (6) عنده	فاسمع لها واطرب وتابع جنده

الى ان قال :

فاجزم به وشنف المسامعا	واشرب ، وكن ف العفو عنك طامعا
ودع سفينة الذنوب ماخرة	فى بحر فضل الله حتى الآخرة !!

لقد تعمدت ايراد بعض هذه الابيات لاساعد على تصور الروح المرحة لاحد الفقاء الاعلام ممن كانوا يعيشون بين ظهرانينا بالامس القريب .

لقد كان المعارضون للموسيقى يبحثون عن كل اشارة بل ويصنعون أحيانا الافادات التي يعتقدون انها مدعاة للنفرة من الطرب والمطربين ، وكلنا يعلم عن (طويس) مغني المدينة الذي جعلوا من الفترات البارزة فى

(5) توفي شهاب الدين 1274 = 1857 وقد ولد بمكة وانتقل الى مصر فنشا بالقاهرة وتعلم فى الازهر وأولع بالاغاني والحانها وساعد فى تحرير جريدة ((الوقائع المصرية)) وتولى تصحيح ما يطبع من الكتب فى مطبعة بولاق ، واتصل بعباس الاول الخديوي فلازمه فى اقامته وسفره ثم انقطع للدرس والتاليف ، له كتاب سفينة الملك ونفيسة الفلك فى الموسيقى والاغاني العربية . الزركلي : الاعلام ...

(6) من فصيلة الأربة

حياته مصادفات كئيبة ليبرزوا شؤمه أو بالحرى شؤم الفناء والمغنين فهو ولد يوم توفى رسول الله (ص) وفطم يوم توفى ابو بكر ، وختن يوم قتل عمر ، وتزوج يوم اغتيل عثمان ، وانجب يوم صرع علي ... أفلا تشكون بعد هذا فى المثل السائر « أشأم من طويس » ؟

ودعونا بعد هذا لندلل اكثر على المعروف الذي أسدته تلك الفئات الصوفية التي كانت ترى فى تلك المجالس الموسيقية ملاذا يحميها من فواجع الظلم وهواجس القلق ونواهش العلل ... أن تلك المجالس كفيلة بان تشد الانسان الى التامل والانقطاع عن هذه الدنيا الزاخرة بشتى الاوصاب والاتعاب ... لقد كانت قوى الظلم اخذت تنتقص البلاد من اطرافها ، وعوض أن ينصرف الحكام الى مقاومة المتسللين عمدوا الى توجيه الطعنات بعضهم لبعض ، وسطو بعضهم على البعض الآخر فانقلبت الحقائق واختلط الامر على اصحاب الرقائق والدقائق ... وفيما اعتمد الانسان على أخيه الانسان ، اكتشف ذاك فى هذا حيوانا رهيبا يتربص المناسبة للزحف ، ويتحين الفرصة للضرب من الامام والخلف ، تلك كانت بداية التفكير فى الانقطاع والانصراف لقد كان هناك مبرر للبحث عن دنيا جديدة ، عن مقامات نظيفة ، عن طريق تتعهد المرء بالتخلية والتصفية أولا ثم بالتحلية والتزكية ثانيا ومن هنا كانت (الزاوية) ومن هناك أيضا كان (الشيخ) و (المقدم) وكان التوسل والدعاء ... وكان السماع والغناء كوسيلة للتحليق فى سماء تختلف فى صفائها عن تلوث الارض ... ومن ثم طرب القوم ورقصوا ... حتى اذا ما استرجعت النفس شفاءها انطلقت من عقالها نحو سلوك انقى وابقى واتقى ، لقد وجدوا فى اصوات الوتر ودلالات النغم ومعاني الكلم وصفات طبية لمن يشعر بتخثر فى الدم، وعسر فى الهضم واختلال فى الغدد ، وتموت للانسجة !!

ولقد عرفنا فى ديار المغرب عددا من الزوايا فيها الدرقاوية والعيساوية والتهامية الى آخر اللائحة الطويلة التي اهتمت بنشاة هذه الزوايا ومدارسها وما تفرع عنها من جداول ...

وقد كانت سائر هذه الخلايا مؤسسة في البداية بدافع من رغبة في الانطلاق نحو المعرفة الحقيقية للكون ، على ما اسلفناه ...

وقد كان أصحابها يتنافسون على ترديد كل ذكر يؤدي أكثر لمالـــه يطمحون ، وما اليه يتوقون ، في جانب الله ، وفي جانب رسول الله ... وفي جانب أولياء الله كذلك ، وكان لا بد لهذه الاذكار من قالب يحفظهـا ويستوعبها ، ولم يكن هذا القالب غير الوزن الموسيقي ، ومـــن ثمــت شاهدنا معظم الطرق الصوفية تتخذ لها مجالس، سمها كما تشاء مجالس، ذكر او تامل او راحة انها مجالس على كل حال ، وقد كان مـــن هـــذه المجالس ما يقتصر على السماع الموزون لكن فيهـــا ما كان يتحـــول الى الاستعانة بادوات اخرى أكثر رقة والذ نغمة كلا الفريقيـــن المسمعيـــن والآليين كان يؤدي واجبه نحو هذا التراث ، ولنستمع الى وصف بعـــض مجالس الفريق الاول والفريق الثاني ونعتمد في هذا على شاهدي عيان من القرن الماضي : احدهما يحكي عن مجالس فاس ... والثاني يحكي عن مجالس تطوان وفي كل الحالات نرى أن هؤلاء الفنانين كانوا فعلا من رواد (الزاوية) الامر الذي يكشف السر الذي يكمن في أن معظم المولوعين او الآليين المحترفين كانوا اما منحدرين من مشايخ متصوفة أو ينتسبـــون لزاوية من الزوايا المنتشرة في المغرب ...

ويتعلق الامر اولا بما يرويه الشيخ التادلي الذي يقول في مخطوطته عـــن فـــاس :

لقد كانت جماعة المسمعين تحضر قاطبة كل عيد المولد النبـــوي زاوية الشيخ عبد القادر الفاسي عند الصباح ويكملون فيها نوبة كاملـــة بدون آلات لكنهم كانوا يوسدون اي يضربون يدهم اليمنـــى على راحـــة اليسرى .. وكل جمعة بعد العصر يجتمع أهل السماع كذلك في زاوية سيدي أبن عباد داخل باب الفتوح على نحو ما سبق مكتفين بالتوسيد بدون آلة . وفي صباح كل يوم اربعاء يقصد أصحاب السماع مشهد سيدي علي بوغالب قريبا من باب الفتوح للقيام بنفس العمل ... كل هذا كان يجري

تحت سمع وبصر علماء فاس وكلهم كسائر المغاربة مالكية ولكنهم كانـــوا لا يجدون حرجا في تلك الاداءات ...

وقد كان للقطب الشهير سيـــدي عبـــد الســـلام بن ريســـون (1299 = 1882) على ما يرويه الشيخ التادلي والشيخ داود كذلـــك ، كان له مجلس لترتيل الامداح النبوية وقراءة الهمزية التي رأينا الشيـــخ الريسوني يترك لها وقفا خاصا يعطي للمداومين على ترديدها في الزاوية الريسونية من أصحاب الاصوات الحسان عصر كل جمعة بعد قراءة صلاة الشيخ سيدي عبد السلام بن مشيش ، ولا بد أن يكون ترديد الهمزية على النغمات الموسيقية الخاصة ، وقد كانت عادتهم في ذلك ان يوزعوا القصيدة المذكورة على خمس جمع لكل منها نصاب يحتوي على عدة موازين وأنغام من نغمات الموسيقى الاندلسية فلا تتم الهمزية حتى يكون جل الانغـــام الموسيقية قد استعمل فيها ... ثم بعد هذا ننتقل الى مجالس الموسيقى التي تحمل في المغرب الاقصى اسم (الآلة) دون نسبة لمدينة ما مـــن المدن الاندلسية . يقول الشيخ داود عن القطب سيدي عبد السلام بن ريسون : لقد كان قومنا ـ يقول داود ـ رجالا ونساء (7) يتقنون أوزان الموسيقى ويحفظون ادوارها فيطربون لنغماتها ويبتهجون بها ويتمايلـــون عند سماعها كانهم سكارى وما هم بسكارى ولكن تناسق آلاتها وعذوبـــة الحانها ورقة أشعارها وحلاوة أصوات منشديها كانت تأخذ بمجامع قلوبهم وتملك عليهم مشاعرهم فينسون الهموم والاكدار وينغمسون في لذة روحية يشعرون معها بالسعادة والاطمئنان ، وكان (السيد) رحمه الله (يعنـــي سيدي عبد السلام ابن ريسون) يعقد لهذه الموسيقى جلسات خاصـــة يحضرها معه أصحاب الاصوات الحسان ، ومن يحسنون الطرب والعزف على الآلات الوترية من أصحابه وتلامذته فكان يطرب لذلك ويبتهج به كـــل الابتهاج وخصوصا من نغمة (الاصبهان) التي كانت دموعه تجري عنـــد

---

(7) لم ينقطع انشغال العنصر النسوي بهذا التراث عبر الاجيال وفي مختلف المدن ولو انه كان يتركز في القواعد المغربية ، حيث نجد عددا من الشيخـات والمساعـدات ممن يحسن العزف على مختلف الآلات ، التادلي : اغاني السقـا ص 110 ـ داود : تاريـــخ تطـــوان 110.7 .

سماعها ، وقد تعتريه حالة عجيبة يكاد يغيب معها عن حسه من شدة التأثر والانفعال وخاصة اذا كانت اشعارها في المديح النبوي وذكر آل البيت ، وقد كان يخصص مساء كل سبت لهذا المجلس الذي يشترك فيه جوق او « رباعة » من الآليين على حـــد التعبير المغربي ...

وقد كانت الآلات التي تشترك في أحياء هذه الامسيات تتالف مــن الرباب ، والعود والكمنجة والطار والدربوكة والقانون أيضا ...

ويدل على تمرس الشيخ ابن ريسون بالفن ما نقل عنه من انه اخترع آلة جديدة سماها « محسن النغم » تحتوي على وتر واحد تؤدي جميع النغمـــات ...

ويقال أنه استعان على ذلك باحد الصلحاء الآخرين الشيخ عبد الله شقور ... كما استنبط أيضا آلة تسمى « السلاكة » وهي عبارة عـــن صندوق به عدة أوتار وفي وسطه قطعة تصلح على مقتضى النغم الـــذي تدار عليه ، وكلا (المحسن) و (السلاكة) مما لم يعرفه الذين كتبوا الى الآن عن الادوات الموسيقية ...

ولننتقل بعد مجالس الريسوني الى مدينة فاس لنستمع الى وصف الشيخ التادلي الرباطي الذي اقام بالعاصمة العلمية زهاء خمس عشـــرة سنة يتنقل بين مجالسها العلمية والفنية .

لقد تميزت مخطوطة التادلي بانها لم تقتصر على تقديم المعلومات التي توفر عليها مما يتعلق بالموسيقى ولكنها تضمنت وصفا جميلا للمجالـــس التي كان يشهدها احتفاء بهذا التراث الرفيع سواء في فاس او في الرباط.

وقد ذكر في الباب السابع من مخطوطته (اغاني السقا) ان من عادة فاس في الافراح الكبيرة الحضور بين يدي اصحاب الموسيقى ومع الناس أنواع الازهار والانوار بل ان لهم سوقا مخصوصا وحوانيت مقصودة لذلك،

لا تبيع الا الازهار والانوار من كل صنف منها ما هو مطروز فى صينيات من القصب باشكال عجيبة توضع امام المغنين فتزيدهم نشاطا واغتباطا على نحو ما رأينا فى المدينة الاندلسية التونسية (تستور) من هذه الباقات المطرزة من الفل والياسمين التي يتهاداها القوم كشعار للبهجة والسرور .

هذا الى ما كان يستلزمه الطرب من اشاعة أنواع الطيب محروقة ومرشوشة وتحضير « الاتاي » بادواته الفضية وكؤوسه الملونة والجلوس على المائدة الوثيرة المريحة ... ان كل الحواس هنا تاخذ بحظها من المتعة ...

وبعد ان ياتي الشيخ التادلي على ذكر عدد من الشيوخ ممن كانوا يتطوعون بتعليم الموسيقى يتخلص مرة أخرى لذكر الولي الصالح سيدي عبد السلام بوغالب الذي كان يقضي الليالي وأهل الموسيقى بين يديه وكان له معرفة تامة بها فكانوا لا « ينفقون » أي لا يضربون نغمة الا بشهوته ومشورته ... وقد سمع التادلي وهو بفاس ان بعض الموسيقيين يتوفرون على صنعة تحمل عنوان (صنعة ابليس) يتساءل هل انها الصنعة التي علمها ابليس لاسحاق الموصلي (8) والتي تتحدث عنها كتب التاريخ ؟

هذا الى الولي الصالح سيدي عمر بن المكي البجعدي صاحب الذخيرة الذي كان مشغوفا بسماع الموسيقى فكان شيخ الجماعة بالرباط القاضي سيدي صالح الحكماوي (9) يحضر له عيون الرجال وكبار أهل الفن على نحو ما عرف فى الشريف سيدي احمد الوزاني وأخيه الحاج العربي اللذين لا تكاد تفارقهما الموسيقى ، ولقد كان بيت التادلي نفسه ناديا للموسيقى الى جانب كونه مدرسة للعلم والمعرفة . ولعل من الطريف ان

---

(8) يوجد فى الطرة : لعل هذه الصنعة هي فى انصراف قدامي الغريبة والحجاز الكبير ونصف « متى نستريح » فى الاول و « تعشقت ظبيا » فى الثاني ذكره مطربوا الرباط ، التادلي ص 106 .

(9) القصد الى الشيخ ابي محمد صالح ابن الشيخ القاضي ايضا ابي العباس احمد الحكمي أو الحكماوي نسبة الى بني احكم قبيلة قريبة من زمور . بوجندار : تعطير البساط من تراجمة قضاة الرباط ص 25 .

نسمع عن حضوره مع السادة الصوفية اصحاب مولاي العربي الدرقاوي في زاوينهم بالرباط حيث يتقاطر عليهم أهل العدوتين ويقوم الشريف مولاي عبد الرحمن الفكيكي خلف الحلقة والعود بيده يعزف عليه ولحيته في غاية البياض شيبا على حد قول التادلي . ان كل الذين تحدثوا عن ذرية سيدي علي الجمل شيخ الدرقاوي يذكرون انهم كانوا من أهل الفن .. ولا بد ان نعرف دلالة حديث التادلي عن بلاد القطب بسيدي عبد السلام بن مشيش بأنها منجم من مناجم الموسيقى في المغرب الاقصى (10) ..

وقد أحسن التادلي صنعا عندما استطرد بذكر النوبات التي كانت معروفة لدى أصحاب الموسيقى الشعبية الموكبية : الفياطين والطبالين ، فقد كانت العادة جارية الى أواسط هذا القرن أن يقوم جوق من هؤلاء صباح كل جمعة ب ((ضرب النوبة)) أمام الضريح الادريسي بفاس قبل ان يقصد البيما رستان للترويح عن نزلائه ، تلك (11) النوبات التي كانت تقتبس معظم عناوينها من أصول مشرقية على نحو ما كان بالنسبة للموسيقى الاندلسية (12) .

---

(10) أغاني السقا ، ص 43 .

(11) البيمار ستان كان يقع قرب المسجد الذي يحمل اسم (سيدي فرج) بسوق الحناء وقد كان هذا المكان أهم ملتقيات ناظمي الفن الملحون منذ القرن العاشر الهجري وبخاصة في ذكرى عيد المولد النبوي ، وقد هدم البيما رستان مع الاسف وبنى مكانه سوق ينفذ لسوق العطارين ...

(12) يذكر المهتمون بدراسة الموسيقى المغربية ان جوق الطبالين والفياطين بفاس كان يؤدي في الجمعة الاولى من الشهر القمري نوبة (باريمشال) ، تحريف فيما يظهر عن بيرم شال كلمة تعني أغنية العيد ، وبعدها نوبة (هالتي) تحريف تركي عن (حالتي) ، وفي الجمعة الثانية نوبة (شابور) او شنبر الكبير أو المربع ، وهو ايقاع صنف على قطع موسيقية ، ويوجد منها الى الآن في الموسيقى التركية وفي تونس والجزائر والمغرب على ما يفيده الاستاذ صالح المهدي مدير المعهد الموسيقي في تونس ... وفي الجمعة الثالثة يؤدي جوق الطبالين والفياطين نوبة (بشرف) محرفة عن كلمتين فارسيتين بش رو أي السير امام ، ولما ان الواو ينطق عنه الفرس والترك فاء (عوض يا حلوة ينطقون يا حلفة) فقد تحول بش أو الى بشرف وقد نقل الاسم فيما بعد الى المقدمات الموسيقية بما يقابل التوشية في المغرب والمصدر في تونس .. وبعد بشرف يؤدون توقيعا اسمه تركيد الخمسة ... وفي الجمعة الرابعة في الشهر تاتي نوبة الحربي الفاسي والحربي الوزاني ... وقد ذكرت اسماء النوبات أيضا على هذا النحو : راس النوبة ـ بشرف خلط ، رواني ـ اسماعيل ـ تركي مغلوق ـ تركي بالزوائد ـ حربي ... التادلي ص 43 ـ 167

وبعد ان يؤكد الشيخ التادلي أن طبع (الاستهلال) من اختراع اهل فاس يذكر انه لم ير احسن من سماع أهل المغرب وصنائعهم فى الموسيقى، ونحن نعلم ان الشيخ التادلي ممن تجولوا فى الآفاق وخالطوا عددا من الامم واجتمعوا بكبار الشخصيات من أمثال السلطان عبد الحميد ... علي ما نقرأه ايضا فى مخطوطته « زينة البحر بعلوم البحر » ...

والواقع أن مدينة فاس وتطوان والرباط مجرد مثال . والا فان ما يجري في شفشاون أو مراكش وسلا ووجدة لا يختلف عن الجهات المذكورة

ومن هذه المجالس الخاصة انتقلت (الآلة) الى الحفلات العائليـــة والمناسبات الدينية فى الاوساط الاخرى ، فاذا ما اضفنا الى هـــذا ان الطرب من معالم الملك ، وأن القصور الملكية على ما أشرنا سالفا لم تخل فى عصر من العصور من تلك المعالم عرفنا اذن أسباب الحفاظ على هـــذا التراث على صعيد القمة ايضا ...

وهكذا وجدنا أن الطرق الصوفية كانت فى صدر العوامل الاساسية التي جعلت المواطن العادي فى المغرب ينتبه الى هذا اللون من ألـــوان الحياة ولنستمع الى الشيخ البطاوري يردد فى معرض مدخله الى الحديث عن الموسيقى : ان النفوس البشرية ليست من هذا العالم الكثيف الكدر المظلم ، بل هي من عالم النور والصفاء والبهجة الذي رسمت فيه صور الموجودات باسرها وامثلتها على ما هي عليه فى نفس الامر كما ترســـم صور المرئيات فى المرآة الصقيلة ، فلو فرضنا أن نفس شخص تهذبت وزكت وزالت عنها ظلمات الطبيعة السفلية وكثافتها لظهر فيها كل شيء على ما هو عليه ظهوراً روحانيا لا جسمانيا وهو الكشف الذي يحصل للاولياء رضوان الله عليهم ومن جملة تلك الموجودات تلك الانغام والالحان ... وهذه دقائق ادى اليها البحث يقول البطاوري ...

وبعد فهل ستتوم اليوم المعاهد المتخصصة بنفس الدور الـــذي كانت تقوم به الطرق الصوفية بالامس ؟ وهل أن تلك المعاهد ستعمل كما عمل المولعون من ذي قبل على اعطاء نفس جديد لهذا التراث الجميـــل ؟

وهل ان هناك بوادر ظهور زرياب جديد يجعل من هذا التراث مادة حية في كل مدينة وفي كل مدرسة وفي كل نادي ؟

اني اشعر باشفاق بالغ وزائد على تراثنا الموسيقي على العموم ، وهكذا فبالرغم مما يتراءى من اقبال عليه من جانب من شبابنا، وبالرغم مما نشهده بين الفينة والاخرى من اهتزاز مشاعر الناس له واهتبالهم برجاله ... آلا ان كل ذلك لا يبرر تفاؤلنا في المستقبل ، فان الاقبال التلقائي ، وان الاهتزاز المؤقت للمشاعر ، كل ذلك لا يعفى من المسؤولية الثقيلة التي تقع على كواهلنا ازاء مصير هذا التراث الجميل ... لقد اغرى الشباب ببعض المدارس الموسيقية الاخرى ... وافتتنوا بامر الدبلومات والشهادات المكتوبة ، ولم تعد « نفوسهم » تسمح لهم بالتتلمذ امام المعلمين المتخصصين في (الآلة) يلتقطون عنهم محفوظاتهم ومروياتهم وافاداتهم ، ويكونون من كل ذلك حصيلة المدرسة التي يجب ان تنشا في كل مكان وفي كل جهة ، ان معظم الشباب ممن يتعاطون للفن الموسيقي امسوا لا يفكرون في ان يجعلوا موضوع رسائلهم العلمية حول ما ياخذونه مثلا عن هذا الشيخ في تطوان او فاس او مراكش او وجدة ...

ومع اننا نعلم ان هؤلاء الشيوخ ـ وهم قلة ـ في طريقهم مثلنا نحو المصير المحتم ، ومع اننا نعلم جيدا انهم سيشعرون بالغبطة دون شك وهم يسمعون عن رغبة الشباب في تحمل المشعل من اجل اداء الرسالة الفنية للجيل الصاعد ...

انني انظر الى هذه الهوة التي تفصل بين القدامى من حملة الفن الموسيقي وبين ناشئتنا ممن اتجهوا هذا الاتجاه على انها هوة ستسلمنا الى عالم ليس عالمنا على كل حال ، وستؤدي بنا الى فن لا ينتسب الينا ولا ننتسب اليه ، وبالتالي فن في استطاعة كل واحد من غير المغرب ان يعرفه وينتظم ضمن مدرسه ، اما فننا نحن فسيتعرض للانهيار لا محالة ان لم

نفرضه فى المدرسة ، ان لم نعلق النجاح فى الفصـــل على مادتـــه ... سيتعرض للانهيار والتلاشي ان لم نعد الحياة للمصنع الـــذي كان يزود الفنانين الى الامس القريب بكل ما يحتاجون اليه من عود وربـــاب ... سيتعرض للانهيار والتلاشي ان لم نخطط لاطره على نحو ما نخطط للاطر الفنية الاخرى ... يجب ان يجلس الشباب امام الشيوخ ... ان زمن الاعتماد على الحفظ والتلقين ولى وراح ... وقد حل محله عصر التدوين والتسجيل ... وان العبء الملقى على كاهلنا حكومة وشعبا هو فى تصور الفراغ المهول الذي سنشعر به بعد بضع سنوات ان لم نعمل على ارساء الاسس الصحيحة لضبط موسيقانا وحماية تراثنا عن طريق الجمعيات عن طريق المدارس ، عن طريق تنظيم المباراات والهـــاب روح التنـــافس بالتشجيعات والارشادات وعسى ان تاتي تجاربنا فى المستقبـــل بمـــا يرضي طموحنا ويكون فى مستوى (العبقرية) التي احتفظت لنا بهـــذا الفن جيلا بعد جيـــل .

الربـــاط

د. عبد الهادي التازي

بمناسبة الذكرى الأربعمائة لمعركة وادي المخازن

بعد المعركة

عبد المجيد ابن جلون

ما كادت الهزيمة تلحق بالغزاة ، وتبين لاحمد المنصور الذهبي ان الغاية البعيدة ـ وهي طرد المسيحيين من المغرب والقضاء على ما كانوا يسعون اليه من حملتهم ، حتى تبين له أن الاتراك الذين كانوا فى جيشه قد أخذوا يدبرون الدسائس من جديد لبث الفوضى فى المغرب تمهيدا للاستيلاء عليه لتأمين أمبراطوريتهم فى الجزائر وتونس وليبيا ، حينما نادوا ببيعة اسماعيل بن عبد الملك ملكا على المغرب ، لتتكرر العملية من جديد وتنشب حروب داخلية أخرى فى البلاد ولكن ملك المغرب أحمد المنصور الذهبي كان أذكى من أن يظل فى شمال المغرب وانما أسرع الى الالتحاق بمدينة فاس أحدى قواعد الملك لتنظيم صفوفه دون أن يقيم وزنا للفوضى التي انتشرت فى الشمال بسبب المؤامرات التي كان يدبرها أولئك الاتراك والتي عرف كيف يقضي عليها ، وهم الذين قتلوا أباه وسمموا أخاه فى ما ترويه كتب التاريخ ، وقد سارع احمد المنصور الى أبلاغ السلطان العثماني المعاصر انه تولى عرش المغرب لغرض لا يخفى .

وسرعان ما عرف المنصور بالخبرة الواسعة التي اكتسبها من العمل الى جانب أخيه عبد الملك كما رأينا كيف يقضي على المؤامرة وكيف يعيد تنظيم الجيش المغربي طبقا لاحدث التنظيمات التي كانت معروفة فى ذلك الحين ، واستطاعت جيوشه الوصول الى مناجم الذهب فى افريقيا ، ومن هذا اضافة صفة « الذهبي » الى اسمه ، وقد ازدهرت الحياة فى المغرب طيلة مدة ربع قرن كامل من الزمان بين سنتي 1578 الى 1603 .

كما ازدهرت المبادلات التجارية بين المغرب والدول الاوربية بعد ان رجتها نتيجة المعركة لانها دارت فى الواقع بين المغرب ومعظم أبناء الدول الاوربية كما رأينا ، وازدهرت هذه المبادلات التجارية مع انجلترا بصفة خاصة ، بعد أن أصبحت ملكة انجلترا اليزابيث الاولى شبه حليفة للمنصور الذهبي وعلى اتصال دائم به ، عن طريق الرسائل والمبعوثين الخاصين .

وقد قتل سباستيان فى المعركة فى سن الرابعة والعشرين دون خلف ، فنتج عن ذلك مشكل للدولة يتمثل فى من يخلف الملك القتيل ، وقد خلفه على العرش عم أبيه هنري وكان فى السابعة والستين من عمره، وكان من كرادلة كنيسة روما الكاثوليكية ، ولكن ما لبث ان وافاه أجله هو أيضا فى 31 يناير 1580 ، فقام المشكل من جديد ، ولكن ملك اسبانيا فيليب الثاني بادر الى حله عن طريق ارسال جيوشه الى البرتغال . لاحتلالها بعد أن اعتبر نفسه وارثا لذلك العرش وقد ظل ملك اسبانيا ملكا للبرتغال أيضا من سنة 1580 الى سنة 1640 وكان ذلك نتيجة مباشرة لهزيمة معركة وادي المخازن .

وكان يطالب بعرش البرتغال فى ذلك الحين شخص آخر هو الدون انتونيو ، وهو ابن غير شرعي للملك هنري المتوفى ، ولما كانت اليزابيث الاولى ملكة انجلترا تخشى ان يطغى نفوذ خصمها الاول فيليب ملك اسبانيا بعد أن أصبح ملكا للبرتغال أيضا فقد هرب الدون انتونيو الى انجلترا التي آوته وبسطت عليه حمايتها ، وقد حاولت ملكة انجلترا أن تؤثر على

المنصور الذهبي ليقف الى جانب الدون انتونيو ويساعده على استرداد عرش البرتغال ، وبالرغم من شبه الحلف الذي كان قائما بين المنصور واليزابيث ، فقد كان للمنصور حساب آخر مع اسبانيا كان لا بد ان يدخله في اعتباره ويحمله على أن يعامل فيليب الثاني في حذر ، الى أن مات الدون انتونيو هو أيضا في سنة 1595 .

ويحسن هنا أن نقف مليا ، فقد ساعدنا تأمل ما حدث بعد وادي المخازن على فهم خطورة الموقف بالنسبة للاتفاق الذي كان قد تم بين سباستيان والمتوكل قبل المعركة ، يوم سلم الثاني للاول مدينة أصيلة .

ذلك أن فيليب الثاني كان يملك ورقتين استعملهما للضغط على المنصور ، فقد هرب أخ للمتوكل يدعى الناصر وابن له يدعى الشيخ ؛ وكانا معا يقفان في صفوف المسلوخ ، حتى اذا ما أصبحت البرتغال جزءا من اسبانيا أصبحا في رعايته وتحت حمايته ، ومما ينبغي الاشارة اليه في اهتمام أن الابن الشيخ لم يشارك اباه فقط في خيانة بلاده وانما اضاف الى ذلك أنه ارتد عن الاسلام واعتنق المسيحية في الاسكوريال في 3 نوفمبر سنة 1593 ، وحضر فيليب الثاني نفسه حفلة العماد ، بل قام بدور أبيه الروحي خلال ذلك ، بعد خمس عشرة سنة منذ الهزيمة ، أي أن فيليب كان يحمي هو أيضا مطالبا بالعرش المغربي أصبح مسيحيا ، ولا نعرف من من أنصار المتوكل الهاربين من ارتد عن الاسلام ، وأن كان معظمهم قد لقي نفس المصير الذي لقيه الجيش الصليبي ، ولكن هناك حقيقة يجب عدم اغفالها وهي ان الحاسة الدينية كانت ضعيفة في صفوف المسلوخ ، وان كان اعتناق الشيخ للمسيحية بعد هذه المدة الطويلة دليلا صارخا على أنه يئس تماما من أن يصبح ملكا للمغرب ، اذ كان من المستحيل أن يجلس على عرش البلاد ملك مسيحي ، والمنصور الذهبي في نفس الوقت في أوج عظمته .

واصبح المغرب بعد معركة وادي المخازن وفتوحات المنصور في افريقيا واستيلائه على مناجم الذهب من اغنى دول العالم ان لم يكن اغناها جميعا ، وبذلك ذاع صيته في الدول الاوربية وربما كان السبب في ذلك

يرجع ايضا الى ان المعركة دارت فى الواقع بين المغاربة والصليبيين والاوربيين مختلفي الجنسية كما المعنا .

« ذاع صيت المغرب بعد وادي المخازن بسرعة فوضع عنها شاعرا انجليزي يدعى ادوارد وايت قصيدة طبعت بعد أشهر فقط من حدوثها بعنوان « معركة باربري الدامية » ووضع عنها جورج بيل رواية بعنوان « معركة القصر » مثلت في لندن سنة 1594 ، كانت هذه المعركة هي التي لفتت أنظار الكتاب الانجليز الى المغرب ، لا بسبب ما أسلفناه فقط ولكن ايضا لان أحد المغامرين الايرلنديين الذين طبقت شهرتهم الآفاق ، والذي يقال عنه انه ابن سفاح للملك هنري الثامن والد الملكة اليزابيث قد اشترك فى هذه المعركة هو الكابتن توماس ستيوكلي الذي حارب فى فرنسا وفى اسكتلندا وعمل فى خدمة امبراطور المانيا ونظم حملة فى فلوريدا واصبح يحمل لقب مارشال ايرلندا ثم جردته منه الملكة اليزابيث فأنعم عليه البابا بلقب (مركيز) وعهد اليه بتحرير هذه الجزيرة ووضع جيشا لذلك تحت قيادته ، ونجده يشارك فى كل معارك عصره سواء دارت فى البر أو البحر ، فانضم بهذا الجيش بدلا من ذلك الى الدون سباستيان ، ملك البرتغال ، وكان مرتزقا فى صفوف الايطاليين فى معركة وادي المخازن حيث كتب لمغامراته ان يوضع لها حد نهائي فوق ارض المغرب ، فقد لقي حتفه في المعركة هو أيضا الى جانب الملوك والنبلاء والفرسان الذين لقوا حتفهم فيها .

والواقع ان عددا كبيرا من الانجليز كانوا على اتصال بالمغرب فى هذا العصر الذي نتحدث عنه وكانوا ينتسبون الى جميع الطبقات من الفرسان مثل السير انتوني شيرلي الذي جاب العالم وحارب فى صفوف جميع الملوك والامراء تقريبا ، فنجده فى فرنسا وفى البندقية وفى القسطنطينية وفى فارس وفى هنغاريا ، ثم نجده اخيرا فى المغرب زائرا فى أول الامر ، ثم موفدا من قبل امبراطور النمسا فى حربها مع تركيا — يحسن هنا ان لا تغيب الحوادث سالفة الذكر بين المغرب والعثمانيين عن البال — ، ثم نجد منهم من يزور المغرب لغير ما غرض سوى التعرف

عليه مثل رجل يدعى جون سميث الذي يعده المؤرخون أول سائــح زار المغرب سنة 1604 ، وقد عرض سيفه على السلطان ليحارب في صفوف المغاربة ، ولكن السلطان لم يهتم به ، كما عرف المغرب كثير من الاسرى الانجليز والتجار والجنود والاطباء بل والموظفين ، ومهرة الصناع الذين كان يستقدمهم السعديون ويطالبونهم من انجلترا وكانوا من الحداديــن والسباكين والنقاشين والبنائين وصانعي الساعات كما يحدثنا جون سميث هذا نفسه في كتابه عن المغرب » .

وكان عهد المنصور الذهبي الذي خلف أخاه عبد الملك من أحفــل العهود التي عرفها المغرب من حيث الازدهار الاقتصادي والتبادل التجاري والرخاء الاجتماعي ، وقد دام خمسة وعشرين عاما من معركة الوادي الى سنة 1603 وهي نفس السنة التي توفيت فيها اليزابيث .

يضاف الى ذلك أن المغرب أسر في معركة وادي المخازن عــددا كبيرا من الاسرى ، معظمهم من أبناء النبلاء والامراء ، وهم الذين جاؤوا مع سباستيان في مهرجانه الموهوم ، حتى اذا ما استتب الامر للمنصور غالي النبلاء والامراء في افتداء أبنائهم الذين بقوا على قيد الحياة ، بل افتتــح اكتتاب شعبي في البرتغال من أجل تحقيق افتدائهم .

وفي ذات الوقت تقاطرت على المغرب الوفود من سائــر الــدول الاوربية بصفة خاصة لتهنئة المنصور وتقديم الهدايا اليــه بمناسبــة الاحتفالات التي اقامها ، ومن سخرية الاقدار ان تكون البرتغال في طليعة الدول التي هنأته وقدمت اليه الهدايا .

واخيــــــرا

منذ عهد ادريس الاول الى عهد الحسن الثاني ظل المغاربة هكذا لا تبديل لهم : يجوز ان يختلفوا ، وان يختلفوا الى درجة الجنون في بعض الاحيان ، وان يحمل بعضهم السلاح في وجه بعضهم الآخر ، ولكن أخف

رنة تأتيهم من قبل جرس الخطر كافية لتوحيد صفوفهم ، وتوحيدهم فى الحال ، ولا يعني الخطر عندهم ما يتعلق بالاجساد والارض ، ولكن يعني ايضا ما يتعلق بالعقيدة والروح .

لم يتساءل احد من المغاربة من على حق ومن على باطل ؟ عبد الملك او المتوكل ؟ بل سارعوا الى الانضمام جميعا انضمام الرجل الواحد الى صف عبد الملك ، لان الامر كان يتعلق بدينهم ودنياهم فى نفس الوقت ، ولا يمكن أن يختلف المغاربة فى موقف من هذا القبيل ، وفى مثل هـــذا الوضوح ، ولا يمكن أن يعبر عن رأي الملايين انحياز ثلاثمائة أو أربعمائة منهم الى المتوكل المسلوخ الذي يعد فى الواقع الانحياز الى مصالحهم ومطامحهم ومغامرتهم بكل القيم التي يقدسها الشعب المغربي ولا يزال ، واذا مس أحد المغاربة فى عقيدتهم ، وفى أرضهم لم يتساءلوا من هو هذا الاحد وانما ثاروا فى وجهه فورا ودون تردد أو ادخـــال لعواقـــب فى حسبان ، فلقد اتحد المغاربة خلف عبد الملك بعلمائهم وطلابهم وصناعهم وسائر طبقاتهم ، ليس من أجل جماله ودمامة خصمه ، وانما لاجل مـــا تجسم لهم فى المتوكل من دمامة بطشه وغدره وجبنه وفساد عقيدتـــه ، ومحاولته فتح البوابة على مصراعيها أمام الجيوش الصليبية لغزو المغرب فى الوقت الذي لم تكن قد جفت فيه دماء مسلمي الاندلس ، واذا كـــان تصرف من هذا القبيل يعتبر استهانة بقيم العصر ، فانه أيضا استهانـــة يرى فيها التاريخ خيانة لا تغتفر ما بقي التاريخ .

ومنذ أصبحت الارض والعقيدة شعارا لسكان هذه البلاد من العرب والبربر تحت قيادة ادريس الاول ، ظل هذا الشعار ماثلا أمامهم فى مختلف عهودهم من معركة وادي المخازن فى القرن السادس عشر ، وفى جميع المعارك التي خاضوها من أجل تحقيق وحدة بلادهم منذ كانت هذه الوحدة معرضة للخطر ، سواء على سواحل المحيط أو تخوم الصحراء .

وحينما يتغنى المغاربة بأصالة بلادهم لا يعنون فقـــط الحضـــارة والعمران والعلوم والثقافة والفلسفة وتأثيرهم على الحضارة الاوربيـــة ،

وأنما يعنون فوق هذا كله بسالتهم في دفاع عن وحدة بلادهم في وجه كل خطر على مدار التاريخ ، واذا كانت هناك مدن ومناطق لا تزال مبتسرة من المغرب فانه لا يوجد مغربي واحد يشك في ان المغرب سوف يستكمل وحدته كاملة دون نقصان في أقرب الآجال .

ذلك أن أصالة المغرب هذه كانت الدرع التي صانت كيانه لان موقعه الجغرافي يفرض عليه أما أن يظل أصيلا واما أن ينقرض ، امام الدسائس التي كان يدبرها ضده آل عثمان في الجزائر والبرتغاليون والاسبانيون ثم الفرنسيون حينما خلفوا آل عثمان في الجزائر في النصف الاول من القرن التاسع عشر ، بالرغم من جميع ما حاق بالمغرب من هزائم عسكرية وديبلوماسية في القرن الماضي ، فقد استطاعت هذه البلاد ان تحقق أمانيها في خطوات ثابتة منذ استردادها للقاعدة التي اعتبرت أساسا لتحقيق وحدتها واستقلالها ، فان المغرب لم يحتل فقط سنة 1912 وانما مزق شر ممزق لعل دولة في الارض لم تقسم تقسيما مثله ، ولكن ذلك لم يستطع أن يفت في عضده بالرغم من تعرض مدينة طنجة الى مؤمرة دولية ، ولكن الشعب المغربي تقبل ما فرض عليه ذلك من فادح التضحيات عن رضى وطيب خاطر بسبب أصالته التي نتحدث عنها فانه لم يخلق بعد من يستطيع أن يلحق ضررا بهذا الشعب ويفلت به.

وتتمثل روعة شعار الارض والعقيدة بالمغرب في القرن العشرين حينما أقدم الفرنسيون على اصدار ما يعرف بالظهير البربري سنة 1930 ، كان هذا الظهير سبب انطلاق الحركة الوطنية التي انتهت باستقلال المغرب وآذنت بتوحيد جميع مناطقه تقريبا من جديد .

ونحن حينما نتحدث عن معركة وادي المخازن التي تحل اليوم ذكراها الاربعمائة لا نتحدث عن المغرب الذي كان ، وانما نتحدث عن المغرب الذي كان ولا يزال ، عن المغرب الذي لا يتبجح بالماضي ، وانما يعتز به لانه منطلق لحاضره ومستقبله ، هذا المغرب الذي

يمكن ان يعثر ويصاب ، ولكن لا يمكن أن يسقط لان له تاريخا يحميه من ذلك ، واذا حاول احد أن يمس كيانه ووحدته لم يهب الشعب كرجل واحد لصد العدوان ، وانما تألق فكرة الى جانب ذلك حدة ذكاء .

وقد مرت اربعة قرون لم يعرف طوالها المتوكل بين المغاربة الا بـ « المسلوخ » ليس فقط لانه ارتكب ذنبا لا يغتفر في حق بلادهم يوم عرض عقيدة هذه البلاد وأراضيها الى خطر ماحق ، على يد ذلك الجيش الصليبي الغبي ، وانما لانهم ـ الى جانب ذلك ـ يشمئزون من أن يكون في تاريخهم رجل في مثل دناءته وخسته ، وكأنهم يعاهدون الله على أن لا يوجد في تاريخ مستقبلهم القريب او البعيد شخص من هذا القبيل .

الرباط **عبد المجيد ابن جلون**

الأبواب في الأندلس

د . التهامي الراجي الهاشمي

لـمـاذا هـذا البحـث ؟

بدأ كثير من الناس في أيامنا هـذه ، يتخصص فـي الدراسات الأندلسية ، منهم من تفرغ للبحث في تاريخها، ومنهم من شغل نفسه بشعرائها ، ومنهم من جعل همـه البحث عن فلاسفتها ، ومنهم من تضلع في أعلامها ، ومنهم من أفنى العمر في البحث عن أمثالها وأزجالها .

وكل هذه الفئات وغيرهـا مـن الدارسين في أمـس الحاجة الى معرفة أسماء أمكنتها ، اذ لو جهلتهـا لجـاء عملهـا ناقصا .

ولا شك أن كثيرا من أعلام البقاع ستغيب عن ذهن الاندلسين (بسين وياء ونون) (1) ، الذين يجهلون اللغة الاسبانية أو يعرفونها ، ولكنهم أثناء دراستهم في تخصصاتهم المختلفة عنها غافلون .

فكيف سيعرف الأندلس (بضم الدال هذه المرة) (2)، ان لم يكن على علم سابق ، أن Puerta de Pechina ان وجدها في مراجعه ، هي تلك الباب التي كانت تعرف عند العرب بباب بجانة .

---

(1) اقصد بـ « الانديليسين » ، بدون ياء النسبة بعد السين ، العلماء الذين تخصصوا فى فرع من فروع الدراسات الاندلسية . وارجو ان يتسع صدر اصدقائنا المهتمين بهذه الدراسات ويفكروا فى الامر مليا قبل ان يرفضوا هذا المصطلح . لا شك انهم سيقولون لنا : عندهم لفظة « الاندلسيون » بياء مشددة ، نسبة الى الاندلس ، فلما ذا يغيرونها الى « الاندلسون » بدون ياء نسبة ؟ اقول لهم الضرورة تحتم علينا ان نفرق بين أمرين مختلفين كل الاختلاف . « الاندلسيون » بياء النسبة هم سكان الاندلس ؛ ابن باذش ، الداني ، المهدوي ، الشاطبي اندلسيون ؛ انهم يسكنون الاندلس ؛ أما فلان الباحث المغربي أو فلان المصري او فلان العالم التونسي الذين يهتمون بالدراسات الاندلسية وليسوا بساكنيها فهم أندلسون. لقد حان الوقت لنبدأ فننطلق من المفاهيم لايجاد اللفظ ، لا بد أن يكون عندنا مفهوم لكل لفظ ولفظ لكل مفهوم .

(2) الاندلس (بضم الدال) هو المهتم بالدراسات الاندلسية من غير سكان الاندلس ، وهو الذي اقترحت جمعه على « الاندلسون » . وأعتقد ان ذلك سيجوز لي ؛ لقد سموا الشعر الذي يقال فى المرأة « غزلا » بفتح الزاي وسموا الرجل الذي يقول هذا الشعر « غزلا » بكسر الزاي .

أو كيف ، ان أراد أن يعرف أكثر عـن « مصيصة »
وما آلت اليه في عصرنا الحاضر أن يعلم أنها هي Mopsueste
الذي دفن فيها « من لم يكن أفضل منه على وجه الارض »
كما يقول صاحب « تذكرة الحفاظ » ؟ ومن دفن فيها هو
ابراهيم بن محمد بن الحارث بن اسمـاء بـن خـارجـة
الفزاري (3) .

بل كيف يستطيع ، ان أدى به البحث والتنقيب الـى
أن يعلم أنها « **منية بني نوح** » ؟ Almonia de dona

أنا لا أنكر أنه سيعرف كثيـرا من أعـلام الأماكـن
بالاندلس ، ما دام عمله ملتصقا بها ، ملازمـا لشؤونهـا
ولكنه سيعرف السهل المتقارب في اللغتيـن القشتاليـة
والعربية ، مثل « **وشقة** » التي يرشده حدسه بسهولـة
الى Huesca ان لم يختلط عليه الامر مع Huecas التي كان
العرب يسمونها **وقش** ، هذه التي ينتسب اليها الوقشيون

كما لا شك سيعرف ، وبسهولة أيضا ، أن Barbostro
هي بشتر تلك التي اقتحمها المسيحيون أيـام أحمـد بن
سليمان الملقب بالمقتدر بالله وارتكبوا فيها فظائع لـن
ينساها الدهر أبد الآبدين .

لكن أليس هناك احتمال ، ان لم يأخذ حذره مـن أن
تختلط عليه « Bobastro» هذه بـ Barbostro التي كانت

تعرف عند أجدادنا بـ : « ببشتر » وهو حصن التجأ اليه العالي الحمودي حين ثار عليه ابن عم له محمد بن ادريس؟

هذا وأمثاله هو الذي دفعني الى كتابة هذه الدراسة راجيا أن أسد بها هذا النقص الذي تشتكي منه الدراسات الاندلسية .

الأبواب

باب ابن احمد :

توجد هذه الباب ، حسب ما أخبرنا به أبو عبد الله بن أبى بكر القضاعى البلنسى ابن الابار فى «تكملة الصلة » (3) في مدينة مرسية Murcia ، ولا نعرف من هو بالضبط هذا « ابن احمد » .

باب ابن عبد الجبار :

هذه باب من أبواب قرطبة وتعرف أيضا بباب طليطلة الشرقية Puerta de Toledo حسب ما أخبرنا به ابن سهل (4)

---

(3) « تكملة الصلة » ، الصفحات 236 ، 358 ، 429 و 575 من طبعة Codera مدريد 1887 .

(4) « الاحكام الكبرى » انظر اللوحة 212 الوجه الاول من مخطوط الرباط.

وابن الابار (5) . ينسب هذا الباب (5 م) الى عبد الجبار ابن الخطاب بن مروان بن نذير مولى مروان بن الحكم .

باب الأحمر :

هذه باب من تلك الابواب التي تحمل اسماء أعلام لا نعرف عنها الا النزر القليل ، مثل باب عباس (6) ، التي تشير اليها التكملة (7) ، وباب عبد الجبار السابقة الذكر ، وباب عامر القرشي (8) التي ذكرتها الحلة (9) ، وتلك التي تسميها الوثائق المسيحية التي كتبت سنة 1187 و 1189 بـ « Benhayoun » الموجودة في وشقة (huesca)

---

(5) ابن الابار « التكملة » صفحة 279 .

(5)م «التكملة لكتاب الصلة » الجزء الثاني ، ص. 564 السطر الثالث قبل الاخير ، من طبعة القاهرة سنة 1375 هـ (1956 م) .

(6) انظر مزيدا من التفصيل عنها في كتاب : Histoire de l'Espagne musulmane لصاحبه Levi-Provençal ، الجزء الثالث صفحة 380 ، طبعة باريس 1953 .

(7) « التكملة » ، صفحة 279 .

(8) انظر كتاب صديقي الاستاذ Ocana Jiménez المسمى ب : Las puertas de la Medina de Gordoba صفحة 143 .

(9) ابن الابار ، الصفحتان : 52 و 53 .

توجد باب الأحمر في سبتة (10) .

ـ باب الأسد : (Puerta del leon)

توجد هذه الباب حسب ما يخبرنا به الفقيه (11) Simonet, Francisco G. في المرية . (Almeria)

ـ باب اشبيلية :

توجد هذه الباب العربية في طليطلة (12) (Toledo) كما توجد باب بهذا الاسم في مدينة ولبة (Huelva) (أنظر الصورة) وبالضبط في نبلة (Niebla)

ـ باب أشونة :

---

(10) انظر « **اختصار الاخبار** » لمحمد بن القاسم بن عبد المالك الانصاري ، في البحث الذي أنجزه عنه Levi-Provençal تحت عنوان :
«Une description de Ceuta muulmane au XV siècle»
والذي نشر بمجلة Hesperis العدد 12 سنة 1931 ، الصفحتين 145 و 146 .

(11) في كتابه Historia de los mozarabes de Espana صفحة 75 من طبعة مدريد 1897 ـ 1903 ، وعلى الخصوص الحاشية رقم 3 .

(12) انظر كتاب
La péninsule ibérique au moyen-âge d'après le Kitab ar-Rawad al-Mi'tar
للمؤلف Levi-Provençal ، صفحة 214 من طبعة Leiden

هي احدى الابواب التي أقيمت على رأس زاوية السور بمدينة استيجة (Ecija) وكان يوجد ، بعيدا عنها ، في نفس السور ، أبواب أخرى سنتحدث عنها في أماكنها . وكان يعلو بعضها بروج مثمنة الزوايا ، لقد هدمت ، بكل أسف معظم هذه الابواب ، لكن بقيت من بعضها بقايا يستطيع الزائر أن يراها .

يظهر من الوصف الذي تقدمه لنا وثائق بلدية استجة أن هذه الباب كانت جزءا من سور موحدي ، ولـذا كانت تشتمل في داخلها على منعرجات قضت قرارات بلدية بالاستغناء عنها تسهيلا للمرور (13) .

كانت لمدينة Jerez de la frontera هي أيضا باب بهذا الاسم ، عرفت فيما بعد بـ« **باب الانكسار** »Puerta de Rota

كما كان أيضا لاشبيلية وللجزيرة الخضراء ولطريفة باب بهذا الاسم كما تنص على ذلك الاخبار المسيحية المتعلقة بغزو مدينة الجزيرة الخضراء من طرف الاسبان سنة 1344 . كما كانت توجد باب تحمل هذا الاسم في مدينة غرناطة .

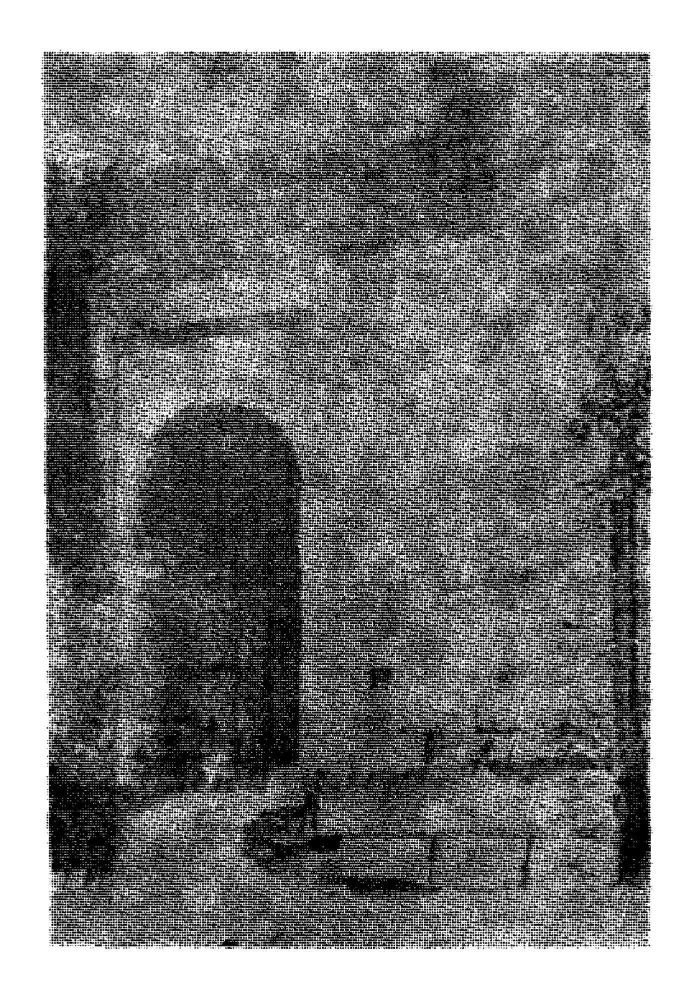
باب بجانة :

كانت هذه هي الباب الرئيسية لمدينة المرية (Almeria)

---

(13) انظر القرار الذي صدر في هذا الشأن سنة 1570 في Archivo municipal de Actas capitulares de 1567-79.

اللوحة 477 ابتداء من الوجه الاول . وكذا أيضا في Catalogo arqueologico de la provincia de Sevilla t. III p. 213.



نبلـــة (ولبـــــة) بـــاب اشبيليـــة

حسب ما يذكره لنا ابن بشكوال في الصلة (14) وابن الابار في التكملة (15)
كانت تحمل الاسم « بجانة » لأن منها كان القاصد الى مدينة بجانة Pechina يخرج .

وبعد أن سقطت المدينة في يد المسيحيين ، غير اسمها (16) ، فصارت ، مدة من الزمن تعرف بـ Puerta de Purchena رغم أن هذه المدينة القديمة توجد في مقاطعة أخرى غير مقاطعة المرية .

باب البحر :

كثير من الابواب الاندلسية أخذت اسمها من حوادث جغرافية محلية ، مثل ما وقع بالنسبة لهذه الباب التي توجد تجاه البحر في لشبونة (17) (Lisboa)

(14) انظر : « كتاب الصلة فى تاريخ ائمة الاندلس وعلمائهم و محدثيهم وفقهائهم وأدبائهم » . نشر Codera, Francisco فى مدريد سنة 1882 وسنة 1883 من صفحة 420 الى صفحة 500.

(15) انظر « **تكملة الصلة** » نشر Codera بمدريد سنة 1887 ، صفحة 329 . او الطبعة الذي عنى بها المرحوم محمد ابن شنيب والمستشرق Bel . الصفحتين 103 و 104 وكذا التعليق رقم 3 الموجود فى هذه الصفحة 104 . ظهرت هذه الطبعة فى الجزائر العاصمة سنة 1920 .

(16) لم تهدم هذه الباب العربية الا فى القرن السابق .

(17) انظر لمزيد من التفصيل ترجمة كتاب « **روض المعطار** » للمستشرق Levi-Provinçal **المطبوع** فى Leiden سنة 1938 ، صفحة 22 .

بـــاب بـفـــاف :

توجد هذه الباب في أحد أربـــاض مدينـــة غرناطـــة . ومعلوم أن ابن فضل الله العمري عد في القرن الرابع عشر الميلادي أربعة أرباض في غرناطة الاسلامية (18) هم :

1 – **رباض نجد** الذي كان ، كما أخبرنا العمـــري ، في غرب المدينة عامرا بالسكان ومحاطا بسور أضيف الـــى المدينة في أواخر القرن الثالث عشر ، اما عند غيره فيوجد خارج المدينة ، قريبا جدا من جبل السبيكة (19) .

2 – **رباض باب الرملة** الذي يعـــرف عنـــد الاسبـــان بثلاثة أسماء (20) . فهم يطلقون عليه تارة :

Arrabal de la puerta de la Rambla

---

(18) انظـــر ذلـــك في الترجمـــة التـــي انجزهـــا المستشـــرق Gaudefroy-Demombynes لكتـــــــــاب :
« **مسالك الابصار في ممالك الامصار** » لابن فضل الله العمـــرى الصفحتين 232 و 233 من طبعة باريس 1927 .

(19) حـــده ، بشكل دقيـــق ، المرحـــوم Seco de Lucena في مقال له تحت عنوان : «De toponimia granadina» الذي نشر بمجلة «Al-Andalus» الجز 26 سنة 1951 من صفحة 49 الى صفحة 64 .

(20) كان هذا الرياض محاطا بسور يحمي سكانه من الغزوات ؛ انظـــر مزيدا من التفصيل عنه في كتاب Gomez Moreno, Manuel المسمى ب guia de granada المطبوع بمدريد سنة 1907 ، صفحـــــة 247 .

وتـــارة يسمونـــه : La plaza de Bibarrambla
وأخـــرى بـــ : Arrabal de Arenal

وسنتحدث عن هذه الباب في الابان المناسب .

3 – **رباض الفخارين** الذي كان يعرف عند الاسبان بـ Arrabal de los Alfareros وقد جعله استاذنا المرحوم Seco de Lucena في المكان الذي يسمى الآن (21) بـــ La plaza de Fortuny وعلى كل فقد كان ملتصقا بـ« **بـــاب الفخارين** » التـــى سيأتي الحديث عنها في حرف الفـــاء .

4 – **رباض البيازين** الذي كان بعض الاسبان يطلـــق عليه Arrabal de los Halconeros كان يوجد هذا الرباض شمال غرناطة الاسلامية ، قرب الباب التي تهمنـــا الآن ، وهـــي **باب بفاف** . وكان أكبر رباض المدينة على الاطلاق ، لقد كان فعلا كما يقول كثير من المتخصصين الاسبان :
«una gran urbe independiente» و
أي « حاضرة كبيرة مستقلة » . كان لهـــا مسجدهـــا الجامع وادارتها المستقلة . يحمل هذا الـــرباض ، فـــي الوقت الحاضر الاسم العربي مقشتلا . Albaicin

(21) انظر بحث المستشرق
«Documentos arabes granadinos» Seco de Lucena
المنشور في مجلة Al-Andalus العدد 11 السنـــة 1944
ابتداء من الصفحـــة 136 .

ـ بـاب بـطـلـيـوس : Puerta de Badajoz

هذه باب كانت في مدينة قرطبة الاسلامية . كان يوجد في هذه المدينة أبواب أخرى غيرها تحمل اسمـاء مـدن تبعد قليلا أو كثيرا عن قرطبة (22) . وكانوا يطلقون على الباب اسم المدينة المواجه للباب بحيث يعرف الاتجـاه الذي يتجه اليه المسافر حين يخرج منها .

ـ بـاب الـبـلاط :

توجد هذه البـاب في المدينـة (23) Al mudayna de Gomera التي تقع شرقي ميورقة Palma de Mallorca

لقد وجد المنقبون الاسبان ، حين حفرت البقع القريبة من هذه الباب ، خلال السنتين الميـلاديتيـن 1881 و 1882 أحجار مقابر من نوع الكلس الابيض كتب علـى قاعـدة عمودها بخط كوفي مشجر ، أشيـاء متعلقـة بأصحـاب القبور ولكنها لا تحمل تواريخ .

---

(22) انظر تفصيل ذلك فى كتاب «**اخبار مجموعة**» فى النصف المترجم الى اللغة الاسبانية بعناية Alcantara, و Lafuente طبعة مدريد سنة 1867 ، صفحـة 33 .

(23) تقرأ بالتصغير (بضم الميم وفتح الدال) .

يعتقد المتخصصون أن هذه الكتابات وقعت في عهد بني غانية الذين حكموا الجزيرة من 525 هجرية الـى 599 هجرية (1131 م — 1202) (24).

ـ بـاب بيطـالـة :

حدد ، في أواخر القرن الماضي ، هذا الباب تحديـدا دقيقا ، مستعملا الاسماء العربية التـي كـانت تحملهـا الاماكن القريبـة منهـا الكـاتب Prospero de FOFARULL y Mascars في كتابه الذي وضعه باللاتينية جاء في هذا الكتاب (25) :

«... in loco illo qui est ante portam de Boatella, prope ciminterium et portam de Boatella, contiguatas vie publice que vadit ad Roçafam ; ortum subtus via de Roçafa qui contiguatur cum valle prope cimiterium de Boatella.»

نستنتج من هذا النص أن باب **بيطالة** كانت قريبة من المقبرة الاسلامية التي كانت تحمل اسمها على الطريـق العمومي المؤدي الى **الرصافة** .

وكانت الباب ومقبرتها جنوب بلنسيـة Valencia وبهذه المقبرة دفن عبد الله بن أبي بكر القضاعي والـد

---

(24) انظر كتاب Rodrigo Amador de los Rios المسمـى : Epigrafia arabiga, Monumentos sepulcrales de Plama de Mallorca. El Cementerio real de la Al mudayna de Gomera. من صفحة 357 الى 380 . وانظر كذلك اللوحـة رقـم 21 في الصفحة 89 من كتاب **Lévi Provençal** المعنـون ب : Inscriptions arabes d'Espagne.

(25) انظر الكتاب Repartimientos de Mallorca, Valencia y Cerdena المطبوع بلشبونة سنة 1910 ، الصفحتين 230 و 231 .

ابن الابار المشهور سنة 619 هجرية (26) (1222 — 1223 م) .
كان عبد الله يخرج كل يوم من هذه الباب قاصدا مسجد « السيدة » الذي كان يقوم بالامامة فيه .

كما دفن قرب هذه الباب ، سنة 624 (27) هجرية (1127 ميلادية) محمد ابن احمد بن محمد بن اسماعيل أبو الحسن المعروف بابن سليمان الذي كان يملك حانوتا بحي العطارين (28) ، كما دفن بها ابن فطيس القرطبي (28 م) .

وبعد سنة من سقوط بلنسية ، أي في سنة 1239 ، منح خايمي الاول Jaime I للأقلية المسيحية بقعة من

---

(26) وقبل قرن من الزمن تماما ، اي سنة 519 هجرية (1125—1126م) دفن بها المحدث الورع مفتي بلنسية .

(27) كما دفن فيها قبل هذا الوقت بحوالي 78 سنة اي فى عام 546 هـ محمد بن ادريس بن عبد الله بن يحيى المخزومي الاديب الشاعر المحدث (انظر ترجمته فى « **التكملة لكتاب الصلة** » آخر صفحة 473 من الجزء الثاني ، طبعة القاهرة سنة 1375 هـ (1956 م) تصحيح ونشر السيد عزت العطار الحسيني .

(28) انظر كتاب Ribera Tarrago Julian المعنون ب : Disertaciones y Opusculos الجزء الثاني ، صفحة 21 من طبعة مدريد سنة 1928 .

(28م) انظر « **التكملة لكتاب الصلة** » رقم الترجمة 1316 ، من طبعة القاهرة سنة 1375 هـ .

الارض قريبة من **بـــاب بيطالـــة** (29) ، بجـــانب الطريـــق العمومي المؤدي الى الرصافة ، طولها 80 ذراعـــا على 50 لتكون مقبرة لموتاهم . نعتقد أن هـــذه المقبـــرة بقيـــت تستمعل الى سنة 1417 (30) .

ـ بـــاب الـــبـيـــرة :

كانت لمدينة غرناطة الاسلامية طريقان رئيسيتان ، واحدة تصل شمالها بجنوبها ، وثانية شرقيها بغربيها ، ثم تتشابكان في وسطها دون دوران و لاالتواء .

أما الأولى ، أي التي تصل شمال المدينة بجنوبها ، فكانت تبتديء بهذه الباب **باب ألبيرة** Puerta de Ebivra هـــارة بزقاق البيرة (31) ، فساحة الحطابين لتنتهي بباب أخرى تسمى la puerta de los molinos

---

(29) انظر مزيدا من المعلومات عن هذه الباب فى « **تكملة الصلة** » لابـــن الابار فى صفحة 274 من طبعة ابن شنيب و Bel فى الصفحات 43 ، 198 ، 333 ، 503 من طبعة Cadera

(30) انظـــر Archivo de la catedral فى يوم 9 يونيو 1417 .

(31) كانت هذه الطريق تتفرع الى فرعين : فرع تابعناه اعلاه وفرع ثانوي كان يؤدي الى مخرج آخر فى المدينة يسمى « باب الطوابين » .

أما الثانية فتبتدىء **بباب الرملة** فحي السقاطين فساحة الحطابين حيث تلتقي بالاولى لتنتهي بـ « **باب قادش** » (32)

وباب ألبيرة من الابواب الاسلامية التي احتفظت باسمها العربي حتى الآن ، ذلك أن الاسبان يسمونها اليوم La Puerta de Elvira

كما احتفظت بالاسم العربي الابواب « **مقرنة** »
La puerta de Macarena
و باب شقرة La puerta de Bisagra **وباب الرملة** Bibarrambla
وباب المخاضة (33) puerta del Vado التي يسميها الاسبان بهذا الاسم العربي مقشتلا فيقولون La puerta de Al mofala
أو La puerta de Almofada

باب التفالين (وقد تكون بالطاء فيكون لها معنى آخر).
يسميها الاسبان Puerta de Tefalin كما يطلقون عليها **باب المخاضة** (33) .

توجد هذه الباب في مدينة طليطلة . وكان قربها بساتين وأراضي الري وقصور . ومعلوم أن سكان طليطلة

---

(32) انظر كتاب Anales de granada لمؤلف Henriquez de jorquera, Francisco الصفحتين 31 و 32 طبعة غرناطة 1934 .

(33) « المخاضة » بفتح الميم ، هو ما جاز الناس فيه مشاة وركبانا . جمعوها على مخاض ومخاوض ، من فعل خضت الماء اخوضه خوضا وخياضا .

من المسلمين كانوا يهتمون اهتماما بالغا بالماء وبالحقول الخضراء وبالبساتين الغناء والقصور العامرة .

ولذا سنرى الفاظا عربية متعلقة بهذه المفاهيم باقية فى اللغة الاسبانية حتى الآن ، وهى موجودة بكثرة فى طليطلة **ونواحيها ، منها مثلا « المنية »** التي يطريها اطراء عظيما أبو الفضل العمري (34) . والمنية التي أقصد هي طبعا المنية التي شيدت قرب **باب التفالين** والتي عرفت بـ « **منية الملك** » (35) almunya real التي كان شعراء بلاط القرن الحادي عشر يشبهونها ببساتين الجنة .

لقد أمر ببناء هذه المنية الموجودة قرب باب المخاضة الملك الطليطلي المأمون بن ذي النون (535 هـ — 467 هـ) الموافق (1034 م — 1075 م) . وكلف بالاشراف على انجاز تشييدها وتنميقها عبد الرحمن بن محمد ابن عبد الكبير

---

(34) ازداد سنة 672 هجرية (1273 م) وتوفي سنة 732 هجرية (1331 ميلادية) .

(35) انظر مزيدا من التفصيل عند الادريسي ، صفحة 188 وكذا فى النص المترجم الى الفرنسية تحت عنوان :
Description de l'Afrique et de l'Espagne ترجمة M.G. de goge و R.Dozy طبعة Leiden صفحة 228 .
ومعلوم ان الادريسي أنهى تأليف كتابه سنة 1154 ؛ فلا يمكن أن يكون وصفه لطليطلة الا قبل سقوطها فى يد المسيحيين فى عهد Alfonso VI ؛ وقد كان سقوطها سنة 1085 م

ابن يحي بن وافد بن محمد اللخمي المشهور بأبي المطرف (36) .

كما كلف المأمون بن ذي النون السيدين أبا المطرف السالف الذكر وعبد الله محمد بن ابراهيم بن بصال بالاشراف على بستان الناعورة .

« وكانت هذه الجنة واقعة تحت أقدام طليطلة غير بعيدة من جسر القنطرة ، وكانت تقوم بما تقوم به اليوم حدائق التجارب النباتية الحديثة فتجلب اليها النباتات والاشجار الغريبة من البلاد البعيدة » (37) ، « ممتدة على نهر التاجة » (38) (el Tajo)

ولقد جاءت هذه المنية بفضل جهود الجميع آية في الجمال استحقت من ابن بسام الاسم الذي أطلقه عليها ، وهو **المنية المنصورة** » .

---

(36) ولد سنة 389 هجرية (1043 ميلادية) وتوفي سنة 467 هجرية (1075 م) .

(37) انظر المقدمة التي كتبها José Ma. Millas Vallicrosa وصديقي الاستاذ محمد عزيمان لكتاب ابن بصال « كتاب الفلاحة » وقد نشراه وترجماه الى اللغة الاسبانية وعلقا عليه صفحة 31 من طبعة معهد مولاي الحسن بتطوان سنة 1955 ابتداء من السطر 21.

(38) نفس المصدر السابق ، ونفس الصفحة .

قرر هؤلاء المهندسون ، ليزيدوا القصر روعة وجمالا بناءه على ربوة مرتفعة ، وليوصلوا الماء اليه ، أنشأوا ناعورة ترفع ماء تاجة الى أعلى نقطة في المنية ، فكان « **مجلس الناعورة** » Salon de la noria de la rueda hidraulica

وصف كل هذا الفقيه اللغوي والنحوي أبو عبد الله محمد ابن عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسي (39) في قصيدة أوردها الفتح بن خاقان (40) .

ومن الألفاظ العربية التي دخلت اللغة الاسبانية وبقيت فيها الى الآن **البركة** Alberca ومرج القاضي Marzalcadi وغيرها .

ـ باب الجامع :

يوجد هذا الباب في مدينة قرطبة . قال ابن بشكوال عنه « وهو باب قديم كان يدخل منه الخلفاء يوم الجمعة الى المسجد الجامع على الساباط (41) .

---

(39) التقى البطليوسي مع المأمون بن ذي النون يوما فى مجلس الناعورة من قصر المنية ، ويخبرنا ان القاعة كانت مضيئة وكأن الشمس فى وسط السماء .

(40) أنظر **القلائد** صفحة 194 .

(41) نقل هذا الشيخ أحمد بن محمد المقري التلمساني فى كتابه نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب » الجزء الاول ، صفحة 465 ، السطر الرابع من طبعة دار صادر ببيروت بتحقيق الدكتور احسان عباس ، طبعة سنة 1388 هـ (1968 م) .

ـ باب الجزيرة الخضراء :

هذه باب أخرى من الأبواب السبعة التي كانت توجد في مدينة قرطبة ، وقد كانت كما يقول صاحب « أخبار مجموعة » أو بالاحرى مترجم هذه المجموعة

La puerta de Algeciras que es la del puente

(42) . وفعلا كانت على الجسر كما يقول ابن بشكوال : « باب القنطرة الى جهة القبلة ويعرف بباب الوادي وبباب الجزيرة الخضراء وهو على النهر » (43)

ـ باب الجنان :

يوجد باب الجنان هذا في قرطبة قدام المسجد الذي أمر ببنائه هشام ابن عبد الرحمن حين فتح **أربونة** Narbonne واشترط على المعاهدين من أهل جليقة من صعاب شروطه انتقال عدد من أحمال التراب من سور أربونة المفتتحة يحملونه الى باب قصره بقرطبة ليبني به المسجد المذكور المواجه **لباب الجنان** (44) ، تلك الباب

---

(42) « **اخبار مجموعة** » ترجمة Alcantara و Lafuente صفحة 33 من طبعة مدريد 1867 .

(43) نفح الطيب ، الجزء الاول ، صفحة 465 ، السطر الثامن .

(44) «**نفح الطيب**» . طبعة صادر ، الجزء الاول ، صفحة 337 السطر السادس .

التي وقف أمامهاأردون بن أدفونش حين قدم على الحكم المستنصر بالله (45) .

ويطلق عليها أيضا الباب القبلي (46) .

ـ باب الجوز :

توجد باب الجوز (puerta del Nogal في قرطبة وتؤدي الى السوق الذي يحمل نفس هذا الاسم (El zoco del Nogal)

وهذا الباب هو من الابواب التسعة التي عدها ابن بشكوال في قرطبة (47) . وكانت تعرف ايضا بباب بطليوس Badajoz

ـ باب الجهور :

توجد باب الجهور في مدينة اشبيلية .

ولقد عظمت أهمية هذه الباب بعد سنة 567 هجرية حين قدم الخليفة الموحدي أبو يعقوب يوسف الى مدينة

---

(45) نفس المصدر السابق ، صفحة 389 .

(46) نفس المصدر السابق ، صفحة 464 .

(47) انظر « **نفح الطيب** » للمقري ، تحقيق الدكتور احسان عباس ، طبعة 1388 هـ ، بمطبعة صادر بيروت ، صفحة 465 ، السطر الثالث عشر .

اشبيلية التي دخلها في شهر صفر من السنة الهجرية المذكورة أعلاه (1171 ميلادية) ثم أمر ببناء قصور، سمى اثنين منها « **قصري البحيرة** » Alcazares de la Buhayra شيدهما خارج هذه الباب : باب الجهور ، وأحاطهما ببساتين نقل اليهما الماء من **قلعة قديرة** Alcala de guadaira مستعملا لذلك القنوات التي تركها الرومان والتي كان الاسبان يسمونها (48) . Canos de Carmona

باب الحديد :

ما يزال يرى ، حتى الآن ، في قرطبة التخطيط العربي للأزقة (49) التي كانت تشق المدينة ، وتصل الابواب المتقابلة بعضها ببعض .

---

(48) انظر ما تركه لنا المعاصر لهذه الاحداث ابن صاحب الصلاة في : «Notas sobre Sevilla en la epoca musulmana» من صفحة 189 الى صفحة 196 .

(49) مفردة « **زقاق** » ؛ وقد حرف هذا الاسم سكان بلنسية في أواخر القرن الرابع عشر الميلادي (1372 بالضبط) فصاروا ينطقون بها Asucach انظر مزيدا من التفصيل عن هذه النقطة بالذات عند Texidor Fr. Josef في كتابه المعنون ب : Antiguedades de Valencia ، الجز الاول ، صفحة 142 من طبعة بلنسية سنة 1895 .

أما الزقاق الرئيسي الذي كان يصل شمال المدينة بجنوبها فكان ينطلق من باب **مستودع العظام**
Puerta del Osario
أو باب ليون Puerta del Leon وهو **الزقاق الذى يمر الآن في** قرطبة الحالية بزقاق عيسى ومريم Calle de Jesus y Maria فعقبة (Pedregosa) فالقصر فالمسجد الكبير ليخرج من المدينة من **باب القنطرة** Puerta del puente كان هذا الزقاق يسمى المحجة العظمى ويمر تحت الساباط الذي كان يصل القصر بالمسجد .

أما الزقاق الاخر الذي كان يربط الشمال الشرقي للمدينة بالجنوب الشرقي منها فكان ينطلق من **باب عامر** التي تحمل في الوقت الحاضر la puerta de Gallegos لتنتهي بالباب التي تهمنا الآن وهي باب الحديد Puerta de Hierro وتمر الان في قرطبة 1978 بالازقة الآتية :
Concep:on, Gondomar, Alfonso XIII, Zapateria
كان هذا الزقاق ، في القديم ، عندما يتعدى **باب الحديد** يواصل مسيرته خارج المدينة بما كان يسمى عند القطربيين المسلمين بالزقاق الكبير (50) .

---

(50) انظر « البيان المغرب فى اختصار ملوك الاندلس والمغرب » ، ص 77 وكذا صفحة 124 من الترجمة الاسبانية التي انجزها Ambrosio Huici Miranda طبعة تطوان سنة 1953 .

ـ باب الحنش :

كانت هذه الباب موجودة في السور الذي كان محيطا بمدينة بلنسية (51) ، ويظهر انها كانت ملتقى الظرفاء في ذلك الوقت .

جاء في قلائد العقيان للفتح بن خاقان (52) ، أثناء حديثه عن ترجمة ابن طاهر :

« وجئته يوما وقد وقفت بباب الحنش ، فقال لي : من أين ؟ فأعلمته ، ووصفت له ما عانيت من حسنه وتأملته ، فقال لي : كنت اخرج اليه في أكثر الليالي مع الوزير الاجل أبي بكر ـ يعني ابن عبد العزيز ـ الى روضته التى ودت الشمس أن يكون منها طلوعها ، وتمنى المسك أن تنضم عليه ضلوعها ، والزمان غلام ، والعيش احلام ، والدنيا تحية وسلام ، والناس قد انتشروا في جوانبه ، وقعدوا على مذانبه ، وفي ساقيته الكبرى دولاب يئن كناقة اثر حوار ، أو كثكلى من حر الاوار ، وكل مغرم يجعل فيه ارتياحه ،

---

(51) خلافا لما اعتقده صديقي الدكتور احسان عباس الذي جعلها سرقسطة مع أن الكتاب الذي حقق لا يذكر ذلك مطلقا . والكتاب الذي حققه هو نفح الطيب الذي ينقل الفقرة التي جاء فيها ذكر باب الحنش عن قلائد العقيان . انظر النفح ، الجزء الثامن ، صفحة 187 السطر 21 من العمود الثاني .

(52) صفحة 64 من طبعة بولاق .

بكرته ورواحه ، ويغازل عليه حبيبته ويصرف اليه تشبيبه ، فخرجت اليه ليلة والمتنبي الجزيري (53) واقف وأمامه ظبي آنس ، تهيم به المكانس ، وفي أذنيه قرطان ، كأنهما كوكبان ، وهو يتأود تأود غصن البان ، والمتنبي يقول :

معشر الناس بباب الحنش
بدر تم طالع في غبش

علق القرط من على مسمعه
من على آفة العين خشى

فلما رآني أمسك ، وسبح كأنه قد تنسك .

- باب الحنايا :

توجد هذه في لشبونة ، ولا أعرف عنها الا ما ذكره عنها صاحب كتاب « مدن اسبانيا الاسلامية (54) .

---

(53) انظر ترجمته في « **الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية** » تحقيق محمد بن أبي شنيب ، الجزء الثاني صفحة 401 من طبعة الجزائر 1920 .

(54) لمؤلفه Leopoldo Torres Balbas صفحة 661 من الجزء الثاني السطر 18 من طبعة مدريد بدون تاريخ .

- باب الخندق :

كانت باب الخندق la puerta del Barranco موجودة في غرناطة وبالضبط في الحمراء : وكانت المدخل الرئيسي لخندق سبيكة ، **والسبيكة** هو اسم المرتفع الذي توجد عليه الآن الحمراء .

كما كانت هذه الباب تؤدي الى المقبرة التي كانت تحمل اسم مقبرة السبيكة (55) .

- باب الخوخة :

كانت مالقة محاطة بسور يحميها ، وفي الجانب الشمالي من هذا السور فتحت باب رئيسي عظيم سنتحدث عنه في ابانه . وفي أضيق مكان من هذا الباب فتحت باب أخرى صغيرة يظهر أنها كانت بجانب خوخة ، ولذا عرفت بـ « باب الخوخة » (Puerta de Postigo) وكانت هناك أبواب أخرى تحمل نفس الاسم في كل من لشبونة والجزيرة الخضراء (56) .

---

(55) انظر مزيدا من التفصيل عن هذه الباب في كتاب Munzer, Jeronimo المسمى ب «Viaje por Espana y Portugal» الذي ظهر سنة 1495 والذي ترجمه الى اللغة الاسبانية José Lopes Toro طبعة مدريد 1951 .

(56) انظر La Péninsule Iberique لمؤلفها Levi-provençal صفحة 214 .

أما الباب التي تحمل هذا الاسم في فاس فهي أشهر من نار علــى علــم .

ـ بــاب الــدبــاغيــن :

كانت هذه الباب موجودة في طيطلة قرب نهر التاجة ، ولقد اندثرت الآن هذه الباب ، لكن ، ما زال المكان يحمل اسمها العربي مقشتلا (Puerta de Adabaquin) غير انهــم ، في هذه السنوات الاخيرة يطلقون عليها (Puerta de Hierro) (57)

ولقد ترك المسلمون في الموضــع المعــروف ببــاب الدباغين آية من آيات صنعهم . ذلك أن أبا القاسم عبـد الرحمان الزرقال صنع في هذا المكان حوضي النافورة ، قال الشيخ أحمد بن محمد المقري التلمساني :

---

(57) انظـــــر Los mozarabes de Toledo لصاحبـــــه Gonzalez Palencia الجزء الاول ، الصفحتين 63 و 64 من طبعة مدريد 1926 ، وانظر كذلك Analecta ,Dozy العــدد 1 ، صفحــة 126 . .

« ومن غرائب الاندلس : البيلتان (58) اللتان بطليطلة، صنعهما عبد الرحمن لما سمع بخبر الطلسم الذي بمدينة ارين من أرض الهند ، وقد ذكره المسعودي ، وانه يدور باصبعه من طلوع الفجر الى غروب الشمس ، فصنع هو هاتين البيلتين خارج طليطلة في بيت مجوف في جوف النهر الاعظم في الموضع المعروف بـ « **باب الدباغين** » ، ومن عجبهما أنهما تمتلئان وتنحسران مع زيادة القمر ونقصانه ، وذلك أن أول انهلال الهلال يخرج فيهما يسير ماء ، فاذا أصبح كان فيهما ربع سبعهما من الماء ، فاذا كان آخر النهار كمل فيها نصف سبع ، ولا يزال كذلك بين اليوم والليلة نصف سبع حتى يكمل من الشهر سبعة أيام وسبع ليال ، فيكون فيهما نصفهما ، ولا تزال كذلك الزيادة نصف سبع في اليوم والليلة حتى يكمل امتلاؤهما بكمال القمر (59) »».

---

(58) علق صديقي الدكتور احسان عباس على هذه اللفظة فقال في الحاشية رقم 1 من الصفحة 206 من النفح ، الجزء الاول :
« البيلة » : حوض النافورة ، وترادفها في الاستعمال أحيانا لفظة « خصة » وهي بالاسبانية والايطالية Pila وخبر البيلتين وصفهما مذكور بتفصيل في مخطوطة الرباط : 38 » .
أقول : ان اللفظة اخذت فعلا من (Pila) ، ومعناها الحوض ؛ لكن المقري استعمل « بيلتا » بامالة حركة اللام نحو الفتح ؛ الفتح الجانبي المغلق . فاذا نطقت به كذلك كان Pileta ومعناه الحوض الصغير . فلا شك أن ماصنعه عبد الرحمن كان حوضا صغيرا .

(59) نفح الطيب الجزء الاول ، صفحة 206 و 207 .

اما عندنا هنا في المغرب ف لاتكاد تخلو مدينة كبيرة في وطننا من باب تحمل هـذا الاسـم . ويخيـل الـي أن اشهرهن على الاطلاق هي باب الدباغين الموجودة فـي مدينة مراكش والتي دفن فيها الفتح بن خاقان المشهور سنة 528 هجرية (60) (1134 ميلادية) (61) .

وهي مشهورة أيضـا لأن منهـا دخلت جيوش صنهاجة وعبيد المخزن على من بقي مختفيـا مـن المرابطيـن في مراكش بعد حصارها من طرف عبد المؤمـن سنـة 541 هجريـة (62) .

ـ بـاب الـدفـاف :

كان بـاب الدفـاف

(Puerta de los tableros de las compuertas)

مقاما في غرناطة في مجرى النهر (63) .

ـ بـاب الـديـاسيـن :

لا أعرف شيئا عنها عدا انها باشبيلية (64) .

---

(60) جاء في **نفح الطيب** قوله : « وما حكاه في الاحاطة من تاريخ وفاته مخالف لما حكاه ابن الابار انه ليلة عيد الفطر من سنة ثمان وعشرين وخمسمائة » (انظر الجزء السابع ، صفحة 35) .

(61) انظر ايضا **معجم الادباء** 52/7 ، و **الوفيات** 117/1 .

(62) انظر **الحلل الموشية** ، تحقيق علوش ، صفحـة 114 ، طبعـة الربـاط 1938 .

(63) انظر كتاب **المدن الاسبانية** ، صفحة 651 .

(64) انظر **الذيل والتكملة** ، تحقيق احسان عباس ، السفر الخـامس ، القسم الثانـي ، صفحـة 771 .

باب رضى :

لا أعرف من هو هذا الرضى ، وكل ما أعرف عن هــذه الباب أنها كانت توجد في استجة Ecija (65)

واستجة هذه هي المدينة الاندلسية (66) التي ولــي القضاء فيها من قبل الحكم المستنصر ، محمد بن أحمد بن محمد بن يحيى بن مفــرج القرطبــي قبيــل سنــة 366 هجرية (67) . كما ولي القضاء فيها ، وقت الفتنة القاضي أبو الوليد الفرضي (68) .

- باب الرملة

سبق أن أشرت الى هذه الباب حين حديثي عن باب البيرة ، وكنت قلت آنذاك ان باب الرملة من الابواب التي

(65) Levi-Provençal La peninsule Iberique صفحــة 214.

(66) بينها وبين قرطمة ثلاثون ميلا ــ انظر النفــح الجــزء الاول ، صفحة 457 السطر الاول . والمنصور ابن ابي عامر هو الذي بنى قنطرة نهر شنيل وتجشم لها أعظم مؤونة ، وسهل الطريق المؤدية الى هــذه البـــاب .

(67) لا يمكن على كل الحال أن يتولى القضاء فيها الا بين سنــة 350 هجرية وهي السنة التي تولى فيها الحكم وسنة 348 هجرية وهي التي توفى فيها ابن مفرج .

(68) له كتاب « تاريخ علماء الاندلس » الذي ذيل عليه ابن بشكــوال كتابه الصلة . انظر ترجمته فى الصلة صفحة 248 وفى المطمح للفتح صفحة 57 وفى المطرب لابن دحية ، صفحة 132 . الخ .

ما زال اسمها ينطق بأصواته العربية في اللغة الاسبانيــة حتى الآن ، يسمونها Bibarrambla

كما كنت قلت هناك أيضا أنه كان لمدينـــة غرناطــة الاسلامية شارعان رئيسيان يشقانها ، الثاني منهما ، أي الذي يصل شرقي المدينة بغربها يبتدىء ببـــاب الرملــة لينتهي ببـــاب قادش .

بـــاب رومـيـــة :

هذا باب من الابواب السبعة التي عدها ابن بشكوال في قرطبة ، وقال عنه : « وباب رومية وفيه تجتمع الثلاثة الرصف التي تشق دائرة الارض من جزيرة قـــادش الـــى قرمونة الى قرطبة الى سرقسطة الى طركونة الى أربونة مارة في الارض الكبيـــرة (69) .

ـ بـــاب الــزاهــرة

توجد هذه الباب بقرطبة وفيها ضربت أعناق النصارى الذين يخدمون عند المنصور بن أبي عامر والذين كانـــوا يكاتبون اخوانا لهم في الدين يرشدونهـــم الـــى الاماكـــن الصالحة للاقامة من غير علم من المسؤولين المسلمين ،

(69) « **نفح الطيب** » ، الجزء الاول ، صفحة 465 السطر العاشر .

كما ضربت بها رقبة الشيخ الذي وجد الصقالبة في برذعة حماره رسالة النصارى (70) .

ولقد أشير اليها خطأ بـ «باب الزهاري» في النفح (71)

ـ باب الزياتين :

توجد باب الزياتين (Puerta de los aceiteros) في المرية Almeria (72) ولا شك ان هذا الاسم أتاها من كونها كانت بجوار تجار الزيت (73) .

وفي هذا الباب كان يلتقي الطالب الاستاذ أبو عبد الله محمد بن خليد بن محمد التميمي (74) مع الاستاذ أبي الحجاج القضاعي ليسمع منه (75) .

---

(70) نقل المقري الخبر فى « **نفح الطيب** » عن ابن حيان ، والقصة موجودة فى البيان المعرب لابن عذاري فى الصفحة 434 من طبعة تطوان سنة 1960 بتحقيق اميروسي هوسي ميراندا بمشاركة محمد بن تاويت ومحمد بن ابراهيم الكتاني .

(71) حرف الصديق الدكتور احسان عباس ، فى نفح الطيب الجزء الثامن من الصفحة 188 العمود الاول السطر الثالث « الزاهرة » الى « الزهاري » .

(72) دخلت هذه المدينة الاسلام على يد عبد الرحمن الثالث سنة 344 هجرية (955 ـ 956 ميلادية) وحصنها بسور عظيم الامير خيران العامري 403 هـ ـ 429 هـ (1012 ـ 1028 م) وسقطت فى يد المسيحيين سنة 1498 .

(73) انظر التكملة لابن الابار ، طبعة Codera ، صفحة 214 .

(74) توفي فى شعبان سنة 559 هجرية .

(75) « **التكملة لكتاب الصلة** » ، طبعة القاهرة ، الجزء الثاني ، صفة 495 الترجمة 1370 هـ آخر ترجمة فى هذه الصفحة .

ـ بـاب سبـع أراض :

توجد هذه الباب في قصر الحمراء بغرناطة ، وتمثـل الفن المعماري القديم الذي كان يحـرص علـى تتويـج الابواب المهمة ببروج (انظر الصورة) .

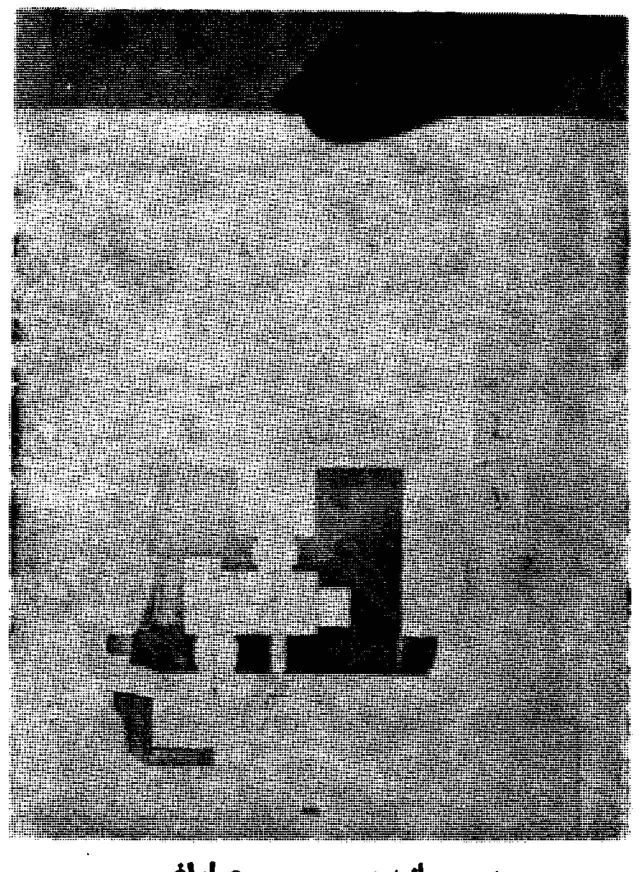
ـ بـاب السـدة :

توجد هذه الباب في قصر قرطبة الاسلامية ، ويظهـر أنها كانت مدخل الناس ، لكنها كانت في الجهـة الاخـرى المقابلة للمسجد المنسوب لابي عثمان الذي كان يصلى فيه كبير علماء المالكية في ذلك العهد أبو ابراهيم ويلقـى فيه الدروس على الطلبة .

ولاجل هذا البعد طلب هذا الفقيه من مبعوث الخليفة الناصر لدين الله أن يلتمس منه الاذن له بالدخول من باب الصناعة التي هي أقرب باب الى المسجد المذكور من أي باب آخر في القصر ، وهي أقرب على كـل حال من بـاب السدة التي كان عليه أن يدخل منها الى القصر .

قال أبو ابراهيم (76) : « ولكنني أضعف عن المشي الى باب السدة ، ويصعب على ركوب دابة لشيخوختـي وضعف اعضائي ، وباب الصناعة الذي يقـرب الي مـن

(76) « ازهار الرياض » الجزء الثاني ، صفحة 285 من طبعة القاهـرة سنـة 3939 ـ 1942 م ، تحقيق السقا والابياري وشلبي .



بـــــاب سبـــــــــع اراض

ابواب القصر المكرم أحوط وأقرب وارفق بي ، فان رأى أمير المؤمنين ـ أيده الله تعالى ـ أن يأمر بفتحه لأدخل اليه منه هون علي المشي ، وودع جسمي ، وأحب أن تعود وتنهي اليه ذلك عني حتى تعرف رأيه فيه ، وكذلك تعود الى فاني أراك فتى سديدا ، فكن على الخير معينا . ومضى عنه الفتى ، ثم رجع بعد حين وقال : يا فقيه قد أجابك أمير المؤمنين الى ما سألت ، وأمر بفتح باب الصناعة وانتظارك من قبله » .

وحين اعتلى الحكم المستنصر سرير الملك اثر وفاة أبيه الناصر لدين الله قعد المستنصر على سرير الملك في البهو الاوسط من الابهاء المذهبة القبلية التي في سطح السرد ، لاخذ البيعة ، وكان قائما على اخذها على الناس عيسى بن فطيس ، فوقفت كل طبقة من المبائعين في المكان المخصص لها . وكان الذي يقف يومه على باب السدة البوابون وأعوانهم . قال أحمد بن محمد المقري التلمساني (77) :

« وقامت التعبية في دار الجند والترتيب من رجالة العبيد عليهم الجواشن والاقبية البيض ، وعلى رؤوسهم البيضات الصقلية ، وبأيديهم التراس الملونة والاسلحة المزينة ، انتظموا صفين الى آخر الفصل ، وعلى

(77) « أزهار الرياض » ، الجزء الثاني ، صفحة 287 .

باب السدة الاعظم البوابون وأعوانهم ، ومن خارج باب السدة فرسان العبيد الى باب الاقباء » .

« ولما وفد أردون بن أذفونش على المستنصر ووصل الى ما **بين باب السدة** وباب الجنان سأل عن مكان رمس الناصر لدين الله فأشير الى ما يوازي موضعه من داخل القصر في الروضة ، فخلع قلنسوته ، وخضع نحو مكان القبر ، ودعا ، ثم رد قلنسوته الى رأسه ، وأمر المستنصر بانزال أردون في دار الناعورة ، وقد كان تقدم في فرشها بضروب الغطاء والوطاء ، وانتهى من ذلك الى الغاية (78) ،،، » .

ـ باب سرقسطة :

هذه في قرطبة ، وهي من الابواب السبعة التي عدها ابن بشكوال في هذه المدينة ، وهي التي أشرت اليها سابقا بباب الحديد ، كانوا يسمونها تارة باب الحديد وأخرى باب سرقسطة لان منها كان يخرج القاصد الى سرقسطة (79) .

ـ باب الاسلحة :

توجد هذه الباب في قصر غرناطة الاسلامية وتصل المدينة بهضبة الحمراء المقام فيها القصر وباقي البنايات.

---

(78) نفس المصدر السابق .

(79) ابن سهل «**الاحكام الكبرى**» اللوحة 212 أ من مخطوط الرابط .

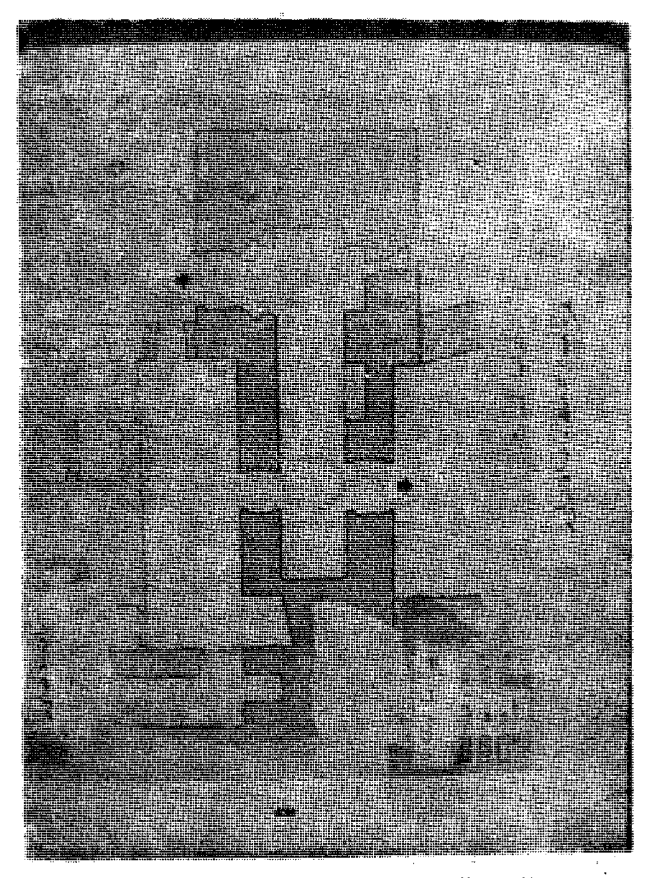
ولقد كانت وظيفة هذه الباب أن تجعل من القصبة بنايات مستقلة عن باقي بنايات القصر . وما كانت لتقوم بهذا الدور لولا ذلك الحائط الشمالي الذي يظهر انه أضيف في القرن الرابع عشر الميلادي (انظر الصورتين) .

ـ باب السمارين :

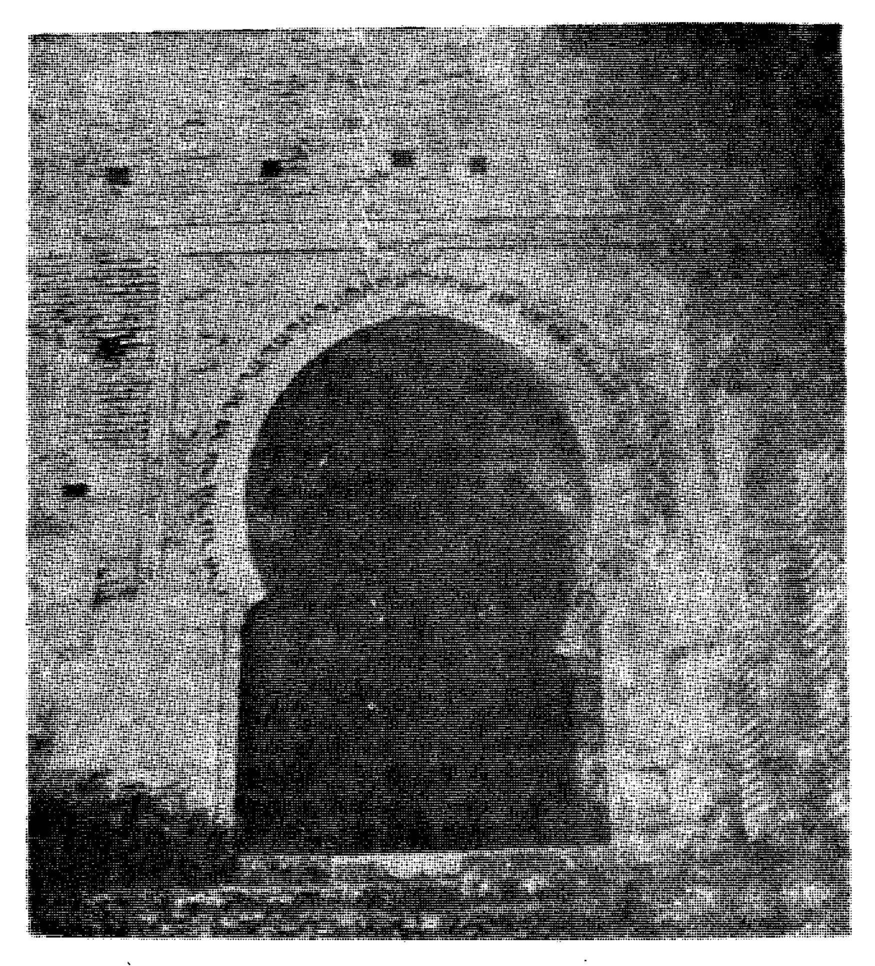
توجد هذه الباب بشاطبة، وهي التي التقى عندها، بدكان كانت هناك مبنية يلتقي فيها الادباء ، الاديب ابن خفاجة بالفقيه أبي عمران ابن أبي تليد وتجاذبا أطراف الحديث حول قول ابن رشيق (80) .

يا من يمر ولا تمر	به القلوب من الفرق
بعمامة من حده	أو خده منه استرق
فكأنه وكأنها	قمر تعمم بالشفق
فاذا بدا واذا انثنى	واذا شدا واذا نطق
شغل الخواطر والجوا	نح والمسامع والحدق

(80) انظر « بدائع البدائه » لعلي بن ظافر الازدي ، على هامش معاهد التنصيص ، صفحة 145 من طبعة القاهرة سنة 1316 هجرية .



غرناطة : مخطط باب الاسلحة



غرناطـــة : الوجـــه الخارجـــي لبـــاب الاسلحـــة

باب السويقة :

هذه باب من أبواب استجة (Ecija) الاسلامية ، ولا شك أن هذا الاسم أتاها من أن سوقا صغيرا كان ينعقد بجانبها (81) .

يعتقد بعض الباحثين أن بابا أخرى بهذا الاسم كانت موجودة في طليطلة ، وهؤلاء يرون أنها كانت باب درب يحمل نفس هذا الاسم لا بابا مفتوحا في سور المدينة (82) .

باب الشريعة :

كانت هذه الباب موجودة في كثير من مدن الأندلس ، وكلها كانت في السور المحيط بالمدن . وهكذا كان في مرسية باب الشريعة Puerta de la Xarea التي كان الاسبان يسمونها أيضا (Puerta de Exarea) اما في بلنسية فكنت ترى، زيادة على باب يحمل هذا الاسم ، ثلاثة أمكنة أخرى تحمل

---

(81) «**الروض المعطار**» ترجمة Levi Provençal الصفحة فى النص العربي 15 ، الصفحة فى النص المترجم 13 .

(82) انظر Los mozarabes de Toledo en los siglos XII y XIII. الصفحتين 235 و 236 من الجزء الثاني ، طبعة مدريد 1926 .

هذا الاسم (83) ، أحدهما Campo Exaree وثانيهما Villari Exaree وثالثهما Damos de Musalla (84) .

نستطيع أن نقول اذن انه كان ببلنسية، وقت سقوطها في قبضة المسيحيين على يد Jaime I باب وشارع وحي يحملون هذا الاسم . أما الباب فكان يوجد في المكان الذي يعرف الآن (85) بـ Congregacion وأما حي الشريعة فكان موجودا في المكان الذي يطلق عليه الآن Puente del Mar y el Temple.

واما الشارع فاحتفظ بالاسم العربي مقشتلا ، انه يحمل الآن اسم Calle de Exedrea ويبدأ بشارع Congregacion لينتهي بـ el portal del Temple

وجدير بالذكر أن نشير الى انه كان بمدينة فاس باب يسمى بباب الشريعة يطلق عليه الآن **بـاب المحـروق** . قال المقري ، وهو يتحدث عن لسان الدين ابن الخطيب :

---

(83) انظر «Diesertaciones y opusculos» لمؤلفه Ribera Tarrago, Julian ، الجزء الثاني ، صفحة 260 طبعة مدريد 1928 .

(84) انظر «Repartimientos de los reinos de Mallorca, Valencia y Cerdena» لمؤلفه Bofarull y Mascaro, Prospero في الصفحات 179 و 264 و 290 من طبعة برشلونة 1856 .

(85) حولت هذه الباب الى كنيسة فى سنة 1726 حسب ما يخبرنا به Teixidor فى «Antiquedades de Valencia» الجزء الاول ، صفحة 179 .

(86) « نفح الطيب » ، الجزء الخامس ، صفحة 156 ، السطر التاسع .

« زرت قبره مرارا رحمه الله تعالى بفاس المحروسة فوق باب المدينة الذي يقال له **باب الشريعة** ، وهو يسمى الان باب المحروق ، وشاهدت موضع دفنه غير مستو مع الارض ، بل ينزل اليه بانحدار كثير ، ويزعم الجل من عوام فاس أن الباب المذكور انما سمى بباب المحروق لاجل ما وقع من حرق لسان الدين به حين اخرجه بعض أعدائه من حفرته كما مر ، وليس كذلك ، وانما سمى باب المحروق في دولة الموحدين ، قبل أن يوجد لسان الدين ولا أبوه ، بسبب ثائر ثار على الدولة ، فأمسك وأحرق في ذلك المحل، والله غالب على أمره . وحصل لي من الخشوع والحزن عند زيارة قبره ـ رحمه الله تعالى ـ ما لا مزيد عليه ، جعل الله له تلك المحن كفارة وطهرة ، فانه كان آية الله علما وجلالة وحكمة وشهرة .

الربـاط د. التهامي الراجي الهاشمي



عمر بهاء الدين الاميري

سجدت أسبــح رب الــوجـود
وأمعنت حتــى عدوت الوجــود

وبحت ورحــت وغبــت وأبــت
وما من غــواش ولا مــن قيــود

وصرت كأني من الوجــد كنــه
يلــم بــه طيف وحــي صعــود

مــن الآي أتــلــو تــراتيلهـــا
فتنفــح عزمــي منهــا رفـــود

وقد كنت في روضة المصطفــى
أصلي ، وكان لروحــي يــرود

ونفسي ـ كما لم تكن قط نفسي بين السمو وبين السمود

ففي العين من صرم القدس دمع
غيور على حرمات الجدود

وفي الرأس أمشاج هم مجيد
وقصد بعيد ودرب كؤود

ومل كياني طموح سبوح
وحزم يشد وصعب يؤود

وفي الروح اشراقة من علي
ترف بها بارقات الخلود

صفاء حزين ، وغيب مبين
وذكرى تراءى ، وماض يعود

❀

سجدت أسبح ربي ، وقلبي
تواجد حتى تخطى الحدود

وحف به ثم ـ وهو الذي يؤج صرورا ـ يقين برود

كأن هيولى الرسالات ألقت
علي سلام تجل وجود

واني في صحبة المصطفى
أناجيه وحدي ، وما من حشود

فـزادت طمـأنينـة الذاكريـن
وهاج هيـام اتصال السجـود

ولاحـت لوامـع فيـض سنـي
وكان الفناء ،،، وكان الشهـود

❦

ولـف المصلـى كيانـي وقـد
كساه سنى الله أزهـى بـرود

فحلقـت أرهـف سمعـي الـى
صـدى ، وردود تليهـا ردود

وأرنو ، فابصـر مـلء المـدى
كمـاة يكـرون كـر الاسـود

وبيـن التهجـد ، في سرحـة،
وبين انتباهي ، وبيـن الهجـود

أراني ـ وقد جزت طوق الزمان
وألـق ذاتـي وثـاب شـرود

أراني يجلجـل في غـور عزمـي
أذان يهـز النفـوس الـرقـود

ويــرسلهــا صيحــة للبـــدار
تــدك معــاقــل كـفـر لــدود

فتجــري مــلاحــم للــه غـــر
على جندهــا مــن جهــاد زرود

ويستأنــف الفتــح صــولاتــه
فيــا للبــروق ويــا للــرعــود

وتصحــو البرايــا فـلا لا تــرى
سوى النور يغمر دنيــا سعــود

وقــد هتــك الــزور وانجــابت
الدياجي وخاب الظلــوم الكنــود

وحزب محمــد يحــدو الركــاب
ويربض بيــن القنــا والبنـــود

وقــرآنــه في يميــن القضـــاء
يمــد الوجــود بفجــر ولـــود

حيــاة حضــارتهــا مــن تقــى
وانســانهــا مستنيـــر ودود

* * *

يقــولــون حلــم ! ألا انــهـــا
لرؤيا ستصـــدق فيهــا الوعود

غدا سوف يظهــر ديــن الالــه
ويقهــر في الكون كيــد اليهــود

المدينة المنورة **عمر بهاء الدين الاميري**

زهرة الورد في المصادر القديمة

مصطفى القصري

اصل الوردة ومنابتها الاولى وانتشارها فى العالم القديم

ما هو أصل الوردة وما هو منشأهـا الاول ؟ كيف تكونت من بين الزهور وفي أي ناحية رفعت لآبائنا الاولين عن برقعها لتريهم للمرة الاولى ديباجة وجههـا الجميل وقدها المياس وخدها الملون ؟ ثم من أي جهـة انحدرت لتسيح في الأرض وتصبح زينة الحياة الدنيـا ، وتنشر أريجها على بني البشر فتتفتح لها القلوب وترتاح النفوس وتهتز الارواح ، حتى لم يكن يخلو مكان ولا بستان من وجودها وجمالها ورونقها ، وبهجة أوراقها ورقة أكمامها ، ولطافـة أزرارها ؟

لم نتمكن عبر مطالعاتنا المختلفـة للـكتب القديمـة العربية والغربية التي تحدثت في طياتهـا عن الورد من

التأكد تأكدا قاطعا من معرفة منبتها الاصلي، ولم نستطع أن نكون لنسبها شجرة ثابتة لا مرية فيها رغم شرف هذه الزهرة التليد ومكانتها الاصيلة بين الزهور .

والام عسانا سنصل في هذا البحث ولو استمر سنين طوالا ، اللهم الا الى ما وصل اليه قدماء المؤرخين والنسابين فرفع نسب القبيلة الفلانية أو الفصيلة الفلانية الى ابراهيم فنوح فآدم أبي البشر ، وهو ما يرفضه العلم الحديث وينكره العقل السليم .

الحقيقة أن أي نوع من هذا البحث نرفضه رفضا باتا في الوقت الذي يعترف فيه العلماء اليوم انما هم في بداية المسيرة ، وان محاولة معرفة واستقصاء مثل هذه الامور ضرب من العبث والخور بسبب قلة وسائل الاختبار التي يتوفرون عليها حتى الآن ، وبسبب ضعف الحوصلة الانسانية وخفة وزنها أمام هذا الميدان المعقد الذي لا نهاية لحدوده ، وتشعب شعابه .

الحقيقة أن الانسان والوردة والذرة والحجر والنجم والشجر وكل ما يدب أو يطير أو يسبح أو يمشي أو يلبد كلها مخلوقات يضيع أصلها في ظلام ليل الزمان ، وأن البحث عن أصل الاشياء في أواخر هذا القرن العشرين ، قرن العلم والاكتشاف وقرن الذرة والصاروخ لا يزال في بداية الطريق الطويل الممتد ، وان بصيصا من النور بدأ

فقط يلمع في هذه الظلمات الكثيفة التي فوقهـا ظلمـات ، بعضهـا فـوق بعض .

البحث عن أصل الوردة هو في الحقيقـة البحث عـن أصل الحياة ، وهذا ما لا يتوفر الآن الوصول اليه وما لن يتوفر بعد عشرات وعشرات السنين .

وكل ما هناك أن أي شيء يجد اليوم في ميدان البحث والاكتشاف سيكون ولا شك عاملا آخر لتقريب المسافة وازاحة طرف ضئيل من الرداء الثقيل الاسود الذي ما زال يستر عنا حقيقتنا ولن يزال ، الى أن يتوفـر لـديـنـا من الوسائل ما من شأنه أن يجعل بشريـة القـرن الواحـد والعشرين ـ اذا أطال الله عمرها ـ قادرة بهذه الوسائل والاجهزة وجملة المعارف التي تجمعت لديها ـ هـذا اذا قدرنا أن العلم سيتطور بنفس السرعة وأكثـر ـ تمـزق بعض الستر التي أسدلتها يد خفية على نفوسنا وأعيننا منذ أن بدأ الانسان يشعر بنفسه ويتساءل عن حقيقة مـا حوله من عناصر ومخلوقات .

وقد يطول بنا المقام اذا أردنا أن نفلسف الموضوع أو أن ننظر اليه بمنظار العلم ، وليس هذا غرضنا من وراء هـذا البحـث .

وبكلمة فان كل ما توصلنا اليه عبر مطالعاتنا للموضوع الذي يهمنا ، هو أنه وجد بجبال ايران في القوقاز الشرقي وفي كردستان أجمل أنواع الورد الذي غرس في البساتين منذ ما بين الفين وثلاث الاف سنة، أقول وجد نابتا في أرياف هذه النواحي وجبالها بصفة طبيعية قبل أن تتعهده لاول مرة يد البستاني بالتهذيب والتشذيب والتقليم والتلقيح في البساتين والرياض ، وأكبر هذه الورود حجما وأعطرها أريجا تلك التي تنبت طبيعيا في الاقليم الغربي من ايران منذ أزمان غابرة .

وابتداء من هذه الملاحظة فان المستطلع للامر قد يميل الى القول بأن ايران هي مهد الوردة الاصلي منذ بدأ الانسان يسجل التاريخ أو على الاقل هي أهم منابت الورود في الدنيا ، ومن ثم كان مهبطها الى أقاليم مجاورة، ثم من هذه الى أبعد النواحي وأنآى الاصقاع حتى عمت الارض زهرتها .

تسربت من ايران الى آسيا الصغرى فدخلت من هذه الى بلاد اليونان من جهة ، ومن جهة أخرى الى ما يسميه مؤرخو العرب الاقدمون ببلاد الجزيرة (ما بين النهرين أو العراق) ومن هذه الى سوريا وفلسطين .

لقد أثبت التاريخ أن الوردة عرفت بصفة مؤكدة منذ القرن الخامس قبل الميلاد على الاقل ، ففي هذا الصدد ،

يروي المؤرخ اليوناني هيرودتس أن البابليين كانوا يزينون رؤوس عصيهم بنحتها على شكل تفاحة أو وردة أو نسر أو طائر آخر أو غير ذلك من الزهور والحيوان ، وهذا يدل قطعا أنها كانوا يعرفون الورد ويغرسونه بكثرة في بساتينهم منذ زمن غير يسير .

وتعزيزا لرواية هيرودوتس نورد هنا ما رواه الراغب الأصبهاني « محاضرات الادباء ومناظرات الشعراء والبلغاء » (وهي رواية لا شك أنها جاءت عن طريق الفرس لا عن طريق اليونان لما كان للعرب من علاقة مباشرة مع أولئك منذ بداية الاسلام وحتى قبله) قال : « قيل أن ملك بابل أهدى الى ملك أضول وردة فأنكر ما رأى من شوكها وكافأه بأصول الغبيراء لأن زهرتها تولد داء عظيما اذا شمت فلما أينعت أصول الورد عنده سر به فندم على ما كان منه فأهدى اليه شجر الخلاف ، وهو دواء لما تولده الغبيراء »

ان هذا الخط من التفكير والتحليل والاستقصاء قد يجعلنا نرجح أن الوردة ربما تكون قد غرست في تلك البساتين المعلقة الشهيرة التي قيل أنها أسست في بابل القديمة والتي هي احدى عجائب الدنيا السبع أسستها الملكة سامیراميس منذ ألف ومائتي عام قبل المسيح .

واذا علمنا بازاء ذلك أن بابل توجد بالقرب من بلاد الفرس التي تنبت أنواعا كثيرة من الورد بصورة طبيعية في الأرياف والجبال ، زاد ترجيحنا لوجود البساتين المعلقة وغرس الورد بها .

وساميراميس هذه كانت ملكة لآشور وبابل واتسع ملكها الى بلاد الفرس ومصر واليونان، ولا يستبعد مطلقا أن تعثر الحفريات في يوم من الايام على هذه البساتين المعلقة كما عثر الاثريون قبلها على مدينة طراودة التي كانت موضوع أوديسا هوميروس والتي كان المؤرخؤن قبل اليوم ينكرون وجودها مقتنعين بأنها حديث خرافة وعمل أساطير .

واذا بحثنا في أقدم الحضارات الانسانية وهي الحضارة المصرية التي انتشرت قبل حضارة بابل ، لاحظنا أنه لم يوجد أي نوع من الورود نبت بصفة طبيعية على ضفاف النيل ، فنحن لا نجد في الصور الفرعونية المنحوتة على جدران الاهرام والمعابد والمقابر وعلى التماثيل والاعمدة والمسلات ـ ومصر زاخرة بها ـ صورة زهرة الورد ، ولم تظهر الوردة وتنتشر في بلاد توت عنخ آمون وأخناتون الا في عصر البطالسة بعد ملك الاسكندر الاكبر ، ولقد بعث العالم الاثري الفرنسي السيد بواستر الذي اهتم كثيرا بدراسة الآثار الفرعونية الى

السيد ديلونشان الذي استخبره في الموضوع لما أراد أن يكتب عن الورد بالمذكرة االتالية :

« لقد قمت بأبحاث كثيرة لأتأكد ما اذا كانت الـــوردة مصورة وممثلة على التماثيل والآثار المصرية كالمسلات والضرائح وعلى ورق البردى فلم أعثر علـــى أي شـــيء يجعلنا نعتقد أن المصريين الأقدمين نحتوا أو صوروا هذه الزهرة كرمز هيروغليفي أو تصويري ، على أن اســـم الوردة منصوص عليه في الكتابات القبطية القديمة » .

مما لا شك فيه اذن أن زراعة الورد في مصر انتشرت بعد الفتح الفارسي لبلاد الفراعنة ثم تأكـــد وجـــوده في عهد البطالسة وهم آخر دولة لمصر الفرعونية حيث انتشر انتشارا كبيرا واسعا لدرجة أنه كان يصدر فيما بعد الى رومـــا الأبـــاطـــرة .

واذا انتقلنا من مصر الى فلسطين وجدنا أن اليهود لـــم يعرفوا زهرة الورد في عصوره الأولـــى ، وأول كتابـــات اليهود عن الورد وجدت في سفر الحكمة الفصل الثانـــي ، البيت 8 ، وكتاب يسوع بن صيراخ (الفصل 24 البيت 18 والفصل 139 البيت 17) ولقد ألفت هذه الكتب بعد احتـــلال بابل بزمن طويـــل .

يقول اليسوع بن صيراخ (القرن الثاني قبل الميلاد) « اني ارتفعت كالنخلة على الضفة وكورد اريحا .

أنصتوا الي أيها المؤمنون ، ولتنموا كالورد المغروس بجنب الماء ،،،

ظهر كقوس قزح يلمع في الغمام المضيء ، وكورد الربيع والزنبق الذي ينبت قرب العيون المتفجرة . »

وفي سفر الحكمة الذي كتب في عهد اليسوع بن صيراخ نجد هذه الأبيات :

« لنشرب الخمر ولنتعطر بزيت الورد ، ولا نترك زهور الربيع تمر ، بل لنتوج رؤوسنا بالورود قبل ذبولها . »

وتذكر الكتب الاسرائيلية القديمة وجود بستان قرب بيت المقدس حيث كان شجر الكرم تنتشر فروعه ولا تؤدى عليه الزكاة والأعشار لان دخول ذلك البستان كان محظورا على الناس بسبب الورد الذي صنع منه سياج له .

ويذكر كتاب التلمود الذي دونت فصوله بعد صدور الكتاب المقدس ، أن الزوج كان يعصب رأسه بالورد ويجلله بغصن الزيتون وبالآس وكان ذلك قبل تحطيم الرومان لبيت المقدس .

وينسب اليهود الى النبي سليمان كتابا ذكر الـورد فيه، ويرجع ذكره الى قرنين بعد حكم الملكة سميراميس، وكانت توجد بأريحا بساتين للورد قيل أنها ترجـع الـى سبعة قرون بعد ملك سليمان الحكيـم .

ولا يغرب عن ذهننا أن نذكر بهذه المناسبة أنه وقـع غلط فاحش على يد الراهب الالمانـي المصلـح لـوثـر (1483 — 1546 م) في ترجمته لنشيد الانشاد في الكتاب المقدس حيث ترجم « شوشنة » بكلمة وردة ، وهذا غلط بين ، اذ أن كلمة سوسن العربية أصلها شوشنة الأشورية .

وفي هذا السياق وبما أننا في فلسطين ، تجدر الاشارة الى ذكر سوريا برواية مـا حكـاه المـؤرخ الرومانـي فلوروس (وهو من أصل افريقي عـاش في نهاية القـرن الاول بعد المسيح) من أن الملك السلوقي أنطيوخوس الرابع (157 — 164 ق. م) ملك سوريا عند ما اقتحم بـلاد اليونان عسكر بجيشه قرب نهر أوريب ، وهنـاك عقـد مجلس انسه تحت خيام الديبـاج والذهـب وأحاط بـه المطربين والمغنين والوجوه الحسان ليذكره كـل ذلـك بالرفاهية والنعم التي كان يتقلب فيها في وطنه ، وأصـدر الامر بجمع الورود من كل الجهات والنواحـي رغـم أن الفصـل كـان شتـاء .

ولاشك أن وردة دمشق استوردت مباشرة مع عبادة أفروديت من سوريا الى البيلوبونيز ومن هذه الى جـزر الارخبيل ثم نقلها الفينيقيون الى بيستم ومنها انتشرت في شمال ايطاليا ثم عبر بلدان بحر الروم ، وقد أشاد الشاعر ڤرجيل بورد بستنم الذي كان يظهر مرتين في السنة .

ويقول الطبيب الاسباني مونارديس (القـرن 16 م) بأن كثيرا من البلاد الاوروبية كانت تستعمـل الـوردة الدمشقية وأكد بعضهم بأن هذه الوردة حملها الصليبيون معهـم الـى الغـرب .

ومهما كان الأمر فيما يخص سوريا فانه لم تصـور الوردة على التماثيل والبنايات الاثرية التي تتوفـر فيهـا كثير من صور الأشجار والنباتات .

ولم يظهر للوردة ذكر في الكتب الدينية القديمة للهند ككتب الفيدا التي تتطرق الى ذكر كثير من النباتات ، ولا توجد في اللغة السنسكريتية لفظة وردة ، فليست الهنـد اذن من الأوطان الاصلية للورد وهي مجهولة عند قدمـاء الهنود كما جهلها المصريون الاقدمون قبل البطالسة وكما جهلها اليهود والاشوريون في عهودهم الاولى مما يرجـح أنها استوردت عندهم بعد اتصالهم بالفـرس الفاتحيـن الذين اكتسحوا ممالكهم .

قلنا في بداية هذا الكلام أن الوردة دخلت بلاد اليونان من آسيا الصغرى وكانت معروفة عند أقدم المؤرخين اليونان الذين ذكروا وجودها في شمال شبه الجزيرة اليونانية منذ بداية تسجيل تاريخهم الذي كثيرا ما يربطونه بالأساطير وأنصاف الآلهة وبالآلهة والجن والعرائس والوحوش الخرافية فلا يمسى القاريء يميز ما جاء في رواياتهم لتاريخ الدول والايام : هل هو من قبيل الواقع أم من نسج الخيال . ؟

وعلى كل فبخصوص أقصى عهود اليونان ، يذكر المؤرخ اليوناني هيرودوتس أن سلالة السكان الأصليين لاحدى المناطق الاسيوية انسحبوا من أراضيهم بفعل الهجرة الى ناحية أخرى واستقروا قرب البساتين التي قيل أنها كانت من عمل الملك « ميداس بن غردياس » حيث يقول هيردوتس : « تنبت ورود جبلية طبيعية ذات ستين ورقة أريجها أطيب وأعطر من أريج جميع الالوان الاخرى » . وزاد في تأكيد هذه الرواية الشاعر اليوناني تيقاندر اذ قال بأن الملك ميداس رحل من مدينة ازيس بفريجيا (في آسيا) واستقر به المقام في ايناثيا حيث كانت توجد البساتين المذكورة التى غرس فيها ميداس لأول مرة شجر الورد ذي الستين ورقة .

وهاتان الروايتان تعززان بدورهما الفكرة القائلة بأن ايران منبت الوردة الاول أو على الاقل بأن الورد جلب

من آسيا الصغرى الى شبه الجزيرة اليونانية ، هذا زيادة على ما رواه الجغرافي اليوناني سطرابو من أن اخوان سكان فريجيا الاسيويين كانوا يسكنون نفس الناحية التي أكد هيرودوتس أن بساتين ميداس توجد على سفح جبالها .

كل هذا يدفعنا الى الاعتقاد بأن الوردة انتقلت من فريجيا الى شمال اليونان ثم شاعت بعد ذلك حول بحر الروم كله .

وأخيرا فان ثاوفرسطس المذكور في فهرست ابن النديم وصف في كتاباته الوردة التي شاهدها بمقدونيا وأشاد أيضا بورد قرينا .

واذا انتقلنا من اليونان الى ايطاليا نجد العالم الروماني بلينيوس يروي بأنه كانت بناحية طراشين بايطاليا ورود مشهورة بروعتها وأشاد كذلك بورد كمبانيا و «اللاسيوم» بنفس البلاد ، كما وصف في سياق كلامه عن هذه الزهور ورد قرطاجنة باسبانيا ، ولم يزد العلماء اللاتينيون على ما ذكره آباؤهم الروحيون علماء اليونان في شأن الوردة .

ولتتميم معلوماتنا عن الورود عند الاقدمين نورد نص ما كتبه ثاوفرسطس يصف الورد :

« تختلف أصناف الورود عدد اختلاف أوراقها ونظرا لاختلاف ليونتها ولونها وعطرها . وأغلبها له خمس أوراق ـ وبعضها له من اثنتي عشرة الى عشرين ورقة وبعضها الآخر أكثر من هذا العـدد .

« لان هناك من الورود من يحسب له مائة ورقة فيسمى باسم المائة ورقـة .

« وأغلبها ينبت قرب فيليبوس .

« وأذكى هذه الورود عطرا التي يكون الجزء الاسفل من أكمامها منتفشا ، وتجدر الاشارة الى أن لـون الـورد وعطره يجودان بقدر جودة التربة التي ينبت فيها ، ذلك أنه توجد في نفس الناحية ورود عطرة وأخرى لا عطر لها ، وأعطرها أريجا هي التي تنبت في قرينـا » هـ .

بعد أن تتبعنا أصول الوردة ومنابتها الاولـى عنـد الحضارات الانسانية القديمة وذكرهـا وأوصافها لـدى المؤرخين والجغرافيين القدامى واعتمدنا في ذلـك علـى المصادر العلمية والتاريخية التي توفرت لـدى العلمـاء والمؤرخين المعاصرين ، ننتقل الـى الـوردة في الآداب اليونانية والرومانية والأساطير القديمة .

الورد في الكتب اليونانية القديمـة

لم تخل أقدم النصوص اليونانية من ذكـر الـوردة ووصفها والتغني بجمالها ، والاشادة بعطرها ، والاعجاب برقة أزرارها وأكمامها ، والتمثل بما يوحيه ذبولها مـن عبر ، وكثيرا ما نجد أقدم شعراء الاغريق وعلى رأسهم الشاعر أناكريون يربطون نشأتها بآلهاتم الاسطوريـة ، ويحيطون ميلادها بهالة من القدسيـة .

ونحن نورد في ما يلي بعض ما جاء في كتاباتهـم عـن الوردة ، وسنرى من خلالها المكانة التي أنزلوهـا فيهـا والهالة القدسية التي أحاطوها بها :

يظهر أن من أول النصوص اليونانية ذكـرا للـورد ملحمتا الشاعر هوميروس « الأوديسيا » و « الالياذة » ، فهو يشبه في الاوديسيا الهة الصباح « بالفجر ذي الاصابع الوردية » كما يصف في مكان آخر « برسيفونا » تقطـف أزهارا جميلة في مرج بهيج حافل بزعفـران السوسـن الملون الذكي ، وبالزنبق والورد الـذي يـروق العيـن وبالنرجس الذى أنتبتته الارجاء الواسعة ، ويذكر الشاعر في اليادته أن الآلهة « أفروديت » تعطر جبـة « هكتـور » بزيت الورد . (الالياذة بيت 186)

ويصف أركيلكوس فرح حبيبته بمشاهدة زهر الورد وفـرع الآس .

أما الشاعر أناكريون فانه أول من خصص قصيدة كاملة يشيد فيها بالوردة ، ويتغنى بجمالها في أسلوب سلس بسيط جعل قصيدته تبقى خالدة على مر الأزمان ، وتترجم لمختلف اللغات ، يقول هذا الشاعر : « باخوس لنمجد نعم الوردة التي اختص بها العشاق المتيمون ، ولنتوج جباهنا بأكاليل الورد ذات الأوراق الجميلة ، ولنشرب ولنضحك في رغد النعيم .

الوردة أجمل الزهور ، فهي بهجة الربيع ونعمة من الآلهة ، عندما يرقص ابن فينوس مع العرائس يكون شعره مزينا بأزرار الورد ، ولذلك سأتوج رأسي بها وأجس أوتار نايي ، سأذهب يا باخوس مع حسناء كاعب لارقص بمعبدك ورأسي متوج بأكاليل الورد » .

وهذا الشاعر يستهل نشيده السادس هكذا :

« لنضع أكاليل الورد على رؤوسنا ولنشرب الخمر متعاطين كؤوس الفرح والسرور » .

ثم يستمر في النشيد متغنيا :

« لنتغنى بموسم الورد وبورد الربيع ، غني معي يا حبيبة قلبي ، فالوردة انما هي في عطرها اللطيف الذي يصعد أريجه من نكهة الآلهة ، انها فرحة بني البشر العابرين لهذه الحياة ، وأحسن زينة لعرائس الآلهة في

موسم الحب المزهر وأغلى نعم فينوس، الوردة موضوع غنـاء الشعـراء ،

وأفضل زهور عرائس الشعر .

انها تجرح بشوكها ، ورغم ذلك نقتطفها بسرور ، ولكم نحب أن نمسك بيدنا هذه الزهرة التي اختص بها العشاق وأن نستنشق أريجها الذكي .

انها فال المحبين وطالعهم السعيد ، اننا نضعهـا علـى موائدنا ونزين بها ولائمنا وأعياد الهنا باخوس .

آه ، ماذا يمكن أن نفعل بدون ورد ؟ فلغة الشعراء تشبه أشعة الصباح بأصابيع الورد، ولعرائس الغابات أذرعات ورد . ولفينوس لون الورد ،

ماذا نقول يا ترى عن أصل الورد ؟ عندما كون البحر من زبده فينوس الجميلة وأبرزها فوق أمواجه ، أبرزها لامعة بقطرات الندى وحين خرجت مـن رأس جـوبيتـر بالاس مدججة بسلاحهـا ، ولدت الارض بدورهـا هـذه الشجرة العجيبة كأحسن ما صنعته يد الطبيعة الصناع ، فهب الآلهة الى الحرص على تفتحها وسقوهـا مـن مـاء الكوثر ، فارتفعت في الحين مياسة على فرعها الشائك » .

أما أركيلوكس ، فانه يصف فرح حبيبته عند مشاهدة زهر الورد وفرع الآس .

وتقول الشاعرة اليونانية سافو :

« لو أراد الاله جوبيتر أن يهب ملكة للزهور لما اختار سوى الوردة ملكة عليهن ، فهي زينة الأرض ، وبهجة النباتات ، وعيد الزهور وشنب المروج ، وهي الجمال البهيج الذي يبعث الحب أريجا ، كل أوراقها لطيفة وأزهارها الحمراء تتفتح برشاقة لا حد لها وتبتسم ابتساما عذبا » .

وذكر بيون بأن الوردة خلقت من دم أودنيس الذي تقول الاساطير عنه انه قتله الخنزير الذي أثارته الآلهة ديانا عليه ، ويزيد بيون قائلا : « الشقاء الشقاء لفينوس ـ مات أدونيس الجميل وها هي الآلهة تذرف دموعها بقدر ما ضاع من دم أدونيس ، وعندما سقط الدم والدمع على الارض تحولا الى زهرتين فولد الدم الوردة ، وولد الدمع الشقاء » .

وكان قدماء اليونان يصورون الربيع في شكل عربة خضراء متوجة ومزينة بالزهور .

الوردة في التاريخ والأدب الروماني القديم

عندما توجهت كيلوباترا لمقابلة أنطونيو ، أقامت على شرفه ولائم فاخرة عديدة طالت عدة أيام وبالغت في ذلك مبالغة مدهشة حتى أنها جمعت آلاف الورود لهذه المناسبة ، ونثرتها ببلاط القاعة حتى غطته وبلغ علوها عليه 45 سنتمترا ، كانت هذه الورود مجموعة ومحبوسة في شبكات رقيقة لئلا تتبعثر وليمكن لانطونيو أن يمشي عليها بدون تعثر .

ويحكي بلينيوس أن أنطونيو عندما كان يتهيأ لخوض معركة أكسيوم التي تقرر فيها مصير العالم ، كان يخشى غدر كليوباترا له ويحاذر من الطعام الذي كان يقدم على مائدتها اليه ، ولكن الملكة المصرية كانت تضحك من كثرة تهيبه وخوفه ، فهيأت له ذات يوم وليمة ووضعت على رأسه اكليلا من الورود جعلت السم في جوانبها ، وعندما بلغ السكر مبلغه من أنطونيو ، مالت اليه مقترحة عليه أن يشرب كل منهما من اكليله ، فقبل أنطونيو الاقتراح ولم يخش أي مفاجأة بهذه النماسبة ، فأسرع أنطونيو في تمزيق اكليله ووضعه في كأسه ، ولما هم بالشرب أوقفته الملكة الماكرة قائلة : « لماذا لا تشك في سوء نيتي قبلك ؟

ولو كان في امكاني أن أعيش بدونك لفعلت ، فانظر كيف كان ذلك يسيرا علي » ثم أخرجت مجرما من السجن وجرعته الكأس فمات من حينه .

وبعد معركة أكسيوم التي انهزم فيها أنطونيو ، رفض أن يعيش وخاف من أن يسقط بين يدي أكتافيوس ، فناشد كليوباترا وهو ينتحر أن تنشر العطر على قبره وأن تغطي هذا القبر بالورود .

ويخبرنا بيلنيوس أن أحد كبار موظفي روما (وهو من أسرة القيصر شيبيو) قام بمهامه في نزاهة واخلاص، وارتاح جمهور الشعب لوفائه واخلاصه لملكه ، وقد توفي فقيرا لدرجة أنه لم يخلف ما تجهز به جنازته ، فتناهد الشعب للقيام بهذا الواجب ، وصار يلقى بزهور الورد على الجثمان عند مرور الجنازة في طريق المقبرة .

يقول أوفيد أن العشاق كانوا يقضون ليلتهم ساهرين يئنون تحت نوافذ الحسناوات ثم يتركون عند عودتهم الى منازلهم آخر الليل أكاليل الورد على عتبة الباب لتجدها الفتيات في الصباح الباكر .

كانت الورود تستورد الى روما من مصر في المواسم التي كانت ايطاليا لا تنتجها ، ثم أصبحت ايطاليا تنتجها بوفرة كبيرة حتى أن سينيك أشاد بالوسائل الحديثة التي

كانت تستعملها ايطاليا لانتاج الـورد ، وتتلخـص تلـك الوسائل في اقامة أنابيب ساخنة تمر على مـدافيء كانـت تمكن من تفتح الورد في شهر كانـون الاول (ديسمبر) وقد حسن الرومان هذه الوسائل لدرجـة أنـه لما قـدم المصريون تحت حكم دوميسيان الى هـذا الامبراطـور الروماني الورد احتفاء بعيده في شهـر تشريـن الثانـي (نوفمبر) أثارت هذه الهدية موجة من السخرية والضحك لكثرة ما كانت الورود موجودة في ذلك الموسم من السنة بروما ، وقد توجه بهذه المناسبة مارسيال الى الامبراطور يخاطبه قائلا : « ان هذا المعجب بنفسـه الـذي يسكـن التراب الذي يسقيه النيل ، أرسل لك يـا سيـدي ورود الشتاء هدية جديرة بمقامـك ، نظـرا لجدتهـا ولكـن نوتي « منف » لا شـك أنـه رأى بسـاتيـن بـلاده فـي نفسه حين وضع رجلـه بعاصمـة مملكتـه لكثـرة مـا كان الربيع ينشر كل جماله فيها ولكثرة ما كانت الزهور فيها تروق العيون ، وتنتشر الاريج الذكى ، ولكثـرة مـا كانت الورود في رياضها تعادل في القيمة ورد بيستوم .

هكذا ، فأينما حل وارتحل ، كانت جميـع الطرقـات التي مر بها تلمع بورد أحمر في أكاليل مضفرة ، واقتنع في الاخير بأن على ضفة النيل أن تنحني لضباب روما ـ أيها المصريون ، ابعثوا لنا بقموحكم وخذوا الورد بدلها » .

وفي روما ، كان العشاق والظرفاء يهدون الى الفتيات بواكر الورد التي تظهر في مستهل الربيع ، وكانت لفظة « وردتي » عبارة يطلقونها على عشيقاتهم كما نقول نحن « حبيبتي » وكانوا يتوجون رؤوسهم بأكاليل الورد في الولائم .

وقال شاعر لاتيني مجهول :

« ان الوردة زهرة فينوس ، أهدى اله الحب الى اله الصمت وردة ، ومنذ ذلك الزمن ، يعلق الضيف وردة بمائدة الصداقة ، ليتعلم بفضلها الضيوف عدم افشاء ما يسارون به » .

وكان الرومان في الالعاب الأولمبية يزينون أماكن المتفرجين بأكاليل من الزهور ، وكان الفائزون يتوجون بالورود .

وأشار المؤخر مارسيال عدة مرات الى أن الوردة كانت تزين بها الولائم عند الرومانيين ، ولقد أمطر الامبراطور هيليوجا بال على ضيوفه وابلا من أوراق الورد حتى اختنق بها بعضهم ، وماتوا تحت ركامها .

وقد أخذ شيشرون على فيريس أنه كانت له عادات قبيحة في التبهرج ، وأنه قام بجولة حول صقلية وهو على أريكة مزينة بالورود .

وأكد سينيك أن أحد سكــان سيباريــس (مــدينــة يونانية في ايطاليا ، اشتهر أهلهــا بالتخنــث والميوعــة الأخلاقية) اسمه مندريت ، كان يستحيل عليه النوم اذا تشنجت من تحته احدى أوراق الورد التي كان يفترشها .

ونظم الامبراطور نيرون حفلا بلغت فيــه مصاريــف الورد الذي اشتراه للتزيين أربع ملايين سيستريس .

الــوردة في أساطير الأمم القديمة

لعل أهم ملاحظة في هذا المضمار ، هي أن المعتقدات والأساطير والخرافات والتقاليد والعادات كثيرا ما نجدها متشابهة أو متقاربة الشبه ، مع اختلاف بسيط في أشكالها وصورها ، لا في جوهرها ، وهذا موضوع خــاص بعلــم الاجتماع وعلم الأجناس يستطيع العلماء أن يحللوا أسبابه ومسبباته وبواعثه ومغازيه وأبعاده ، وكل ما يهمنا منه هنا أننا وجدنا فيما أوحته الوردة من أساطير الى الأمــم ذات الحضارات العريقة السالفة، تشابها غريبا في مغازيها ومراميهــا .

فهل معنى ذلك أن الأمم اذا بلغت درجة من الحضارة معينة ، تفكر نفس التفكير وتتجه نفس الاتجاه في بحثها عن نفسها ، أم معناه ، أن المجتمعات اذا أرست قواعد بنيتها وتركيبها على نمط معين تكون لها نفس الحضارة في

جوهرها ومراميها ؟ أم أن اتصال الشعوب بغضها ببعض عن طريق التجارة والحروب والفتوحات يؤدي الى نقل الثقافات وتأثير بعضها على بعض ؟ ونحن نورد هنا نماذج من الأساطير عند الامم الشرقية القديمة ، ليلاحظ القاريء من خلالها تشابها غريبا في مغازيها ومقاصدها ، وحتى في الصور التي عبرت عنها بواسطتها تلك الأمم .

فكأنما نسجتها أخيلة هذه الامم لتوضح لنا مكانة الورد عندها ومنزلته في حياتها وعاداتها وتقاليدها ومعتقداتها .

أصل الوردة في الأساطير اليونانية

الاساطير اليونانية عن الورد غزيرة وغنية بالرموز والايحاءات ، ولا تخلو أسطورة لهم من ذكر الوردة وجمالها والتغني بعطرها النافذ وأريجها الزكي ، ومن العسير ذكر كل الأساطير اليونانية التي تغنت بالوردة ، ونشير هنا الى ما ذكره تيوكريتس أبولودورس عن أصل الوردة من أن فينوس أرادت أن تنقذ أدونيس من وحشية الخنزير ، فهبت لاغاثته واذ ذاك مزق رجليها شوك الوردة ، وهكذا فان دم هذه الالهة هو الذي صير الوردة حمراء وقد كانت من قبل بيضاء ، وتذكر الأساطير اليونانية روايات أخرى عن أصل الوردة .

واننا نجد نفس الاساطير تروجها أمم العجم التي دانت بالمسيحية في القرون الوسطى كما نجدها بتعبيرات أخرى عند كثير من أمم الشرق القديمة التي استعملت رموزها الخاصة ومعتقداتها عند وصف الوردة والاشادة بجمالها .

أساطير شرقية قديمة :

كيف أصبحت الوردة البيضاء حمراء ؟

اشتكت الزهور الى رب العالمين متبرمة من زهرة اللوتس التي تقضي ليلها نائمة ، وطلبت من الله أن يجعل عليها ملكة أخرى ، فاستجاب سبحانه لدعائها وخلق الوردة البيضاء ملكة عليها ، ولكنه أحاط الوردة بالاشواك ليحميها من المعتدين ، فلما أبصر البلبل هذه الملكة الجديدة ، علقت بشغاف قلبه وطار لها لبه ، فحلق فوق رياض الورد غير منتبه للأشواك التي تحميه حتى أصابت الطائر المسكين بجراح قاتلة، وصار يلفظ أنفاسه الاخيرة في نغمات عذبة شاكية وسال دمه القاني على الوردة المحبوبة فلون أوراقها البيضاء .

أسطورة اسلامية قديمة : وردة سيدنا ابراهيم

لما رفض ابارهيم عليه السلام عبادة آلهة الكلدانيين، أمر النمرود بالقائه في النار ، ولكن الله تعالى أمر النار أن

تكون بردا وسلاما على ابراهيم ، ، وفجر مكانهـا مـاء وأنبت حوله زهرا وورودا ، وأرسل رسوله جبريل عليه السلام الذي بسط على ابراهيم جناحه الـى أن انطفـأت النـار .

الـوردة : رمـز العفـة والوفـاء

يحكى النشاشيبي بـأن أحد الناس بلغ به الفقر مبلغه ، ولكنه تردد في مفارقة امرأته التي يحبها للبحث على الغنى، فأقنعته زوجته المسكينة بأن يتوكل على الله ويرحل في طلب المال ، وقدمت له باقة من الورود مؤكدة اليـه بأن هذه الزهور لن تنغلق على نفسها ما دامت هي وافية له، فسافر الرجل وأصبح ذات يوم من خدم أحد الأغنياء في بلد من البلدان ، ولاحظ الرجل الغني بأن خادمـه يحمـل في ثيابه باقة من الورد لا تذبل ولو في فصل الشتاء ، فسأله عن أصل هذه الورود وجنسها ، فأخبره بقصته ، ولكـن الرجل الغني سخر منه واستهزأ به متهما زوجته بالسحر، ومع ذلك بعث أحد طباخيه سرا الى زوجة الرجل المسكين ليراودها عن نفسها ، ولكن المرأة العفيفة تجنبته بلطف ، وضربت له موعدا في مكان حيث سقط في طابـق هنـاك ، واعترف لها بالمهمة التي من أجلها بعث بها سيده اليها .

فلما لم يرجع الطباخ الاول أرسل الرجـل المثـري طباخه الثاني الى مدينة خامده ، فلقي ما لقيـه صاحبـه

فعزم الرجل الغني على الرحيل بنفسه الى مدينة خادمــه واصطحبه معه فلما سمع الرجل من فم زوجته ما وقع لها مع الطباخين المذكورين استدعى سيده على مائدتــه ، فرأى الغني طباخيه في زي الخدم يأتيانه بألــوان الطعــام والشراب ، فلما عرفهما ، قصا عليه القصة كلها ، فتأكد اذ ذاك من صلاح المرأة وتقواها ، وتوجد نمــاذج هــذه القصة بتعابير مختلفة عند الاتراك والفرس والهنود وفي الاساطير الغربية أيضــا .

أسطورة كردية للوفاء بعد الموت

رأي تاجين وصديقه مام أختي الامير زين الديــن ، وكان تاجين من ندماء الامير ، ومن أسرة كريمة ، فعقد له الامير على أخته ، ولكن مام الذي كان من أصل متواضع لم يفز بمراده ولم يتزوج حبيبة قلبه .

وربط الاتصال بها خفية ، غير أنه افتضح في النهاية أمره ، فألقى به في السجن عقابا له على جرأته ، وأخيرا ، وبعد مغامرات عديدة انتق متاجين لصديقه وأخرجه مــن السجن وعقد له على حبيبة قلبه زين ، لكن مام قتله الفرح عند مشاهدة حبيبته ونيل بغيته ، فماتت هي كذلك مــن الهم ، ودفن جثمانها قرب جثمانه ، وبعد حين ، شوهدت

على قبريهما شجرة ورد قد نبتت وتعانقت أغصانهـا ، شهادة منها بهذا الحب الذي لم يتغير مدى الحياة .

وتذكرنا هذه الأسطورة بقصـة الشاعـر العربـي وضاح اليمن مع ابنـة عمـه .

أسطورة هنديـة : الوردة تعيد للملك بصره

أصبح الملك زين الملوك مكفوفا ، ولا يمكن أن يرد اليه بصره الا بلمس وردة توجد في بستان بنت ملك .

ذهب أولاد الملك الأعمى جميعهم للبحث عـن هـذه الوردة النادرة ، ولكنهم رجعوا الـى أبيهـم خائبيـن الا أصغرهم سنا ، وهو تاج الملوك الـذي استطـاع بعـد مغامرات عديدة أن يلج قصر الأميرة ويصل الى بستانها، وفي احدى القاعات المليئة بالورود ، لاحظ وردة متفتحة الأكمام لا حد لجمالها ولا شبيه لاريجها ، فتجـرد الاميـر الشاب من ثيابه ، ودخل الصهريج ثم أتى ماسكا بالوردة فيحزامه حتى بلغقصر أبيهبعد مغامراتجديدة انتصر فيها على كل الصعوبات والمخاطر والاهوال التي اعتـرضت سبيله ، فلما لمس الملك الأعمى تلك الوردة التي قدمهـا اليه ابنه البار ارتد اليه بصره وأصبحت عيناه تلمعـان كالنجـوم .

قصة رومانية :

يستعيد صورته البشرية بفضل الوردة

يحكي أحد الروائيين الرومان في قصته الحمار ، عن بطله الذي مسخ حمارا بواسطة السحر ، هذا البطل لن يستطيع أن يستعيد صفته البشرية الا بعد أن يأكل أوراق الورد ، وبعد لأي من الزمان وبعد البحث ، وبعد معاناة المصائب ، أقبلت عليه الطبيعة نفسها وبشرته بأنها ستعيده الى صورته الأولى عن قريب ، وتحرره من السجن الذي أوقعه السحر فيه .

وفي الغداة ، أقبل عليه الراهب الأعظم حاملا في يده اكليلا من الورود ، وسط الجماهير التي احتشدت هناك احتفاء بعيد الهة الطبيعة .

فلما اقترب من البطل ، أمسك هذا الأخير من يده الاكليل بأسنانه ، وصار يلتهمها بنهم وشره ، وفي الحين وجد نفسه ينسلخ عن سحنته الحمارية البشعة ، ويستعيد شيئا فشيئا صورته الأصلية ، وهكذا ، بطل السحر الذي حوله الى حمار بفضل هذه الزهرة السماوية المقدسة..

الرباط مصطفى القصري

قصة من منطقة الفسوح



أحمد عبد السلام البقالي

رن جرس الباب فقفزت « ماريان » وهي أمام المرآة تتزين للذهاب الى حفلة . ونظرت الى الساعة المنبهة الى جانب سريرها فوجدت انها ما تزال الثامنة . كان المفروض ان يأتي « ريتشرد » لاخذها في الثامنـــة والنصف . لا يمكن أن يكون هو .

وامسكت بثوبها المفتوح من الوراء حتى لا يسقط على كتفيها وذهبت لتفتح الباب . واطلت من وراء السلسلة لتجد قامة سمير الفارغة بوجهه الاسمر وهو يبتسم ابتسامته الصبيانية .

— سمير .. ما جاء بك في هذه الساعة ؟

— كنت قريبا من هذه الناحية ، فقلت أطرق بابك وأسلم عليك .

— كما ترى انني البس لأذهب الى حفلة . سيأتي من يأخذنـــي داخـــل النصـــف ساعـــة .

— لـــن امكـــث طويـــلا ..

— ادخــــــل اذن ..

وفتحت سلسلة الباب فدخل سمير ينظر حواليه ليرى هل حــدث جديد فى الشقة التي طالما قضى فيها أوقاتا ممتعة مع ماريان قبـــل ان تتركه لصديقها الجديد « ريتشرد » .

— الى اي حفلة انت ذاهبة ؟

— حفلة ماري هاريمان .

— صدفـــة غريبـــة !

— لمـــاذا ؟

— انا الآخر مدعو الى نفس الحفلة .

— اذن سأراك هناك .

وولته ظهرها واشارت له ان يقفل ثوبها ففعل .

وفغمه عطرها ورائحتها النسوية فأغمض عينيه وهو يكبت رغبـــة ملحة فى ضمها اليه وتقبيلها ... والتفتت هي اليه وقالت :

— ماذا كنت تفعل اثناء هذه الغيبة الطويلة ؟

— لقد عـــدت الى مصـــر .

— طول الطريق وعبر المحيط الى مصر ؟

— لم ار اهلي منذ ثلاث سنوات .

— كيف وجدتهـــم ؟

— بخيــــــر ..

وتذكر فجأة فادخل يده الى جيبه وخرج بحق احمر صغير ..

— بالمناسبة .. جئت لاعطيك هذه ..

ونظرت ماريان الى الحق فى المرآة وهي تمر بعود الاحمر على شفتيها
— مـــــاذا ؟

— هدية صغيرة .. تذكار زيارتي لمصر ..

ودارت حول نفسها فواجهته وعلى وجهها ابتسامة ، فناولها الحق .

— هل افتحــــــه ؟

— ارجـــــوك ..

وفتحته بأصابع مرهفة ناعمة وشهقت من الاعجاب :

— مــــا هــــــذه ؟

— قرطـــــــان لاذنيــــــك ..

وتناولتهما من الحق لتنظر اليهما تحت الضوء . كانـــا شبيهيـــن بعينين شهلاوين لوزيتي الشكل ، فصاحت غير مصدقة :

— لم ار فى حياتي شيئا كهذا .. ما كان ينبغي لك ان تكلـــف نفسك .. ماذا تسمون هذا المعدن ؟

— عيــــــن فرعــــون ..

— حقيقة ، انهما تشبهان العيون .. انظر ..

— ذلك ما قاله لي الفلاح الذي باعهما لي .. وقد فكرت فيـــك فاشتريتهما لـــك ..

ووقفت ماريان على بنانها لتطبع قبلة على خد سمير . ثم اخذت القرطين وواجهت المرآة لتلبسهما بفرح صبياني كان يفتن سمير . ونظر هو الى ظهرها وشعرها الاشقر المسرح وراءها كأنما ينظر الى حلم جميل .. والتفتت اليه تسألته :

— هل يناسبانني ؟

فاستيقظ من غفوته ليقول :

— يمتزجان تماما مع لون شعرك .. هل ستلبسينهما الليلة للحفلة ؟

— نعم .

والتفتت لتنظر اليهما في المرآة مرة اخرى ، وسألته :

— هل وراءهما قصة احكيها لم يسألني ؟ اعني من يلبسهما في مصر ؟

— لا ادري .. لم ار مثلهما من قبل .. وقد سألت والدتي ، وهي خبيرة في الحلي فقالت انها لم تر مثلهما كذلك ..

— حقيقة ؟ اتعني ان تقول انهما لا يوجدان بكثرة حتى في مصر ؟ ليسا من النوع الذي يباع للسواح ؟

— ما كنت لآتيك بشيء رخيص مثل ذلك .. انني اعرف تقديرك للاشياء الفريدة ..

— اين وجدتهما ؟

— كنت في زيارة لبعض أقاربي بأسوان ، وهناك نزلت أزور المناطق السياحية . وفي وادي الملوك جاءني فلاح صغير يعرضهما علي ويقول انهما أصليان .. وبعد مساومة طويلة اشتريتهما بربع الثمن الذي طلب .

— وايـــن وجدهمـــا ؟

— قال انه عثر عليهما فى مقبرة مدفونة تحت الارض لم يعثـــر عليها احد بعد . وطبعا لم أصدقه ..

— وما ذا اذا كان صادقـــــا ؟

— انا اعرف ابناء بلادي .. يفعلون العجب لبيع منتوجاتهـــم .. ولو صدقت قصة المقبرة لصدقت قصة بائع الحلي العجوز الذي اخذتهما اليه للثقب والتركيب حتى يصبحا قرطين .

— اى قصـــــــة ؟

— قال ان هذين الحجرين ، اذا كانا أصليين ، فلا بد انهما فعلا عينا فرعون متحجرتان .. وقد حدث فى وقت ما من التاريخ ان لعنة تبعت حجرين مثلهما الى اوربـــا ..

— كفاية يا سمير . ! لا تفزعنـــي . !

— لا تخافي يا عزيزتي .. لقد اكد لي الرجل ان القصة كانـــت اسطورة فقط ، ولا اساس لها من الصحة .. ثم كيف يمكن أن تتحجـــر العينـــــان ؟

ونظرت ماريان الى ساعتها وصاحت :

— سمير .. أرجو أن تذهب الآن .. لا اريد ان يجدك « ريتشرد » هنا ، فهـــو غيـــور جـــدا ..

وطبعت قبلة أخرى على خده ودفعته نحو الباب واقفلتها وراءه .

* * *

خرج سمير من شقة ماريان بقلب يثقله الحزن . كان يعتقد انهـــا ستقابله غير تلك المقابلة ، وكان يأمل أن يؤثر عليها ويرجعها اليه .. ولكنها كانت قد افلتت من خلال أصابعه كحفنة ماء زلال ، وابتلعتها الرمال ، فلا امل له فى استرجاعها .. والذي آلمه أكثر هو انقلابها السريع عليه حين وجدت (ريتشرد) الذي كان من عائلة غنية يمكن أن توفر لها أكثر ممـــا ينتظرها فى بيت سمير المتواضع بالقاهرة .

* * *

وفى الحفلة نال القرطان اعجاب كثير من صديقـــات (ماريـــان) والحاضرات .. وقالت لها احدى الشرقيات انهما يشعان حياة ..

ومع الثانية صباحا كان أغلب الحاضرين قد ذهب .. ولم يبـــق الا مجموعة قليلة تحلقت حول عازف قيثار من « الهيبي » ذي لحية حمراء ، وحول عنقه سبحة ، وعلى اذنه زهرة .. كان يغني عن السلام والمحبـــة وآلام الجيل الذي لا يملك مصيره .. لم يكن يشرب ، ولكن كان يدخـــن لفافة قوية الرائحة ..

وجلست (ماريان) متربعة امامه وخلفها (ريتشرد) وفى يدها كأس (فودكا) بالليمون ، وهي تحرك رأسها وتعيد اللوازم وتترنم بالالحان ..

وفجأة توقف « الهيبي » عن الغناء ، وسمر عينه على احد القرطين بضع ثوان .. ثم بدأ يفرك جفنيه بأصابعه التي كان يعزف بها على القيثار ويقـــــول :

— ماذا دهاك يا رجل ؟ بدأت ترى ما لا يرى ..
وضحك الجماعة وتغامزوا عليه لانه تحت مفعول الحشيش ، فقال :

— لا دخل اطلاقا لدخائني فيما ارى .. اكاد أقسم ان انسان عين ذلك القرط كان ينظر الي ..

وتضاحك الجماعة ومالوا نحو ماريان يمتحنون القرطين ويلمسونهما.
كان سمير قد تسلل خارجا من الحفلة مبكرا وقد اكلته الغيرة من اهمال وتجاهل ماريان، وتعلقها المتواصل بريتشرد .. خرج خوفا من ان يعربد ويحدث مشهدا لا يليق بكرامته ..

* * *

وودعت ماريان المضيفة مع آخر من تركوا الحفلة وخرجت تترنح وراسها على كتف ريتشرد . وفتح لها باب السيارة فتهاوت على الكرسي ومالت براسها على المسند الخلفي وهي تردد لحنا من الحان المغني « الهيبي » .. ونظر ريتشرد اليها وهو يحرك السيارة فراى بريقا غريبا خلال خصلة شعر تغطي اذنها اليسرى .. ورمش عينيه لينظر ثانية .. كان القرط يعكس ضوءا شاحبا من مصباح الشارع . ولكن ريتشرد أحس كأن عينا بشرية تراقبه .

وعند باب شقة ماريان عانقته هذه وقبلته ، ففتح هو الباب ، وحملها بين ذراعيه ودخل ثم أقفل الباب برجله ، وتوجه نحو بيت النوم حيث القى بها على السرير ، واخذ ينزع حذاءها وهي تغني وتضحك .. وبعد أن خلع ملابسها ادخلها تحت الغطاء وقبل شفتيها ثم اطفأ النور وخرج ..

ومع الرابعة صباحا بدأت ماريان تستيقظ من سكرتها وتحس بالعرق باردا على وجهها وصدرها .. واحست بعطش الخمار فقامت الى المطبخ حيث فتحت الثلاجة وصبت لنفسها كأس عصير برتقال وعادت الى فراشها وهي تحس بقليل من الوحشة لغياب ريتشرد ..

وداعب جفنيها نوم ثقيل لذيذ فراحت في اغفاءة معسولة .. الا ان طرقا على الباب إعادها الى حالة وعي مخدر .. وتساءلت : « من يكون الطارق في هذه الساعة المتاخرة من الليل ؟ » ولكنها اغمضت عينيها صارفة خيالها عن الطرق ؛ وعاد الزائر يلح ، فأفاقت وصاحت :

— من الطارق ؟

وسمعت همهمة خلف الباب فنظرت الى الساعة على جانب السرير فاذا بها تشير الى الرابعة والنصف صباحا ، والظلام خارج النافذة حالك . والح الطارق فاستيقظت هذه المرة مذعورة قليلا .

— من بالباب ؟ من أنت ، وما ذا تريد فى هذه الساعة ؟

وعاد الدق يلح على الباب .. فقامت ماريان من فراشها ولبست قميصا وذهبت الى الباب حيث وقفت خلفه تتسمع .. كان يأتي من ورائه تنهد عميق يصدر عن صدر ضخم .. فصاحت ..

— من أنت ؟ ريتشرد ؟

فسمعت نفس الهمهمة خلف الباب ، ففتحته مبقية على السلسلة . ومن الشق رأت رجلا طويل القامة فى حجم سمير ، غريب المظهر ، وعلى عينيه نظارة سوداء ، فأرادت ان تقفل الباب بسرعة فى وجهه ولكن حذاءه الضخم حال دون ذلك .. وصاحت به :

— سمير .. ماذا تريد ؟

ورد الرجل الضخم :

— اعطيني عيني . !

— سمير .. ارجوك ، اذهب فقد افزعتني !

— اعطيني عيني !

ودفع الرجل الباب فتكسرت السلسلة ، ووقعت ماريان على الارض، ودخل الرجل العملاق فأظلها بقامته المديدة وملأ الشقة برائحة قديمة غريبة كاحدى عطور الشرق الاقصى أو مقابر الفراعنة ..

ووقفت هي بسرعة امامه فمد يديه معا الى اذنيها ، وهـــو ما يزال يردد بصوت غليظ :

ـــ اعطينـــــي عينــــــي . !

ونتش القرطين من اذنيها فشرمهما ، وصاحت هي وقطـــرات من الدم تقع على كتفيها .. وفى المها وغيظها صفعت الرجل على وجهه بقوة حتى طارت النظارة عن عينيه .. ونظرت الى وجهه فاذا في مكان عينيه حفرتان عميقتان مظلمتان .. واحست بأضواء سوداء تحجب رؤيتهـــا ، وبركبتيها تخوران من الضعف ، فسقطت على الارض مفشيـــا عليهـــا كقميـــص فـــارغ .

الربـــاط — احمد عبد السلام البقالي

متمم بن نويرة وقضية مقتل أخيه

د. ابتسام مرهون الصفار

الشاعر متمم بن نويرة من مخضرمي الجاهلية والاسلام يمتد نسبه الى عمرو بن شداد بن عبيد بن ثعلبة بن يربوع بن مالك ابن زيد مناة بن تميم ... وينتهي بمضر بن نزار (1) .

فهو اذن من بني يربوع من تميم ، القبيلة التى كانت لها وقائع وايام في الجاهلية والاسلام . وقد فخر شعراؤها بانتصاراتهم الرائعة ، وفرسانهم الشجعان ، فكان من ايام القبيلة المشهورة يوم الصمد بينها وبين بنى شيبان (2) ويوم الغبيط (3) ويوم نعف قشاوة (4) ، ويوم الاياد، ويوم العظالى ، ويوم الوقيط (5) ، ويوم ذات كهف بينهم وبين ملك

---

1) الشعر والشعراء 254/1 ، الاغاني 63/14 ، المؤلف والمختلف : 297، معجم الشعراء : 432 ، جمهرة انساب العرب 224 ، الاستيعاب 1362/3 ، شرح شواهد المغني 568/2 سمط اللالى 87/1 ، خزانة الادب 236/1
2) معجم البلدان 417/3
3) الكامل في التاريخ 250/1
4) ن. م. 250/1
5) ن. م. 256/1

المناذرة (6) وغيرها كثير مما سجلته ايام العرب واخبارها .

وفي الاسلام لعبت بنو تميم دورا كبيرا في الجزيرة العربية حين انضمت الى صفوف المرتدين حتى شاء الله ان ينصر الاسلام والمسلمين فعادت تميم الى حظيرة الاسلام وساهمت في الفتوحات الاسلامية ثم استقرت في العراق والمشرق .

عرف متمم في العصر الجاهلي شاعرا مدافعا عن قبيلته مشاركا في أيامها وحروبها . ففي يوم الصمد اسر متمم عبد الله بن عنمة، واحسن اليه في اسره ، ثم افتكه فقال عبد الله يمدحه ويذكر مقتله :

فان ليربوع على الجيش منة مجللة نالت سويدا واسعدا

جزى الله رب الناس عني متمما بخير الجزاء ما اعف وامجدا

كاني غداة الصمد حين دعوته تفرعت حصنا لا يرام ممردا (7)

الا ان شهرة متمم بدأت حقيقة باقتران اسمه باسم أخيه مالك بن نويرة الذي قتل في حروب الردة ، وخلده متمم بقصائد رائعة رثاه فيها اجمل الرثاء واروعه .

فمن هو مالك هذا ؟ وما سبب قتله ؟

عرف مالك بالبطولة والشجاعة والفروسية ، ورسمت له الاخبار صورة ممتازة لمكانته الاجتماعية في قومه خاصة وفي القبائل العربية الاخرى عامة . فقد كان مالك في الجاهلية من ارداف الملوك (8) ، وهو لقب يصور مكانته اجمل تصوير فللردافة عند العرب موضعان : احدهما ان يردفه الملك على دابته في صيد او تريف ، او ما اشبه ذلك من مواضع الانس ، والوجه الآخر انبل وهو ان يخلف الملك اذا قام في مجلس الحكم فينظر بين الناس بعده . وقيل في معنى الردافة ان يجلس الملك ويجلس

---

6) نقائض جرير والفرزدق 69/1.
7) معجم البلدان 417/3 .
8) الكامل في اللغة والادب 1242/3 ، سمط النجوم 351/2 .

الردف عن يمينه ، اذا شرب الملك شرب الردف معه ، واذا غـاب جلس الردف مكانه ، وللردف أتاوة تؤخذ مع أتاوة الملك (9) . فمالك اذن كان بمثابة نائب الملك فى حكمه بين المتخاصـمـين او فى أخذه الاتاوة أو فى مصاحبته للملك فى انسه او فى عمله . وقد افتخر شاعر يربوع بمكـانـة مالـك بقولـه :

ومن ينافـر آل يربـوع يـجـد   المجلس الايمن والردف النجد (10)

وفى توكيد هذه المكانة نقرأ شعر جرير الذي يشير فيه الى الردفين من يربـوع :

منهم عتيبـة والمـحـل وقعنـب   والحنتفان ومهـم الردفـان (11)

ومن الطبيعى ان يكون لمالك من الصفات ما يؤهله لهذه المكانـة فقد كان من فرسان العرب المشهورين (12) واقترنت باسمه أسماء خيل جياد سجلتها المصادر القدمة أشهرها ذو الخمار (13) ، والعباب (14) ، ونصاب (15) وابنتها الوريعة (16) . وقد اشترك مالك فى الايام التـي خاضتها قبيلته ضد القبائل الاخرى وسجل انتصاراتها ومفاخرها (17) ، وقد عرف متمم فروسيته هذه وصورها فى أخباره واشعاره اجمل تصوير، فهو لا يحمل الا الرمح الخطل الذي ذكره الجاحظ ضمن الرماح العربيـة الطويلة وقال عنه بانه الذي يضطرب فى يد صاحبه لافراط طوله (فاذا أراد الرجل ان يخبر عن شدة أسر صاحبه ، ذكره كما ذكر متمم بن نويرة اخاه مالكا فقال : وكان يخرج فى الليلة الصنبر ، عليه الشملة الفلوت ،

---

9) ن. م.
10) شرح حالعيون : 86 ، سمط النجوم 351/32
11) سمط النجوم 352/2
12) أسماء المغتالين ــ نوادر المخطوطات ج 244/6 ، الاغانـى 63/14
13) الخيل/ابو عبيدة 11،12 ، النقائص 782/2 ، أسماء المغتالين ، نوادر المخطوطات ج 244/6 ، الشعر والشعراء 254/1 ، طبقات فحـول الشعـراء 170 المؤتلـف والمختلف : 297 شرح نهج البلاغة 58/2 ، خزانة الادب 125/1
14) انساب الخيل : 49
(15) ن. م. ، حيلـة الفرسـان / 162
16) ن. م.
17) انظر اشعاره فى كتاب مالك ومتمم ابنا نويرة/58 فما بعدها

بين المزادتين النضوحتين على الجمل الثقال معتقل الرمح الخطل . فقالوا وأبيك : ان هذا لهو الجند) (18) . وقد علق الجاحظ على هذه الرواية بقوله : (ولا يحمل الرمح الخطل الا الشديد الايد والمدل بفضل قوته عليه الذي اذا رآه الفارس في تلك الهيئة هابه ، وحاد عنه ، فان شد عليه كان اشد لاستخذائه له (19) . وفي هذا الوصف ما يصور فروسية مالك ويعلل سبب اختياره ردفا للملك لما لهذه المكانة من اهمية بين القبائل .

وقد ضربت الامثال بشجاعة مالك وفروسيته فقيل (فتى ولا كمالك) (20) .

وكان في مالك فروسية العربي واباؤه ووفاؤه وعرف بالذكاء والحنكة وحسن التدبير، ونستشف ذلك من ذلك قراءتنا لخبر حكاه متمم امام الخليفة عمر بن الخطاب وكيف ان بني تغلب أسرت متمما يوما في الجاهلية فبلغ ذلك مالكا فجاء ليفتديه وحين دخل على القوم وهم جلوس في ناديهم نظر الى أخيه مقيدا ، اسيرا ، فاعرض عنه ، ونظر القوم اليه فعدل اليهم، ثم سلم عليهم وحادثهم ، وضاحكهم وانشدهم فما زال كذلك حتى ملأهم سرورا ، وحضر غذاؤهم فسألوه ليتغذى معهم ، فنزل ، واكل ثم نظر الى اخيه وقال : انه لقبيح بنا ان ناكل ، ورجل ملقى بين ايدينا لا ياكل معنا ، وامسك يده عن الطعام ، فلما راى ذلك القوم نهضوا، وصبوا الماء على قيد متمم حتى لان ، وحلوه ثم جاءوا به فاجلسوه معهم على الغداء ، فلما اكلوا قال لهم : اما ترون تحرم هذا بنا واكله معنا ؟ انه لقبيح بكم أن تردوه الى القيد فخلوا سبيله (21) . وهكذا صور متمم اخاه

---

18) البيان والبيتين 24/3 ، وفي رواية الكامل للمبرد 1244/3 وفي يده الرمح الثقيل والجمل الثقال هو الذي لا يكاد ينبعث ، والشملة الفلوت التي لا تكاد تثبت على لابسها والليلة الصنبر الشديدة البرد . وانظر ايضا العقد الفريد . 12/1 ، معجم مقاييس اللغة 17/1 سرح العيون / 88

19) البيان والتبيين /24

20) المعمرون / 15 ، الكامل للمبرد 10/1 ، العقد الفريد 2—114 ، معجم الامثال 2—24 خزانة الادب 1—236 ، فصل المقال / 171 . وروى بعضهم بانه ليس المراد به مالك بن نويرة وانما هو مالك بن قيس بن زهير .

21) عيون الاخبار 4 : 31 ، الشعر والشعراء 254/1 والقصة مفصلة في الاغاني 69/14 .

فى هذه الحكاية ووصف شجاعته وحنكته فى تدبر الامور ، وكيف انه لم يخش الاعداء ، ولم يرهب فضيحة امره امامهم ، وهو يستدرجهم نحو فك اسر اخيه ، دون أن يكلف نفسه عناء فدائه بالطريقة المالوفة فى المجتمع القبلى .

واضافة الى شجاعته وفروسيته ، فقد عرف بكل ما يفخر به العربى من خلق متين ومثل اعلى فهو كريم وجميل ، وشريف مع شيء من الخيلاء ، فقد روي ان امراة من قومه قالت حين راته قتيلا : (انه والله غضيض الطرف عن الجارات ، حديد النظر فى الغارات،لايشبع ليلة يضاف ولا ينام ليلة يخاف) (22) . وقال ابن سلام يصفه (كان مالك رجلا شريفا، فارسا ، شاعرا ، وكانت فيه خيلاء وتقدم) (23) .

اما ما ذكره متمم من صفات جليلة ومثل عليا ذكر بها اخاه فى رثائه فلن نتعرض لها الآن ، لاننا نرجا ذلك بعد الحديث عن مقتله وما قيل فيه من آراء .

اختلفت الاراء فى سبب مقتل مالك ، وتطاحنت الاخبار فى مناقشة ذلك ، وهل اصاب خالد بن الوليد ام اخطا فى الامر بقتله كما تورد الاخبار. ولكثرة الروايات المتعلقة بهذا الامر الف بعضهم فيها ، ومن هؤلاء ابو رياش احمد بن ابى هاشم القيسى الذي الف رسالة تتضمن قصة قتل خالد ابن الوليد لمالك بن نويرة (24) .

ويرجع سبب اهتمام المؤرخين بهذه القضية الى شخصية مالك نفسها والتى حاولنا وصفها من قبل ، والى ارتباطها باسم القائد العربى المسلم خالد بن الوليد الذي كان على راس الجيوش المسلمة فى حروبها لاعادة القبائل العربية التى ارتدت عن الاسلام بعد وفاة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم .

تذكر بعض الروايات ان مالكا اسلم اول امره ، ثم قدم على النبى صلى الله عليه وسلم ، فيمن قدم عليه من العرب فولاه صدقات بنى يربوع (25) ، ولما قبض الرسول صلى الله عليه وسلم ارتدت كثير من

---

22) الاشباه والنظائر 345/2 ، سمط النجوم 352/3
23) طبقات فحول الشعراء/170
24) خزانة الادب 236/1
25) الاغانى 69/14

القبائل العربية عن الاسلام ، وبان ضعف ايمانها برجوعها عنه ؟ وكانت سجاح التميمية ممن ارتد ، وجمعت حولها الجيوش لتغزو بها ابا بكر ، فلما انتهت الى الحزن راسلت مالك بن نويرة ودعـتـه الى الموادعـة فاجابها ، ولكنه منعها عن غزو أبى بكر (26) ، ثم انه فرق ما في يده من ابل الصدقة ، وامسك عن اخذها من قومه وقال لهم : تربصوا بها حتى يقوم قائم بعد النبى صلى الله عليه وسلم وننظر ما يكون من امره ، وقد صرح بذلك في شعره بقوله :

وقال رجال سدد اليوم مالك	وقال رجال مالك لم يسدد
فقلت دعوني لا ابا لابيكم	فلم احظ رايا بالمقام ولا الندى
وقلت خذوا اموالكم غير خائف	ولا ناظر فيما يجيء به غدى
فدونكموها انما هي مالكم	مصورة اخلاقها لم تجدد
وقلت خذوا أموالكم غير خائف	ولا ناظر فيما يجيء به غدي
ساجعل نفسي دون ما تحذرونه	وارهنكم يوما بما قلته يدي
فان قام بالامر المجدد قائم	أطلعنا وقلنا الدين دين محمد (26)

وقد علق المرتضى على هذه الابيات بقوله : (فصرح كما ترى انه استبقى الصدقة في ايدي قومه رفقا بهم ، وتقربا اليهم الى ان يقوم بالامر من يدفع ذلك اليه (27) .

ويبدو لى أن امتناع مالك عن دفع الصدقات بعد موت الرسول صلى الله عليه وسلم يمثل لنا نفسية الاعراب عند ظهور الاسلام ، وكيف انهم آمنوا بادى ذي بدء ودفعوا الصدقة لرسول الله (ص) ، لانه النبي ، ولانهم وجدوا ما يبرر دفع المال اليه حتى اذا توفي الرسول (ص) صعب عليهم أن يقدموها لمن يلي امر الناس ؛ لانهم ما اعتادوا هذه الطاعة

---

26) السيرة النبوية 271/4 ، تاريخ الطبرى 167/3 ، الاغاني 14–66 ، الاستيعاب 3–1362 ، الاصابة 34/3 ، سرح العيون : 86 ، تسمط النجوم 352/2

27) شرح نهج البلاغة 152/5

لحكومة خارجة عن نطاق حياتهم القبلية التي تانف عن الانصياع الى سلطان آخر . واذا كان الشريف المرتضى في تعليقه على الابيات السابقة قـــد ذكر تعليلا لتوزيع مالك اموال الصدقة فان هناك روايات اخـــرى تؤيـــد ضعف ايمانه او بالاحرى تأرجح موقفه بين الطاعة والردة على أدق تعبير . ثم ان البيت الاخير الذي يذكر فيه مالك بانه ينتظر من يقوم بأمر الناس ليقدم اليه الطاعة قائلا بأن الدين دين محمد علق ابن ابي الحديد عليـــه بقوله (فأما الشعر الذي رواه المرتضى لمالك بن نويرة فهو معروف الا البيت الاخير ، فانه غير معروف وعليه عمدة المرتضى في هذا المقام (28)

ومما يروي ايضا ان أكثم بن صيفي نصح قومه بني تميم في خطبة طويلة بأن يعودوا الى الاسلام لان فيه صلاحهم ، فقال مالـــك : قـــد خرف شيخكم ! فقال أكثم : ويل للخلي من الشجي (29) وفي هذا دليل على ردة مالك وتحريضه قومه للخروج عن الاسلام . الا ان الطبري يروي رواية اخرى يذكر فيها ان مالكا بعد ان فرق اموال الصدقة على قومه شك في عاقبة الامر فنهاهم عن الاجتماع وقال : (يا بنـــي يربوع انا قد كنا عصينا امراءنا اذ دعونا الى هذا الدين ، وبطانا الناس عنه فلم نفلح ، ولم ننجح ، واني قد نظرت في هذا الامر ، فوجدت الامر يتأتـــى لهـــم بغيـــر سياسة ، واذ الامر لا يسوسه الناس ، فاياكم ومناوأة قوم صنع لهـــم ، فتفرقوا الى دياركم ، وادخلوا في هذا الامر . فتفرقوا (30) .

ورواية الطبري هذه تبين ان مالكا لم يمنع قومه عن الاجتماع لانه عاد الى حظيرة الاسلام ، وانما منعهم خوفا من عاقبة الردة ، ولانه شعر بأن الظروف كلها مساعدة على انتصار المسلمين ، ولذلك قال : فاياكم ومناوأة قوم صنع لهم . ثم تفرق قوم مالك وجاءتهم سرايا خالد بن الوليد وكان ابو بكر قد اوصـــى خالدا واصحابه انهم اذا نزلوا بحـــي من أحياء العرب امهلوهم الى وقت الصلاة فان رأوهم يصلون والا قاتلوهم ، فيقال ان اصحاب خالد وافوا بني يربوع وقت الفجر ، وقد اختلفوا في مالـــك واصحابه ، هل اذن فيهم مؤذن ام لا ؟ واسر مالك مع جماعة من قومـــه

---

28) ن. م.
29) الفاخـــر / 250 ، بلوغ الارب 309/1
30) تاريخ الطبري 241/3 ، وانظر ايضا الكامل 149/2 .

وكان قتادة ممن اكد سماعه آذان بنى يربوع وصلاتهم وقد قيل بانه كلم خالد بن الوليد كلاما شديدا ، وحاول منعه عن قتل مالك فلم يقبل ، فالى يمينا الا يسير تحت راية اميرها خالد ابدا ، وقال عبد الله ابن عمر — وكان فى سرية خالد آنذاك — يا خالد ، ابعد شهادة ابى قتادة ؟ فاعرض عنه ، ثم عاوده فقال : يا ابا عبد الرحمن اسكت عن هذا فانى اعلم ما لم تعلم ، فامر ضرار بن الازور (31) ليضرب عنقه ففعل (32) ثم ان ابا قتادة قدم على ابى بكر وقال له : اني نهيت خالد عن قتله فلم يقبل ، واخذ بشهادة الاعراب الذين غرضهم الغنائم (33) .

وهناك روايات اخرى تبرر قتل خالد مالكا ، وذلك انه بعد ان اختلف القوم فى أمر الآذان امرهم بالاحتياط — وكانت ليلة باردة — فقال خالد : ادفئوا أسراكم — وادفئوا فى لغة كنانة اقتلوا — فقتلوهم عن آخرهم ، فسمع خالد الداعية فخرج وقد فرغوا منهم ، فقال : اذا اراد الله امرا اصابه (34) . ولا نعرف مدى صحة هذه الرواية وعلى الارجح انها وضعت لتبرير موقف خالد ، ومع ذلك فانها تبين من الناحية الاخرى ان مقتل مالك فى نظر بعض المؤرخين كان خطا ولم يكن خالد متعمدا فى ذلك

وذكرت رواية اخرى اعتذارا لخالد أمام ابى بكر ، وذلك انه قال : ان مالكا قال له وهو يراجعه : ما اخال صاحبكم الا وقد كان يقول كذا ، وكذا ، فقال له خالد : او ما تعده لك صاحبا ؟ ثم قدمه ، فضربت

---

31) وقيل عبد الله بن الازور . انظر تاريخ الطبري 243/3 ؛ كنى الشعراء ، نوادر المخطوطات ـ المجموعة السابعة 290 ؛ الاستيعاب 747/2 ؛ معجم البلدان 661/1 وقد اشار متمم الى ابن الازور دون تحديد الاسم الاول فى احدى مراثيه لاخيه وقد انشدها امام ابى بكر :

نعم القتيل اذا الرياح تناوحت　　تحت الازار قتلت يا ابن الازور

انظر ص 21 من كتاب مالك ومتمم

32) اسماء المقتالين 244 ، تاريخ الطبرى 241/3 ، طبقات فحول الشعراء 6173 — الاغانى 65/14 ، سير اعلام النبلاء 271/1

33) شرح نهج البلاغة 147/5 .

34) تاريخ الطبرى 242/3 ، الكامل للمبرد 149/2 ، الاغانى 14—65 ، معجم البلدان 676/1 ؛ فوات الوفيات 296/1

عنقه ، وأعناق اصحابه لانه تاول كلمة صاحبك بأن فيها انكارا للنبوة (35) ويبدو هذا الاعتذار واهيا ، اذ كيف يتسرع خالد ليقتل مالكا عند سماعه كلمة صاحبك قبل ان يتبين مغزاها ؟ ثم لم لم يقتل أصحاب مالك معه وبهذه السرعة ؟ وقد قيل انه اراد بقوله صاحبك الاقرع بن حابس المجاشعي ، وذلك انه قال له حين حاول ان يمنعه عن تفرقة اموال الصدقة أن لهذا الامر قائما فلا تعجل بتفرقة ما فى يديك فقال له مالك :

ارانى الله بالنعم المندى ببرقة رحرحان وقد ارانى

تمشى يا ابن عودة فى تميم وصاحبك الاقيرع تلحيانى (36)

ويروي اليعقوبي سببا آخر لمقتل مالك ، وذلك ان خالدا لما راى زوجة مالك أعجب بها ، وقيل أنه كان يهواها فى الجاهلية فقتله وتزوجها من غير أن ترجع عن ردتها (37) . ويبدو ان هذه الرواية قد حكيت وزيد عليها كثيرا لانه من غير الممكن ان يتناسى خالد ما وكل اليه من واجب عظيم فى قتال المرتدين واعادتهم الى الاسلام والمسلمين . ايتناسى خالد واجب الجهاد العظيم ليظفر بقتل مالك والزواج من امراته ! ثم كيف يجرا على قتله لهذا السبب وهو محاط بجيش من المسلمين يحصي خطواته ، ويراقب حركاته ، ونحن نعرف ان العرب عند ظهور الاسلام لم يتحرجوا عن ابداء رايهم امام الخليفة ومجابهته بالحق او تعنيفه على أمر من الامور ... وان الطعن فى هذه الرواية ليس فى شخصية خالد بن الوليد فحسب بل فى جيش المسلمين بصورة عامة ، اذ كيف يرتضى هؤلاء السير تحت راية قائد غايته الاولى الزواج بمن يحب ؟ واين المثل الاسلامية التى قتل من اجلها شهداء المسلمين من حملة القرآن وقرائه ؟ ثم ان ابا قتادة لم يعترض على زواج خالد ، وانما اعترض على قتل مالك مع سماعهم آذان القوم وصلاتهم ، والذي حوسب عليه خالد — فيما بعد — هو تزوجه المراة وهو فى حالة حرب ، وذلك مما تكرهه العرب

---

35) تاريخ الطبرى 243/3 ، طبقات فحول الشعراء ، 172 ، الاغانى 66/14 ، سرح العيون : 86

36) طبقات فحول الشعراء 171 ، الاغانى 66/14 ، معجم البلدان مادة (برقة رحرحان) شرح ديوان الحماسة للتبريزي 149/2

37) تاريخ اليعقوبي 148/2 وانظر أيضا أسماء المغتالين: 244 ، طبقات فحول الشعراء: 173

وتعيب عليه (38) . ومن المحتمل ان خالدا تزوج زوجة مالك رغبة منه في ارضاء قومها بعد ان شعر بخطأه ، وتسرعه في قتله . اما الرواية السابقة ـ رواية اليعقوبي ـ فهي موضوعة لغرض النيل من شخصية خالد بالحاق هذه التهمة التي نجله عنها ، ونجل جيش المسلمين المجاهد ان يقبل بها .

ولكن الراي الذي يحصل لنا من قراءة وتتبع مجموع الروايات التي قيلت في مقتل مالك هو ان خالدا قد أخطأ وتسرع في قتله وليس ذاك بغريب ، فخالد عرفت خدماته الجليلة في الذود عن حياض الاسلام ، ولم تقف امامه قوة من قوى المرتدين ، وقد اعتد بقوته وشجاعته هذه ـ اذا جاز لنا هذا القول ـ ولم يكن ليمنعه شيء عن امر اذا اراده ، ويؤكد هذا قول عمر بن الخطاب حين الح على الخليفة أبي بكر في عزل خالد قائلا : ان في سيف خالد رهقا فاعزله ، فقال له ابو بكر : لا ، يا عمر ، لم أكن لاشيم سيفا سله الله على الكافرين (39) . كان خالد معتدا بقوته وشجاعته وانتصاراته حتى اذا جاءه مالك وكان هو الآخر معتدا بنفسه مع ما فيه من عنجهية بني تميم وكبريائها التي عرفت بها ، تلك العنجهية التي سجلها القرآن الكريم لهم حين نادوا الرسول صلى الله عليه وسلم من وراء الحجرات بصوت جاف (40) .

جاء مالك بهذه الروح وأثار خالدا بقوله : ما اخال صاحبكم.. كما مر بنا ففسرها بانكار النبوة ، وربما جرى بينهما كلام غليظ يمثل اعتداد كل منهما بنفسه ، فأمر خالد بقتله . وأما ما قيل من معارضة ابي قتادة بانه شهد آذان القوم وصلاتهم فليس فيه تناقض اذ أن خالدا كان قد صمم على قتله بعد أن سمع لهجته في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وكانت الحوادث المسبقة تشير الى ان عودة مالك الى الاسلام او اعلان قومه الآذان انما كان استسلاما وليس ايمانا . ومع ذلك فقد كان بامكان خالد آلا يقتله تطبيقا لعهد الخليفة ابي بكر الصديق في عدم

---

38) الاغاني 64/14 ، الاشباه والنظائر 345/1
39) الاغاني 64/14 ، شرح ديوان الحماسة/التبريزي 2ـ150 ، سير اعلام النبلاء 270/1 ، خزانة الادب 238/1.
40) سورة الحجرات 4/49

قتال قوم يسمع بينهم صوت الآذان ، حتى وان كان ذلك استسلاما او تظاهرا بالايمان . ويؤيد ما قلناه من ان خالدا قد اخطأ في قتله مالكا انه اعتذر امام أبي بكر بقوله : أصبت فأخطأت (41) ؟ وقد قال ابن عبد البر في تعليقه على هذا الحادث بقوله : واختلف فيه هل قتله مسلما او مرتدا وأراه ـ والله أعلم ـ قتله خطأ (42) . وقال ابن ابى الحديد : ولست انزه خالدا عن الخطا ، واعلم انه كان جبارا فاتكا لا يراقب الدين فيما يحمله عليه الغضب وهوى نفسه . لقد وقع منه في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم مع بنى جذيمة بالغميصاء اعظم مما وقع منه في حق مالك ابن نويرة ، وعفا عنه رسول الله صلى الله عليه وعلى آله بعد ان غضب عليه مدة ، واعرض عنه ، وذلك العفو هو الذي اطمعه حتى فعل ببني يربوع ما فعل بالبطاح (43) .

وحين بلغت اخبار مقتل مالك وأصحابه انكر ذلك ابو بكر ، وجزع جزعا شديداً (44) ، وامر برد السبى ، وودى مالكا (45) .

وحين انشده متمم قوله :

ادعوته بالله ثم غدرته لو هو دعاك بذمة لم يغدر

نفى ابو بكر عن نفسه ما قد يتبادر الى الذهن من التهمة فقال : والله ما دعوته ولا غدرته (46) ، فكأن أبا بكر أحس بخطأ قتل مالك فبرأ نفسه مما قد يتوهمه السامع .

اما الخليفة عمر بن الخطاب فقد كان أشدهم على خالد ، فقد غضب عليه غضبا شديدا ، وطالب ابا بكر بعزله ورجمه ، لانه كما قيل قتل أمرء مسلما وتزوج بامراته قبل أن تعود الى الاسلام ، وقبل ان تكمل

---

41) تاريخ اليعقوبي 148/2
42) الاستيعاب 362/2
43) شرح نهج البلاغة 153/5
44) تاريخ ابن خياط / 70 ، طبقات فحول الشعراء 170 ، الاغاني 65/14
45) تاريخ خليفة بن خياط/70 ، تاريخ الطبرى 243/3 ، الاغانى 14ـ64 ، سير اعلام النبلاء 270/1 ، الكامل لابن الاثير 149/2
46) الاغاني 67/14 ، سمط اللالى 352/3 .

عدتها (47) . وان عمر قال لابي بكر : ان فى سيف خالد رهقا فاعزله (48) كما مر بنا ، الا أن ابا بكر اعتذر عن تنفيذ ذلك بقوله : سيف سله الله لا اكون أول من اغمده أكل أمره الى الله (49) . وفى هذا دليل على أن عفو الخليفة ابى بكر عن خالد لم يكن بسبب اعتقاده ببراءة خالد ، وانما كان لتسامحه الذي عرف به ، وتمسكه بكل ما اقره او قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخالد سيف سله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكيف يعزله أبو بكر !

ولما سمع عمر قول متمم فى اخيه قال : وددت لو رثيت اخى زيداً بمثل ما رثيت به اخاك ، فكان جواب تمم : لو كان أخي قتل على ما قتل اخوك ما بكيته. وتحتمل هذه الرواية عدة تأويلات :

أولها : ان متمما كان يعلم بان أخاه قتل مرتدا ، ولكنه يبكيه ، ويطالب بدمه لان هناك ما يبرر عدم قتله — لو لم يقتله خالد — فى اعلانه وقومه الاذان .

وثانيهما : انه يعنى ان مالكا قتل ظلما وانه يبكيه لانه غدر ، وما حق لعمر ان يبكى اخاه زيدا ، لان اخاه مات شهيداً ، وليس غدرا ، وانه حين رثى زيداً بعد ذلك قصد بذلك ان يكسب رضى عمر بن الخطاب وان يلبي رغبته فى رثاء أخيه زيد (50) .

وحين تولى عمر بن الخطاب الخلافة قدم عليه متمم ، واستعداه على خالد فقال : لا ارد شيئا صنعه ابو بكر فقال متمم : قد كنت تزعم ان لو كنت مكان ابى بكر اقدته ، فقال عمر : اذ يلو كنت ذلك اليوم بمكانى اليوم لفعلت ولكن ، لا ارد شيئا امضاه ابو بكر . ورد عليه ليلى زوجة مالك ، وابنها جراد (51) ؟ ثم عزل خالدا عن الجيش وقال :

---

47) تاريخ الطبرى 243/3 ، الشعر والشعراء 254/1 ، الاغانى 14—64 ، شرح ديوان الحماسة للتبريزى 150/2 ، سير اعلام النبلاء 270/1 .
الاغانى 64/14 ، شرح ديوان الحماسة 150/2 ، سير اعلام النبلاء 1—270 ،
49) ن. م.
انظر فى هذا شرح نهج البلاغة 152/5
51) تاريخ الطبري 56/4 ، الشعر والشعراء 254/1 ، سرح العيون : 87 ، ثمار القلوب 230 ، الخزانة 1—238

والله لا ولي عملا فى حياتي (52) .

وننتقل الآن الى شعر متمم ومراثيه بصورة خاصة فى اخيه مالك بعد أن استعرضنا الروايات التى قيلت فى مقتل مالك .

لم يصل الينا ديوان متمم مجموعا (52) آلا ان شعره مشهور متداول بين الرواة والادباء العرب وهو مختلف بين مقطوعة قصيرة الى قصيدة تتجاوز الخمسين بيتا او بيتين فقط تشيران الى ضياع قصائــده ومعظم اشعاره . وقصائده الطويلة التى وصلت الينا تطلعنا على نفسه الشعري الطويل ، وروحه التى بلغت بشعره درجة من الجودة ليست اقل من التى وصل اليها شعر معاصريه . ومما يؤيد قولنا رواية يذكرها ابن النديم (53) يضع فيها اسم متمم ضمن اسماء الشعراء الذين عمل أبو سعيد السكري اشعارهم . وقد اشار القدماء كذلك الى كثرة شعر متمم . جاء فى الاشباه والنظائر ومراثي متمم فى مالك كثيرة الا اننا نورد ما نختار من بعضها (54) وقال ايضا : (ومراثى متمم فى مالك كثيرة ، وانما اتينا منها باليسيــر اجتنابــا للتطويـــل) (55) .

لقد اشتهرت مراثى متمم فى اخيه مالك واعجب بها النقاد والرواة، فوضعه ابن سلام فى مقدمة اصحاب المراثى قال : والمقدم عندنا متمم بن نويرة (56) . وقال أيضا : وبكـــى متمم مالكا فأكثر وأجاد ، والمقدمة منهن قولــه :

لعمري وما دهري بتابيــن هالــك ولا جزع مما أصاب وأوجعــا (57)

وعد الاصمعـــى هذه القصيدة ام المراثى ، الا ان الجاحظ لا يؤيده

---

52) شرح ديوان الحماسة 151/2 — انظر شعره مجموعا فى كتاب مالك ومتمم ابنا نويرة اليربوعـــي لكاتبة المقـال
53) الفهـــرس /158
54) الاشبـــاه والنظائـــر 346/2
55) ن. م. 350/2
56) ن. م.
57) طبقـــات فحـــول الشعـــراء : 170

فى هذا لراى ، فقد قيل له أن الاصمعــي كان يسمــى هــذا الشعــر ام المراثي (58) فقال : لم يسمع الاصمعي :

اي القلوب عليكم ليس ينــصــدع وأي نوم عليكم لــيــس يمــتنــع

وقال أبو العباس المبرد : (ومن أشعار العرب المشهورة المتخيرة فى المراثي قصيدة متمم بن نويرة) (59) . وقال ابن الاثير معجبا برثاء متمم : (واما متمم فلم يختلف فى اسلامه ، كان شاعراً محسنا لم يقل أحد مثل شعره فى المراثي التي رثى بها أخاه مالكا (60) .

وقد قيل فى بيته المشهور الذي يرثى به مالكا :

لقد لامنــي عند القبور على البكــا رفيقى لتذراف الدموع السوافك

بانه أرثى بيت قالته العرب ، وانه ابلغ ما قيل فى تعظيم ميت (61) .

وقد علق ابن نباته على هذه القصيدة ايضا بأنها من جيد مراثى متمم لمالك (62) وذكر ان الخليفة عمر بن الخطاب قال للحطيئة : هــل رأيت أو سمعت بأبكى من هــذا ؟ قال : والله ما بكــى بكــاءه عربــي قط ، ولا يبكيــه (63) .

هذا الاعجاب الكبير برثاء متمم مرده الى الروح الرقيقة التــى اتسمت بها نفسه وانعكاس هذه الروح فى اشعاره ، والعاطفة القويــة التي صبت آلامها وأحزانها فى أبيات شعرية ما أن تعيها الاذن ، حتــى تمس شغاف القلب ، وتحرك أوتار الحــزن ، وتهيــج مكامــن الاسى واللوعة ، وقد مر بنا ان رثاء متمم كان يحرك فى نفس الخليفة عمر كوامن الحزن على اخيه زيد الذي قتل فى حروب اليمامة ، وروي انه كان يقول : رحم الله زيداً ، ما هبت الرياح من تلقاء اليمامة الا اتتنى برياه ، وما ذكرت قول متمم بن نويرة الا ذكرته وهاج بى شجنا :

---

58) العقــد الفريــد 265/3
59) الكامــل للمبــدول 1236/3
60) أســد الغابــة 398/4
61) نهايــة الارب 177/5
62) ســرح العيــون : 89
63) الاصابــة 340/3

وكنا كندماني جذيمة حقبة من الدهر حتى قيل لن يتصدعا

فلما تفرقنا كأني ومالكا لطول اجتماع لم نبت ليلة معا (64)

وذكر انه حين انشده متمم قصيدته التي مطلعها :

لعمري وما دهري بتأبين مالك ولا جزع مما اصاب فأوجعا

قال عمر : هذا والله التأبين ، ولوددت أني أحسن الشعر فارثي اخي زيدا بمثل ما رثيت به أخاك . فقال متمم : لو ان اخي مات على ما مات أخوك ما رثيته ؟ فقال عمر : ما عزاني احد عن اخي بمثل ما عزاني به متمم (65) . وتمني الخليفة عمر قول الشعر ليرثي أخاه زيداً يجلي لنا حقيقة مهمة وهي ان العاطفة وحدها لا تكفي لايجاد شعر قوي مؤثر ، وانما يجب أن تلازمها قابلية شعرية فذة تعكس الحزن الشديد بقوالب فنية مؤثرة رائعة . ومن هنا كان اعجاب الناس والادباء بشعر متمم ، لان حزنه كان شديدا ، وانه استطاع أن يصور هذا الحزن وينقله الى نفوس الآخرين بصدق وحرارة . وتفسر هذه الحقيقة رواية تذكر ان متمما رثى زيد بن الخطاب بعد ان سمع تمني عمر قول الشعر ليرثي به أخاه خاصة وان عمر بن الخطاب كان من المساندين لمتمم ، ومن المطالبين بأخذ حق مالك من خالد ، فأراد متمم أن يرضيه ــ كما مر بنا من قبل ــ ولكنه لم يوفق من الناحية النفسية كما يبدو من قول الخليفة عمر لمتمم : لم ارك رثيت زيدا كما رثيت مالكا فقال : والله انه ليحركني لمالك ما لا يحركني لزيد (66) وفي هذا دلالة واضحة لصدق عاطفة متمم تجاه أخيه ، وظهور هذا الصدق في مراثيه . وان متمما حاول ان يتكلف قول الشعر ، وأن يفتعل العاطفة فلم يجده ذلك ، ولو وصلت الينا أشعاره في رثاء زيد لاستطعنا المقارنة بينها وبين رثائه لاخيه مالك ؟ ومع ذلك فان نظرة واحدة لشعره في رثاء الخليفة عمر بن الخطاب بعد مقتله تعطينا صورة لرثائه المنبعث عن مجاملة او عن عاطفة اقل بكثير من عاطفته تجاه اخيه ، يقول :

---

64) شرح شواهد المغني 569/2

65) الطبقات الكبرى ج 3 ق 275/2 ، الكامل للمبرد 242/3 ، الفاضل 62 ، الشعر والشعراء / 255 ، طبقات فحول الشعراء / 173 ، أمالي لليزيدي ، 25 ، الاغاني 64/14 ، حور العين / 132 ، الكامل لابن الاثير 2ــ150

66) الكامل للمبرد 124/3 ، الفاضل / 63

يسائلني ابن بجير ايـن ابكـــره عنـي فان فؤادي عنـك مشغول
هلا بيوم ابـى حفص ومصرعـه ان ابتفاءك مـا ضيعـت تضليـل
ان الرزيئة فـابكـه ولا تسـمـن عبء تطيف به الانصار محمول (67)

فلا نجد في هذه الابيات عاطفة قوية ، ولا روحا حزينة بل انها تبدو اضافة الى هذا ركيكة النظم فيها حزن ثقيل ومعان مبتذلة وعاطفة مفتعلة فاذا قارناها بما قاله في أخيه مالك وجدت الفرق كبيرا .

ونختار هنا من مجموع شعره في مالك مقطوعة واحدة وقصيدة عينية مشهورة قالها في رثاء اخيه :

أما المقطوعة فلانها تصور جانبا انسانيا رائعا خاصة في ابياتها الاربعة الاولى التي تصور احساس الحزن اذا ملك نفس الانسان اتشحت كل مظاهر الحياة أمام عينيه بالحزن والاسى ، فكيف به اذا رأى مشهدا حزينا او رأى قبرا من القبور ! لا بد انها تثير ما في نفسه من كوامن الالم . وقد ذكروا أن متمما لما قدم العراق بكى كلما رأى قبرا فلامه الناس ، وقالوا له : يموت أخوك بالملا (والملا الموضع الذي قتل فيه مالك في ديار بني أسد) وتبكي أنت على قبر بالعراق فاجابهم شعرا :

لقـد لامني عند القبور على البكـا رفيقي لتذراف الدموع السوافـك
امن اجل قبر بالملا انت نائـح على كـل قبر او على كل هـالـك
فقال اتبكـي كـل قـبـر رايتـه لقبر ثوى بين اللوى فالدكـادك
فقلت له ان الشجا يبعـث الشجـا فدعني فهذا كله قبر مالـك (68)

ثم ينتقل بعد هذا الى ذكر خلال اخيه وتابينه .
واما القصيدة التي اخترناها فهي التي وصفت بام المراثي كمـا

---

67) النـوادر للقالـي : 178
68) أمالي القالي 10/2 ، ديوان الحماسة للبحتري / 407 ، العقد الفريد 3—63 ، شرح ديوان الحماسة للمرزوقي 2—797 ، الحماسة البصرية 21/1 ، معجم ما استعجم 554/2 ، معجم البلدان 2—413 ، تفسير الرازي 193/18 ، الكامل لابن الاثير 221/1 ، لباب التاويل ج 307/3 مع اختلاف في رواية بعض الابيات .

أشرنا الى ذلك من قبل وتعتبر بحق أجمل قصائــد واشهرهــا وهــي عيون المراثى فى الادب العربــى . وقد بداها برثاء اخيه دون مقدمة غزلية او طللية :

لعمري وما دهري بتابيــن هالــك ولا جزع ممــا اصاب فاوجعــا

لقــد كفــن المنهال تحت ردائــه فتــى غير مبطان العشيات اروعا

والمنهال هذا الذي يشير اليه هو منهال بن عصمة ، وهو رجل من بنــى يربوع قيل انه مر على مالك قتيلا فكفنه وغطاه ببرده ، وقيل ان معناها تحت ردائه ، لان الرجل كان اذا قتل فارسا مشهوراً وضع سيفه عليه ليعلم الناس إنه قاتله والاول أرجح لان الروايات تؤكد أن ابن الازور هو الذي قتله والى ذلك اشار متمم فى احدى قصائده الرائية التي انشدها امام ابي بكر وقد مرت بنــا .

ثم ينتقل متمم الى ذكر اخيه فنجد فى كل بيت تصويرا لصفة من صفاته المجيدة فهو حسن الاخلاق ، مع زوجته واهله غير مقتر عليهم ، ولا يحتاج أهله ان يطعمهم اهل الحى اللحم اذا اشتد البرد ، لان مالكــا يكفــى أهله وكل محتاج يعرفه او يمر به ، وهو عاقل حكيم سمح الاخلاق كريم اذا اجدب الكرماء ، وقل عطاؤهم ، ونجد متمما لا يكتفى بوصفه بالكرم فحسب بل يصور نفسيته تصويراً يجسد فيه الحركة والاحساس فهو يهتز، ويفرح اذا طلب منه العطاء وشبه اهتزاز نفسه وطربها باهتزاز السيف فى الوقت الذي لا يكون فى نفوس الآخرين الا الطمع والحرص :

ولا برما تــهــدي النساء لعرسه اذا القشع من برد الشتــاء تقعقعــا

لبيب اعان اللب منــه سمــاحــة خصيب اذا ما راكب الجدب اوضعا

تراه كصدر السيف يهتز للنــدى اذا لم تجد عند امريء السوء مطمعا

وهكذا يكرر صفات اخيه وكانه يحمل آلة تصوير تلتقط لنا فى كل بيت او فى كل شطر صورة من حياتــه الحافلة بالمآثر والامجاد ، والتــى وجههــا لخدمــة قبيلته وابنائها فى السلم والــحــرب ، وفى الشــرب والعطاء ، والكرم ايام المحل والجدب ، وبعد ان ينقل لنا هذه اللوحات

تشتد آلامه وتبلغ أحاسيسه الذروة فى التحسر عليه والتالم لفراقــــه ، فيخاطب عينيه لتسعدانه على البكاء ، لانها ترى في كل مشهد من مشاهد يومه صورة يفتقد فيها وجود أخيه ، فاذا اشتدت الريح الى درجة قلعت فيها الكنيف والحظيرة التي تقي الحيوانات من البرد فى هذا الوقــت العصيب يبخل الناس ـ بما فيهم من عرف بالكرم من قبل ـ آلا مالكا ، وتبدو براعة متمم فى أنه لا يكمل لنا الصورة او المعنى ولا يقول بأن كف المفيض فى هذا الجو العاصف تتقفع وتكف عن العطاء الا مالكا فانه يفيض بعطائه ولكنه يترك للسامع اكمال الصورة ويكتفي برسم كف يد الكريم عن العطاء وحوله صورة الجدب والفاقة والحاجة الى من يساعد الناس :

فعيني هلا تبكيـــان لمالـــــك   اذا اذرت الريح الكنيف المرفعـــا
وهبت شمالا من تجاه اضايـــف   اذا صادفت كف المفيض تقفعـــا

ويطلب من عينيه أن تبكيـــا اذا رأتا مجلس شراب ، واذا راتـــا شجاعا يتحدى الشجعان ببسالته لانه لو كان مالك حيا لما تشجع هــــذا الشجـــاع :

وللشرب ، فابكى مالكا ولبهمـــة   شديد نواحيه على مـــن تشجعـــا

اما تكراره لقضية شرب اخيه او مجلس الشراب فان متمما نحـــا فى ذلك منحى الشعراء الجاهليين فى افتخارهم بأريحية الممدوح او المرثي اذا حضر مجلس الشراب ومتمم فى اسلوبه هذا تقليدي لم يتاثر فنه بالروح الاسلامية الا قليلا فهو يمثل مجموعة شعراء البادية التي استمرت على قول الشعر دون التأثر بمبادىء الاسلام مع دخولهم فى الدين الجديد .

وبعد أن ينقل عينيه فى مشاهد يومه التي يحتاج فيها الى وجـــود ملك والتي تستدعي بكاءه يلفت انظارنا الى ان هذه المشاهد هي التـــي تحول بينه وبين الصبر :

ابى الصبر آيات اراهــا وانـنـــي   ارى كل حبل دون حبلك اقطعـــا

وهنا تهدا روحه الحزينة لتتذكر باسى العلاقة الانسانيـــة التـــي كانت تربطه باخيه ، علاقة الاخ الحميم باخيه الذي اذا دعاه اجابــــه واذا

استنجد به انجده ، فكيف به اليوم وقد حال بينهما الموت ، فـلا يسمع نـــداءه :

وانــي متى ما ادع باسمك لا تجب   وكنت جديرا ان تجيــب وتسمعــا

وكان جناحــي ان نهضــت اقلنى   ويحوي الجناح الريش ان يتنزعا

ولكن حقيقة الموت التى عرفتها الانسانية وادركت حتميتها حتـى قبل نزول الاديان السماوية ، هذه الحقيقة يتذكرها متمم ليسلى نفسه ، الم يصب الموت كبار ملوك الفرس ورهطهم ، ولكن الغريب فى الامر انه يسلي نفسه بذكر الموت الذي اصاب كسرى ولا يتذكر الموت الذي اختطف النبى صلى الله عليه وسلم ، مع العلم ان الرواة والمؤرخيـن اجمعوا على ان متمما كان مسلما حسن الاسلام ولم يرتد مع أخيه ؟ ثـم ينقل مشاعره باسلوب انسانــي رائع فالصحبة الطويلة والملازمة التى كانت بينه وبين اخيه بدت بعد موت مالك وكانها لا شيء ... وهل سنوات الانسان الطويلة بعد انقضائها الا لحظات تمر فى مخيلتنا ! انها صــورة انسانية رائعة اجاد متمم تصويرها بقوله :

وعشنــا بخيــر فى الحيــاة وقبلنا   اصاب المنايــا رهــط كسرى وتبعا

وكنا كندمانــي جذيمــة حــقبــة   من الدهر حتى قيل لــن يتصدعــا

فلمــا تفرقنــا كانــي ومــالكــا   لطــول اجتماع لم نبت ليــلــة معا

وبيتاه الاخيــران ضرب بهما المثل فى المصاحبة وطول الملازمة فقد روى الرواة انه لما توفى عبد الرحمن بن ابى بكر الصديق ولم تحضره عائشة زارت قبره . ثم قالت : يا اخــى انى لو حضرت وفاتــك ما زرت قبرك وأنشات تقول متمثلة ببيتي متمم السابقين (69) .

وتمثل الخليفة عمر بن عبد العزيز ببيت آخر من آبيات متمم حين مــات اخـــوه (70) .

---

69) الكامل للمبرد 1198/3 ، الامالــي للزجاجــي 91 ، الاغانــي 68/14 ، الاستيعــاب 826/2 ، معجم الشعراء 432 ، الاصابة 340/3 ، شرح شواهد المغنــى 2ـ569

70) معجم الشعراء 433 ، الاصابة 340/3

اما الشعراء فقد وجدوا فى بيتى متمم السابقين مادة يشيرون اليها فى اشعارهم لانهم ما ان يذكروهما حتى يثيرا فى النفس الاسى واللوعة . قال الشريف الرضى ضاربا المثل بفجيعة متمم :

فقد فجع الماضى لبيدا بأربد وعزى قبلي مالك فى متمم (71)

وقال ابن حيوس مادحا محمود بن نصر ضاربا بصرعة مالك ، وحزن متمم عليه مثلا لشدة حزنه بعد فراق الممدوح :

فراق قضى الا تاسى بعد ان مضى منجدا صبري واوغلت متهما

وفجعة بين مثل صرعة مالك ويقبح بي الا اكون متمما (72)

ولابى فراس الحمدانى شعر يذكر فيه اسر ابى العشائر الحسين بن على بن الحسن بن حمدان ، ويصف حاله ، وطلبه له ، ووصوله مرعش فى اثره :

سابكيك ما ابقى لى الدهر مقلة فان عزنى دمع فما عزنى دم

وما نحن الا وائل ومهلهل صفاء والا مالك ومتمم (73)

وقال امية بن عبد العزيز ابن ابى الصلت فى قصيدة يرثى بها والدته ذاكرا حزن متمم على اخيه مالك فيقول :

تطول ليالى العاشقين وانما يطول عليك الليل ما لم تهوم

وما بين من وارى التراب حبيبه باقصر من ليل المحب المتيم

فكم بين راج للاياب وآيس واني جميل فى الاسى من متمم (74)

---

71) ديوان الشريف الرضى 399/2

72) ديوان ابن حيوس 599/2

73) ديوان ابن فراس الحمداني 386/2

74) فريدة القصر ق 2 ج 353/1 ، وامية هذا احد شعراء المغرب سكن الاسكندرية وتوفى فى سنة 529 هـ

ومن الطريف ان ننقل نص المعري في رسالة الغفران حين انتقل برحلته الخيالية ليصور ما جرى بين ابي عبيدة والاصمعي بعد عداء وخصام وكيف ربطت بينهما الالفة والمودة ضاربا المثل باخوة متمم ومالك وتلازمهما على هذه المودة فيقول (وابو عبيدة صافي الطوية لعبد الملك بن قريب ، قد ارتفعت خنتهما ، فهما كاربد ولبيد اخوان ، وابني نويرة فيما سبق من الاوان) (75) :

وهكذا نال متمم شهرته بابياته العينية في رثاء وبكاء اخيه مالك وخاصة في بيتيه اللذين توقفنا عندهما واستطردنا الى تاثر الشعراء بهما او الاشارة اليهما .

ونعود الآن الى بداية حديثنا عن قصيدته التي ينتقل فيها من الثورة الحزينة والبكاء المؤلم الى الاسى الهادئ الحزين والشعور بالحقيقة المؤلمة التي لا مفر منها واذا كان الامر كذلك فانه يسلي نفسه بان اخاه ما فارق الدنيا الا وهو محمود الاخلاق حسن السيرة ثم يجمع له صفتين ملازمتين للبطل الفارس الذي يكون طيب الاخلاق حييا في السلم وشجاعا مغوارا في الحرب ويبالغ في صفة حيائه ويصفه بانه احيا من الفتاة الخجول ولكنه في الحرب ليث لا يهاب الموت والحرب :

فان تكن الايام فرقن بيننا فقد بان محمودا اخي حين ودعا

فتى كان احيا من فتاة حيية واشجع من ليث اذا ما تمتعا

ثم يدعو على ديار اخيه بالسقيا على عادة الشعراء العرب في اعتبارهم المطر اساس الحياة والخير والعطاء ، لذا فهم يدعون الله أن يسقي ديار احبتهم بالمطر ليعم فيها الخير والعشب وكذا دعا متمم بالسقيا للارض التي يحل فيها قبر اخيه مالك ، ولكنه اخرج الفكرة في اطار انساني اضفى عليها جمالا وسموا حين ابرز فيها العاطفة الرقيقة التي تجمع بين الاخ واخيه ، فيقول بان دعاءه على الارض التي حل فيها قبر مالك بالسقيا ليس حبا للارض وحدها ولكن بسبب حبه لحبيبه واخيه الذي اودع فيها :

---

75) رسالة الغفران : 163

اقول وقد طار السنا في ربـــابــه   وجـــون يسح المـــاء حين تريعـــا
سقى الله ارضا حلها قبـــر مالـــك   ذهاب الغوادي المدجنات فامرعا
وآثر سيـــل الواديـيـــن بديـــمـــة   ترشـــح وسميـــا من النبت خروعا
فمجتمع الاسدام من حول شـــارع   فروى جبال القريتين فضلفعـــــا
فوالله مـــا اسقي البلاد لحبهـــا   ولكننـــي اسقـــي الحبيب المودعا
تحيتـــه منـــي وان كـــان نائيـــا   وامسى ترابـــا فوقه الارض بلقعا

وبعد ان يستمر مرة اخرى في وصف احزانه وآلامـــه متخذا مـــن موت الماضين من فرسان قومه تسلية وعزاء له ينهي قصيدته بالحديـــث عن الرجل الذي حمل نبا مقتل مالك وهو المحل بن قدامة بن اسود والذي يقال انه مر بمالك وهو قتيل ولم يواره (76) واسرع يعلن نبـــأ مقتلـــه على الناس فيخاطبه الشاعر مذكرا اياه بالنتيجة والنهاية المشتركة التي ينتهي اليها جميع الناس وهي الموت ، ثم يؤنبه بطريقة طريفة مـــن ان هذا الرجل نعى مالكا باسلوب فيه الشماتة والفرحة لمقتله في الوقـــت الذي يذكره فيه بانه لو لجا الى مالك وهو حي واستنجد به لانجده ولاعانه يقول :

الم تات اخبار المحـــل سراتكـــم   فيغضب منكـــم كل من كان موجعا
بمشمته اذ صادف الحتف مالكـــا   ومشهـــده ما قـــد راى ثم ضيعـــا
آاثـــرت هدمـــا باليا وسريـــة   وجئت بها تعـــدو بريـــدا مقزعـــا

---

(76) امالـي اليزيـــدي : 24

فـــلا تفرحـــن يومـــا بنفسك انني   ارى الموت وقاعا على من تشجعـــا

لعلـــك يومـــا ان تلـــم ملـــمـــة   عليـــك من اللائى يدعنك اجدعـــا

نعيت امرء لو كان لحمـــك عنـــده   لاواه مجموعـــا لـــه او ممزعا

فلا يهنيء الواشين مقتـــل مالـــك   فقد اب شانيه ايابا مودعـــا (77)

وهكذا ينهى متمم قصيدته التى وصفت بانها أم المراثى والتى صور فيها احزانه وآلامه باسلوب انسانـــى يهز كل عربـــى يقراها مهما بعدت الشقة بينه وبين قائلها ، ومهما كان موقفه تجاه مقتل مالك ، لان المهم فيها ان الشاعر أجاد فى تصوير احاسيسه واستطاع ان ينقلها الى نـــفـــوس الآخرين لما فيها من صدق الاحساس ، وجمال التعبير مما يجعلها نموذجا رائعا من نماذج الادب الانسانـــى فى ادبنا العربـــى ، ولم يتعرض متمم فيها الى قضية مقتله ولم يتحدث عن سبب قتله كما تـــحـــدثت الروايات التاريخية لان المسالة بالنسبة اليه تتعلق بحزنه لفراقه لاخيه وتصوير آلامه لمقتله دون ان يشوب ذلك الحديث برأيه فى قاتليه او فى حقيقـــة موقف اخيه من الردة او الاسلام لان هذا الامر لا يهمه بقدر ما يهمه فراق أخيه ومودته التى اثارت لوعته وحزنه ازاء نهايته المؤلمة .   .

فـــاس

د. ابتسام مرهون الصفار

---

77) ارجع القصيدة مخرجة فى كتابنا مالك ومتمم ابنا نويرة اليربوعي : 106 ـ 122

قائمة المصادر والمراجع

أسد الغابة ــ ابن الاثير ، عز الدين أبو الحسن على بن محمد بن عبد الكريم الجزري (ت 630 هـ) ، تصحيح مطبعة مصطفى وهبى ــ طهران ــ المطبعة الاسلامية ــ 1280 هـ

اسماء خيل العرب ــ أبن الاعرابى ــ محمد بن زياد الكوفى ت (231) هـ

تحقيق جرجيس لؤي دلاويد .

اسماء المفتالين من الاشراف فى الجاهلية والاسلام ــ ابن حبيب محمد بن حبيب (ت 245 هـ) .

تحقيق عبد السلام هارون سلسلة نوادر المخطوطات . المجموعة السابعة ــ القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .

الاستيعاب فى معرفة الاصحاب ، ابن عبد البر ، ابو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد (ت 463 هـ).

تحقيق محمد البجاوي ــ مطبعة نهضة مصر ــ القاهرة .

الاشباه والنظائر فى اشعار المتقدمين فى الجاهلية والمخضرمين ــ الخالديان ، ابو بكر محمد بن هشام (ت380 هـ) وابو عثمان سعيد بن هشام (ت 391 هـ).

تحقيق السيد محمد يوسف ــ القاهرة لجنة التاليف والترجمة والنشر 1958 .

الاصابة فى تمييز الصحابة ــ ابن حجر احمد بن محمد العسقلانى (ت 852 هـ) ــ المكتبة التجارية الكبرى 1939 .

الاصمعيات ــ الاصمعى ابو سعيد عبد الملك بن قريب (ت 216 هـ)

تحقيق احمد محمد شاكر ، عبد السلام هارون . دار المعارف بمصر

1375 هـ/1955 م

الاغانـــي ــ الاصفهانـــي ابو انفـــرج على بن الحسيـــن بن محـــمـــد القرشـــي (ت 356 هـ)

مطبعة دار الكتب ــ القاهرة 1345 ــ 1381 هـ

الاصنـــــــام ، ابن الكلبـــــــي

تحقيق احمد زكـــي باشا ــ القاهرة 1946 .

الامالي ــ الزجاجي ــ ابو القاسم عبد الرحمن بن اسحاق (ت 340 هـ). 340 هـ).

تحقيق عبد السلام محمد هارون ــ القاهرة 1382 هـ/1963 م.

الامالي ــ القالي ، ابو علي اسماعيل بن الااسم (ت 356 هـ) .

الطبعة الثانية ، دار الكتب المصرية 1926 .

الامالـــي ــ المرتضـــى ، الشريف علي بن الحسين (ت 436 هـ) .

تحقيق ابو الفضل ابراهيم ، دار أحياء الكتب العربية 1973هـ/ 1954 م

الامالي ــ اليزيدي ، ابو عبد الله محمد بن القاسم (ت 310 م) .

مطبعة دائرة المعارف العثمانية ، حيدر اباد الدكن 1367 هـ

البيان والتبيين ــ الجاحظ ، ابو عثمان عمرو بن بحـــر (ت 255 هـ) .

تحقيق عبد السلام محمد هارون ، مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنـــشـــر ــ القـــاهـــرة .

تاريخ الامم والملوك ــ الطبري ، ابو جعفر محمد بن جرير (ت 310) هـ

مصر ــ المطبعة الحسينية . ــ

تاريخ خليفة بن خياط ــ ابن خياط (ت 290 هـ)

تحقيق أكرم العمري ، مطبعة الآداب ـ النجف 1967 .

تاريخ اليعقوبي ـ اليعقوبى احمد بن ابى يعقوب (ت 282 ه)

ليدن ، مطبعة بريل 1883 م

تفسير الرازي ـ الرازي فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر بن حسين (ت 606 ه) .

مصر ـ المطبعة البهية 1938/1357 .

جمهرة انساب العرب ـ ابن حزم ، أبو محمد علي بن أحمد الظاهري ، (456 هـ) .

تحقيق عبد السلام محمد هارون . المعارف 1962 .

حلية الفرسان وأشعار الشجعان ـ ابن هذيل ، علي بن عبد الرحمن .

تحقيق محمد عبد الغنى حسن ـ مصر ، دار المعارف 1369هـ/ 1949 .

الحماسة البصرية ـ البصري ، صدر الدين بن أبي الفرج بن الحسن (ت659 ه) ـ تصحيح مختار الدين أحمد ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية ، حيدر اباد الدكن ـ 1964 م.

خزانة الادب ـ البغدادي ، عبد القادر بن عمر (ت 1093 هـ)

بولاق ـ المطبعة الاميرية بمصر

خريده القصر وجريدة العصر ـ العماد الاصفهانى

تحقيق محمد المرزوقي وآخرين . الدار التونسية للنشر 1966

الخيل ـ أبو عبيدة ، معمر بن المثنى (ت 205 هـ)

مطبعة دائرة المعارف العثمانية ، حيدر اباد الدكن .

ديوان ابن حيوس ـ ابن حيوس ، مصطفى ابو الفتيان محمد بن سلطان (473 ه)

تحقيق خليل مردم ، المطبعة الهاشمية 1951 م

ديوان أبى فراس الحمدانى ـ الحمدانى ، ابو فراس (ت 357 هـ)
نشر وتعليق سامى الدهان . المعهد الفرنسى بدمشق ـ بيروت 1944

ديوان حماسة البحتري ـ البحتري ، أبو عبادة الوليد بن عبيد الطائى (ت 284 هـ)
تحقيق كمال مصطفى ، المكتبة التجارية الكبرى . مصر 1929

ديوان الشريف الرضي ـ الرضي محمد بن الحسين (ت 406 هـ)
تحقيق رشيد الصفار ، دار احياء الكتب العربية ـ القاهرة 1958

رسالة الغفران ـ المعري ، أبو العلاء أحمد عبد الله سليمان التنوخى (ت 449)
تحقيق بنت الشاطىء ، دار المعارف بمصر 1950 .

زهر الآداب ـ الحصري ، ابو اسحاق ، ابراهيم بن علي ت 453 هـ) .
تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد . مصر ، مطبعة السعادة 1953 .

سرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون ـ ابن نباتة جمال الدين احمد ابن محمد (762 هـ) .

سمط اللالي ـ البكري ، ابو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد الاوينى (487 هـ)
تحقيق عبد العزيز الميمنى ، مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر 1936 م

سمط النجوم العوالي ـ المكي عبد الملك بن حسين بن عبد الملك (ت 1111 هـ) .
القاهرة ـ المطبعة السلفية

سير اعلام النبلاء ـ الذهبى ، شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان (748 هـ).

تحقيق صلاح الدين المنجد ، معهد المخطوطات العربية ، دار المعارف ـ مصر

سيرة النبي محمد صلى الله عليه وسلم ـ ابن هشام ، ابو محمد عبد الملك .

تحقيق محيى الدين عبد الحميد ـ المكتبة التجارية ، القاهرة

شرح ديوان الحماسة ـ التبريزي ، ابو زكرياء بن محمد بن علي

بولاق 1296 هـ

شرح ديوان الحماسة ـ المرزوقي ، أبو علي احمد بن محمد بن الحسين (421 هـ)

تحقيق احمد امين ، عبد السلام هارون ، مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر ـ القاهرة 1951 م

شرح شواهد المغنى ـ السيوطى ، جلال الدين ، ابو الفضل عبد الرحمن بن ابى بكر (ت 911 هـ)

نشر الشنقيطى ـ القاهرة 1322 هـ

شرح نهج البلاغة ـ ابن ابي الحديد (ت 656 هـ)

تحقيق حسن تميم ، دار مكتبة الحياة ـ بيروت 1963 م

الشعر والشعراء ـ ابن قتيبة ، أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت 276 هـ)

تحقيق محمد يوسف نجم ،احسان‌عباس، دار الثقافة 1964 م

طبقات فحول الشعراء ـ ابن سلام ، ابو عبد الله محمد الجمحي البصري (231 هـ)

تحقيق محمود محمد شاكر ، دار المعارف 1952

الطبقات الكبرى – أبا سعد محمد (230 هـ).

تحقيق ادوارد سخو ، ليدن ، مطبعة بريل 1321 م

العقد الفريد – ابن عبد ربه ، ابــو عمــر شهــاب الديــن احمد بن محمد الاندلســي (328 هـ)

تحقيق احمد امين ، وجماعة ، لجنة التاليف والترجمة – القاهــرة 1956 .

العمدة – ابن رشيق القيرواني – ابو علي الحسن (ت 463 هـ .

تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد – مطبعة حجازي 1357 هـ/ 1934 م

عيــون الاخبار – ابن قتيبة عبد الله بن مسلم (276 هـ).

مصر – مطبعة دار الكتب 1925 .

الفاخر – المفضل بن سلمة بن عاصم (271 هـ)

تحقيق عبد العليم الطحاوى – القاهرة ، وزارة الثقافة والارشاد 1960/1380 م

فصل المقال – البكرى الاوبينى ، ابو عبيد الله عبد الله بن عبــد العزيز (487 هـ)

تحقيق عبد المجيد عابدين ، محمد بن اسحاق (ت حوالى 378 هـ)

تحقيق جوستاف فلوجل ، لايبزج 1871

مالك ومتمم ابنا نويرة اليربوعــي – ابتســام مرهــون الصفــار – بغــداد ، مطبعة الارشاد 1962 .

الكامل فى التاريخ – ابن الاثير ، علي بن عبد الكريــم محمد الجزــري (ت 630 هـ) .

القاهرة – دار الطباعة 1290 هـ

الكامل فى اللغة والادب ـ المبرد ـ أبو العباس ، محمد بن يزيد (ت 287 هـ)

كنى الشعراء او من غنت كنيته عن اسمه ـ ابن حبيب ، ابو جعفر محمد (ت 245)

تحقيق عبد السلام هارون ، نوادر المخطوطات م ك ، مطبعة لجنة التيليف والترجمة والنشر ـ القاهرة 1954 .

لباب التاويل فى معانى التنزيل ـ الخازن ، علاء الدين على بن محمد 725 هـ) .

مصر ـ 1955/1375

مجمع الامثال ـ الميدانى ، احمد بن محمد النيسابوري (518 هـ) .

معجم الشعراء ـ المرزبانى ابو عبد الله محمد بن عمر بن موسى (386 هـ) .

تحقيق عبد الستار احمد فراج ـ دار احياء الكتب العربية 1960.

المعمرون والوصايا ـ السجستانى ، ابو حاتم (205 هـ)

تحقيق عبد المنعم عمار ـ دار احياء الكتب العربية 1961

المؤتلف والمختلف ـ الامدي ، ابو القاسم ، الحسن بن بشر (ت 370 هـ) .

تحقيق عبد الستار احمد فراج ـ دار احياء الكتب العربية ـ القاهرة 1961

د. ا. م. ص.

عبر الإشراق

حسن الطريق

سرنـــي منــك ملمــح الاشـــــراق

فاتــركيــه مفتـــح الأحـــــداق

أنـــا فيــه دجنــــة وهـــو بـــدر

ساهم الطرف في مــدى أعمــاقــي

سرنى منك مبسم كل ما فيه ربـيـــع مضـمـــخ الاوراق

أحتويه في مهجتي وأغنيه ، وأحيا به على أشواقي

أين أخفى أسراره ، وهو والشمس الى سدرة العلا فى سباق؟

يا رشيش المنى ويا نبض قلبـــي
في اصطفاف المياه عبر السواقي

ضج فيما بين المشاعــر صــوت
شاعري الايقــاع ، عذب المــذاق

أجتبي لحنه وأعبــر دنيــاه سرورا بـــه على كــل ســاق

كنت في وحشة المشاعر أحتذ وامتسي على دروب فراقي

فازدهى الصبح في أسارير نفسي
وتــوالــى مضــاعــف الائتــلاق

بارحتنــي بــه السـآمــة حتــى
عــدت في ضوئــه دمــوع تـــلاق

مــلأ النفــس بالضيــاء وأوفـــى
بعــد املائهـــا ، علـــى الآفـــاق

مزج الشدو بالرؤى وبكفيــه أزال الدمــوع من آماقـــي

هيأسرار فرحتي، وهيفيليل السرى،رحلتي بغير «براق»

أنــا في سحرهـــا أسيــر كــأنــي
دفــقــات سخـيـــة الاغـــداق

يلتقي في اختلاجها البوح والسر، كما يلتقي هوى العشاق!

العرائش حسن الطريبق

الوضع المالي لولاة مصر

-3-

د. فؤاد الماوي

الخلاصة التي يخرج بها الدارس هي أن الصراعات المحلية التي كانت تنشب بين أجنحة الفئات العسكرية الحاكمة التي لا يربطها بالشعب والبلد سوى التطلع الشره لفرض سلطانها عليه واستنزاف ثرواته ، ثم طرحه تماما من حساباتها هذا من ناحية ؛ وان خلق هوة بين السلطة الاجنبية كطبقة أولى سائدة ، تعمل بأقصى قدرتها وحيلها على نزح الثروة الوطنية ، نتج عنه عدم اتاحة أي فرصة تسمح بتراكم ولو بدائي لراسمال وطني ضروري لخلق طبقة محلية وطنية ، تأخذ على عاتقها تحرير البلاد من السلطة الاجنبية التركية المملوكية ، وبين فئات الشعب كطبقة ثانية مسودة ومجمدة داخل تنظيمات طائفية ،حنطت أساليبها ووسائلها الانتاجية ، فنتج عنها بالتالي علاقات انتاجية متمشية معها ، وتتسم بالتخلف ، مما أبعدها لمدى قرون عن حلبة الصراع الدائر على أرض بلادها من ناحية أخرى ؛ هذا بالاضافة الى أن تحالف العناصر المحلية الاورستقراطية من ذوي المراكز الدينية والصوفية ، التي كانت محل ثقة الحاكم والمحكوم ، فارتكز عليها النظام كجهاز فكري ديني استخدمه

الوالي لصالحه ، كما لجأ اليه الشعب فى كثير من الاحيان لكي يتوسط فى رفع المظالم أو لقيادة الانتفاضات الشعبية ، وفى كلتا الحالتين لم يساهم فى أي تغيير جوهري يمس علاقات الانتاج والوضع العام باعتبار أن النظام اسلامي ، فيه السلطان يمثل الخلافة ، وان كان هذا لم يمنع الجبرتي من السخرية بتلك الخلافة ، كما لم يساهم فى تطوير أى فكر يساعد على خلق نمط انتاجي جديد بدلا من النمط القديم الذي تحرسه أفكاره ويرعاه بتحالفه مع السلطة الحاكمة (146) .

ان كل تلك الاجهزة بعناصرها المختلفة ، وماخلفته من عوامل كان يشرف عليها ويديرها نظريا الولاة العثمانيون ، لحساب الباب العالي ومصلحته أولا ، ولحسابهم ومصالحهم ثانيا ، وكلاهما كان يسقط من حساباته واعتباراته مصالح السكان الاصليين للبلاد ، الا بالقدر الذي يمنع جفاف هذا المورد . (147) . فالوالي كان واقعا تحت استغلال النظام

---

(146) راجع جب وبوون ، سابق ذكره ، ج 2 ص 24 ــ 25 ، 40 ؛ وراجع الجبرتي ، سابق ذكره ، ج 2 ص 156 .

(147) لعل فى النص التالي لأوليا جلبي (توفى 1679 م) اضافة لما ذكرناه عن هدايا الولاة للسلاطين وبقية أفراد السلطة العثمانية باستانبول يقول (فى أيام السلطان سليم خان (1512 ــ 1520) عند ما كان الوزير يصبح واليا على مصر ، كان يعطي ثلاثة آلاف قطعة ذهب من خزانة السلطان لمصروفات رحلته الى مصر ، ويحذر بأن مصر هبة من الله ، فعليه أن يحكم بالعدل . وعندما جاء الوزير الى مصر ، وتصرف طبقا للقانون ، أصبح يرسل للحاكم هدية قيمتها اثني عشر ألف قطعة ذهب كل عام ، وكان يعفى من أى ضريبة أخرى . لكن فى زماننا هذا ، فالوزير من أجل حكم مصر يعطي ألف وخمسمائة كيس (أى 37 مليون بارة) رشوة للسلطان والصدر الاعظم ، والكتخدا ، ووالدة السلطان ، وأغا الباب العالي ، وغيرهم من ذوي المناصب الرسمية ، وشيخ الاسلام ، وقاضي العسكر ، وملا استانبول ، والوزراء ، والدفتردار ، وغيرهم من الشخصيات الرسمية ، ومجموعهم حوالي 110 أشخاص . وعند ما يحضر الى مصر عليه أن يرسل للحاكم مائتي كيس (أى 5 مليون بارة) ، ويعطي أيضا للضباط والقادة ، ثلاثمائة كيس (أى سبعة مليون وخمسمائة الف بارة) كعدية . ولجمع كل هذه الاموال ، يتطلب الامر الدماء فى مصر ، والناس لا يحبون فى مصر أن تسفك دماؤهم . فالسبب لظهور الثورات هو زيادة مصاريف وزراء مصر .) راجع أوليا جلبي ، سابق ذكره ، ج 10 ، ص 1025 . غير انه من المعروف ان السلطان سليم الذي توفى 1520 م لم يعين على مصر سوى خاير بك الذي توفى بعده عام 1522 ، (وكان السلطان سليم أوعده (اى خاير بك) ان ملك (أى مصر) ليعطيه مصر من غير خراج ، فلما ملك أعطاه ما وعد . راجع احمد جلبي ، سابق ، ص 4 P . ومن المحتمل أن يكون أوليا جلبي يقصد سليم الثاني (1566 ــ 1574).

العثماني له ، لكنه تخلص من هذا الاستغلال بأن صدره الى الشعب ، فأحكم استغلاله مرة بحكم القانون وبطريقة رسمية مباشرة من خلال مؤسسات السلطة المختلفة ، ومرة أخرى استغله بطريقة غير رسمية وغير قانونية كما سبق وأوضحنا .

اما الشعب المصري الذي عرف الطغيان لقرون طويلة فكانت له طرقه ومواقفه لمقاومة الطغيان والاستغلال . ففي الريف كان الرد على سلبية الادارة العثمانية ، واهمالها للمرافق العامة اللازمة للازدهار الزراعي ؛ علاوة على عجزها عن منع الموظفين من نهبهم وسلبهم للفلاحين ، والذي أصبح نظاما عاما فى أواخر القرن الثامن عشر ، كان الرد على كل هذا هو هجرة الفلاحين وهروبهم من الارض . (148) ورغم أن قانون نامه سليمان قد حذر من هذا الهروب بقوله (حين يبقى الحقل دون زراعة ، نتيجة لخطأ الزراع ، فعليهم « أي الكشاف والمفتشين وغير ذلك » أن يبذلوا ما فى وسعهم للتوصل اليه ، وبعد ان يرجعوه الى قريته ، ويعاقبوه ، عليهم أن يجبروه على بذر البذور فى حقله) . (149) ، الا ان الفلاحين ظلوا يستخدمون هذا السلاح لمقاومة الطغيان والنهب ، اذ يؤكد الجبرتي أن الفلاح حين يهرب من قريته الى قرية أخرى كان (يطلبه الملتزم ويبعث اليه المعينين من كاشف الناحية بحق الطريق أيضا) (150) غير أن هجرة الفلاحين لم تعد مجرد الانتقال من قرية الى أخرى داخل مصر ، بل لقد (وقع ذلك حتى امتلأت البلاد الشامية والرومية من قرى مصر) (151) .

---

(148) راجع الجبرتي ، سابق ذكره ، ج 4 ص 109 ؛ وراجع Olivier, C. ; Voyage dans l'Empire othoman, l'Egypte et la perse, 6 Tom., Paris, 1807, Tom. 2, p. 63.

(149) راجع Digeon, M. ; Canoun Namé ou Edits de Sultan Soliman, (Nouveaux contes turcs et arabes), tom. 2, Paris, 1781, pp. 243-4, 246.

(150) الجبرتي ، سابق ذكره ، ج 4 ، ص 109 ، وراجع أيضا ص 207 .

(151) الجبرتي ، سابق ذكره ، ج 4 ص 207 ، وراجع أيضا ص 109 .

أما الوسيلة الاخرى التي اهتدى اليها الفلاحون المصريون ، أصحاب التاريخ الحافل بالثورات ، طوال العصور التي سبقت دخول العثمانيين ، والتي كان اخفاقها عاملا أساسيا فى ملء صدورهم بالحقد والمرارة ضد مستغليهم ، وحافزا فى الوقت نفسه على شحذ ذكائهم الذي لا تقل حدته وعمقه عما لدى الآخرين ، فكرسوه للانتقام ، فاهتدوا الى طريقة تحديد الانتاج الى أقل قدر ممكن ، والمقاومة العنيدة لكل تغير ، وطبع كل نواحي حياتهم ومظاهرها ـ عن قصد وتعمد ـ بطابع الخشونة . وتحليل ذلك أن انقاص الانتاج كان يبعد عنهم الطغاة والمستغلين ، الذين كانت خصوبـــه الارض ووفرة الانتاج تجذبهم ؛ ومقاومة التغيير واعراضهم عن استخدام ادوات وطرق جديدة فى الزراعة ، كان معناه مقاومة أدوات وطرق جديدة ستستخدم فى الحصول على المزيد من استغلالهم ، وقد اثبتت تجارب محمد علي صدق هذا التحليل . واما مظهر الخشونة فى الحياة ، فهـــو وسيلة لدفع الطغيان والاستغلال عن حياتهم ، وفى نفس الوقت أصبحوا هم انفسهم يصطنعون الطغيان مع بني جنسهم ، كوسيلة للحصول على ما يبتغون ، طالما كان الطغاة يحصلون عن طريقة على ما يريدونه منهم . (152)

لقد اشتهر الفلاح المصري طوال عصور تاريخه منذ الفراعنة حتى اليوم بقدرته الخارقة على الصبر والجلد ، والعمل ، والارتباط الحنـــون بالارض ، حتى ليعجز الانسان عن تفسير بعض الظواهر فى سلوكه ، الا من خلال فهمه له على تلك الصورة . فالفلاح حين يهجر القرية للعمل فى المدينة يرفض أجرا أعلى يدره عليه عمل لساعات أقل فى مهنة تبعده عن طين الارض ، ويفضل عليها عملا فى المباني أو غيرها بأجر أقل وساعات عمل أطول وأكثر ارهاقا ، لمجرد انه عمل يتصل بالارض . غير أن تلك القسوة التي تعرض لها فى العصر العثماني على أيدي موظفـــي أجهـــزة السلطة ، جعله يهجر ليس فقط قريته ، بل الوطن كله . ان أبلغ تصوير

(152) راجـــع Pollak, A.N. : Les Révoltes populaires en Egypte à l'époque des Mameloukes, (Revue des Etudes Islamiques), Paris, 1934, pt. 3, pp. 251-37. وراجـــع ايضـــا Girard, op. cit., pp. 501-2. وراجـــع ايضـــا Volney, C.F.C. : voyage en Syrie et en Egypte pendant les années, 1783-4 et 1785, Paris, Tome. 2, pp. 266-7.

لهذه القسوة هو ما عبر عنه الشربيني ، حينما تحدث عما يحدث عند سداد مال الميرى ، الذي كان يعرف لدى الفلاحين بمال الديوان ، أو بمال السلطان ، اذ يقول (ان النصراني اذا حضر الى القرية ، أو الكفر ، وفرد المال على الفلاحين حكم الحوالي والقوانين التي جرت بها العادة ، وشرع فى اخذها فيكثر الخوف ، والحبس ، والضرب ، لمن لا يقدر على غلاق المال ، فمن الفلاحين من يقترض الدراهم بزيادة ، أو يأخذ على زرعه الى أوان طلوعه بناقص عن بيعه فى ذلك الزمن ، أو يبيع بهيمته التي تحلب على عياله ، أو يأخذ مصاغ زوجته يرهنه أو يتصرف فيه بالبيع ولو قهرا عليها ، ويدفع الثمن للنصراني ، او لمن هو متولي قبض المال ، وان لم يجد شيئا ، ولا يرى من يعطيه ، وخشى الملتزم أو المشد من خرابه (أى هروبه) من البلد ، أخذ ولده رهينة عنه حتى يغلق المال ، أو يأخذ أخاه ، ان لم يكن له ولد ، أو أحد من أقاربه أو يوضع فى الحبس للضرب والعقوبة ، حتى تنفذ فيه أحكام الله تعالى ، ومنهم من ينجو بنفسه فيهرب تحت ليلة ، فلا يعود الى بلده قط ، ويترك أهله ووطنه من هم المال ، وضيق المعيشة ، فلا بد على كل حال من تغليق المال ، ولو حصل من ذلك الهم والنكال . وما دام على الفلاح شيء من المال فهو فى هم شديد ، ويوم السداد عند الفلاح عيد) (153) .

اذا انتقلنا من القرية الى المدينة فى العصر العثماني فسوف نرى ان أنواعا من أعمال العسف والطغيان وفرض المظالم كانت تحدث ، وكان رد الفعل لدى الشعب هو المقاومة بكل ما يستطيع من سبيل ، حتى أن فرض منع (الخروج بعد العشاء) وأن (لا أحد يحمل السلاح) كانت أوامر تصدر لمنع مضاعفات ردود الفعل الناتجة عن أعمال العسف التي يرتكبها الحكام أو مرؤوسيهم ، والذين كانوا دائما فى خشية من قيام السكان بثورة ردا على أعمالهم تلك ، والتي فى الواقع كثيرا ما أثارت عملا انتقاميا يقوم به الشعب ، ولا ينتهي الا بالقصاص من المعتدي (154) .

---

(153) راجع يوسف الشربيني ، هز القحوف فى شرح قصيد أبي شادوف ، القاهرة ، 1890 م ، ج 2 ، ص 125 – 126 ؛ وراجع عبد الرحيم عبد الرحيم ، سابق ذكره ، ص 107 .

(154) راجع الجبرتي ، سابق ذكره ، ج 3 ص 240 ، ج 4 ص 223 ، ج 2 ص 93، 189.

كان الاختلاف بين مجتمع القرية المصرية ومجتمع المدينة فى العصر العثماني يؤدي الى اختلاف طرق واساليب المقاومة التي تنفجر ضد طغيان السلطة الاجنبية العثمانية المملوكية . وقد تناول هذا الاختلاف البنية الديمغرافية حيث يعيش الريف فى عزلة ، والمدينة فى تجمع اكبر ، كما تناول البنية الاقتصادية حيث اقتصاد القرية مشتت من ناحية ، وتنتج معظم المحاصيل للاستهلاك (155) من ناحية اخرى ، فى حين ان اقتصاديات المدينة كانت مركزة من ناحية ومستهلكة للانتاج الريفي من ناحية ثانية ؛ كذلك تناول وضع الفرد من الناحية الطبقية ، فالقرية يعيش فيها فلاح (شبه قن) وفى المدينة (حرية نسبية) ، وذلك محصلة نهائية للفقر هنا والغنى النسبي هناك . وفوق هذا كله كان هناك تعارض حضاري ، فلم تمس الحضارات الوافدة كحضارات الغزاة ، ولا الحضارات المستقرة كالاسلامية حياة الريف الا مسا طفيفا ، وان كانت المدينة قد أعيد تشكيل مستوياتها فاصطبغت بالفردية . أما الروابط بين الريف والحضر فكانت روابط اقتصادية لم يقدر لها أن تنمو وتتطور لاسباب نفسية وحضارية مبعثها النظرة المتعالية التي ينظر بها الحضري للريفي ؛ فانعدم بذلك الشعور بالوحدة بينهما لغياب التقاليد المشتركة ، ونظام الحياة المشترك ، والاتجاه الفكري المشترك ، حتى أصبح للمدينة آداب خاصة بها ، وابتكرت القرية هي الاخرى آدابها التي تعبر بها عن فكرها وحياتها وتقاليدها (156) .

---

(155) فى الواقع كانت هناك محاصيل راسمالية كالنيلة التي تستخدم فى الصباغة ولكنها كانت تزرع فى مزارع المماليك ، كما كانت هناك محاصيل راسمالية وغذائية فى نفس الوقت مثل القطن والكتان . راجع

— Croushley, A.E. ; The Economic development of modern Egypt, London, 1938, pp. 19-21.

(156) راجع Lane, E.W. ; The manners and Custones of the Modern Egyp- tians, London, 1783, pp. 62,73

وراجع الشربيني ، سابق ذكره ، صفحات مختلفة ، وراجع هنري عيروط ، الفلاحون ، القاهرة ، د. ت ، ترجمة محمد غلاب ؛ وراجع أحمد رشدي صالح ، الادب الشعبي ، القاهرة ، 1956 ، صفحات مختلفة ؛ وراجع ابراهيم عامر ، الارض والفلاح والمسالة الزراعية ، القاهرة ، 1958 ، صفحات مختلفة .

وفى داخل المدينة ذاتها كان التنظيم الاجتماعي يفتقر الى الوحدة ، بفعل التكوين الاقتصادي والسياسي الذي كان يمارس ضغطه وارهابه عن طريق أجهزته المختلفة ، ولهذا تكاد أن تنقسم القاهرة فى العصر العثماني، ولا سيما فى القرن الثامن عشر الى احياء تسكنها الطبقة الاورستقراطية من اغنياء ، وتجار ، وشيوخ للازهر وللطرق الصوفية ، وبكوات للمماليك، وكانت هذه الاحياء تتمركز فى مناطق السبع قاعات ، وضواحي الازهر ، وقرب الخليج ، وحول بركة الفيل خارج القاهرة ، وعلى طـــول الضفـــة اليسرى للخليج ، وبجوار الازبكية ، والاماكن المحيطة بالقلعة ، وان كان قد هجروها لازدياد النشاط الاقتصادي وزحفه عليها ، وما تبعه بالتالي من كثافة سكانية (157) . وتاريخ المجتمع المصري خلال القرنين السابـــع عشر والثامن عشر تلعب فيه هذه الطبقة بشرائحها المختلفة الدور الرئيسي فكتاب الحوليات التاريخية من المصريين اهتموا بالغ الاهتمام بتسجيل تاريخ الشرائح العليا للبرجوازية التجارية ، والمماليك ، والحرفيين الكبار ومشايخ الحرف ، والعلماء ، والبكوات ؛ فى حين ان الطبقات الشعبية من صغار الحرفيين ، والمهنيين ، والبروليتاريا لم يلتفت اليهم ، فلم يسجل لهم تاريخ الا حينما تحدث تحركات عند وقوع الازمات تكشف الغطاء من خطورة وعمق واتساع هذه الطبقـــة وتأثيراتهـــا فى مجمـــل سيـــر الاحـــــداث (158) .

أما الاحياء الشعبية التي يسكنها بقية أفراد الشعب بالقاهرة فكانت حي العطوف ، وباب الوزير ، والاحياء المحيطة بالقلعة (الحطابة فى شمال القلعة ـ وعرب اليسار فى جنوب القلعة) ، وفى جنوب المدينة كانـــت توجد الرميلة ، وباب القرافة ، ودرب الخليفة ، والصلبية ، وابن طولون ، وقناطر السباع ، وفى الغرب يوجد باب اللوق وحي الفوالة ، وفى شمال القاهرة يوجد حي الحسينية ، فى حين كان يوجد حي بين باب الشعرية وباب البحر قرب الازبكيـــة .

---

(157) راجع André Raymon, Quartiers de résidence ar:stocratique au Caire XVIIIème siècle,. (JESHO), vol. VI, 1963, pp. 58-103.

(158) الجبرتي سابق ، ج 2 ص 103

والبنية الاقتصادية لهذه الاحياء كانت تتسم بالنشاط التجـاري والصناعات الحرفية ، ففيها تركزت تجـارة الحبـوب ، (159) وبيـع الخضر ، (160) وبيع الفواكه ، (161) وتجارة اللحوم (الجزارة) ؛ (162) كما تركزت فيها صناعة الدباغة ، (163) وعصر الزيوت ، (164) وأفران الجير والجص والفحم . (165) وان كان يغلب على تجارة تلك الاحياء ما يتعلق بتجارة المواد الغذائية ، وخاصة الحبوب ، مما جعـل السكـان يشعرون بالتقلبات الاقتصادية كارتفاع الاسعار والمجاعات ، ذلك الشعور الذي ترتب عليه فى النهاية تحركات ثورية وانتفاضات شعبيـة . وكان لموقع تلك الاحياء الشعبية على هامش المدينة أن أصبحت مناطق اتصال وعبور فى نفس الوقت مما أدى الى ازدهارها الاقتصادي ، وان كان قـد ادى أيضا الى خلق أماكن للتسلية واللهو (166) .

ان تلك الاحياء لم تكن تعيش كل منها فى عزلة عن الاخرى ، بل كان يوجد بينها ترابط وتشابه فى ناحيتين هما محل اهتمام هذه الدراسة ، وتتمثلان فى التنظيم الحرفي (الطوائف) من ناحية ، وفى التنظيم الديني (الزوايا) من ناحية اخرى ، وكان لهما دور هام وأساسي فى التماسك والاتحاد بين تلك الاحياء عند حدوث الازمات التي كانت غالبا ما تؤدي الى انفجارات وتمردات . وفى محاولة هنا لوضع اشارات مضيئة على امكان البؤر الثورية فى احياء القاهرة ، لا نعني أن هذه الاحياء هي وحدها فقط التي كانت تتحرك معلنة الثورة ضد السلطة العثمانية المملوكية ، بل كمـا

---

(159) شرق الجمالية ، وحول باب الشعرية ، وقرب باب اللوق وضواحي الرميلة .

(160) حول ابن طولون ودرب الخليفة وباب الفتـوح .

(161) فى الحسينية وقرب باب الشعريـة .

(162) فى الاحياء التالية : الحسينية ، باب اللوق ، بركة السقايين ، قناطر السباع ، ابن طولون ، درب الخليفة .

(163) فى الجنوب الغربي لباب زويلة ، ثم انتقلت من باب زويلة الى باب اللوق وباب العطـوف .

(164) فى باب الشعرية وباب البحر ، وقرب بركة السقايين .

(165) فى أماكن متفرقة بين كل الاحياء السابق ذكرها ، وخصوصا فى مكان حاشية 164.

(166) عن تنظيمات الحرفيين وصلتها بالتنظيمات الصوفية راجع جب ديوون ، ج 2 ، ص 113 ـ 145 من الترجمة العربية . ويبدو أن حركة القرامطة هي التي أوجدت الطوائف لاول مرة فى العالم الاسلامي ، راجع جب سابق ، ص 133 . وراجع by Massignon, Encycl. of Islam. art. Sinf, IV,

اشرنا من قبل كان (التماسك) والوحدة بين تلك الاحياء ظاهرة لازمت تلك الانتفاضات الشعبية (167) .

1 ـحي الحسينية : كان هذا الحي بؤرة ثورية ضد السلطة العثمانية ، ففيه كانت تظهر ديناماكية الثورة من خلال التنظيمات الطائفية، واهمها تنظيم تجار (طائفة جزاري الغنم) وهم قسم من تنظيمات الجزارين فى القاهرة ، الذين بلغ عددهم 2200 جزار . وقد تزعم الجزارين فى هذا الحي الحركات التي انفجرت ضد السلطة العثمانية فى نهاية القرن الثامن عشر ، ونذكر من قادتهم أحمد سالم الجزار الذي كان متواليا لرياسة دراويش الشيخ البيومي ؛ والذي تعرض للنهب (حتى مصاغ النساء والفراش) . (168) وحدث هذا عصر يوم خميس ، لكن الحي لم ينم تلك الليلة ، بل بادروا فى صباح (يوم الجمعة ، ثارت جماعة من أهالي الحسينية بسبب ما حصل فى امسة من حسين بك ، وحضروا الى الجامع الازهر ، ومعهم طبول والتف عليهم جماعة كثيرة من أوباش العامة والجعيدية ، وبأيديهم نبابيت ومساوق ، وذهبوا الى الشيخ الدردير ، فوافقهم وساعدهم بالكلام ، وقال لهم : أنا معكم ، فخرجوا من نواحي الجامع وقفلوا ابوابه وطلع منهم طائفة على أعلى المنارات يصيحون ويضربون بالطبول ، وانتشروا بالاسواق فى حالة منكرة ، واغلقوا الحوانيت وقال لهم الشيخ الدردير : فى غد نجمع اهالي الاطراف والحرات وبولاق ومصر القديمة واركب معكم ، وننهب بيوتهم كما ينهبون بيوتنا ، ونموت شهداء أو ينصرنا الله عليهم) . (169) ويتبع الجبرتي القضية التي انتهت بتقديم تنازلات من السلطة للشعب (خوفا من تضاعف الحال) .

---

(167) راجع André Raymond. Quartiers et mouvements populaires au Caire au XVIIIème siècle, (Political and social change in Modern Egypt). London, 1968.pp. 104-116.

(168) الجبرتي ، سابق ، ج 2 ، ص 103 .

(169) الجبرتي ، سابق ، 103 .

لكن السلطة لم تكف عن التحرش بأهالي هذا الحي ، ولا الاصطدام بقيادته . ففى أوائل سنة 1205 هـ / 1790 م ، (تعدى احمد اغا الولي على أهل الحسينية ، وتكرر قبضه وايذاؤه لاناس منهم بالحبس والضرب واخذ المال ، بل ونهب بعض البيوت ، وارسل فى يوم الجمعة ثاني عشر (محرم) أعوانه بطلب أحمد سالم الجزار شيخ طائفة البيومية ، وله كلمة وصوله بتلك الدائرة ، وارادوا القبض عليه ، فثارت طوائفه على اتباع الوالي ومنعوه منهم وتحركت جمعيتهم عند ذلك ، وتجمعوا وانضم اليهم جمع كثير من أهل تلك النواحي وغيرها ، وأغلقوا الاسواق والدكاكين وحضروا الى الجامع الازهر ومعهم طبول وقفلوا أبواب الجامع ، وصعدوا على المنارات ، وهم يصرخون ويصيحون ويضربون على الطبول ، وابطلوا الدروس ، فقال لهم الشيخ العروس : أنا أذهب الى اسماعيل بك فى هذا الوقت واكلمه فى عزل الوالي . .) (170) ، وبالفعل انتهت هذه الانتفاضة كسابقتها بتقديم تنازلات وعزل الوالي وكتخداه .

2 ــ **حي باب الشعرية** : وكان لهذا الحي دور بارز فى التحركات المعادية للسلطة وذلك لعدة عوامل منها تركز تجارة الفواكه والحبوب ، وتجارة الحبوب بالذات كانت تعتبر مقياسا لاسعار الخبز الذي يصل الى الشعب ، ولهذا كانت اي تغيرات تصيب أسعار الحبوب تحدث نوعا من التململ الذي يبرز فى هذا الحي قبل أي حي آخر . ومنها انه كان

---

(170) الجبرتي ، سابق ، ص 165 . ولقد ظهرت قيادات فى هذا الحي نذكر منها الشيخ حسن الكفراوي الذي (تزوج ببنت المعلم درع الجزار بالحسينية وسكن بها ، فجيش عليه أهل الناحية وأولوا النجدة والزعارة والشطارة ، وصار له بهم نجده ومنعه على من يخالفه او يعانده ولو من الحكام) الجبرتي وفيات سنة 1202 . كذلك نجد من القيادات فى هذا الحي الشيخ علي البيومي ، وقد كانت الزاوية البيومية التي ارتبط نشاطها منذ تاسيسها بحي الحسنية تلعب دورا هاما فى الحياة الروحية والحركات الثورية ضد السلطة العثمانية المملوكية . وبرز قادة من اتباع تلك الطريقة الخلوتية . فعلي البيومي (7 ــ 1696 ــ 1769) كان قد شارك فى الطريقة الخلوتية والاحمدية وأصبح رئيس المتعبدين ؛ والسيد علي موسى الذي توفى سنة (1772 ــ 1773) كان قائدا تخشاه السلطة ، وقد اصبح اخوه بدر الدين بعد وفاته ، زعيما قاد حركة ضد الفرنسيين عام 1798 . راجع الجبرتي ، سابق ، ج 3 ، 336 ، ج 1 ص 371 .

مركزا للزاوية الشعرانية ، وبه مسجد وضريح للشيخ عبد الوهاب الشعراني ، وقد لعب اتباعه دورا هاما في التحركات الشعبية ؛ ومنها اخيرا انه كان قريبا من بركة الازبكية حيث يسكن البكريين ، الذين لهم ادوار لا تنكر في قيادة الفئات الشعبية ، لما لهم من مركز ديني وسياسي معترف به من قبل السلطة والشعب . وكان التنظيم الطائفي لتجارة الفواكه والحبوب ، ينسق عمله خلال الازمات التي تستدعي تحركات ضد السلطة مع تلك المنظمات الصوفية (171) .

3 ـ **منطقة الرميلة** : كانت مسرحا للانشطة الدينية المختلفة ، ومركزها الاساسي هو الزاوية الرفاعية ومقام أحمد الرفاعي الذي يوجد فيه حاليا مسجد الرفاعية ، وكان يحتفل بمولده فتزدحم الناس لدرجة الاختناق والموت ، كما حدث بمولده في رجب عام 1140 هـ / فبراير 1728 م . (172) كذلك كانت منطقة الرميلة مركز من مراكز تجمع الطوائف . ومن المدهش حقا أن التحركات الشعبية كانت تتم بطريقة هادئة وسرية ، وبالتعاون والتنسيق بين المنظمات الدينية ، والمنظمات الطائفية ، وذلك لانجاح الثورة أو الانتفاضة من ناحية ، ولعدم تمكين السلطة من تجميد واستيعاب التحركات وقياداتها من ناحية أخرى . (173) وكانت العوامل التي تؤدي الى قيام الانتفاضة الشعبية ، وخصوصا بمنطقة الرميلة ، اما بدوافع سياسية ـ مما لا محل هنا لبحثها ـ واما بدوافع اقتصادية ، تنشأ أصلا من انقاص السلطة الحاكمة للعملات النقدية المتداولة بين الطبقات أو من نقص الحبوب وارتفاع اسعارها ، مما كان يشكل في

---

(171) لمزيد من المعلومات عن باب الشعرية وتجارته راجع Raymond, op - cit ولمزيد من التفاصيل عن البكريين ، راجع محمد توفيق البكري ، بيت الصديق ، القاهرة ، 1905 . وراجع لكاتب المقال op. cit. ; pp. 22-37

(172) راجع أحمد جلبي ، سابق ، ورقة 206 م .

(173) في القرنين السابع عشر والثامن عشر حاولت السلطات الايقاع بالشعب في متناقضات تضعفه تماما ، كتلك الحملة التي قادها محمد باشا (12 شعبان 120 هـ/ 10 ربيع الاول 1027 هـ) من المصريين ضد « عسكر من بلاد الروم » راجع الاسحاقي ، سابق ، ص 255 ، 256 و 257 ؛ او عن طريق الايقاع بين الاحياء المختلفة ، كالذي حدث بين سكان حي بولاق وحي الحسينية سنة 1736 م ، راجع احمد جلبي ، سابق ، ورقة 252 ب .

النهاية مصاعب معيشية تقع اولا على الطبقات الشعبية التي تظل تعاني منها حتى تنظم صفوفها ، وتتأهب للدفاع عن نفسها عن طريق التحركات والانتفاضات الشعبية . ولان تلك الفئات الشعبية كانت هي المتضرر الاول ، وبالتالي هي المثيرة لهذه التحركات ، فقد نظر اليها كتاب الحوليات من البرجوازيين نظرة هابطة تنم عن احتقار ، فأطلقوا عليهم النعوت التي تصفهم (بالزعر) التافهين ، و (الفوغاء) السوقة ، و (الحرافيش) المحتقدين و (الشطار) و (العصاب) . (174) وكانت الرميلة مركزا هاما لهذه الثورات ربما لموقعها قرب المركز السياسي للبلاد ، (175) ولان بها أسواق هامة للحبوب ؛ هذا الى جانب العامل الاساسي وهو وجود فئات فقيرة تعشش فى المنطقة . وربما تكون تلك الاسباب جميعا هي التي دفعت السكان للقيام بثورة 1107 هـ / 1695 م والتي ينقل لنا أحمد جلبي وصفا لها بقوله (وفى غرة محرم الحرام سنة 1107 اجتمعت الفقراء والشحاتين من النساء والرجال والصبيان ، وطلعوا الى حوش الديوان ، وصاحوا ونادوا : متنا من الجوع ، وشدة الفلاء ، فلم يرد عليهم أحد جوابا . فأخذوا الحجارة ورجموا جميع من فى الديوان ، فضربهم الوالي جميعا ، وطردهم . فنزلوا الى الرميلة ، فنهبوا جميع الغلال التي بالدمفة ، وكسروا الحواصل ، ونهبوا جميع ما كان فيها من قمح وفول وشعير . ونهبوا حاصل كتخدا الوزير ، وكان مملوءا بالفول والشعير) (176) .

والمحصلة النهائية أن ما ترتب على السياسة الاقتصادية العثمانية التي مثل ربع الولاة فى مصر شريحة منها ، هي نهب ثروة البلاد ونزحها

---

(174) راجع ابن زنبل ، سابق ، ورقة 124 ب ، ورابع ابن اياس ، سابق ، ج 5 ، ص 117 ، ج 4 ص 17 ، 96 ، 232 ؛ وراجع الجبرتي فى هذا المقال حاشية رقم (169) التي تشير الى نص يرد فيه (أوباش العامة) كصفة للشعب .

(175) الرميلة تشمل اليوم ميدان محمد علي وميدان صلاح الدين وميدان السيدة عائشة ، وما بينه وبين ميدان صالح الدين من مجموعة المباني الحالية بقسم الخليفة بالقاهرة ، لمزيد من التفاصيل ، راجع تغرى بروى ، النجوم الزاهرة ، ج 9 ، ص 111 ، حاشية (1) ، القاهرة .

(176) راجع أحمد جلبي ، سابق ذكره ، ورقة 34 ا .

الى الخارج ، واستمرار وقوع الطبقات الشعبية تحت طاحونة الاستغلال رغم كل ما أبدته من ممارسات ثورية لاساليب المقاومة ، وانتفاضات شعبية قامت بها فى أوقات تكاد تتبع طريقة عشرية (717) ؛ كما ترتب عليها ان ظلت عاجزة اقتصاديا فلم تتمكن من تخطي مرحلة معينة من نموها الاقتصادي ، فتوقفت الفئات العليا منها عند مرحلة النمو الراسمالي القائم على التجارة الداخلية للسلع ، ومرحلة النمو الصناعي الحرفي القبلي المتخلف ، واسقط الفلاحين من حساب القوى الاقتصادية النامية لوضعيتهم المتدنية الشبيهة بالقنانة رغم دورهم الاساسي فى الانتاج الزراعي . ان تحلق كل تلك الفئات حول شيوخ الحرفة والمهنة والحارة والقرية من الناحية التنظيمية على المستوى الاقتصادي والسياسي ، وحول مشايخ الطرق الصوفية على المستوى الروحي والديني ، لم يمكن الطبقات الشعبية بفئاتها وشرائحها المختلفة من تخطي هذين التنظيمين بالانصهار داخل طبقة أو حلف من الطبقات . فلم تتح هذه الاوضاع الفرصة لاحداث عمليات للتراكم الاساسي لنمو راسمالية تجارية او صناعية قادرة على ادارة الصراع السياسي على مستوى الوطن وفقا لمصالحها ، ومصالح اوسع الفئات الشعبية من الفلاحين . ان كل ما حدث هو أن عملية النهب التي كان يمارسها النظام المملوكي السابق اصبح يقوم بها النظام العثماني الجديد من خلال أجهزته ومظالمه التي لا تمل الحوليات المصرية المعاصرة عن سرد قصصها (178) ، وظل بالتالي جوهر العلاقات الانتاجية فى العصر المملوكي هو نفسه جوهر العلاقات الاقتصادية والاجتماعية فى ظل النظام العثماني الذي اشرك معه فى الادارة العناصر الباقية والمتجمدة من النظام المملوكي القديم ، فلم يترتب على تغيير السيادة السياسية أي تحولات فى البنية الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع المصري ، بل كانت هذه البنية هي امتداد للنظام المملوكي القديم .

---

(177) راجع ابن ابي السرور ، سابق ذكره ، ورقة 186 ، وورقة 187 .

(178) راجع ابن ابي السرور ، كشف الكربة فى رفع الطلبة ، مخطوط ، مكتبة رفاعة رافع الطهطاوي بسوهاج ، رقم (380 تاريخ) ونسخته المصورة ، بمعهد المخطوطات العربية بجامعة الدول العربية بالقاهرة تحت رقم (764 تاريخ) .

على أن هذا الكيان الاقتصادي والسياسي قد أصيب بالانهاك فى أواخر القرن الثامن عشر ، نتيجة للصراع المستمر الذي خلقته طبيعة النظام من ناحية ، ونتيجة للضعف العام الذي اصاب الامبراطورية العثمانية ذاتها من ناحية أخرى ، مما ترتب عليه بروز القوى المملوكية المحلية ، فسمح هذا الى حد كبير من اخراج المنظمات الطائفية من عزلتها، واتاح لها الى حد ما فرص النمو الاقتصادي ، فراحت تبحث عن حليف لها ، فوجدته فى مشايخ الازهر مما سيكون له آثاره فى يقظة وعيها بالذات وبالوطن وبالطبقة ، وسيمكنها من أن تلعب دوراً بارزاً فى صنع الاحداث التي تلي الفترة المخصص لها هذه الدراسة .

ملحــــق

دراسة للعملة المصرية فى العصر العثماني :

تستدعي أهمية المصطلحات التي أطلقت على النقود المتداولة بمصر خلال الفترة من 1517 الى 1798 م دراسة خاصة بوحدتها الحسابية وقيمتها وعلاقتها بالعملة العثمانية . ولا تزعم الملاحظات الواردة فى هذا الملحق انها كرست لانجاز تلك المهمة ، فغطت كل جوانب الموضوع ، بل ما سيرد هنا هو محاولة لتوضيح أهمية الجوانب المتعلقة بهذا المقال . وفى هذه الحدود نجد ان العملة الاساسية التي شاع تداولها فى انحاء الامبراطورية العثمانية كانت الا قجة أو العثماني ، وهي قطعة نقود فضية صغيرة صكت فى عهد أورخان (1326 ــ 1359 م) وظلت تستخدم حتى فتح القسطنطينية سنة 1453 م ، حيث صكت لاول مرة عملة ذهبية .

وتشير المصادر (179) الى ان الاقجة ظلت تستخدم حتى القرن السابع عشر فى الحسابات الرسمية ولكنها تعرضت بمرور الزمن لعدة تخفيضات في قيمتها . فمنذ عهد أورخان وحتى عهد محمد الفاتح (1451 ـ 1481) كان الوزن الحقيقي للاقجة أعلى بالكاد من ثلث الدرهم الذي يبلغ وزن ما فيه من الفضة الخالصة 90 ٪ ؛ ومنذ ذلك الوقت وحتى فترة حكم السلطان سليم الاول (1512 ـ 1520) عانت الاقجة من الهبوط التدريجي الى اكثر قليلا من نصف قيمتها . غير ان انفجار الازمة المالية عام 1560 وما بعدها أثناء حكم مراد الثالث (1574 ـ 1595) نتيجة لتدفق الفضة الامريكية على الاقاليم العثمانية ، ولتصرفات الحكام حيال الجند ، ولتخفيض قيمة العملة الفارسية ، كل هذه العوامل انزلت بالاقجة ضربة خفضت قيمتها الى النصف تقريبا ؛ وتبنت الخزينة هذا التخفيض للتخلص من ديونها . ويعتبر هذا ثاني تحقيق أساس للاقجة ، اذ سبقه تنزيل آخر حدث بسبب الاستيلاء على المقاطعات الحربية الخالية من اصحابها . ونتيجة لهذا التخفيض الاساسي الثاني فقد ارتفعت تكاليف المعيشة ، وتسبب الجند بالتالي فى اثارة الشغب ، فحاولت الحكومة

---

(179) اعتمدت هذه الدراسة على المراجع المشار اليها فى المقال ، كما اعتمدت على مصادر اخرى ، وكليهما يرد هنا ذكره :

— Gibb and Bown, op. cit. vol. 1, part2 pp. 39, N. 8,40, N. 6, 45, 49-58, 134.

— Poole, S. lane, The Coins of the turks in the British Museum, (B.M. Catalogue of oriental Coins) ,vol. VIII, London, 1883, pp. III, IV, XVIII-XX, XVIII, Note,
XXIV, XXIV, note and plate VI, No. 418.

اسماعيل غالب بك ، تقويمي مسكوكاتي عثماني ، القسطنطينية ، 1307 هـ 1889 م، ص 302 ، 60ـ 7 .

محمود الشرقاوي ، مصر فى القرن الثامن عشر ، 3 اجزاء ، القاهرة ، 1955 ـ 56 م ، ج 1 ص 124 .

— Estéve,... finances..., op. cit., pp. 57, 60-2, 81, 193, 334.

— Shaw, op. cit., pp. XXII, 65, 66, 153.

— Belin, M. Essais sur l'histoire économique de la Turquie, (Journal Asiatique), série VI, Tom. IIII 1264 pp. 414, 422, 428-30, 438-40, 483, 331, 334, 383.

وسيرد ذكر مصادر اخرى يشار اليها فى اماكنها اينما وردت .

كسب ودهم ، فوقعت تحت رحمتهم خلال الخمسين سنة التالية ، وادى ذلك الى مقتل السلطان عثمان الثاني (1618 ـ 1622 م) ، ولم تتلخص الاقجة من ضعفها بعد تلك الاحداث .

ومن ناحية أخرى ضربت أقجة فى عهد محمد الرابع (1648–1687م) عند ما كانت الاحوال العامة قد بلغت قمة الاضطراب ، وخلطت بمعادن خسيسة القيمة ، ولذا أطلق عليها للسخرية أسماء مثل (الفجرى) وغيرها، فحاولت الخزينة ارضاء الجند بعملة أخرى أتضح أن قيمتها لم تمتص سخطهم فازدادت الاضطرابات . ويلاحظ أن الاقجة فى عهد سليمان الثاني (1687 ـ 1691 م) سقطت قيمتها التبادلية الى حوالي : 1 : 70 من قيمتها الاصلية ، كما صغر حجمها ، مما ساهم فى فقدها لقيمتها . وكلما فقدت قيمتها كلما قلت الثقة فيها كعملة وسيطة للتبادل ، ولذا قامت الحاجة الى استخدام البارة المصكوكة من الفضة كوسيطة فى القرن السابع عشر ، فكانت فى البداية تساوي أربعة أقجة ، ثم بعد ذلك ثلاثة أقجة ، ثم ضربت قطعة فضية جديدة ذات قيمة 10 أقجة .

وقد ضربت عملات أخرى من الذهب الخالص فى تواريخ مختلفةوبأسماء مختلفة منها (الطفرلى) التي ظلت حتى عهد أحمد الثالث تصك فى القاهرة، والتي كانت قيمتها تساوي الشريفي القديم ، وعملة ذهبية أخرى أقل وزنا نقش عليها (1115) وسميت بالذهب الاستانبولي ، ولكن التسمية الاكثر تداولا كانت (الزنجرلى) وضربت فى مصر باسم (الفندقلى) بجانب عملة أخرى ذهبية ايضا سميت (زر محبوب) . وتداولت أستانبول العملة المضروبة فى القاهرة ، ولكن قيمتها خضعت للتنزيل . ففى سنة 1725 أصبح الفندقلي الاستانبولي يساوي 400 أقجة ، والفندقلي المصري يساوي 330 أقجة أو 110 بارة ، واصبح الطفرلي المصري يساوي 315 أقجة . وفى سنة 1733 صدرت أوامر سلطانية بالغاء صك الفندقلي بمصر ، وظل زر محبوب يضرب بالقاهرة . وارسلت استانبول فى سنة 1762 مبعوثا الى القاهرة للتفتيش على العملة فاعيد

تقييم البارة او المؤيدي فأصبح كل 1,000 بارة (مؤيدي) تساوي ما قيمته 125 درهم (وزن 385 جرام) من الفضة الخالصة عيار 58 ٪ (180)

غير أنه على ما يبدو أن الاقجة لم يشع تداولها فى مصر ، بل كانت البارة المصرية المصنوعة من الفضة هي المتداولة . وتشير بعض المصادر انها ضربت فى أول الامر بمصر سنة 1045 هـ / 1635 – 36 م ، وكانت تسمى باللغة الدارجة (نصف فضة) . وخلال الفترة المبكرة من القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي كانت الاوامر السلطانية المرسلة الى مصر تعبر عادة عن قيمة الوحدة النقدية بمصطلح اقجة التي كانت متداولة كما رأينا فى أنحاء الامبراطورية . وفى الوقت الذي صدر فيه قانون نامة (931 هـ / 1524 – 25 م) كانت البارة المصرية أو النصف فضة المتداولة فى عصر المماليك والعثمانيين بمصر تساوي تقريبا 2 وربع أقجة عثمانية . وقد تغيرت هذه النسبة تبعا لتغير السنوات (181) وعلى هذا فالعملة الفضية المتداولة بمصر فى العصر العثماني كانت تنحدر مباشرة من عملة المؤيد الفضية التي كانت مستخدمة فى مصر المملوكية ، منذ أن ضربها المؤيد فى سنة 818 هـ / 1415 – 16 م ، وظلت تسمى بالمؤيدي ، ولكن قيمتها الحقيقية وعلاقتها بالاقجة العثمانية تفاوتت كثيرا عبر القرون . ففى القرن السادس عشر كانت البارة تزن خمسين من الدرهم ، وتساوي 2 أقجة . وفى القرن السابع عشر كانت تزن 16 قمحة (القمحة مقياس للوزن) وتساوي 4 اقجات ؛ وتدهورت قيمتها باستمرار بعد ذلك الوقت لانخفاض قيمة المسكوكات المصرية نتيجة لتنزيلات دار

---

(180) انظر صفحات المراجع السابق ذكرها بهامش (179) ؛ وراجع ايضا
— Samual Bernard, Memoires sur les Monnoies d'Egypte (Description), Tom. II, partie 1, Paris, 1812, pp. 383, 388.

(181) راجع
— Gibb and Bowen, op. cit. ;vol. 1, part-2, pp. 40, N. 6., 51-2, 131
— Shaw, op. cit-, pp. 65, N. 169., 232, N. 88.

الضرب (الضربخانة المصرية) . (182) وكانت البارة هي العملة الرئيسية المستعملة للحساب في كل السجلات المالية التي أنشئت في مصر العثمانية ، غير أن قليلا من السجلات كان يستخدم الاقجة أحيانا بدلا من البارة ، وذلك في حالة ما اذا طلبت استانبول تلك السجلات للاطلاع عليها .

وقسمت البارات في اكياس ، والكيس يعتبر اكبر وحدة نقدية ظهرت في القرن السابع عشر والكيس المصري كان يساوي 25 ألف بارة في قيمته . واستعمل الكيس أيضا للاقجة في بعض أقاليم الامبراطورية العثمانية ، وكان يسمى بالكيس الرومي ، وهو الكيس الاوربي ويساوي 50 الف اقجة . ومن هنا يصبح الكيس المصري (25 ألف بارة) يساوي 60 الف اقجة دون اعتبار للقيمة الحقيقية المعنية (183) .

أما عن العملة الذهبية ، فقد كان الشريفي الذهب هو المتداول على نطاق ضيق حينما دخل العثمانيون مصر ، وينحدر من عهد المماليك . وكان يساوي 25 بارة . وفي زمن خاير بك (1517 ـ 1522 م) صكت عملة فضية هي البارة أو المؤيدي ، وكانت تساوي الاقجة العثمانية ، وكانت تلك البارة العثمانية اقل من نصف البارة المملوكية القديمة التي أصبحت (اي البارة المملوكية) تساوي 2 ونصف بارة عثمانية جديدة ؛ والشريفي الذهب القديم أصبح يساوي رسميا 25 بارة قديمة أو يساوي 65 بارة جديدة . وفي نفس الوقت ضربت عملة عثمانية أخرى جديدة تسمى

---

(182) راجع اسماعيل غالب ، سابق ذكره ، ص 199 . وراجع عباس العزاوي ، تاريخ النقود العراقية ، بغداد ، 1958 م ، ص 145 ـ 148 . وراجع ايضا
— Shaw, op. cit, p. XXII
— Ismail Hakki Uzunçarsili, Osmanli Devletinin ve Bahriye Merkez Teskilate, Ankara, 1948, pp. 353-4
— Pakalin M.Z.. op. cit, II, p. 284. وكذلك راجع

(183) راجع Shaw, op. cit, p. XXII

(سليمى) وأصبحت تساوي 90 من البارة الجديدة ، و 50 من البـــارة القديمة . وفى أواخر عهد خاير بك واثناء تمرد أحمد باشـــا (1523 ـ 1524 م) تدهورت قيمة العملة العثمانية ، فأصبحت كل ثمانية او تسعة بارات تساوي واحدا فقط من العملة المملوكية القديمة . وعندما وصل ابراهيم باشا سنة 931 هـ / 1525 م لسحق المتمردين ، جـــاءه الناس يشكون الظلم الذي الحق بهم نتيجة لتغيير العملة ، فاعاد ابراهيم باشـــا للعملة قيمتها قبل خاير بك فاصبحت العملة المملوكية القديمة تتساوى فى القيمة مع العملة العثمانية الجديدة . وفى سنـــة 1147 هـ 1734 م فى عهد السلطان محمود الاول (1730 ــ 1754 م) أصبح كل 48 درهم فضة تساوي 400 بارة فضة ، اي الدرهم يساوي 8 وسدسين من البارات (184)

ونتيجة للضعف الذي أصاب النظام العثماني بمصر ، برزت شخصيات مملوكية سيطرت على المؤسسات المالية ؛ فقد استطاع علي بك الكبير ان يستحوذ على الضربخانة المصرية ، ويأمر بضرب قطع نقدية من القروش وانصاف القروش ، فئة عشرين واربعين من المؤيدي الذي وزنه 4 ونصف درهم ، مما يعني فى نهاية الامر انخفاض قيمة المؤيدي بنصف درهم عما كان عليه قبل ذلك بثماني سنوات (185) . وعندما اعيـــدت السيـــادة العثمانية مؤقتا كان على الوالي دفع الميري ، غير أنه تنازل لشيخ البلد المملوكي عن دار الضرب فكانت النتيجة هي الانخفاض السريع للعملـــة ؛ فأصيبت العملة الذهبية التي كانت تصك فى القاهـــرة بالتدهـــور فى مستواها ، اذ انحدرت من 99ر6 لتصل الى 71 ، غير أن الحكومة أصرت على الا تتقبل تلك العملة الا بالقيمة القديمة حتى تتجنب سخط التجـــار

---

(184) راجـــع Estéve , op. cit, p. 193 ؛ وراجع ابن اياس ، سابق ، ج 5 ، ص 218 – 19 ، 326 – 27 ، 332 ، 403 ، 421 ، 452 – 53 ، 487 ؛ وراجع كذلـــك Encycl. of Islam, art. Para,

(185) راجـــع Samuel Bernard, op-cit, pp. 333, 345, 384. وراجع الجبرتي سابق ، ج 1 ص 334 ، 371 ؛ ج 3 ص 51 ، 132 .

الذين اعلنوا ان هذه العملة مصنوعة من الذهب المموه او المطلى . (186)
وفى حوالي سنة 1789 م عندما انخفضت نسبة الذهب فى النقد العثماني القديم المصكوك بالقسطنطينية ، كانت العملة التي تصك فى القاهرة مـا زالت آخذة فى الهبوط برغم كل الفرمانات الامبراطوريـة (187) ، وان كانت فرمانات السنة المذكورة قد اثمرت بتثبيت مستوى العملة المصرية الذهبية بمقدار 19 قراط . وبحلول عام 1799 أصبح وزن كل الف درهم منخفضا بما قيمته مائة درهم . وقد شارك الباب العالي فى هذا الارتباك الذي اصاب قيمة العملة ، فبدلا من أن يصدر أوامره باعادتها الى قيمتها القديمة ، أعطى الولاة سلطات أوسع استغلت فى تخفيض العملة ، فهبطت قيمتها بنسبة 41 وثلثين فى فترة 37 سنة ، وفى نفس الوقت انخفض مستوى الفضة الى 8.34 ٪ (188) . وعلى كل حال ظلت القيمة التبادلية للمؤيدي أعلى بكثير من قيمته الحقيقية ، طالما ظلت العملة الاساسية تستخدم فى صفقات البيع بالجملة والقطاعي فى التجـارة الداخليـة والخارجية ، وطالما أن الكميات المصكوكة لم تكن فائضة عن حاجة هذه التجـــارة (189) .

---

(186) راجـع الجبرتـي ، سابـق ، ج 2 ص 59 ، ج 4 ص 81 ؛ وراجـع
وراجـع — Estéve, op. cit., p. 334
— Samuel Bernard, op. cit., p. 387

(187) راجع الجبرتي ، سابق ، ج 2 ص 179 ، ج 5 ص 69 .

(188) راجـع لقيـاس معـدلات التخفيـض فى مبادلات العملـة المصريـة بغيرهـا
— Volney, op. cit, pp. 275-6
وراجـع — Gibb and Bowen, op. cit, part. 2, p. 57, N. 3

(189) راجع معدالات التخفيض الرسمية للعملة — Samuel, op. cit., p. 393

على أن التغيرات التي كانت تصيب العملة سواء بالغش أو التزييف أو الانقاص فى الوزن خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر كثيرا ما كانت تتسبب فى الخراب للطبقات الشعبية مما كان عاملا أساسيا فى قيام حركات احتجاج شعبي فى احياء القاهرة الفقيرة . فالتقلبات والازمات النقدية التي كانت تصيب البارة الفضية (نصف فضة) وهي العملة الرئيسية المتداولة بين الطبقات الشعبية كانت مرتبطة بالتقلبات فى اسعار المواد الغذائية الضرورية . فقد كانت البارة التي تزن 1ر28 جرام قد تقلصت لتزن 0ر689 جرام ، وتحتوي على 70 ٪ من الفضة الخالصة فى سنة 1698 م . أما فى سنة 1703 فاصبح وزنها يقدر بحوالي 0ر518 جرام فقط (190) .

وقد ادت عوامل الخلل فى النقد كما راينا الى غلاء الاسعار مما أدى الى استياء الطبقات الشعبية فهبت للتعبير عن استيائها بالتحركات الشعبية المتموجة عبر تاريخ الفترة التي تناولها المقال بالدراسة . والجدولان التاليان يوضح أولهما معدل تقلبات أسعار النقود التي كانت متداولة فى بعض السنوات المختارة من الفترة الممتدة ما بين سنة 1674 وسنة 1723 وعلاقتها بالارتفاع فى أسعار القمح المبينة فى الجدول الثاني فى الفترة الممتدة من سنة 1677 – 78 م الى سنة 1736 م ، مما يعكس بحق دلالة لها مغزاها التاريخي فى ارتباط التحركات الشعبية بهذين العاملين .

---

(190) راجع — André Raymond,... populaires..., op. cit., p. 112
وراجع — Shaw, Ottman Egypt in the age of the french revolution, Harvard, 1964, p. 167.

الجـــــدول الاول (191) .

السنـــة	الشريفـــي البندقـــي	الشريفـــي المحمـــدي	نقـــود فضيـــة: الريـــال	الكلـــب
1674	95	85	42	40
1697	120	95	64	48
1700	132	102	66	52
1703	200	150	130	80
1723	190	—	100	75

الجـــدول الثانـــي . (192)

السنـــــة	سعر الاردب القمح بالنصف فضـــة (البـــارة)
1677 – 1678	180
1689	120
1694	180 (و 270 فى سنة 1695 و 600 فى سنة 1696)
1705 – 1706	240
1714	120 (و 214 فى سنة 1718)
1722	180
1736	100

(191) الجدول الوارد هنا هو نفسه ما ذكره اندريه ريموند ، فراجع مقاله المشار إليـه سابقا ص 112 .

(192) اورد هذا الجدول اندريه ريموند ، فراجع ص ص 112 – 113 .

المراجـــع العربيـــة

(1) احمد كتخدا عزبان ، الدرة المنصانة فى اخبار الكنانـة ، مخطـوط فى جزليـن ، صفحاته 589 ، محفوظ بالمتحف البريطاني ، رقم (4 – 1073 or

(2) الاسحاقي ، محمد عبد المعطي ، اخبار الاول فيمن تصرف فى مصر من ارباب الدول، القاهرة ، 1296 هـ ، نشر بهامشه كتاب عبد الله الشرقاوي ، تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من الولاة والسلاطين .

(3) ابن اياس ، احمد بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، خمس اجزاء ، نشـره محمـد مصطفى وباوله كالة ، ليبزج واستانبول ، 1932 . (جمعية المستشرقين الالمان) .

(4) البكري ، محمد بن محمد بن محمد بن ابى السرور ، الصديقي ، الروضة الزهية فى ولاة مصر والقاهرة المعزية ، مخطوط بمكتبة الفاتيكان ، رقم (7344)

(5) البكري ، محمد توفيق ، بيت الصديق ، القاهرة ، 1905 .

(6) تغرى بردى ، ابو المحاسن ، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، 12 جزء ، القاهرة ، 1950 .

(7) جب ، هاملتون ، وهارولد بوون ، المجتمع الاسلامي والغرب ، الجزء الاول والثاني ، ترجمة احمد عبد الرحيم مصطفى ومراجعة أحمد عزت عبد الكريم ، القاهرة ، 1971 .

(8) الجبرتي ، عبد الرحمن حسن ، عجائب الآثار فى التراجم والاخبار ، اربع اجزاء ، القاهرة ، 1888 – 1894 .

(9) ريفلين ، هيلين آن ، الاقتصاد والادارة فى مصر فى مستهل القرن التاسع عشر ، ترجمة احمد عبد الرحيم مصطفى ومصطفى الحسيني ، القاهرة ، 1968 .

(10) ابن زنبل ، احمد ، تاريخ السلطان سليم خان بن السلطان بايزيد خان مع قالصوه الغوري سلطان مصر واعمالها ، مخطوط ، 129 ورقة ، محفوظ بالمتحف البريطاني ، رقـــم (26 A 14559)

(11) سجل دار المحفوظات العمومية بالقاهرة ، ارقام مختلفة .

(12) الشربيني ، يوسف ، هز القحوف فى شرح قصيد ابى شادوف ، القاهرة ، 1890.

(13) الشرقاوي ، محمود ، مصر فى القرن الثامن عشر ، 3 اجزاء ، القاهرة ، 1955 – 1956 .

(14) عبد الرحيم ، عبد الرحيم عبد الرحمن ، الريف المصري فى القرن الثامن عشر، رسالة دكتوراه ، اشراف وتقديم أحمد عزت عبد الكريم ، القاهرة ، 1974 .

(15) عامر ، ابراهيم ، الارض والفلاح والمسالة الزراعية ، القاهرة ، 1958 .

(16) عثمان ، حسن ، تاريخ مصر فى العهد العثماني 1517 - 1798 ، (المجمل فى التاريخ المصري) نشره حسن ابراهيم حسن ، القاهرة ، 1361 هـ / 1942 م .

(17) عيروط ، هنري ، الفلاحون ، ترجمة محمد غلاب ، القاهرة ، د. ت.

(18) صالح ، احمد رشدي ، الادب الشعبي ، القاهرة ، 1956 .

(19) مبارك ، علي ، الخطط التوفيقية الجديدة لمصر ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة ، 20 جزء ، القاهرة ، 1306 هـ / 1888 - 1889 م .

(20) الماوي ، فؤاد محمد ، اوضح الاشارات فيمن ولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات، لاحمد جلبي عبد الغني ، تقديم وتحقيق وتعليق ، القاهرة ، 1977 .

(21) مونتريان ، روبير ، العلاقات بين القاهرة واستانبول اثناء الحكم العثماني لمصر من القرن السادس عشر حتى القرن الثامن عشر ، ترجمة زهير الشايب ، مجلة المجلة ، القاهرة ، عدد 158 ، فبراير 1970 .

(22) النهدوالي ، قطب الدين محمد بن احمد ، البرق اليماني فى الفتح العثماني ، نشره حمد الجاسر ، الرياض ، 1967 .

(23) يعقوب ، ارتين ، الاحكام المرعية فى شان الاراضي المصرية ، تعريب سعيد عمون ، القاهرة ، 1306 هـ / 1888 م .

المراجـــع الاجنبيـــة :

1) Aikin, A. travels in upper and lower Egypt, 3 vols., London, 1803, vol. 1

2) Baldurin, George, Political R ecollections relative to Egypt, London, 1801

3) Barkan, Omar lutifi, Qanunname-i Misr, (XV ve XVI inci osulonda osmanli imparatorlugunda zinou Ekonominin

4) Bein, M.. Essais sur l'histoire économique de la Turquie, (journl Asiatique), série VI, Tome III, 1864

5) Combe, Etienne, L'Egypte Ottomané, (Précis de l'histoire d'Egypte par divers histoires et archéologues) ,Tome, III, Cairo, 1933

6) Crouchley, A. E. , The Economic development of modern Egypt, London 1938

7) Digeon, M., Canoun Namé ou Edits de Sultan Saliman, (Nouveaux contes turks et arabes), Tome, 2, Paris, 1781

8) Estéve, M.R.X., Mémoire sur les finances de l'Egypte depuis la conquête de ce pays par le Sultan Selin 1er jusqu'à celle du général en chef Bonaparte, (Description de l'Egypte), 2ème, XII, 41-248

9) Gibb, H.A.R. and Harold Bowen, Islamic, society in the Eighteenth Century, vol. 1, Parts 1 and 2 of Islamic society and the west. (2 vol.,) London, 1950, 1957

19) Girard, P.S., Mémoire sur l'Agriculture . l'Industrie et le Commerce de l'Egypte, (Description de l'Egypte, (Tome, XVII)

11) Hammer J. Histoire de l'Empire Ottman, Tome, 18, Paris 1837, Tome, 10

12) Holt, P.M. The pattern of Egyptian political history from 1517-1798 (Political and Social change in modern Egypt), London, 1968

13) ., The beylicote in Ottman Egypt during the sevententh Century, BSOAS, vol. XXIV, part 2, 1961

14) ., Ottman Egypt (1517-1798) : an account of arabie historical sources, (Political and Social change in Modern Egypt), London, 1968

15) Inalcik, Halil, Ottman methoods of Conquest, (Studio Islamica) vol. 2, 1954

16) Lancert, Michel.. Ange, Mémoire sur le système d'imposition territoriale et sur l'administration de provinces de l'Egypte dans les dernières années du Gouvernement des Mamlouks. (Description de l'Egypte), 2ème XI, 461-527

17) Lane, Edward william, The manners and Customes of the Modern Egyptian, London, 1783

18) Lane - poole, Stanely, the Coins of the turks in the British Museun, (B.M. Catalogue of oriental Coins), vol. VIII. London, 1883

19) Lewis, Bernard, The Islamic G Inilds',(Economic History Review), vol. VIII, No. 1., London, Nov. 1937
20) Lockroy, E., Ahmed le Boucher, Paris, 1888
21) Lusignan, S.L.A., history of the Revolt of Ali Bey aganist the Ottman porte, London, 1783
22) Marcel, J.J, L'Egypte, depuis la conquête des Arabes jusqu'à la domination française (L'univers, Histoire et Description de tous les peuples : Egypte), Paris 1848
23) El Mawl, Fouad M., The histoires of Ottman in Egypt..., (Athesis presented to the University of St. Andrews in application for the Degree of Doctor of philosophy '(Ph. D)', june, 1970).
24) Olivier, C., Voyage dans l'Empire Othman, l'Egypte et la perse, 6 Tome, Paris, 1807, Tome, 2
25) Pakalin, Mehmed Zeki, Omonli Tarik Deyimleri ve Terimleri Sozlugu, 3 vol., Istambul, 1946-1956
26) Pococke, Richard, Description of the East and some Countries, 2 vol., London, 1743-5, vol. 1
27) Poliak, A.N., Les Révoltes populaires en Egypte à l'époque des Mameloukes, (Revue des Etudes Islamiques), Paris, 1934
28) Quatremère, E.TR. histoire des Sultans Mamlouks de l'Egypte, 2 Tome, Paris 1837 - 1844, Tome, 1
29) Raymon André, Quartier de résidence aristocratique au Caire au XVIIIème siècle, (JESHO), vol. vi, 1963
30) Quartiers et mouvements populaires au Caire au XVIIIème siècle, (Political and Social change in Modern Egypt), London, 1968
31) Samuel-Bernard, Mémoires sur les Monnoies d'Egypte (Description de l'Egypte), Tome, II, partie 1, Paris, 1812.
32) Sannini de Manoncour, C., Voyage dans la Haute et la Basse Egypte, 3 tome, Paris, an VII, Engl., tr.
33) Shaw, Stanford. J., The financial and Administrative Organization and Development of Ottman Egypt 1517-1798, Princeton, 1962.

34) ., Ottman Egypt in the age of the French revolution, Harvard, 1964

35) Uzunçarscli, Ismail Hakki, Osmalni Devletinin Saray Teskilâti, (turk Tarik kurumumyagnlone), VIII, N. 15, Ankara 1945

36) ., Osmanli Devletini Merkez ve Bahriye Teskilati, Ankara, 1948

37) volney, C.F.C., Voyage en Syrie et en Egypte pendant les Années, 1783-4 et 1785, 2 Tome, Paris, 1798

(38) اسماعيل غالب بك ، تقويمي مسكوكاتي عثماني ، القسطنطينية ، 1307 هـ / 1889 م

(39) أوليا جلبي ، محمد درويش محمد ، سياحة نامة ، مخطوط بارشيف طوب قابى سراى، استانبول ، 10 مجلدات ، 1898 ـ 1938 ، مجلد 10 خاص بمصر .

(40) الخلاق ، محمد يوسف ، تاريخي مصر ، مخطوط بالمكتبة القومية ، استانبول ، 169 ورقة ، 17 سطر ، رقـــم (705) .

(41) نظام نامة ، مخطوط بطوب قابى سراى ، استانبـول ، 27 ورقـة ، 17 سطـــر ، رقـــم (288) .

فــــاس د. فؤاد الماوي

باب بوجلود بفاس

عبد القادر زمامة

في مطلع شمس كل يوم . وفي نطاق الوقوف على المآثر التاريخية . والمفاخر العمرانية بمدينة فاس ، ذات العطاءات الثقافية المعلومة . يستقبل باب بوجلود بهذه المدينة عددا كبيرا من السائحين والسائحات ، على اختلاف أجناسهم ، وألوانهم ، ومللهم ، ونحلهم ، ولغاتهم . يقفون أمام واجهتيها الداخلية والخارجية ، ويمرون فرادى وجماعات تحت قوسها ، معجبين ببديع نقوشها ولاسيما حين تنعكس عليها أشعة الشمس فتزيدها رونقا وجاذبية . واذ ذاك تصوب العدسات ، وتحرك الاشرطة، من أجل التقاط المناظر والصور المتعددة لوضع الباب من الداخل والخارج . وقد تراءت أمام السائحين والسائحات مئذنة مسجد سوق اللزازين ،

ومئذنة المدرسة المتوكلية المعروفة باسم المدرسة العنانية ،،،

والمئذنة الاولى شهيرة في فاس بذلك العش الذي أقامه اللقلاق « بلارج » عليها ليقضي فيه شهور الدفء ، ءامنا ، مطمئنا مبتهجا ،،، !

والمئذنة الثانية شهيرة في فاس بذلك الزليج الملون البراق الذي يعلن منذ أكثر من ستة قرون لكل غاد ورائح وزائر وسائح ، انه أمام تراث فني أصيل . تسلسل في كل ما تحتضنه هذه المدينة من معالم وءاثار ،،،!

ومن أجل هذا الاهتمام بباب بوجلود أصبحت الصور والمناظر الملتقطة له شهيرة في بقاع المعمور ،،، ! تعبر الأجواء والقارات ، وتزين الجدران والصفحات ، وينسج الناس حولها نسيجا من التخيلات ، ويحاولون ربطها بكل ما يظنونه أثريا في هذه المدينة ،،، !

فهناك مجلات شرقية وغربية تقدم باب بوجلود على أنه :

ـ من أقدم الابواب في أسوارها القديمة (1) ،،، ! ـ وهناك من يتحدث للناس قائلا :

---

(1) مقال د. حسين مؤنس . الهلال يبراير 1978 م

ـ وباب بوجلود بفاس نموذج للآثار المغربية التـــي قاومت عوامل الطبيعة منذ أحقاب ،،، !! ـ

وهناك أشياء أخرى تقال وتكتب لا مجال لذكرها الآن في هذا المقـال الموجـز .

ويلفت النظر عند البحث عــن بــاب بوجلــود بعــد الاستقراء والتتبع ان قدماء المؤرخين الذين اهتموا بفاس، وارخوا لأعلامها وخططها وبعض ماثرها لــم يعرجــوا ـ فيما نعلم ـ على باب بوجلود بهذا الاسم .

فكتب الذخيرة السنية ، وروض القرطــاس ، وجنــة زهرة الآس ، ومؤلفات الحافظ ابن مــرزوق ، والوزيــر لسان الدين ابن الخطيب ، والمؤرخ ابن خلدون . لا تعرج على شيء يسمى باب بوجلود ،،،

بل اننا اذا تخطينا هؤلاء ووصلنا الى عصر الــوزان الفاسي ، ثم الى عصر مؤرخ فاس ابــن العبــاس ابــن القاضي لا نجد أي شيء يحمــل اســم باب بوجلــود ،،، ونفس النتيجة نخرج بها اذا تتبعنا كتاب ابــن عيشــون وكتب المؤرخ محمد بن الطيب القادري ،،،

وعذر هؤلاء المؤرخين قائم وواضح لا غبار عليهوذلك انهم لا يعرفون في عصورهم المختلفة بابــا يحمــل هــذا

الاسم : (باب بوجلود) يذكرونه الى جانب الابواب الاخرى القائمة الى الآن ،، أو البائدة منذ أزمان ،،،

وينبغي هنا أن نشير الى ملاحظة دقيقة جدا في هذا الموضوع وهي : ان هناك فرقا بين أن نجد في وثيقة أو حوالة أو أي مستند ءاخر اسم مكان ما يحمل اسم (بوجلود) في فاس ، أو نجد شخصا يحمل أسم بوجلود أو بوجمود ، أو بوجمودة أو ما يشابه ذلك من الصيغ الاصلية او المحرفة ،،، وبين ان نجد الباب القائم في المكان المعين يحمل هذا الاسم ويؤرخ ويشار اليه بهذا الاسم،،!

فاسم بوجلود ، أو بوجمود ، أو بوجمودة ، أو أبي الجنود أو ما شابه ذلك من الصيغ . على أنه اسم شخص أو اسم أسرة ، او اسم مكان ، شيء وارد في بعض الوثائق والحوالات وسنشير الى بعض ما اطلعنا عليه من ذلك فيما بعد .

بعد هذا الايضاح الذي كان لا بد منه لتحقيق المناط وتعيين الهدف نرجع الى تقديم المعلومات التاريخية الموجزة عن باب بوجلود ،،،

ان باب بوجلود التي يحلو لبعض الالسنة والاقلام : ان تسميها باب أبي الجنود في هذا الوضع القائم الآن وبهذا القوس المرتفع ، وبهاتين الواجهتين ذاتي النقوش

الزرقاء على مربعات الزليج ، وما ينضاف الى هذه الباب من اليمين واليسار ،،، انما نشاكله في خريطة مدينة فاس بعد فرض نظام الحماية وتأسيس المجلس البلـدي وقـد اختاروا اسم : باب الامة ، ليكون هـو الاسـم الرسمـي الذي تدعى به الباب ،،، !

وقد عثرنا على بعض المراسلات الصحفية التي كانت تنشر في جرائد ذلك العهد فوجدنا فيها مثل هذه العبارات :

ـ توجه الموكب من (باب الامة) الى ،،،

(زينت (باب الامة) بالاعلام ،،،

ـ ،،، ونزل بساحة (باب الامة) ،،،

ويقصد المراسلون الصحفيون اذ ذاك ببـاب الامـة ما نقصده نحن الآن بباب بوجلود أو باب ابن الجنود ،،،

والطريف في الامر أن هذا الاسم : باب الامة ، لم يهز المشاعر ، ولم ينل التقدير الذي قصده واضعوه ، ولـم يكتب له البقاء لا في الاقلام ولا في الالسنة ،،،

لأن الناس اذ ذاك كانوا مصدوميـن في عـواطفهـم الوطنية بصدمة الحماية ونظامها وتدخل رجالها في كـل شيء دقيق أو جليل ،،، فسموا ـ فيما بينهـم ـ البـاب

باسم : باب النصارى ، لأنهم اعتقدوا ان كل عمل ينشأ ويراقب من طرف الحماية ، انما هو عمل لا يقصد منه الا نفع النصارى وخدمة مصالحهم ،،،

ولقد تشاءم الناس اذ ذاك من : باب النصارى ، وصمموا ألا يعترفوا بها، ولا باسمها الرسمي : باب الأمة ، بل ان بعضهم كان يجتنب المرور تحت قوسها ،،، تورعا وتذمرا واحتجاجا على محاولة تغيير معالم المدينة،، والطرائف والاخبار والنكت المروية في هذا المجال كثيرة عن شخصيات من الخاصة والعامة ،،،

وقد وصل ذلك الى ـ الرسميين ـ فاغتاظوا من هذا التذمر الذي اصاب الناس من انشاء ـ باب النصارى ـ ومحاولة بعضهم مقاطعة المرور منها ،،، لهذا قرروا فرض الاسم والمسمى على الناس مهما كان الثمن فأوعزوا الى الباشا البغدادي ان يأخذ التدابير السرية والعلنية لمحو أثر هذا التذمر حتى يصبح الامر عاديا ،،،

وفعلا أغلقت (باب القصبة) التي كانت هي الباب الاصلية وما زالت مغلقة الى الآن ،،، وتناسى الناس اسم : باب النصارى ، لكنهم لم يستعملوا اسم : باب الأمة ، وانما استعملوا اسم : باب بوجلود ، أو باب : أبي الجنود .

بعد هذا يأتي الحديث عن باب القصبة ،،، والقصبة ،،، وبـوجلـود ،،،

فالباب المغلقة الى الآن ، والتي أقيم ازاءها قوس : باب الامة ، كانت تعرف باسم :

باب القصبة القديمة .

وبهذا الاسم نعتها المؤرخ محمد بن الطيب القادري في كتابه نشر المثاني (2) ،،، لانها كانت فعلا مدخلا لهذه القصبـة ،،،

والقصبة القديمة تعني قصبة المرابطين وهـي مـا يعرف الآن (بالقصيبة البالية) ،،، المجاورة للمسجد . ولها قصة وتاريخ ليس هنا مجال للحديث حولهما ،،،

أما بوجلود ، أو أبو الجنود ، فاننا نجد في الوثائق التي أمكننا الوصول اليها أثناء البحث والاستقراء أن حوالـة القرويين المعروفة بالاسماعلية فيهـا ص. 239 عنـوان هكـذا :

ـ عرصات أبي جلود ، ووادي الفجالين ـ وما زالت بعض الاسماء المذكورة تحت هذا العنوان معروفة هناك الـى الآن ،،،

---

(2) انظر ج 2 ص 163 . ط. حجرية . فـاس

فعلى هذا يكون : أبو جلود ، عبارة عن بقعة معروفة بهذا الاسم ، بها عدة عرصات تدعى عرصات بوجلود ،،، كما هو الشأن في البقعة الاخرى التي أضيفت الى وادي الفجالين .

ونجد في نفس الحوالة اسم عرصة بوجمود المجاورة لعرصة ابن قريش في هذه الناحية فعرصات بوجلود تدل : ـ استنادا لما في نص الحوالة الاسماعلية ـ على بقعة جميلة احاطت بها الاشجار والمياه وامتلك الناس بها على ممر العصور الحدائق الغناء ، وغرسوا بها الاشجار والرياحين بين فاس المرينية وفاس الادريسية ،،،

ونجد في مخطوطة مقامات الشيخ حمدون ابن الحاج، وفي المقامة الثامنة بالخصوص هذا النص الادبي الذي يلقي علينا بعض ما كان الناس يحيطون به ـ جنان أبي الجلود ـ من تقدير واعجاب :

ـ وانما هي قطعة من جنة الخلود ،،، !

حرفوا تسميتها بأبي الجنود ،،، !

ونجد في مجموعتنا من الأمثال هذا المثل : عندو الدراعة ، وبوجلود ، وجنان العود ،،، !

فعلى هذا هناك جنات وحدائق بلغت النهاية في الجمال والاهمية ضرب الناس بها المثل منها :

الدراعة (أو الضراعة) وبوجلود وجنان العود ،،،

ومنذ عهد السلطان اليزيد اشتهر جنان بوجلود بما بني فيه من قصور على التوالي الى عهد السلطان عبد الحفيظ .

فمن أجل ذلك ـ فيما يظهر ـ أضيفت باب القصبة القديمة التي شاهدناها عند المؤرخ ابن الطيب القادري ،،، الى بوجلود لانها تؤدي فعلا الى هذا الجنان الذي أقيمت به عدة قصور ،،،

بقية كلمة وهي :

هل كان الاصل في تسمية البقعة أو الجنان هو بوجمود فحرف الى بوجلود كما حرف هذا الاخير الى أبي الجنود ،،، أم أن الاصل هو بوجلود من أول مرة على فرض أن هذه الحدائق والجنات كانت تضاف الى أصحابها من أعلام وأسر ،،، ؟

دائرة الامكان واسعة ،،، ما دمنا لا نملك نصوص تاريخية قاطعة .

فاس عبد القادر زمامة

الإعلام الثقافي

الموسم الثقافي الأول لمدينة أصيلة

بمناسبة حفلة تدشين الموسم الثقافي الاول لمدينة أصيلة بتاريخ 14 يوليو 1978 وجه السيد الحاج محمد ابا حنيني ، وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية ، خطابا الى المشاركين فى هذه التظاهرة الثقافية .

وفيما يلـــي نـــص :

خطاب السيد وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية

بسم الله الرحمن الرحيـــم

أيهـا الســـادة

فى هذا الموقع الأخاذ ، المستنيم الى جلال البحـــر المحيط وجماله ، المطمئن الى لألائه ، وظلمائه ، الباقى على تجرم الأيام

بعد الأيام ، وتطاول الأماد بعد الآماد ، تنبثق اليوم زهرة غضة ناضرة من تلك الازهار التي ترمز الى التعارف بين الناس على اختلاف طبائعهم ، وتعدد مشاربهم وأجناسهم ، وتوحي بأن هذا التلاقي حولها ، وهذا التواصل على عبيرها ، مبعثهما الاصيل وسببهما الاثيل ، ما يجذب فكرا الى فكر ، ويصل عقلا بعقل ، ويربط شعورا بشعور ، ويهفو بوجدان الى وجدان .

وهذه الزهرة الغضرة البهية التى يعتز وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية ، بأن يشارك ولو من بعيد بالاعراب عن فرحه وتبريكه وأمله العريض ، جميع الذين وفدوا متطلعين الى طلعتها معجبين بالعمل الذي أفضى الى انبعاثها وازدهارها ، هذه الزهرة ان كانت اليوم فى ميعة صباها وطراوة عودها ، فان النوايا التواقة ، والارادات المشرئبة ، ستتعهدها باتصال ، ما اتصلت الأيام والاعوام ، بالعناية التى تستحيل بها الارض المخصاب ، الى حديقة زاهرة وجنة ألفاف .

واذا كان هذا الموقع الجذاب الذي ستتشع منه ان شاء الله، ألوان من الثقافة الخليقة ببث الحياة الخصبة ونشرها ، واغناء الفرد ، واجتلابه الى مراتع الاستمتاع ومرابع الافادة ، موقعا تولاه الأسلاف حينا بعد حين ، بالرعاية والاهتمام ، فان الاخلاف المتمثلين فى المبدعين وفى ذوي النيات الصادقة الصالحة من ابناء هذه المدينة ، الساهرين على اضفاء الثوب القشيب على قوامها ، قد اخذوا على نفوسهم ولا شك ، ان يجعلوا من مركزهم

الثقافى الناشىء مركزا واعدا بأجمل الوعود ، تأوي الى فنائه أفواج المثقفين من كل قبيل والمولعين بالـطـريف من عادات التفكير والممارسة والابداع ، والتليد مـن الابتـكـار والسير والتقاليـد .

وأملى الوطيد ، أن يسطع على طول ساحل المحيط ، مراكز اشعاع وثقافة ، على غرار هذا المركز الذي يباشر اليوم افتتاحه سواء تم ذلك بسعى من وزارة الشؤون الثقافية ، أم بمبادرة من جمعيات تتوخى جهودها خدمة الثـقـافة واثـراء العقول والـقـلـوب .

وانى اذ أسأل الله لراعـى الثقافة والمثقفين عاهل البلاد، صاحب الجلالة الحسن الثانى ، ولأبنائه الجلة الابـرار دوام العز وطول البقاء ، لاتمنى لهذه المدينة مزيدا من البهجة والرواء ولجمعية المحيط والمشرفين عليها اشراف بذل وعطاء واخلاص مسرة يغمرهم بها بلوغ المقاصد والغايات .

وعلى الله قصد السبيل وهو ولى التوفيق والسداد .

والسلام عليكم ورحمة الله .

محمد أباحنيني

وبمناسبة هذا الموسم ، قامت وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية بترميم بعض الابنية التاريخية والاثرية لمدينة اصيلة العريقة ، وقدمت للساهرين على تنظيم هذا النشاط الثقافي مساعدات تقنية ، كما اسهمت الوزارة بحظ وافر فى تقديم الحفلات الموسيقية والفلكلورية .

المغرب يشارك فى الاجتماع العام الخامس للجمعية الدولية للمحافظة على المباني التاريخية والمناطق الجميلة (ايكوس)

اوفدت وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية السيدة نعمة الله الخطيب بوجيبار ، لتمثيل المغرب فى الاجتماع العام الخامس للجمعية الدولية للمحافظة على المباني التاريخية والمناطق الجميلة ، المنعقد بمدينتي موسكو وسوزادل بالاتحاد السوفييتي ما بين 20 و 27 ماي 1978.

وقد كان هذا الاجتماع مناسبة، تدارست فيه وفود 60 دولة الدستور الدولي للمباني التاريخية المعروف بدستور البندقية وعقدوا مناظرة نوقشت فيها المواضيع التالية :

- الانسانية والمباني التاريخية
- الدور التربوي للمباني التاريخية
- المباني التاريخية فى الوسط الحضاري
- المباني التاريخية فى الوسط الريفي
- المباني التاريخية كعامل لابراز الشخصية الثقافية
- المباني التاريخية كعامل مساعد فى التنمية الاقتصادية والاجتماعية
- المباني التاريخية والشباب
- المباني التاريخية والسياحة
- الراي العام والمحافظة على المباني التاريخية
- المباني التاريخية كعامل فى تدعيم التعاون الدولي .

وفى ختام هذا اللقاء العلمي ، أصدر المجتمعون توصيات تتعلق بالمواضيع التالية :

1 ـ تدعيم القوانين المتعلقة بحماية المباني التاريخية .

2 ـ انشاء معاهد رسمية تهتم بصيانة وترميم المباني التاريخية وتنشيطها والاستفادة منها اجتماعيا وثقافيا .

3 ـ نشر معلومات عن المباني التاريخية باستعمال الوسائل السمعية البصرية ، وباصدار كتب مبسطة ، وادخال حصص دراسية تدخل فى موضوع التعريف بالمباني التاريخية والمحافظة عليها ، وذلك فى المعاهد المختصة بتكوين المهندسين المعماريين ، وكذا فى المدارس العامة قصد توعية الشباب بضرورة المحافظة على المباني التاريخية .

4 ـ تدعيم الوسائل المستعملة حاليا لحماية البيئة التاريخية والطبيعية وادماجها فى التصاميم المعمارية ، حتى يحصل انسجام بين العمران القديم والعمران الجديد .

5 ـ تدعيم التعاون الدولي فى ميدان الاحتفاظ بالتراث العالمي الذي يلعب دورا أساسيا فى التنمية الانسانية وتوطيد الامن والسلام فى العالم .

مناظرة حول الحفريات الأثرية بمدينة وليلي الأثرية

عقدت بمدينة وليلي الاثرية من 19 الى 24 يونيه 1978 مناظرة حول الحفريات الاثرية ، شارك فيها عدد من الباحثين المغاربة والاجانب المختصين فى هذا الموضوع .

وقد كان هذا اللقاء الثقافي ، يهدف الى القيام بعمل تمهيدي لانشاء مركز لتكوين باحثين مغاربة في ميدان الحفريات ، وقد قام المتناظرون بزيارة لمآثر مدينة وليلي ، وتحليل نماذج منها ، كما قاموا بزيارة مدينة توكولو سبيدا ، ودرسوا بعض انواع الفسيفساء بها .

ومن جهة اخرى ، تطرق المتناظرون الى تعريف الاركيلوجيا وتقسيمها الى حفريات ما قبل التاريخ ، وحفريات العصور التي تقترب من ميلاد المسيح ، ثم الحفريات التاريخية ، واخيرا الحفريات المعاصرة ، كما تطرقوا كذلك الى تاريخ الحفريات الاثرية ، والى العلوم التي تشابهها ، كالعلوم التاريخية والتقنية والفنية ، والى المميزات الخاصة بالاركيلوجيا الكلاسيكية مشرين الى ان الحفريات الاثرية تنقسم الى قسمين :

اولا : حفريات الانقاذ .

ثانيا : الحفريات المبرمجة . وهذه تمر بثلاث مراحل هي :

المرحلة العلمية الاعدادية ، دراسة المقالات والمستندات والوثائق والصور ، ثم التنقيب الذي يتم بالتصوير الجوي ، وكذا التنقيب في الارض .

وكانت هذه المناظرة مناسبة تدارس المجتمعون فيها مختلف الجوانب المتعلقة بميدان الحفريات على وجه العموم .

بحث أثري واثنوغرافي في ناحية لفيزو جنوب فرنسا

نظم المتحف الوطني للفنون والتقاليد الشعبية باسهام المدرسة العليا للدراسات الاجتماعية بباريس ، حملة بحث اثري واثنوغرافي بناحية « لفيزو » جنوب فرنسا من 5 الى 21 يوليوز 1978 . وقد مثل

المغرب فى هذه التظاهرة الثقافية السيد ادريس الدخيسي ، رئـيس مركز احصاء التراث الثقافي . وكان الغرض من هذه الدراسة ضبـط المراحل المختلفة التي عرفها المكان المذكور ، ما بين القرنين التاسـع والثامن عشر الميلادي ، ثم التعريف بالمستوى الحضـاري للسكـان القرويين القاطنين بتلك الناحية . وقد تم خلال هذا الملتقـى الثقافـي اعداد معرضين هامين :

الاول : يتعلق بتقاليد « الدفن » بناحية « لفيزو » ، ويوضـح تاريـخ المقابر بهذا الموقع ، ابتداء من القرن التاسع الميـلادي ، الى اليوم اعتمادا على البحوث الاثرية والاثنوغرافية .

الثاني : يحمل عنوان « ماضي وحاضر السكان القرويين بناحية لفيزو »

ان هذه البحوث العلمية التي يشرف عليها المتحـف الوطنـي للفنون والتقاليد الشعبية والمدرسة العليا للدراسات الاجتماعية بباريس، والتي ترمي الى التعريف بالحياة المادية للانسان القروي القاطن بناحية لفيزو خلال القرون الوسطى والقرن العشرين ، غنيـة مـن الناحيـة المنهجية ، بحيث أنها تتيح للباحث تحليل القطع الاثرية التي عثر عليها ودراستها فى اطارها الثقافـي الاصلـي اعتمـادا على الاركيلوجيـا والاثنوغرافيـا .

وقد اسفر هـذا البحـث على نتائـج مهمـة فى الميـدان العلمـي الانثرويولوجيـة .

نشاط نيابة الدار البيضاء

نظمت مندوبية وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية بالدار البيضاء، عدة تظاهرات ثقافية بمناسبة « عيد الشباب » فى عمالة الدار البيضاء ،

واقليمي الجديدة وخريبكة . وهكذا نظم عرضان للكراكيز بمدينة الجديدة يوم 8 يوليوز 1978 ، وبمدينة المحمدية يوم 9 يوليوز 1978 .

وقدمت فرقة المسرح الشامل : مسرحية « الحومة » في كل من خريبكة (24 يونيو 1978) والجديدة (5 يوليوز 1978) ، كما قدمت فرقة « الشهاب » ، مسرحية « العربة » بالمحمدية (30 يونيو 1978) ، اما بخصوص الميدان الموسيقي ، فقد قدم جوق معهد الدار البيضاء ، التابع لوزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية ، امسيتين لطرب الآلة بمدينتي الجديدة ، والمحمدية يومي 6 و 7 يوليوز 1978 .

ولقد لقيت هذه العروض الفنية التي حضرها رجال السلطة المحلية ، واعضاء المجالس البلدية ، وجمهور غفير من المواطنين نجاحا كبيرا .

الدورة الثانية
للجنة الدولية لحماية الممتلكات الثقافية والطبيعية العالمية

اجتمعت اللجنة الدولية لحماية الممتلكات الثقافية والطبيعية العالمية بعاصمة الولايات المتحدة من 5 الى 8 شتنبر 1978 ، ومثل المغرب فى هذه اللجنة الاستاذ أحمد الصفريوي ، رئيس قسم المتاحف والمباني التاريخية والمواقع والآثار . والهدف من أعمال اللجنة المذكورة هو :

أولا : وضع قائمة للممتلكات الثقافية ذات الصبغة البشرية .

ثانيا : مد الدول الاعضاء بالمساعدات التقنية اللازمة للمحافظة عليها وحمايتها . وفى مرحلة أولى يعتزم المغرب ان يطلب تسجيل مدينة فاس وقصبات الجنوب فى قائمة الممتلكات الثقافية العالمية .

هذا وتجدر الاشارة الى أن جل مدن المغرب تتوفر على مميزات حضارية وثقافية ، يمكن معها تسجيل هذه المدن فى قائمة الممتلكات الثقافية وذلك فى مرحلة ثانية .

نشاطات مسرح محمد الخامس
خلال الموسم الصيفي لسنة 1978

درجت المسارح في جميع انحاء العالم على اعتبار الشهور الثلاثة الصيفية من الموسم الفني ، فترة عطلة سنوية بالنسبة لجميع النشاطات التي تقدم في القاعات المغلقة ، وذلك بالنظر الى عوامل شتى ، أهمها ان هذه الفترة هي في الغالب المدة الزمنية المخصصة للعطل السنوية بالنسبة لجل القطاعات التي تكون رواد المسرح ، وحتى بالنسبة لكثير من الفنانين .

وقد دلت التجربة الطويلة التي مرت بها الامم التي سبقتنا في هذا الميدان ، والتي لها تقاليد مسرحية ، وطقوس احتفالية عريقة ، دلت التجربة على ان رواد المسرح وعشاقه يعرضون عنه بانصراف يشبه الاجماع خلال هذه الفترة الصيفية ، مهما تنوعت المغريات ومهما تشكلت انواع العروض . ومن هنا جاءت فكرة المهرجانات الصيفية ، ومبادرات العروض في الهواء الطلق .

واذا كان ((مسرح محمد الخامس)) لا يحترم هذه العادة ولا يعطل كليا طوال الموسم الصيفي ، فذلك لانه يريد أن لا تضيع له اية فرصة للاتصال بالجمهور المغربي وتزويده بالانتاج الثقافي والفني .

وهكذا ، فان مسرح محمد الخامس ، نظم خلال فترة الصيف عددا من الحفلات المسرحية والموسيقية ومعارض فنية ، كما أسهم في تنظيم مهرجانات وسهرات ولقاءات ثقافية قامت بتنظيمها مؤسسات أخرى في مختلف الاقاليم .

استعراض موجز للنشاطات

من المنوعات الافريقية الشهيرة والتي كان لها أوسع الصدى فى مجموع القارة الافريقية ، مجموعة ((شوكوليت ماني دى باكو)) . قدم ((مسرح محمد الخامس)) هذه التحفة الفنية الرائعة فى عرضين بالرباط والبيضاء ، وكان العرض الثاني بالخصوص ملفتا للنظر من حيث انه تم بملعب جيكو ، وبمساعدة نادي فريق الوداد البيضاوي . وقد أتاح العرض الفرصة للجمهور الكبير العريض الذي لا يمكن ان يلتئم الا فى هذا الاطار .

كما قدم ((مسرح محمد الخامس)) عرضا مسرحيا موسيقيا فى برنامج واحد لفائدة الاتحاد النسوي ، حيث شارك فى هذا العرض كل من الفرقة الوطنية بمسرحية ((الوارث)) ومجموعة ((لمشاهب)) فى اغاني شعبية ، الشيء الذي أضفى على الامسية جوا من المتعة الرائعة .

ومن المسرح العالمي قدم ((مسرح محمد الخامس)) فى الموسم الصيفي مسرحية ((بطاط)) للكاتب مرسيل اشار ، التي عرضت بباريس لمدة سبع سنوات بنجاح منقطع النظير ، ومسرحية ((فخ لرجل واحد)). للمؤلف روبير طوما ، كما تم فى اليوم نفسه 16 مايو افتتاح معرض عمان بمناسبة الاسبوع الثقافي التي نظمته سلطنة عمان ببلادنا باشراف ومشاركة وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية ، وبهذه المناسبة نفسها، نظمت سهرة شيقة مع فرقة الرقص الشعبي العربي العماني الاصيل يوم 17 مايو ، وفى هذا الاطار الثقافي قامت البعثة الفنية العمانية بجولة زارت خلالها كلا من البيضاء وفاس وطنجة ومراكش .

كما ان يوم 22 من نفس الشهر ، شهد حفل اختتام التجمع الطبي الذي نظمه اطباء الولادة ، حيث إقام مسرح محمد الخامس بهذه المناسبة

سهرتين ، واحدة بحدائق الودايا والثانية بقصـــر القبـــاج ، على شرف المجتمعيـــن .

اما مجموعتا : آوسمان وازنزارن ، فكان موعدهما مع جمهورهمـــا الغفير المقبل والمتجاوب والمشجع في يوم 27 مايو .

كل هذا ، بالاضافة الى صبحية للاطفال مع الفنان العلوي ، والذي كان عرضه المميز يوم الاحد 14 مايو ..

ومع اطلالة فاتح يونيـــو ، اشرف ((مسرح محمد الخـــامس)) على تنظيم سهرة فنية لفائدة عمالنا في الفوسفاط بمدينة اليوسفية .. وقد احتوت فقراتها على نماذج متنوعة من تراثنا الشعبي الفولكلوري الى جانب جوق الملحون ، ولعلها كانت أول تجربة في هذا الميدان ، حيث ان كل مواد السهرة كانت من صميم اصالتنا وتراثنا الفني الخالد . وفي يـــوم الجمعة 15 يوليو كان موعد رواد المسرح مع السهرة الراقصة الكلاسيكية باشراف الاستاذة المقتدرة السيدة ((ديل كامبي)) .

وبخصوص تنظيم المعارض ، استقبل ((مسرح محمد الخامس)) معرضا فنيا بمناسبة اختتام السنة الدراسية إقامته المندوبية الاقليمية لوزارة التعليم ، وذلك يوم 20 يوليو ، وكان فرصة للاطلاع على الانشطة الموازية التي يمارسها أبناؤنا وفلذات اكبادنا ، كما نظمت بالمناسبة ذاتها سهرة فنية بمشاركة تلميذات ثانوية للا عائشة يوم 22 .

وبالرباط أيضا وضمن هذه الانشطة المكثفة ، استجلـــب المسرح عدداً كبيراً من نجوم الالعاب السحرية ، حيث كان يوم 23 يونيو موعـــد رواد المسرح مع المهرجان الكبير للالعاب السحرية في عرض ما يزال مثار تعليـــق واهتمام بالغيـــن .

وفي نطاق الاعداد للموسم المسرحي المقبل ، كلفت ادارة مؤسسة ((مسرح محمد الخامس)) السيدين محمد مصطفى القباج واحمد الطيب

العلج ، بكتابة مسرحية تاريخية عن معركة ((الملوك الثلاثة)) ، ويدخل ذلك في اطار مشاركة المسرح في التظاهرات الوطنية ، ذلك لانه تقرر الاحتفال طوال السنة بمرور اربعة قرون على ((معركة وادي المخازن)) ، هذا الحدث الذي يذكر بامجادنا ويذكي حماسنا ويشحذ هممنا .

كما أوعزت من جهة اخرى الى السيد ادريس التادلي بالكتابة في نفس الموضوع . ومن ناحية اخرى فادارة المسرح ما زالت تبحث عن النصوص ، وتستكتب كل من له استعداد للكتابة المسرحية . وهي ما فتئت توجه الاهتمام لكل من له رغبة في المشاركة .

وفي 30 يوليو كان اللقاء مع نجوم الغناء : عبد الهادي بلخياط ، محمد الادريسي ، عبد المنعم الجامعي ، والموهبة الصاعدة ماجدة عبد الوهاب ، ومجموعة ((المشاهب)) .

واذا نظرنا الى شهر يوليوز ، نجد أن المسرح قد قام في هذا الشهر بنشاطات كبيرة بالقياس لموقع الشهر نفسه من الموسم المسرحي بصفة عامة . الا ان مناسبة عيد الشباب ، عيد ميلاد عاهلنا المفدى ، اتاحت الفرصة للعديد من السهرات والمتنوعات والعروض المسرحية ، وهكذا كان الاطفال على موعد مع صبيحتهم الخاصة في يوم 6 يوليوز في عرض احتفالي صحبة ((ناقوس وسليلة)) والعابهما التربوية الفكاهية الناجحة ..

كما شهد المسرح ((الاقزام في الشبكة)) ، وهي مسرحية من انتاج فرقة ((شبيبة الحمراء)) وذلك بتاريخ 7 يوليوز ، حيث كان العرض هاما وملفتا للنظر لما تميز به من طابع خاص .

وكان موعد الجمهور كذلك مع مسرحية ((العربة)) (لفرقة الشهاب) البيضاوية هذه الفرقة المعروفة بجديتها وخدمتها للفن المسرحي .

اما يوم 9 يوليوز فقد كانت سهرة خاصة احيتها وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية مع جوق المعهد الوطني ، وعدد من المع الملحنين

والمطربين بالاضافة الى جوق البريهي ، وجوق الملحون لمدينتي فـــاس ومكناس ، بمشاركة كل من الحاج محمد بوزوبع ، والحاج عبد الكريم كنون، والحاج الحسين التلالي ، وبقية افراد المجموعتين المذكورتين .

ويوم 10 يوليوز كان يوم المغني العالمي الشهير ((دوميس روسوس)) وقد وصف حضور هذا المغني بهذه المناسبة السعيدة بالهدية الذكيـــة للفـــن وعشاقـــه .

ولا يفوتنا أن نذكر المشاركة الهامة للجوق الوطني لدار الاذاعـــة والتلفزة حيث اقامت سهرة فنية ناجحة استمرت الى ساعة متاخرة من الليـــــل .

وبنفس المناسبة زارتنا فرقة ((فلويراش)) من الاتحاد السو فييتي وقدمت فى كل من سلا والرباط والبيضاء وخريبكة عروضا فنية راقصة ، تحت اشراف ((مسرح محمد الخامس)) ، اعدادا وتنظيما .

واذا اضفنا الى كل ذلك ، ما يقدمه ((المسرح)) من اطر مساعـــدة واساسية لانجاح كل التظاهرات من مهرجان الفوكلـــور بمــــراكش ، الى مهرجان طنجة واكادير ومكناس ، الى المساعدة بالاطر ايضـــا فى كـــل التداريب المسرحية التي تنظم ببلادنا ، نجد ان دور هذه المؤسســـة الوطنية ايجابي بغض النظر عن كل المعوقات ، والحاجة الملحة لكثير من الوسائـــل .

لقاء أكتوبر للكتاب ببلغراد

انعقد بالعاصمة اليوغوسلافية فى الفترة ما بين 17 و 23 أكتوبـــر 1978 اللقاء الخامس عشر للكتـــاب ، المعـــروف بلقـــاء أكتوبـــر ، حضـــره أدبـــاء ومفكـــرون ونقـــاد من مختلـــف أنحـــاء العالـــم ، وخاصـــة من دول عـــدم الانحيـــاز .

وكان الموضوع الرئيسي فيه يدور حول « قدرة الادب المعاصر على التواصل » .

وقد مثل المغرب فى هذا اللقاء ـ موفدا من وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية ـ الدكتور عباس الجراري أستاذ الادب المغربي بكلية الآداب حيث قدم بحثا عن « مشاكل الترجمة الادبية » .

واغتنمت كلية آداب جامعة بلغراد فرصة وجود الدكتور الجراري لحضور هذا اللقاء ، فدعته مساء 17 أكتوبر رفقة الشاعر العراقي الاستاذ عبد الوهاب البياتي والشاعر المصري الدكتور مختار الوكيل ، لعقد جلسة مع أساتذة قسم الاستشراق وطلابه بهذه الكلية ، وعددهم ينيف على الاربعين .

واستمرت الجلسة ـ وكان يديرها رئيس القسم الدكتور رادبوزو فتش أزيد من ثلاث ساعات طرحت اثناءها معظم قضايا الفكر العربي والادب المعاصر خاصة .

عدد من "المناهل"
خاص بالعالم المغربي الحسن اليوسي

فى اطار احياء ذكرى العالم المغربي الكبير الشاعر الحسن بن مسعود اليوسي الذي تعتز به الثقافة المغربية ، تعتزم وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية اصدار عدد من مجلة المناهل خاص بهذا المفكر ، تسهم فى تحريره نخبة من الاساتذة والباحثين المختصين .

جائزة المغرب لسنة 1978

ان جائزة المغرب لسنة 1978 ستمنح فى نهاية السنة الحاليـــة . وستعين الوزارة لجنة التحكيم من بين الاساتذة المختصين ، وذلك بناء على محتويات الكتب المرشحة لنيل الجائزة .

وسيقفل باب الترشيحات فى الساعة السادسة مـــن مساء يـــوم الاربعـــا 15 نوفمبـــر 1978 .

وعلى مـــن يرغـــب فى الاطـــلاع على الشـــروط المطلوبـــة قانونـــا أن يعـــود الى القـــرار الـــوزاري رقـــم 75474 المـــؤرخ ب 17 شعبـــان 1394 (5 شتنبـــر 1974) والصـــادر بالجريـــدة الرسمية عـــدد 3230 ، او أن يتصـــل بمصلحـــة المكتبـــات والنشر والتوزيـــع التابعـــة لـــوزارة الدولـــة المكلفـــة بالشـــؤون الثقافية — شـــارع غانـــدي — الربـــاط .

الاجتماع الاول لأعضاء لجنة التحكيم لجائزة المغرب لهذه السنة

بناء على البلاغ الصادر عن وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية حول « جائزة المغرب » لهذه السنة ، راس السيد الحاج محمد أباحنيني ، وزير الدولةالمكلف بالشؤون الثقافية الاجتماع الاول للجنةالموكول اليها اختيار المستحق او المستحقين لنيل الجائزة لهذه السنة ، والذين يبلغ عددهم 27 عضوا من كبار الاساتذة الجامعيين المختصين .

وعبر السيد وزير الدولة فى مستهل الاجتماع عن ترحيبه باعضاء اللجنة ، وبالاعراب لهم عن سروره بتفضلهم بقبول المشاركة فى اعمال اللجنة ، كما نص السيد الوزير على يقينه للجنة ـ التي تتالف من المع شخصيات الفكر والعلم ـ انها ستحرص على أن تمنح « جائزة المغرب » بفروعها لمستحقها .

كما عبر السيد الوزير عن امله الكبير فى ان تتدرج على مر الايام « جائزة المغرب » من وزن عال الى وزن اعلى ، ومن قيمة كبيرة الى قيمة اكبر .

وبعد ان غادر السيد الوزير الاجتماع ، اختلى اعضاء اللجنة للنظر فى تطبيق محتويات جدول اعماله .

بلاغ من وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية حول نتيجة جائزة المغرب لسنة 1978

تبعا للبلاغ الصادر عن وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية ، حول الاجتماع الاول ـ لاعضاء اللجنة العامة الموكول اليها اختيار المستحق أو المستحقين لجائزة المغرب لهذه السنة ـ الذي انعقد برئاسة معالي وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية الاستاذ السيد الحاج محمد ابا حنيني عاد أعضاء اللجنة العامة للاجتماع من جديد بوزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية فى مساء يوم الجمعة 14 محرم 1399 الموافق 15 دجنبر 1978 ، وبعد مناقشات ومداولات استغرقت مدة طويلة استقر الراي على النتيجة الآتية :

— منح جائزة المغرب لهذه السنة فى العلوم الانسانية والاجتماعية لكتاب « صفرو من تقاليد الدير الى الادماج الاقتصادي الحديث » دراسة عن الجغرافية الحضرية لمؤلفه السيد الحسن ابن حليمة .

— الاحتفاظ بجائزة المغرب لهذه السنة فى العلوم الرياضية .

— منح جائزة المغرب لهذه السنة فى الفنون والآداب لكتاب « معركة

الوادي » لمؤلفه السيد عبد المجيد ابن جلون .
وكانت لجنة التحكيم تتألف فى هذه السنة من السادة :
الدكتورة عائشة عبد الرحمن ، الدكتور عبد المجيد ابن الماحي ، الدكتور عبد اللطيف بربيش ، الاستاذ محمد ابن تاويت ، الدكتور مولاي ادريس مولاي ، الدكتور تمام حسان ، الاستاذ عبد الكريم غلاب ، الدكتور محمد بنونة ، الدكتور عبد الرحمن العلوي ، الاستاذة نعيمة الخطيب ، الدكتور ادريس ابن يحيى ، الدكتور محمد حجي ، الاستاذ محمد المعزوزي، الدكتور عباس الجراري ، الاستاذ محمد بناني ، الدكتور عبد الهادي التازي ، الدكتور محمد زنيبر ، الاستاذة جودية حصار ، الدكتور عبد الكريم الابيض ، الاستاذ عبد الرحمن الفاسي ، الدكتور محمد بن شقرون، الاستاذ محمد ميكو ، الاستاذة ايلي برادة ، الاستاذ عبد العزيز عبيد ، الدكتور عبد الجليل الحجمري ، الاستاذ محمد المنوني .

جائزة الحسن الثاني للمخطوطات والوثائق لسنة 1979

فى اطار التعريف بالتراث التاريخي والحضاري بالمغرب ، وجريا على العادة المالوفة التي سلكتها وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية ، فى تنظيم جائزة الحسن الثاني للمخطوطات والوثائق ، يسرها ان تعلن للجمهور المغربي الكريم فى هذه السنة عن الجائزة الحادية عشرة للمخطوطات والوثائق التي خصصت لها مكافآت مالية تتصاعد حسب اهمية المخطوط او الوثيقة التي توجد فى الملكية الخاصة .

ومن المعلوم أن جل ما هو مخطوط يعتبر ذخيرة كان مكتوبا على الرق او الورق او الالواح ، ولهذا فان الجوائز ستخصص لما يلي :

اولا : للاهم من الكتب المخطوطة ، مؤلفات وتقاييد وكناشات علمية ، ومذكرات شخصية وخطوط العلماء ، وكنانيش ونسخ الملحون، ومجموعات الفتاوي او الرسائل ، ودواوين الاشعار والمجموعات الموسيقية وكل ما هو مخطوط ولو كان على ورقة او ورقات معدودة .

ثانيا : للوثائق ايا كان عصرها وموضوعها ، ظهائر ورسائل رسمية او شخصية ورسوم عدلية ومحاسبات واجازات علمية وشهادآت الانساب وغيـــر ذلـــك .

هذا وستشرف لجنة برئاسة السيد معالي وزير الدولة المكلـــف بالشؤون الثقافية على فحص هذه المخطوطات وتقييمها ، واصدار بلاغات حـــول نتائـــج الجائـــزة .

وتؤكد الوزارة انها اتخذت كل الاحتياطات لضمان ارجاع المخطوطات الى اصحابها كاملة غير منقوصة ، بدون ابطاء ولا تاخير فور انتهاء المعرض واشغال اللجنة المختصة .

والجدير بالذكر ان قيمة المخطوط او الوثيقة انما تتجلى فى مدى ما قد يستفيد منها تاريخ الامة وحضارتها ، وان ضياع وثيقة مهمة نتيجة آفة من الآفات تعد خسارة فى ثروتها الفكرية ، لهذه الاعتبارات كلهـــا ، قررت وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية ، تصويـــر المخطوطـــات والوثائق النفيسة لتحفظ فى المكتبة العامة بالرباط ، للاستفادة منها ، وخشية مما قد يعتريها من ضياع ، كما أن تصويرها لا يمكن ان يصيـــب المخطوط أو الوثيقة بأي ضرر ولا يفقد ايا منهما ما له من قيمة كمستند خطـــي .

ورغبة من الوزارة فى الحصول على مخطوطات ووثائق جديدة تؤكد للسادة المساهمين فى هذه الجائزة ان المخطوطات والوثائق التي سبق عرضها وتقديمها لن تقبل فى المسابقة الحالية .

فعلى من يتوفر على شيء من هذه الذخائر أن يتقدم بها ابتداء مـــن صدور هذا البلاغ الى يوم السبت 30 دجنبر 1978 الى احد المراكـــز التـــاليـــــة :

اسم المركز وعنوانه	العمالة أو الاقليم
وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية مصلحة المكتبات والنشر والتوزيع — شارع غاندي — الرباط .	عمالة الرباط وسلا
النيابة الاقليمية للشؤون الثقافية — شارع الزيراوي — رقم 133 — الدار البيضاء .	عمالة الدار البيضاء عمالة اقليم سطات عمالة اقليم خريبكة عمالة اقليم الجديدة عمالة اقليم ابن سليمان
خزانة البطحاء — بطحاء الاستقلال — فاس —	عمالة اقليم فاس عمالة اقليم تاونات عمالة اقليم تازة عمالة اقليم بولمان
خزانة الجامع الكبير — زنقة العدول — مكناس —	عمالة اقليم مكناس عمالة اقليم خنيفرة عمالة اقليم الرشيدية
خزانة القنيطرة — طريق عين السبع — القنيطرة —	عمالة اقليم القنيطرة عمالة اقليم الخميسات
خزانة ابن يوسف العمومية — مراكش —	عمالة اقليم مراكش عمالة اقليم بني ملال عمالة اقليم قلعة السراغنة عمالة اقليم ازلال عمالة اقليم ورزازات

اسم المركز وعنوانه	العمالة أو الاقليم
خزانة المجلس البلدي ـ اكادير ـ	عمالة اقليم آكادير عمالة اقليم تزنيت عمالة اقليم طرفاية عمالة اقليم طنطان
خزانة الامام علي ـ تارودانت ـ	عمالة اقليم اكادير ـ زاكورة ـ ارفود ـ تارودانت عمالة اقليم طاطا
خزانة الشريف الادريسي ـ ساحة القصبة ـ وجدة ـ	عمالة اقليم وجدة عمالة اقليم فيكيك عمالة اقليم الناضور
الخزانة العامة للكتب والمخطوطات ـ شارع محمد الخامس ـ تطوان ـ	عمالة اقليم تطوان عمالة اقليم شفشاون عمالة اقليم الحسيمة
خزانة البلدية ـ القصر الكبير	عمالة اقليم تطوان العرائش ـ القصر الكبير ـ عرباوة
الخزانة العامة ـ شارع الحرية ـ 71 ـ طنجة ـ	عمالة اقليم طنجة
خزانة المجلس البلدي ـ آسفي	عمالة اقليم آسفي عمالة اقليم الصويرة
مراكز السلطة المغربية بالصحراء المغربية ـ العيون ـ بوجدور ـ اسمارة	الصحراء المغربية

الأيام الثقافية ببعض أقاليم المغرب

فى اطار الانشطة الثقافية التي تنظمها وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية فى الاقاليم النائية ، نظمت أنشطة ثقافية بمدن : بني ملال ، والفقيه ابن صالح ، وقصبة تادلة ، وزاوية الشيخ ، وخنيفرة ، ما بين 24 نونبر و 3 ديسمبر 1978 ، اشتملت على معارض ثقافية ، ومحاضرات هامة ، وسهرات موسيقية ، وحفلات مسرحية ، وعروض سينمائية بالمدن المذكورة .

المعارض :

بمدينة بني ملال دشن المعرض الثقافي فى السادسة من مساء 24 نونبر ، واستمر الى 29 نونبر 1978 ، حيث كان يشتمل على نماذج من الكتاب المغربي والمخطوطات المزخرفة ، والصور الاثرية ، والمجلة المغربية .

وانتقل نفس المعرض الى مدينة خنيفرة ، حيث نصب بقاعة دار الشباب ، واستمر من 30 نونبر الى 5 ديسمبر 1978 .

المحاضرات :

بمدينة بني ملال القت الاستاذة حبيبة البورقادي محاضرة فى موضوع : « الادب العربي وتأثيره على الآداب الاوربية فى العصور الوسطى» بقاعة الشبيبة والرياضة فى السادسة والنصف من مساء الجمعة 24 نونبر 1978 . وبطلب من السيد عامل اقليم بني ملال ، القت محاضرة ثانية فى موضوع : « الانسان والحصانة الاجتماعية فى الاسلام » فى مساء الاربعاء 29 نونبر 1978 .

كما ألقى الاستاذ عبد الله الكامل الكتاني ، محاضرة بنفس المدينة مساء الاحد 26 نونبر 1978 فى موضوع : « الادخار الفردي والاستثمار الخاص وسيلة الى تنمية اقتصادية متكاملة » .

وبمدينة الفقيه ابن صالح ، القت الاساتذة حبيبة البورقادي محاضرة فى موضوع « الانسان والحصانة الاجتماعية فى الاسلام » فى مساء السبت 25 نونبر 1978 ، كما ألقى الاستاذ الحسن الشاهدي محاضرة فى موضوع : « الكشف عن الثقافة المغربية فى العصر المريني » فى مساء الاثنين 27 نونبر 1978 . وقد القيت المحاضرتان بقاعة التعاون الوطني .

وبمدينة قصبة تادلة ، القت الاستاذة حبيبة البورقادي ـ بقاعة دار الشباب فى مساء الاحد 26 نونبر 1978 ـ محاضرة فى موضوع : « الانسان والحصانة الاجتماعية فى الاسلام » .

كما ألقى الاستاذ الحسن الشاهدي بنفس القاعة فى مساء الثلاثاء 28 نونبر 1978 محاضرة فى موضوع : « الكشف عن الثقافة المغربية فى العصر المريني » .

وبمدينة زاوية الشيخ القت الاستاذة حبيبة البورقادي فى مساء الاثنين 27 نونبر 1978 محاضرة فى موضوع : « الانسان والحصانة الاجتماعية فى الاسلام » .

وبمدينة خنيفرة القت الاستاذة حبيبة البورقادي فى مساء الخميس 30 نونبر 1978 محاضرة فى موضوع : « الانسان والحصانة الاجتماعية فى الاسلام » بقاعة دار الشباب ، كما ألقى الاستاذ عبد الله الكامل الكتاني بنفس القاعة محاضرة فى موضوع : « نظرات فى الاقتصاد الاسلامي » فى مساء السبت 2 ديسمبر 1978 .

الحفـــــلات الموسيقيـــــة :

وفى اطار الايام الثقافية المنظمة بالمدن المذكورة ، احيى جـــوق المدرسة الوطنية للموسيقى الاندلسية ، وطرب الملحون ، حفلات مـــن الموسيقى الاندلسية وطرب الملحون ، بمدينة بني ملال بقاعة الشبيبـــة والرياضة فى مساء السبت 25 نونبر 1978 . وبمدينة الفقيه ابن صالح فى مساء الاحد 26 نونبر 1978 بقاعة التعاون الوطني . وبمدينة قصبة تادلة فى مساء الاثنين 27 نونبر 1978 بقاعة الشبيبة والرياضة . وفى مساء الثلاثاء 28 نونبر 1978 بقاعة دار الشباب بمدينة زاوية الشيـــخ. ومساء الجمعة 1 ديسمبر 1978 بقاعة دار الشباب بمدينة خنيفرة .

الحفـــــلا المسرحيـــــة :

وفى نفس الاطار أيضا ، قدمت فرقة أحمد الطيب العلج عروضـــا لمسرحية « الوارث » بمدينة بني ملال فى مساء الاحد 26 نونبـــر 1978 وبمدينة الفقيه ابن صالح بقاعة سينما الفقيه ابن صالح مساء الاثنين 27 نونبر ، وبمدينة قصبة تادلة مساء الثلاثاء 27 نونبر 1978 بقاعة الشبيبة والرياضة ، وبقرية زاوية الشيخ مساء الاربعاء 28 نونبر 1978 بقاعة دار الشباب ، وبمدينة خنيفرة مساء السبت 2 ديسمبر 1978 بقاعة سينما الاطلـــــــس .

حفـــــلات الاطفـــــال :

كما قدمت فرقة « العرائس » التابعة لوزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية ، حفلات للاطفال بمدينة بني ملال فى الرابعة بعد الزوال من يوم السبت 25 نونبر 1978 بقاعة الشبيبة والرياضة وبالثانوية الجديـــدة ، فى مساء يوم الاحد 26 نونبر 1978 بمدينة الفقيه ابن صالح وبقاعة دار الشباب ، ويوم الاثنين 27 نونبر 1978 بمدينة قصبة تادلة ، قدمـــت

حفلتين : الاولى فى العاشرة صباحا ، والثانية فى الرابعة بعد الزوال ، وبمدينة خنيفرة يوم الجمعة 1 ديسمبر 1978 .

العـــروض السينمائيـــة :

وقدمت عدة عروض سينمائية عرض خلالها شريـــط « المسيرة الخضراء » بمدينة بني ملال بقاعة سينما الاطلس فى مساء الاثنيـــن 27 نونبر 1978 ، وبمدينة الفقيه ابن صالح فى مساء الثلاثاء 28 نونبر بقاعة سينما الفقيه ابن صالح ، وبمدينة خنيفرة فى مساء الاحد 3 ديسمبـــر 1978 .

وقد لقيت هذه الايام الثقافية الترحيب الكبير من لدن رجال السلطة الذين سهروا على التنظيم اضافة الى حضورهم فى مختلف هذه الانشطة .

وكانت السيدة حبيبة البورقادي رئيسة مصلحة التنشيط الثقافي ، تفتتح كل هذه التظاهرات الثقافية بعرض عن اختصاصات وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية ، وما تحققه فى اطار تلك الاختصاصات ، وعن الاهداف المثلى التي يعمل لتحقيقها معالي وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية الاستاذ السيد الحاج محمد ابا حنيني .

محاضرات بوزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية

انطلاقا من الروابط الودية التاريخية المتينة ، وفى اطار العلاقات الثقافية بين المغرب واسبانيا ، نظمت وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية بالتعاون مع سفارة اسبانيا بالمغرب ، سلسلة من المحاضرات يلقيها اساتذة مغاربة واسبانيون جامعيون .

وقد افتتح هذه السلسلة الدكتور خوسي ماريا فورنياس أستاذ اللغة والآداب العربية بجامعة غرناطة بمحاضرة القاها بقاعة وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية فى موضوع :

« التعبير العربي دراسة ، مراجعة ، وابعاد » ، فى مساء يوم الخميس 13 محرم 1399 الموافق لـ 14 دجنبر 1978 .

كما القى الدكتور محمد ابن شريفة عميد كلية الآداب بجامعة محمد الاول بوجدة بنفس القاعة محاضرة بعنوان « من مظاهر الحساسيـــة الوطنية عند الاندلسيين » فى مساء يوم الاثنين 17 محرم 1399 الموافق لـ 18 دجنبر 1978 .

وقد غصت قاعة المحاضرات بجمهور غفير من المثقفين والادبـــاء ورجـــال الفكـــر .

ورقـــان[1]

الملهمـــان جمالـــك الفتـــان	وجمال ليـــل المغرب النشوان
غابا فغابت عن وجودي فرحة	وتزاحمت فى صدري الاشجان
طلقت شعري يوم غبت وطلقت	بحديقتى اوراقهـــا الاغصـــان
شيئان ما مرا بفكـــري لحظـــة	الا تـــأوه خـــافـــق أســـوان

(1) ورقان قرية جميلة تستلقى على احضان الاطلس الكبير فى المغرب العربـــي الشقيـــق .

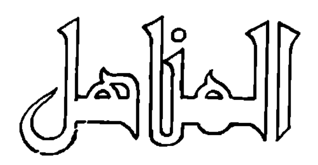
يوم الفراق وما أمــر مذاقه وآنيــن روح راعهــا الحرمان
يا ذكريات الأمس ترويها لنــا (مراكش الحمراء) او (ورقان)
فى جنة عشنا بظـل ربيعهـا الزهــر نشــوان بهـا فتـان
والليل صمت ما ألذ سكونــه والصبــح عيد بالشذا مــزدان
والطير فى سمع الصباح مغرد بأرق لحــن صاغــه فــنـان
وكــأن أصــوات المياه طروبة همــس الحبيبة ضمها ولهــان

*****

(ورقان) لو عدنا اليك فرحبى لا يخطــرن ببــالــك نسيــان
بالله هل تنسين ظلينــا علــى تلك المروج الخضر يا (ورقان).
آليفيــن ما عرف الهوى مثليهما يتضاحكان فتضــحك الافنــان
سنعود يا (ورقان) مهما طالت الايــام او شطت بنا الاوطان

عثمان بن سيار

عن مجلة « الفيصل » العدد الاول ـ السنة 2 . يونيو ـ يوليو 1978 ص 66



تصـــدرهــــا :

وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافيـــة

زنقة غاندي ــ الرباط ــ المغـرب

التليفون : 318.91 / 92 / 93



AL - MANAHIL

Publication du
MINISTERE D'ETAT CHARGE DES AFFAIRES CULTURELLES

Rue Ghandi - Rabat (Maroc)
Tél. : 318-91/92/93

مطبعة فضالة ــ المحمدية (المغرب)